

كتاب

الأنيس المطرّب بروض القرطاس

في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

للشيخ أبي الحسن عليّ بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسيّ

وقيل لأبي محمّد صالح ابن عبد الحليم الغرناطيّ

فدعّتني بتصحيحه وطبعه وترجمته العبد الضعيف المفتة

إلى رحمة ربّه مدرّس العربية في المدرسة الأوبسالية

كارل بوحسن نور تبرغ

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الحمد لله مصرّف الأمور بمشيئته وتدبيره، ومُسَهِّل العسير بمعونته وتيسيره، ومبدع الأشياء بخدمته وتصويره، خالق الخلق وباسط الرزق بتقديره، أحدهم حمد معترف بذنوبه مُقرّ بتقصيره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص بقلبه وسره وضميره، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اصطفاه برسالته وحباه بمحبته وتفضيله وتخييره، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأزواجه الطاهرات الذين ذهب عنهم الرجس وخصهم بتطهيره، ورضي الله عن صحابته السابقين بتصديقه ونصرته وتعزيته وتوقيره، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ما اختلف الليل بظلامه والنهار بنوره، والدعاء للدولة السعيدة العلية، المرينية العثمانية أعلى الله كلمتها ورفع قدرها وأبقى على مرّ الأيام ملكها وفخرها بالتأييد والتمكين والنصر والفتح المبين، أما بعد أطل الله بقاء مولانا الخليفة الإمام معلى الإسلام ورافعه ومذلل الكُفر وقامعه، تاج العدل وناشره، ومأحي الظلم وهاتكه، ملك الزمان، وسراج الأوان ناصر الدين والإيمان، أمير المسلمين أبو سعيد عثمان ابن مولانا الإمام المظفر المؤيد المنصور، الملك العابد الزاهد المذكور، الذي له في كل فضيلة تقدم وسبق، الإمام العادل القائم بالحق، أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، نصره الله وأيده وأعلى كلمته، وأيده وخلد ملكه وأيامه، ورفع بالنصر والسعد لواءه وإعلامه، وفسّح له في البلاد شرقاً وغرباً وأوطاء له رقاب الأعداء سلماً وحرّاً وفتح له وعلى يده الفتح المبين، وجعل الخلافة كلمة قائمة في عقبه إلى يوم الدين، ولا زال للخلافة يحيي آثارها، ويجدد إظهارها، ويعلي منارها، ويجلو أنوارها، والسعد نخيم بفنائها وعتباتها، والمسرة تزدهم ببابه أنحائه، والنصر مقرون براياته وألويته، وقلوب الأئمة مجتمعة على طاعته ومحبته، ما دام ثوب الليل بالصبح معلّم، وغني الحمام على غصن وترنّم.

في الحق ينظر للدنيا والدين

لا زال يحيي حمى الإسلام مجتهدًا

يغني ويعطي عطاء غير ممنون.

ينال ما شاء من أشياء مقاصده

وإني لما رأيت مكارم دولته السعيدة مقام سعادة أطالها الله وخلدها، وأعلى كلمتها وأيدها، تنظم نظم الجمان، وصور محاسنها تتلى بكل لسان، وغرر مآثرها تشرف بكل ناحية ومكان، وغرر أنوارها تُلهي عن الغزل، وتسير سير المثل، أردت خدمة جماها، والتقرب إلى كمالها، والتفني بظلالها، والورود من عذب زلالها، بتأليف كتاب جامع لطيف الأخبار وملح الآداب، يحتوي على غرر من التاريخ وعجائبه، ونوادير الأثر وغرائب، يخبر بنبد من أخبار ملوك المغرب المتقدمين، وأمرائه الماضين، وأمم السالفين، وتاريخ أيامهم وذكر أنسابهم وأعمارهم وسيرهم. وغزواتهم وأحوالهم في دولتهم، وما رسموه بالمغرب من المراسم، وصنوه من المصانع والمعالم، وفتحوه من البلاد والأقاليم، وبنوا من الحصون والمدن والمكارم، وأذكرهم أميرًا بعد أمير، وملكا بعد ملك، وخليفة بعد خليفة، وأمة بعد أمة، على حسب تواليهم في أعصارهم ومراتبهم في دولتهم وأزمانهم كما وقع في الزمان، من أول دولة الأمير إدريس بن عبد الله الحسني إلى هذا الأوان، أبذل فيه جهدي وأظهر جلدي بقدر الوسع والإمكان، ومساعدة الزمان، فاستخرت الله تعالى في تأليفه، واستعنته في تقييده وتصنيفه، فسَهّل الله تعالى ما أردت من ذلك ويسّره كله بفضلته وبركات مولانا أمير المسلمين الظاهرة الباهرة، فألفتُ هذا المجموع المقتضب انتقيت جواهره من كتب التاريخ المعتمد على صحتها، وجمعت شواردها عن مهاد المعوّل على نحتها، والمراجع إليها، سوى ما رويته عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتّاب، وقيدته عن الرواة الثقات الأنجاء، وحذفت فيه الإسناد خيفة الإكثار والامتداد، مع الميل إلى ترك الإسهاب والتطويل، وتجنبنا الاختصار والتقليل،



وجعلته كتابًا مخرجًا على التوسط فهو خير الأمور، ومعتمد في ذلك على ما رواه الجمهور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث المأثور، إذ قال يؤدّب أمته ويبسطها: ((خير الأمور أوسطها))

وسميته: «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، والله سبحانه وتعالى يعصمنا فيه من الزلل، ويجنبنا الخطأ في القول والعمل، ويبلغ فيه السؤال والأمل، ويبقي لنا مولانا أمير المسلمين تعلقو على الدولات دولته، وتمضي في الأعداء صولته، وأوامره وصولته منصوره أعلامه، محمود أيامه، لا ربّ غيره، ولا خير إلا خيره.

الخبر عن ملوك المغرب من الأدارسة الحسنيين رضي الله عنهم
وذكر قيامهم فيه وبنيانهم مدينة فاس دار ملكهم وقرار سلطانهم
 قال المؤلف للكتاب عفا الله عنه:

كان السبب في دخول الأدارسة الحسنيين المغرب وتملكهم عليها أن الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم كان قام على أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور العباسي بالحجاز، منكرًا لجوره وعسفه، وذلك في سنة خمس وأربعين ومئة سنة أرسل إليه المنصور جيشًا عظيمًا إلى المدينة فهزم الإمام محمد وقبض على جماعة من أصحابه وأهل بيته وفرّ هو إلى بلاد النوبة؛ فأقام بها إلى أن توفي المنصور، وولى الخلافة بعده ولده المهدي فصار محمد بن عبد الله بن الحسن إلى مكة في أيام الموسم؛ فلما وصلها دعا بها الناس إلى بيعته فبايعه خلق كثير، وتابعه جميع أهل مكة والمدينة وعامة أهل بلاد الحجاز، وكان الإمام محمد يدعوا بالنفس الزكية لنسكه وكثرة عبادته وزهده وورعه وعلمه وفضله، وكان له ستة أخوة، وهم: يحيى، وسليمان، وإبراهيم، وعيسى، وعلي وإدريس فبعث أربعة منهم دعاة إلى

الأمصار يدعون إلى أمامته وبيعته، وبعث علي إلى أفريقية فأجابه بها خلق كثير من قبائل البربر، وبقي هنالك إلى أن توفي ولم يتم له أمر وبعث أخاه يحيى إلى خراسان؛ فأقام بها حتى قُتل أخوه محمد ففر إلى بلاد الديلم فأسلم على يديه منهم خلق كثير، ودعا لنفسه فبايعه عالم عظيم فقوى أمره، وذلك في أول خلافة الرشيد فلم يزل الرشيد يبعث له بالجيوش ويدبّر عليه الحيلة حتى أتاه بالأمان فأقام عنده مدة إلى أن مات مسمومًا في أيام الرشيد، وبعث أيضًا أخاه سليمان إلى بلاد مصر داعيًا للبيعة، ولما اتصل به قتل أخيه سار إلى بلاد النوبة ثم إلى بلاد السودان ثم خرج منها إلى زاب أفريقية ثم سار إلى تلمسان من بلاد المغرب فزها واستوطنها؛ وذلك في أيام أخيه إدريس، فكان له بها أولاد كثيرة، فكان حسني هناك من نسل سليمان بن عبد الله بن حسن، وقد دخل أكثر ولده إلى بلاد القبلة والسوس الأقصى ولما قويت شوكة الإمام محمد بمكة شرّفها الله وبويع له في كثير من الأمصار وظهرت دعائه في أكثر البلاد، فخاف أمير المؤمنين العباسي المهدي من أمره فصرف وجهه إليه بجيش من ثلاثين ألف فارس فخرج الإمام محمد إلى لقاء جيش المهدي وقتاله في عسكر عظيم من أهل الحجاز واليمن وغيرهم فالتقى الجمعان بموضع يعرف بفج على ستة أميال من مكة، شرّفها الله، فكان بينهما قتال شديد وحروب عظيمة قُتل فيها الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن رحمه الله وهزم جيشه وقتل منهم خلق كثير وفرّ الباقيون وبقي القتلى في موضع المعرفة لم يدفنوا حتى أكلتهم الطيور والسباع لكثرتهم، وكانت هذه الواقعة يوم السبت وهو يوم النبوة الثامن من شهر ذي حجة سنة تسع وستين ومنه وفرّ أخوته إبراهيم وإدريس فيمن فرّ فسار إبراهيم إلى البصرة، فقام بها ولم يزل يحارب أعداءه حتى قتل رحمه الله وغفر له.

وأما إدريس فإنه لما قُتل أخوه وشيعته فرّ بنفسه مستترا في البلاد يريد المغرب فسار من مكة حتى وصل مصر ومعه مولاة اسمه راشد فدخلها والعامل عليها

للمهدي علي بن سليمان الهاشمي، فينما هو إدريس ومولاه راشد يمشيان في شوارعها ويجولان بطرفها إذ مرّ بدار حسنة البناء والهيئة، فوقفا ينظران إليها ويتأملان حُسن بنائها وإتقانها، وإذا بصاحب الدار قد خرج وسلم عليهما، فردا عليه السلام، فقال لهما ما الذي تنظران من هذه الدار؟ فقال راشد: يا سيدي، أنه أعجبنا حسن بنائها وإحكام إتقانها وشكلها، قال: وأظنكما غريبين من هذه البلاد. قال راشد: جُعِلت فداك أن الأمر كما ذكرت قل فمن أي الأقاليم أنتما؟ قال: من الحجاز. قال: من أي بلده؟ قال: من مكة. قال: وأحالكما من شيعة الحسينين الفارين من وقعة فتح فأرادا أن ينكرا له حالهما ويخفيا عنه أمرهما، ثم أنهما توسما فيه الخير والفضل؛ فقال له راشد: يا سيدي، أرى لك صورة حسنة وقد توسمنا فيك الخير لحسن صورتك وطلاقة وجهك وبشرتك، ولا بد أن تكون أفعالك وشيمك مطابقة ومشابهة لصورتك الجميلة، ولكن أرايت أن أخبرناك من نحن وما خبرنا وأمرنا أكنت تستر علينا؟ قال: نعم ورب الكعبة، أكنتم أمركم وأصون سرّكم وأبذل جهدي في صلاح حالكم. قال راشد: ذلك الظنّ بك والثقة بفضلك، هذا إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين وأنا مولاه راشد؛ ففرت به خوفاً عليه من القتل قاصداً إلى بلاد المغرب. فقال لهما الرجل: لتطمئن نفوسكما وتسكن روعتكما؛ فإني من شيعة أهل البيت ومواليهم وأول من كنتم سرّهم وستر أمرهم وبذل جهده في حقّهم فلا تخافا ولا تحزنا فأنتما من الآمنين ثم أدخلهما إلى منزله فأقاما عنده مدة في إكرام ونعيم، فاتصل خبرهما بعليّ بن سليمان الهاشميّ عامل مصر فبعث إلى الرجل الذي هما عنده، فقال له: أنه قد رُفِع إليّ خبر الرجلين الذين هما في منزلك مخفيان وأن أمير المؤمنين قد كتب إليّ في طلب الحسينين والبحث عن من وجد منهم، وقد بعث عيونه على الطرقات وجعل المرصاد في أطراف البلاد، فلا يمرّ بهم أحد من الناس حتى يعرف ويعلم صحة نسبه

وحاله، ومن أين قدم وإلى أين يسير وأني أكره أن أتعرض لدماء أهل البيت أو يناهم أذى بسببي فلك الأمان ولهما، فسِر إليهما وقل لهما يخرجان من عملي ليلاً يصل خبرهما إلى المهدي فيخرجكما من يدي وقد أذن لكما في الخروج ثلاثة أيام فसार الرجل إلى إدريس ومولاه راشد فأعلمهما الخبر، فعزما على الخروج إلى المغرب، فاشترى لهما الرجل راحلتين ولنفسه أخرى وصنع لهما زادا يبلغهما إلى أفريقية وقال لراشد: أخرج أنت مع الرفقة على الجادة وأخرج أنا مع إدريس على طريق غامض أعرفه لا يسلكه الرفاق، وموعدا مدينة برقة، انتظر بها حيث آمن عليه من الطلب. فقال: الرأي ما رأيت. فخرج راشد مع الرفقة على الجادة في زي التجار وخرج إدريس مع الرجل المصري على البرية حتى وصل به مدينة برقة فقعدا بها حتى لحق بهما راشد فجدد لهما الرجل هناك زاداً يبلغهما وودعهما وانصرف راجعا إلى مصر، وسار إدريس مع مولاه راشد إلى أفريقية يجدان السير حتى وصلا القيروان، فأقاما بها مدة ثم خرجا إلى المغرب الأقصى.

وكان راشد من أهل النجدة والشجاعة والعلم والحزم والقوة والعقل والدين والنصيحة لأهل البيت فعمد إلى إدريس حين خرج به من القيروان فألبسه مدرعة صوف خشنة وعمامة غليظة وصيرة كالخادم له يأمره وينهاه كل ذلك خوفاً عليه وحيطة له، فلم يزل على ذلك حتى وصل به إلى مدينة تلمسان، فاستراحا بها أياما ثم ارتحلا عنها نحو بلاد طنجة، فسارا حتى عبرا وادي ملوبة، ودخلا بلاد السوس الأدنى - والسوس الأدنى حدّه من وادي ملوبة إلى وادي أم الربيع، وهو أخصب بلاد المغرب وأعظمها بركة والسوس الأقصى من جبل درن إلى وادي النون - فسار إدريس ومولاه راشد حتى نزلا بمدينة طنجة، وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب وأم مدنه، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منها، وقد ذكرنا تاريخها ومن بناها في كتابنا الكبير المسمى بأزهار البستان في أخبار الزمان.

فلما وصل إدريس إلى مدينة طنجة أقام بها أياماً، فلم يجد بها مراده فرجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة ولى قاعدة جبل زرهون، وكانت مدينة ولى مدينة متوسطة خصبة كثيرة المياه والغروس والزيتون، وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل فنزل بها إدريس على صاحبها إسحاق عبد الحميد الأوربي المعتزلي فأقبل عليه إسحاق وأكرمه وبالح في برّه، فأظهر له إدريس أمره وعرفه بنفسه فوافقه في حاله وأنزله معه في داره وتولّى خدمته والقيام بشؤونه، وكان دخول إدريس المغرب ونزوله على عبد الحميد بمدينة ولى في غرة ربيع الأول المبارك من سنة اثنين وسبعين ومئة، فأقام عنده ستة أشهر، فلما دخل شهر رمضان من السنة المذكورة جمع إسحاق إخوانه وقبائل أوربا فعرفهم بنسب إدريس وفضله وقرايته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه وعلمه ودينه وكمال خلال الفضائل المجتمعة فيه فقالوا له الحمد لله الذي أثنانا به وشرّفنا بجواره ورؤيته فهو سيدنا ونحن عبيده نموت بين يديه فما تريد منا؟ قال: تبايعوه. قالوا: سمعاً وطاعة، ما منّا من يتوقف عن بيعته وما يريد.

الخبر عن بيعة الإمام إدريس الحسني

هو الإمام القائم بالمغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم، بويع له بمدينة ولى يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان المعظم سنة اثنين وسبعين ومئة، وكان أول من بايعه قبائل أوربا بايعوه على الإمارة والقيام بأمرهم وصلواتهم وغزواتهم وأحكامهم، وكانت أوربا في ذلك الوقت أعظم قبائل المغرب، وأكثرها عدداً وأشدّها قوة وبأساً وأحداها شوكة، ثم بعد ذلك أتته قبائل زناته وأصناف قبائل البربر من أهل المغرب، منهم: زواغة، وزوارة ولماية، ولواتة، وسدارتة، وغيثاة، ونفرة، ومكناسة، وغمارة، فبايعوه ودخلوا في طاعته ففويت أموره وتمكن سلطانه ووفدت عليه الوفود من كل ناحية

وسائر البلدان.

وقصد إليه الناس من كل سقع ومكان، فاستقام أمره بالمغرب، وأخذ جيشاً عظيماً من وجوه قبائل زناته وأوربا وصنهاجة وهوارة وغيرهم. فخرج بهم غازياً إلى بلاد تامسنا فنزل أولاً مدينة شالة ففتحها، ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا ثم سار إلى بلاد تادلا ففتح معاقلها وحصونها، وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية ودين اليهودية، والإسلام بها قليل، فأسلم جميعهم على يديه، ثم قفل إلى مدينة ويلي فدخلها في آخر شهر ذي حجة من سنة اثنين وسبعين المذكورة فأقام بها شهر المحرم ففتح سنة ثلاث وسبعين حتى استراح الناس.

ثم خرج برسم غزو من بقي بالمغرب من البربر على دين النصرانية واليهودية المجوسية، وكان قد بقي منهم بقية متحصنون في المعقل والجبال المنيعة؛ فلم يزل الإمام إدريس يجاهدهم ويستنزهم حتى دخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً، وفتح بلادهم ومعاقلهم، وأباد من أبى الإسلام منهم بالقتل والسبي، ودمر بلادهم وهدم معاقلهم منها حصون بني لاوة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز.

ثم رجع إلى مدينة ويلي فدخلها في النصف من جهادي الآخرة من سنة ثلاث وسبعين المذكورة، فأقام بها بقية جهادي المذكورة والنصف من رجب التالي له حتى استراح جيشه، ثم خرج من نصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مقراوة وبني يفرن، فوصل مدينة تلمسان ونزل بخارجها فأتاه أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الخزري فطلب منه أماناً فأمنه إدريس، وبايعه محمد بن خور وجميع من معه بتلمسان من قبائل زناته فدخل إدريس مدينة تلمسان صلحاً فأمن أهلها، وبنا مسجدها وأتقنه وصنع فيه منبراً، وكتب عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي

الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومئة»، فاتصل بالرشيد أن إدريس قد استقام له أمر المغرب وبايعه كافة من به من القبائل وأنه قد فتح مدينة تلمسان وبنا مسجدها، وأخبر بحزمه وحاله وكثرة جنوده وشدتهم في الحرب وأنه قد عزم على غزو أفريقية، فخاف الرشيد أن يعظم أمره فيصل إليه لما يعلم من فضله وكماله ومحبة الناس في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ فاعتمّ لذلك غمًا شديدًا وعظم عليه شأنه فبعث إلى وزيره القائم بأمر مملكته وصلاح سلطانه يحيى بن خالد بن برمك فأخبره بأمر إدريس واستشاره فيه، وقال له: إنه ولد عليّ بن أبي طالب وابن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قوي سلطانه وكثرت جيوشه وعلا شأنه واشتهر اسمه، وفتح مدينة تلمسان وهو باب أفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار، وقد عزمت أن أبعث له جيشًا عظيمًا لقتاله ثم أي فكرت في بُعد البلاد وطول المسافة وتنافي المغرب عن المشرق، ولا طاقة لجيوش العراق على الموصل إلى السوس من أرض المغرب فرجعت عن ذلك، وقد هالني أمره فأشر عليّ برأيك فيه، وقال له يحيى بن خالد: يا أمير المؤمنين أرى أن تبعث إليه برجل ذي حزم ومكر ودهاء ولسان وإقدام وجرأة فيقتله وتستريح منه، فقال: الرأي ما ذكرت، فمن يكن الرجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أعرف في حاشيتي رجلًا اسمه سليمان بن جرير من أهل الحزم والإقدام والفتك والشجاعة والعلم بالجدل والكلام والمكر والدهاء تبعث به إليه. فبعث له قال أسرع بذلك الآن، فخرج الوزير يحيى إلى سليمان بن جرير فعرفه المقصود وما يريد منه أمير المؤمنين ووعد له على ذلك الرفعة والمنزلة العالية والهنات السنوية وعطاه أموالًا جلييلة وتحفا مستطرفة وجهّزه بما يحتاج إليه، فخرج سليمان بن جرير من بغداد ليجد السير حتى وصل إلى المغرب فقدم على إدريس بمدينة ولى فسلم عليه فسأله الإمام إدريس عن اسمه ونسبه ومن أي البلاد قدم وما سبب قدومه إلى المغرب فذكر له أنه من بعض موالي أبيه وأنه اتصل

به خبره فأتاه برسم خدمته لأجل محبته وولايته لأهل البيت إذ لا يعدل فيه أحد ولا يقاس بهم سواهم، فأنس به إدريس وسكن إلى قوله وسرّ به سرورًا عظيمًا وركن إليه وحلّ من قلبه بمنزلة رفيعة؛ فكان لا يقعد ولا يأكل إلا معه، لأنه لم يجد في بلاد المغرب من يأنس به ويستريح إليه غيره، وذلك لجهل أهل المغرب في ذلك الوقت وجفاء طباعهم، ولما ظهر له أيضًا من سليمان بن جرير من النبل والأدب والظرف والبلاغة فحل منه محلا رفيعا فكان سليمان بن جرير إذا قعد الإمام إدريس بين رؤساء البربر ووجوه القبائل يتكلم سليمان فيذكر فضائل أهل البيت وعظم بركتهم ويقيم الدليل على إمامة إدريس وأنه الإمام لا أمام غيره، ويأتي على ذلك بالحجج البينة والبراهين القاطعة وبأحاديث تعجب إدريس، فكان إدريس يتعجب من فصاحته وبلاغته ومعرفته بالجدال ويستظرفه ويحبه، فلم يزل سليمان بن جرير عند إدريس يرتقب فيه الفرصة ويعمل في قتله الحيلة فلا يجد إلى ذلك سبيلاً من أجل مولاه راشد الذي لا يزايله ولا يفارقه إلى أن غاب راشد ذات يوم في بعض شؤونه فدخل عليه سليمان بن جرير فوجده وحده، فجلس بين يديه على عادته، فتحدث معه قليلاً، فلم ير لراشد أثراً، فانتهاز الفرصة واغتنم الخلوة، فقال له: يا سيدي، جعلت فداك إني جئت من المشرق بقارورة الطيب ثم أتي رأيت هذه البلاد ليس بها طيب فرأيت أن الإمام أولى بها مني فخذها تطيب بها فقد أثرتك بها على نفسي، وهو من بعض ما يجب لك عليّ، ثم أخرجها من وعاء ووضعها بين يديه فشكره إدريس على ذلك ثم أخذ القارورة، ففتحها وشمها فلما رأى سليمان بن جرير الإمام إدريس قد فتح القارورة وشمها وتحصل به مراده منه وتمت حيلته فيه جعل يده في الأرض وخرج كأنه يريد قضاء حاجة الإنسان فسار إلى منزله وركب فرساً له من عناق الخيل وسبّاقها كان قد أعدها لذلك، وخرج من مدينة ويلي يطلب النجاة، وكانت القارورة مسمومة فلما استنشق إدريس الطيب صعد السم في خيشومه وانتهى إلى

دماغه فغشي عليه وسقط بالأرض على وجهه لا يفهم ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه، فاتصل خبر غشيته بمولاه راشد فأقبل إليه مسرعاً فدخل عليه فوجده يحرك نفسه وقد أشرف على الموت لا يقدر أن يبين الكلام، فقعد عند رأسه متحيراً في أمره لا يعلم ما به حتى قطع سليمان بن جرير مسافة من الأرض وأقام إدريس في غشيته إلى عشي النهار فتوفي رحمه الله، وكانت وفاته في مستفتح ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومئة فكانت إمارته بالمغرب خمسة أعوام وسبعة أشهر، واختلف في سبب وفاته ف قيل سمّه في طيب كما تقدّم وقيل سمّه في حوت من الشابل وقيل سمّه في سنون لأنه كان يشتكي باسترخاء لثاته والله أعلم بصحة ذلك.

فلما توفي إدريس نظر راشد إلى سليمان بن جرير فلم يجده فسأل عنه فأخبر أنه قد لقي على أميال كثيرة من البلاد فعلم حينئذ أنه هو الذي سمه فركب في جمع كثير من البربر وخرج في طلبه وجد السير طول ليلته وتقطعت الخيل في أثره فلم يلحق به أحد من القوم إلا راشد وحده أدركه وهو يجوز نهر ملوية فصاح به راشد وشد عليه بالسيف فقطع يده اليمنى وشجه في رأسه ثلاث شجات وجرحه في جسده كل ذلك لا يصيب له مقتلاً وعيا جواد راشد ففر سليمان بن جرير وهو مثخن بالجراح فسار حتى وصل العراق، فأخبر بعض الناس أنه رعاه ببغداد مبطولة يده اليمنى وبرأسه وجسده أثر الجراحات قد برئت، فرجع راشد من تبع سليمان بن جرير إلى مدينة ولى فدفن بقرها إدريس ليتبرك الناس بقبوره وزيارة تربته، رحمه الله ورضي عنه، ولم يكن لإدريس حين وفاته ولد إلا وليدة تركها حبل.

قال محمد عبد الملك بن محمود الوراق في كتاب المقياس والبكري والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة أن الإمام إدريس بن عبد الله لما توفي لم يترك ولداً مولوداً إلا أنه ترك جارية له مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة حاملاً منه في

الشهر السابع من حملها، فجمع راشد رؤساء القبائل ووجوه الناس بعد فراغه من دفن إدريس فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولدًا إلا حملاً بجاريته كنزة، وهي في الشهر السابع من حملها، فإن رأيتهم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها فإن كان ذكرًا ربيناه فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تبركا بأهل البيت وذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم من ترونه أهلاً لذلك، فقالوا له: أيها الشيخ المبارك ما لنا رأي إلا ما رأيت؛ فإنك عندنا عوض من إدريس تقوم بأمرنا كما كان إدريس وتصلّي بنا وتحكم فينا بما يقتضي الكتاب والسنة حتى تضع هذه الجارية؛ فإن وضعت غلامًا ربيناه وبايعناه وأن وضعت جارية نظرنا في أمرنا على أنك أحق الناس به لفضلك ودينك وعلمك. فشكرهم راشد على ذلك ودعا لهم وانصرفوا فقام راشد بأمر البربر حتى تمت الجارية أشهر حملها فوضعت غلامًا أشبه الناس بوالده إدريس فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر حتى نظروا إليه فقالوا هذا إدريس بعينه كأنه لم يمّت فسماه راشد إدريس باسم أبيه وقام بأمره وأمر البربر وكفله حتى فطم فشبّ فأدبه أحسن أدب وأقرأه القرآن فحفظه وله من السن ثمانية أعوام وعلمه السنة والفقه والنحو وروي الحديث والشعر وأمثال العرب وحكمها وسير الملوك وسياستها وعرفه بأيام الناس وردّه مع ذلك على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكايد الحروب فلما درب في ذلك كله وكمل له من السنّ إحدى عشرة سنة أخذ له مولاه راشد البيعة على قبائل المغرب فبويع له بجامع مدينة ولى.

الخبر عن دولة الإمام إدريس بن إدريس الحسني رضي الله عنه

هو الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي

طالب رضي الله عنهم، أمه أم ولد مولدة بقرية اسمها كنزة.

مولده في يوم الاثنين الثالث من شهر رجب الفرد عام سبعة وسبعين ومئة

كنيته: أبو القاسم. صفته صفة أبيه أبيض اللون مشوبًا بحمرة أكحل أجعد تام القدّ

جميل الوجه أقنى مليح العينين واسع المنكبين شتن الكفين والقدمين أبلغ أدعج فصيحاً بليغاً أدبياً عالماً بكتاب الله تعالى قائماً بحدوده راوياً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، عارفاً بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصول الأحكام ورعاً تقياً جواداً كريماً حازماً بطلاً شجاعاً، له عقل راجح، وحلم راسخ، وأقدام في مهمات الأمور. قال دواد بن أبي القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوربي شهدت مع إدريس بن إدريس في بعض غزواته للخوارج الصفرية من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا، فلما تقارب الجمعان نزل إدريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال، فقاتلناهم قتالاً شديداً فكان إدريس يضرب في هذا الجانب مرة ثم يكرّ في الجانب الثاني فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار فرجع إلى رايته فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه، فطفقت أنظر إليه وأديم اللتفات نحوه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم، فأعجبني ما رأيته من شجاعته وقوة جأشه فالتفت نحوي فقال لي: يا دواد، مالي أراك تديم النظر إليّ؟ فقلت: أيها الإمام، أنه أعجبني منك خصال لم أرها في غيرك. قال: وما هي يا دواد؟ قلت: أولها: ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك وطلاقة وجهك وما خصصت به من الشر عند لقاء عدوك. قال: ذلك بركة جدنا - صلى الله عليه وسلم - ودعائه لنا وصلاته علينا واراثة عن أبينا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. قلت: أيها الإمام، وأراك تبصق بُصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل الريق في فمي فلا أجده. قال يا دواد: ذلك لاجتماع عقلي وقوة جأشي عند الحروب، وعدم الريق من فمك لطيش لبك وافتراق عقلك ولما خامرك من الرعب. قال دواد: فقلت: أيها الإمام وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلّبك في سرجك وقلة قرارك في موضعك. قال ذلك مني زمع إلى القتال وحزم وصرامة وهو أحسن في الحرب فلا تظنّه رعباً وأنشأ يقول:

أليس أبونا هاشم شدّ أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكي مما يصير من النصب
وكان إدريس شاعرًا مجيدًا، وكان بهلول بن عبد الواحد رئيسًا معظمًا في قومه
وكان من خاصة إدريس فكتبه ابن الأغلب عامل الرشيد على أفريقية واستهواه
بالمال، فمال إليه وبايع الرشيد فكتب إليه إدريس بن إدريس:

أبهلول قد شملت نفسك خطة تبذلت منها صولة برشاد
أضلك إبراهيم من بُعد داره فأصبحت منقادًا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن الأغلب غدا آخذًا بالسيف كل بلاد
ومن دون ما متك نفسك خاليا ومناك إبراهيم شوك قتاد
وزيره عمير بن مصعب الأزدي

قاضيه عامر بن محمد بن سعيد القيسي

وكتبه أبو الحسن عبد الله بن ملك الأنصاري.

ولما كمل للإمام إدريس من العمر إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر عزم مولاہ
راشد على أخذ البيعة له على قبائل المغرب من البربر وغيرهم فاتصل الخبر بإبراهيم
بن الأغلب عامل أفريقية فحاول قتل راشد، فاندس إليه من أبلغ أموالاً كثيرة إلى
خدام راشد من البربر فاستهواهم به فقتلوا راشد، وذلك في سنة ثمانية وثمانين ومئة
فقام بأمر إدريس بعده أبو خالد يزيد بن إلياس العبدى فأخذ له البيعة على جميع
قبائل البربر، وذلك يوم الجمعة غرة ربيع الأول سنة ثمانية وثمانين ومئة بعد قتل
راشد بعشرين يومًا وهو ابن إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر قاله عبد الملك الوراق
في تاريخه وفي قتل راشد يقول إبراهيم بن الأغلب في بعض ما كتب به إلى الرشيد
يعرفه بخدمته ونصيحته:

ألم ترني بالكيد أرديت راشداً وأني بأخرى لابن إدريس راصد
تناوله عزمي على بُعد داره بمختومة من طينهن المكايد
فتاه أخو عك بمقتل وأشداً وقد كنت فيه شاهداً وهو راقد
يريد بأخي عك محمد بن مقاتل العكي والي أفريقية للرشيد لأنه لما حاول ابن
الأغلب على قتل راشد فتم له كتب العكي إلى الرشيد يعلمه أنه هو الذي فعل ذلك
فكتب صاحب البريد بصحة الخبر إلى الرشيد وأعلمه أن ابن الأغلب هو الفاعل
لذلك، والمتولي له، فصَحَّ عند الرشيد كذب العكي وصدق ابن الأغلب وكان ابن
الأغلب من قواد أفريقية، فكتب الرشيد بعزل العكي عن أفريقية وولاها إبراهيم بن
الأغلب. قال البكري والبرنسي:

إن راشداً لم يمت حتى أخذ البيعة لإدريس وأن الإمام إدريس لما كمل له
إحدى عشرة سنة ظهر من ذكائه ونبله وعقله وفصاحته وبلاغته ما أذهل عقول
الخاصة والعامة فأخذ له راشد البيعة على سائر البربر، وذلك يوم الجمعة سابع ربيع
الأول سنة ثمانية وثمانين ومئة فصعد إدريس المنبر وخطب الناس في ذلك اليوم
وقال: «الحمد لله أحمد واستغفره وأستعين به وأتوكل عليه، وأعوذ به من شر نفسي
وشر كل ذي شر، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، المبعوث إلى
الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى أهل
بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أيها الناس إننا قد
ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسنين فيه الأجر وللمسيئ الوزر، ونحن -
والحمد لله- على قصد جميل فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من
إقامة الحق إنما تجدوه عندنا».

ثم دعا الناس إلى بيعته، وحضهم على التمسك بطاعته، فعجب الناس من
فصاحته ونبله وقوة جأشه وثبات جنانه على صغر سنه.

ثم نزل فسارع الناس إلى بيعته وازدحموا عليه يقبلون يديه، فبايعه كافة قبائل المغرب من زناته وأوربا وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر فتمت له البيعة.

وبعد بيعته بقليل توفي مولاه راشد والله أعلم، فاستقام الناس لإدريس بن إدريس بالمغرب، وتوطأ ملكه وكثر سلطانه وقويت جنوده وأتباعه وعظمت جيوشه وأشياعه ووفدت عليه الوفود من البلدان وقصد نحوه الناس من كل ناحية ومكان فأقام بقية سنة ثمانية وثمانين، التي ولي فيها، يعطي الأموال ويصل الوصول ويستميل الرؤساء والشيوخ.

وفي سنة تسع وثمانين ومئة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد أفريقية وبلاد الأندلس في نحو الخمسمئة فارس من القيسية والأزد ومدحج وبني محصب والصدف وغيرهم، فسر إدريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقربهم ورفع منازلهم، وجعلهم بطانته دون البربر، فاعتز بهم لأنه كان فريداً بين البربر ليس معه عربي فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي وكان من فرسان العرب وساداتهم، ولأبيه مصعب مآثر عظيمة بأفريقية والأندلس، ومشاهد في غزو الروم كثيرة، واستقضا منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي من قيس عيلان، وكان رجلاً صالحاً ورعاً فقيهاً سمع مالكا وسفيان الثوري وروي عنهم كثيراً، ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد ثم جاز إلى العدو فوفد بها على إدريس فيمن وفد عليه من العرب ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق، فكثر الناس وضافت بهم مدينة ولى.

فلما رأى إدريس أن الأمر قد استقام له وعظم ملكه وكثر جيشه وضافت بهم المدينة عزم على الانتقال عنها وأراد أن يبني لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته فركب في خاصه من قومه ورؤساء دولته وخرج يتخير

البقاع، وذلك في سنة تسعين ومئة فوصل إلى جبل زالغ فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه وكثرة محارثه، فاخطط مدينته بسنده مما يلي الجوف وشرع في بنائها.

فبنا جزءاً من سورها فأتى سيل من أعلا الجبل في بعض الليالي فهدم جميع ما كان بناه من السور المذكور وحمل حوله من خيام العرب وأفسد كثيراً من الزرع فلما رأى ذلك إدريس فرفع يده من البناء وقال هذا موضع لا يصلح للمدينة؛ فإن السيول تركبه من رأس الجبل، قال ابن غالب في تاريخه.

وقيل أن إدريس بن إدريس لما وصل إلى جبل زالغ صعد عليه فأعجبه ارتفاعه وإشرافه على جميع الجهات فجمع قواده ووجوه دولته وحشمه فأمرهم ببناء الديار في سند الجبل فبنوا الديار وحفروا الآبار وغرسوا الزيتون والكروم والأشجار وشرع هو في بناء المساجد والسور فبنا من سورها جزءاً يزيد على الثلث، فلما كان في بعض الليالي نزل مطر عظيم وابل فهبط السيل من أعلى الجبل دفعة واحدة فهدم ما كان بناه وأفسد جميع ما كان غرس وحمل ذلك كله حتى رمي به في نهر سبوا وهلك فيه خلق كثير فكان ذلك سبب رفع اليد من بنائها.

فأقام الإمام إدريس إلى أن دخل شهر المحرم مفتتح سنة إحدى وتسعين ومئة، فخرج يتصيد ويرتد لنفسه موضعاً يبني فيه ما قد عزم عليه، فوصل وادي سبوا، حيث هي حمة خولان، فأعجبه الموضع لقربه من الماء، ولأجل الحمة التي له هناك فعزم أن يبني به المدينة فشرع في حفر الأساس وعمل الجيار وقطع الخشب وابتداه بالبناء ثم أنه نظر إلى وادي سبوا وكثرة ما يأبى به من المدود العظيمة في زمن الشتاء فخاف على الناس الهلكة فبدأ له في بنائها ورفع يده عنها، ورجع إلى مدينة ويلي، فبعث وزيره عمير ابن مصعب الأزدي يرتاد له موضعاً يبني فيه المدينة التي أراد فسار عمير في جماعة قومه يرتاد له ما طلب، فاخترق تلك النواحي وجال في تلك

الجهات يختبر الأرضين والمياه حتى وصل إلى فحص سايس؛ فوجد فسحة الأرض واعتدالها وكثرة المياه، فأعجبه ما رعاه من ذلك؛ فنزل هناك على عين ماء غزيرة مطردة في مروج محصرة فتوضاً منها ومن معه وصلى بهم صلاة الظهر حولها ثم دعا الله تعالى أن يهون عليه مطلبه وأن يدلّه على موضع يرتضيه لعبادته ثم ركب وأمر قومه أن يقعدوا ينتظرونه عند تلك العين حتى يعود إليهم فنسبت العين إليه وسميت به عين عمير إلى الآن. وعمير هذا هو جدّ بني الملجوم من بيوتات مدينة فاس، فسار عمير في فحص سايس يطلب ما خرج إليه حتى وصل إلى العيون إلى ينبعث منها نهر مدينة فاس فرأى عيونا كثيرة تزيد على ستين عنصراً ومياها تطرد في فسيح الأرض وحول العيون شجرة من الطرفاء والطخش والعرعر والكلخ وغيره، فشرب من ذلك الماء فاستطابه، فقال: ماء عذب وهواء معتدل وهو أقل ضرراً وأكثر منفعة وحوله من المزارع أكثر مما حول نهر سبوا ثم سار مع مسير الوادي حتى وصل إلى موضع مدينة فاس فنظر إلى ما بين الجبلين غيظة ملتفة الأشجار مطردة بالعيون والأنهار وفي بعض مواضع منها خيام من شعر يسكنها قبائل من زناتة يعرفون بزواغة وبني برغش فرجع عمير إلى إدريس فأعلمه بما وقع عليه من الأرض وما استحسّنه من كثرة مياها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها واعتدال الهواء؛ فأعجبه ما رآه من ذلك. وسأل عن مالكي الأرض ف قيل له قوم من زواغة يعرفون ببني الخير. فقال إدريس: هذا حسن. فبعث إليهم واشترى منهم موضع المدينة بستة آلاف درهم، ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك، وشرع في بناء المدينة. وقيل كان يسكن مدينة فاس قبيلتان من زناتة زواغة وبني برغش وكانوا أهل أهواء مختلفة منهم على الإسلام ومنهم على النصرانية، ومنهم على اليهودية، ومنهم على المجوسية وهم بنو برغش وكانوا يسكنون بخيامهم بحومة عدوة الأندلس الآن، وكانت بيت ذرهم بموضع يعرف بالشيلوبة وكانت زواغة يسكنون

بحومة عدوة القرويين، وكان القتال بين القبيلتين لا يزال على مرّ الأيام فلما أتى إدريس مع عمير لينظر إلى الموضع الذي ارتاده له وجد زواغة وبني يرغش يقتتلون فيما بينهم على حدود الأرض؛ فبعث إدريس إليهم فحضر الفريقان بين يديه فأصلح بينهما ثم اشترى منهما الغيظة التي بناها المدينة، وكانت غيظة لا تُرام لكثرة المياه والشجر والسباع والخنازير فرضوا جميعاً ببيعها وإخراجها من أيدي الفريقين ثم شرع في البناء، وقيل أنه اشترى موضع عدوة الأندلس من بني يرغش بألفين درهم وخمسمئة درهم ودفع إليهم المال وكتب العقد بشرائها منهم كاتبه الفقيه أبو الحسن عبد الله بن مالك المالكي الأنصاري الخزرجي؛ وذلك في سنة إحدى وتسعين ومئة فنزل به إدريس وشرع في بناء السور وضرب أبنيته وقبابه بالموضع المعروف بجذوارة ودوّر عليها جداراً من الخشب والقصب فسمي الموضع جذوارة إلى اليوم ثم اشترى عدوة القرويين من بني الخير الرواغيين بثلاثة آلاف درهم وخمس مئة درهم وشرع في بنائها.

الخبر عن بناء الإمام إدريس مدينة فاس وذكر ما خصّت به من الفضائل والمحاسن التي تفوق بها بلاد المغرب

قال المؤلف، عفا الله عنه، لم تزل مدينة فاس من حين أسست دار فقه وعلم وصلاح ودين، وهي قاعدة بلاد المغرب وقطرها، ومركزها وقطبها، وهي ملك الأدارسية الحسنيين الذين اختطوها، ودار مملكة زناتة من بني يفرن ومغراوة وغيرهم من ملوك المغرب في الإسلام ونزلها لمتونة في أول ظهورهم على المغرب، ثم بنوا مدينة مراکش فانتقلوا إليها لقربها من بلادهم بلاد القبلة، فأتى الموحدون بعدهم فنزلوا مراکش واتخذوها دار ملكهم لقربها من بلادهم وكونها مبنية في جوارهم وبين قبائلهم. ومدينة فاس لم تزل أم بلاد المغرب في القديم والجديد وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين أطال الله أيامهم، وأعلى أمرهم، وخلد سلطانهم، فهي بهم في المحلّ الرفيع والشكل البديع، وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء

واعتدال الهواء وطيب المدرة وحسن الثمرة وسعة المحرث وعظيم بركته وقرب المحطب وكثرة عوده وشجرته، وبها منازل مؤنقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة وأسواق مرتبة منشقة وعيون منهمرة وأنهار مندفقة منحدره، وأشجار ملتفة، وجنات دايرة بها محتفة، وقالت الحكماء: أحسن موضوعات المدن أن تجمع المدينة خمسة أشياء، وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والأسوار الحصينة، والسلطان إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكفّ جبابرتها. وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها، وزادت عليها بمحاسن كثيرة نذكرها بعد إن شاء الله تعالى، فلها المحرث العظيم سقيًا وبعلاً على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب، وعليها المحطب العظيم بجبال بني بهلول التي في قبلتها يصبح كل يوم على أبوابها من أحمال حطب البلوط والفحمة ما لا يوصف كثرة، ونهرها يشقها نصفين ويتشعب في داخلها أنهارًا وجداولًا وخلقجانًا، فتتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجناتها، وشوارعها وأسواقها وحمامتها، وتطحن به أرجاؤها، ويخرج منها وقد حمل أثقالها وأقذارها ورحاضاتها، وقد أنشد الفقيه الصالح الزاهد أبو الفضل بن النحوي في مدحها وأوصافها.

يا فاس منك جميع الحسن مستوق وساكنوك جميع الرزق قد رزق
هذا نسيمك أم روح لراحتنا وماؤك السلسيل الصافي أم الورق
أرض تخللها الأنهار داخلها حتى المجالس والأسواق والطرق
وكان الفقيه أبو الفضل بن النحوي من أهل العلم والدين والورع والفضل - ذكره صاحب كتاب التشوّف - من أكبر رجال المغرب، وللفقيه الكاتب البارع أبي عبد الله المغيلي في وصفها ويتشوّق إليها حين ولي القضاء بمدينة أزمور:

يا فاس حبّ الله أرضك من ثرا وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنّة الدنيا التي أربت على حمص بمنظرها أهى الأجل

عُرف على غرف ويجرى تحتها ماء الدمن الرحيق السلسل
 بستان من سندس قد زخرف بجداول كالأيم أو كالمفصل
 بجامع القرويين شرف ذكره أنس تذكر بهيج تلمل
 وبصحنه زمان المصيف محاسن جمع العشي القرب فيه استقبل
 وأجلس إزاء الخصة الحسنى أكرع بها عيني فدتك وأنهل
 قال المؤلف ويخرج نهر مدينة فاس منها ويسقى جناتها وبحائرهما إلى أن ينصب
 بوادق سبوا على مقدار الميلين منها، وماء نهر مدينة فاس من أفضل مياه الأرض
 وأعذبها وأخفها، يخرج منها عيون من أعلاها في بسيط الأرض من ستين عنصرًا،
 كلها تبعث من جهة القبلة وثلاثة عناصر من قبل المغرب، على نحو عشرة أميال من
 المدينة، فيجتمع ما يخرج من تلك العناصر من الماء فيصير نهرًا كبيرًا فيجري في
 بسيط من الأرض على الكرفس والسعداء من منبعثه حتى ينحدر على المدينة في
 مروج خضر لا يزال كذلك صيفا وشتاء حتى يدخل البلد فينقسم في داخلها على
 جداول كثيرة كما قدمنا، ومن فضائل ماء هذا النهر أنه يفتت الحصى ويذهب الصنان
 لمن اغتسل به، ودام على شربه ويلين البشرة، ويقطع القمل، ويسرع الهضم، ويشرب
 على الربق فلا يعدي، ومن يستكثر من شربه فلا يضره، وذلك لأجل جريانه على
 الكرفس والسعداء فهو في نهاية الخفة والعدوبة، ومن فضائل ماء هذا النهر ما ذكره
 ابن جنون المتطبب أنه ينبه شهوة الجماع إذا شرب على الريق، ومن فضله أنه تغسل
 فيه الثياب بغير صابون يبيضها ويكسوها رونقًا وبصيصًا ورائحة طيبة كما يفعل
 الصابون، فيقسم عليها أنها غسلت بالصابون، ومن فضائل نهر مدينة فاس أنه يخرج
 الصدف الحسن الذي يقوم مقام الجوهر النفيس تباع الحبة منه بمثقال ذهب وأقل
 وأكثر، وذلك لحسنه وصفائه وعظم جرمه ويوجد في مياه هذا النهر السراطين،
 وليست توجد في مياه الأندلس إلا نادرًا ويخرج فيه أيضًا أنواع من الحوت من
 اللبليس والبوري والسنياج والبوقة وهو حوت لذيق الطعم كثير المنفعة وعلى الجملة

أن ماء نهر مدينة فاس يفوق مياه المغرب في العذوبة والخفة وكثرة المنفعة، وتفوق مدينة فاس غيرها من بلاد بمعدن الملح الذي عليها ليس في معمور الأرض معدن ملح مثله، وهو على نحو ستّة أميال منها وطول هذه الملاحه نحو ثمانية عشر ميلاً أولها من محشر الشطبي، وآخرها بوادي مكس عند دمنة القبول، وفي هذه الملاحه أصناف من الملح لا يشبه بعضها بعضاً في الألوان والصفات فالمالح بالمدينة كثير جداً يباع عشرة أصواع بدرهم، وأقلّ وأكثر بحسب ما يجلب، ومن بركة هذه الملاحه أنها كلها تحرث بالزرع؛ فتجد فدادين الزرع في وسط الملح بخضرة ناعمة تتمايل خاماتها فضلاً من الله تعالى وبركة منه وكان الملح قبل هذا يباع بالمدينة حمل بدرهم، لا يجد بايعه من يشتريه منه لكثرتّه، وعلى مسيرة ثلاثين ميلاً من مدينة فاس جبال بني يازغة؛ حيث يقطع خشب الأرز فيجلب إلى المدينة منه في كل يوم ما لا يحصى كثرة، ومن هذه الجبال ينبعث نهر سبوا من عنصر واحد شبه مغارة فيسير حتى يمر بشرقي مدينة فاس على مقدار الميّلين منها فيصيد أهل المدينة الشايل، والبورى، وأصناف الحوت. ويحملون منها أحمالاً إلى المدينة فتصل طرية لم تتغير، وأكثر نزّهات أهل المدينة نهر سبوا، وبالقرب أيضاً من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها ونحوها حامة عظيمة تعرف بحامة خولان مأوها أشد ما يكون من السخانة، وبالقرب أيضاً منها حامة وشتاقه، وحامة يعقوب، وهي من الحمامات المشهورة بالمغرب.

وسكان مدينة فاس أحد أهل المغرب أذهاناً وأشدّهم فطنة وأرجحهم عقلاً، وألينهم قلوباً وأكثرهم صدقة وأعزّهم نفوساً وأطفهم شميلاً وأقلّهم خلافاً على الملوك وأكثرهم طاعة لولاتهم وحكامهم، وكيف ما تقلّبت الأحوال فهم يسمون على سائر أهل بلاد المغرب علماً وفقهاً ودينياً، ومدينة فاس لم تزل من يوم أسست مأوى الغرباء من دخلها استظونها وصلح حاله بها، وقد نزلها كثير من العلماء

والفقهاء والصلحاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم، فهي في القديم والحديث دار علم وفقه وحديث وعربية، وفقهاؤها الفقهاء الذين يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب لم يزل ذلك على مر الزمان، وذلك ببركة دعوة بانيها إدريس رضي الله عنه؛ فإنه لما أراد الشروع في بنائها رفع يده وقال اللهم اجعلها دار علم وفقه، يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها، ثم أخذ المعول بيده فابتدأ بحفر الأساس فلم تزل منذ بنيت إلى يومنا هذا وهو عام ستة وعشرين وسبعمئة دار علم وفقه، والسنة والجماعة بها قائمة، ويكفي من فضلها وشرفها ما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في وصفها، وأنه وجد في كتاب دراس بن إسماعيل أبي ميمونة بخط يده رحمه الله حدثني أبو مضر بالإسكندرية قال: حدثني محمد بن إبراهيم المواز، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن ملك بن أنس، عن محمد بن شهاب الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنهم، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((ستكون بالمغرب مدينة تسمى فاس أقوم أهل المغرب قبله وأكثرهم صلاة، أهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق، لا يزالون متمسكين به لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة))، وذكر ابن غالب في تاريخه أن الإمام إدريس لما عزم على بنائها ووقف بموضعها ليختطها مرّ به شيخ كبير راهب من رهبان النصري قد نيف على مئة وخمسين سنة كان مترهباً في صومعة قريبة من تلك الجهة فوقف بإدريس وسلم عليه، ثم قال له أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين قال إدريس أريد أن اختط بينها مدينة لسكني وسكن ولدي من بعدي يعبد الله تعالى بها ويتلى بها كتابه، وتقام بها حدوده. قال: أيها الأمير أن لك عندي في ذلك بشري. قال: وما هي أيها الراهب؟ قال أنه أخبرني راهب كان قبلي في هذا الدير، هلك منذ مئة سنة، أنه وجد في كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى ساف خربة منذ ألف سنة وسبعمئة

سنة وأنه يجدها ويحيي أثرها ويقيم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس يكون لها شأن عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائم بها إلى يوم القيامة. فقال إدريس: الحمد لله أنا إدريس، وأنا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنا بانيها إن شاء الله تعالى، فكان ذلك مما قوي عزم إدريس على بنائها فشرع في حفر أساسها.

قال المؤلف ويدل على صحة هذه الرواية ما رواه البرنوسي أن رجلاً من اليهود احتفر أساس دار بينها لسكناء بقنطرة عزيلة من المدينة المذكورة والموضع يومئذ شعر بالطخش والبلوط والطرفاء وغير ذلك؛ فوجد في الأساس دمية رخام على صورة جارية منقوشة على صدرها بالخط المسند هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم بموضعه بيعة للعبادة.

وكان تأسيس إدريس لمدينة فاس على ما ذكره المؤرخون الذين عنوا بتاريخها وبحثوا عن إهداء أمرها في يوم الخميس غرة ربيع الأول المبارك سنة اثنين وتسعين ومئة للهجرة أسس عدوة الأندلس منها وأدار بها السور وبعدها بسنة أسست عدوة الفرويين، وذلك في غرة ربيع الآخر من سنة ثلاث وتسعين ومئة وابتدأ ببناء سورة عدوة الأندلس القبلي فأدار السور على جميعها وبنا بها الجامع الذي برحبة البير المعروف بجامع الأشياخ، وأقام به الخطبة ثم شرع في بناء العدوة القرويين في سنة ثلاثة وتسعين المذكورة وكان موضعها شعرة وغياضاً ملتفة فكان يقطع الشجرة والخشب ويبنى في موضعه، وأعجبه ما رآه من كثرة العيون بها وتدفق الأنهار فانتقل عن عدوة الأندلس إليها ونزل منها بموضع يعرف بالغرمدة، وضرب فيه قيطونة، فأخذ في بناء الجامع فبنا المسجد المعروف الآن بجامع الشرفاء، شرفه الله بذكره وأقام فيه الخطبة ثم أخذ في بناء داره المعروفة الآن بدار القيطون التي يسكنها

الشرفاء الجوطيون من ولده ثم بنا القيسارية إلى جانب المسجد الجامع، وأدار الأسواق حوله من كل جانب وأمر الناس بالبناء والغرس، وقال لهم: «من أنشاء موضعا واغترسه قبل تمام السور بالبناء فهو له هبة ابتغاء وجه الله تعالى»، فبنى الناس الديار واغترسوا الثمار وكثرة العمارة والغيط؛ فكان الرجل يخطط موضع منزله وبستانه من الشعراء ثم يقطع منه الخشب فيبنى به لا يحتاج إلى خشب غيره، ووفد عليه في تلك الأيام جماعة من الفرس من بلاد العراق، فأنزلهم بناحية عين علون ومنهم بنو ملونة، وكانت عين علون شعراء من طخش وعليون وكلخ وبسباس وأشجار برية، وكان بها عبد أسود يقطع الطريق هنالك وكان الناس قبل بناء المدينة يتحامونها ولا يمرون بتلك الناحية ولا يقدر أحد على سلوكها من أجل علون المذكور والتفات الأشجار وهرير المياه والأنهار وكثرة الوحش المؤدية بها وكان الرعاة يتحامونها بمواشيهم ولا يسلكها إلا الجماعة من الناس فعرف إدريس بخبر علون حين شرع في بناء عدوة الأندلس فأمر بالقبض عليه فخرجت الخيل في طلبه فقبض عليه وأتى به إليه فأمر بقتله وصلب على شجرة هنالك كانت على رأس العين المذكورة فبقي علون مصلوبًا على تلك العين حتى تمزقت أشلاؤه، وسقطت أوصاله فسميت العين به إلى الآن.

وأدار الإمام إدريس سور عدوة القرويين وابتداه من رأس عقبة عين علون وصنع برأس العقبة بابا وسماه باب أفريقية، وهو أول باب صنع بالمدينة المذكورة، ثم هبط بالسور على عين دردور حتى وصل به إلى عقبة السعتر؛ فصنع هنالك بابًا وسماه باب حصن سعدون، ثم هبط بالسور إلى أول أغلان فصنع هنالك بابًا وسماه باب الفرس، ثم أدار السور مع أغلان حتى وصل به شفير الوادي الكبير الفاصل بين العدوتين، فصنع هنالك بابًا وسماه باب الفصيل، وهو الباب الذي يخرج منه إلى بين المدينتين، ثم جاز الوادي بالسور وطلع به مع ضفة النهر خمس مسافات، وصنع

هنالك بابًا سماه باب الفرج، وهو الذي يسمى الآن باب السلسلة، ثم جاز النهر أيضًا، بالسور إلى عدوة القرويين وطلع به مع النهر الكبير في أسفل القلعة إلى عيون بين اللصادي إلى الجرف، وصنع هنالك بابًا سماه باب الحديد، وهو في إعلاء القلعة؛ مما يلي الجرف ثم سار بالسور من باب القلعة المذكورة إلى باب أفريقية، فجاءت عدوة القرويين مدينة متوسطة كثيرة الأنهار والعيون والبساتين والأرجاء، لها ستة أبواب، وابتدأ أيضًا سور عدوة الأندلس من جهة القبلة، فبنا باب الفؤارة هنالك ومنه يخرج إلى مدينة سجلماسة، وهو الآن مبني يعرف بباب زيتون ابن عطية لم يفتح من سنة عشرين وستمئة، وهبط بالسور على المخفية إلى الوادي الكبير إلى برزخ وعمل هنالك بابًا يقابل باب الفرج من عدوة القرويين، ثم سار بالسور على الشيبوبة، وفتح هنالك بابًا يعرف بباب الشيبوبة مقابل لباب الفصيل من عدوة القرويين ثم سار بالسور إلى رأس حجر الفرج، فصنع هنالك بابًا سماه باب أبي سفيان، ومنه يخرج إلى بلاد غمارة وإلى الريف ثم سار بالسور على جرؤارة، فصنع هنالك بابًا شرقيًا يعرف بباب الكنيسة، ومنه كان يخرج إلى بلاد تلمسان، ومنه يخرج إلى حارة المرضى، فلم يزل الباب على ما بناه إدريس إلى أن هدمه عبد المؤمن بن علي أيام ظهوره على المغرب وفتحته لمدينة فاس، وذلك في سنة أربعين وخمسة فلم يزل الباب مهدومًا إلى أن بناه الناصر بن المنصور الموحد حين جدد سور المدينة، وذلك في سنة إحدى وستمئة، وسماه باب الخوخة، وكانت حارة المرضى بخارج هذا الباب؛ ليكون سكنهم تحت مجرى الريح الغربية؛ فتحمل الرياح أضرارهم ولا يصل منها لأهل المدينة شيء، وليكون تصرفهم من الماء وغسلهم بعد خروجه من البلد.

فلما كانت المجاعة العظمى التي خلا فيها المغرب وتوالت به الفتن وعدم الأقوات، وذلك من سنة تسعة عشر إلى سنة سبع وثلاثين وستمئة لما أراد الله تعالى من انقراض الدولة الموحدية وظهور الدولة المرينية بالمغرب - أطاها الله وخلدها -

فانتقل الجذماء في أيام المجاعة والفتنة من خارج باب الخوخة، وسكنوا بالكهوف التي خارج باب الشريعة من أبواب عدوة القرويين، وهي الكهوف التي بقرب الوادي بين مطمر الزرع وجنة المصاراة، فأقاموا هنالك إلى أن ظهرت دولة المرينية على المغرب، واستقام أمرها وأشرع نور عدلها، وشمل الناس من بركتها، فانجبر الناس، وعمرت البلاد، وتأمنت الطرقات وكثرت الخيرات، فرفع إلى أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق رحمهم الله ورضي عنهم أمر الجذماء، وأن تصرفهم وغسل ثيابهم وآنيتهم وأقدارهم في نهر مدينة فاس لقربهم منه، وأن ذلك ضرر لأهل المدينة فأمر -رحمه الله- عامله على المدينة وهو الشيخ أبو العلاء إدريس بن أبي قريش أن ينقلهم من هنالك ليعدوا من ماء النهر فنقلهم إلى كهوف برج الكوكب الذي بخارج باب الجيسة من أبواب عدوة القرويين، وذلك في سنة ثمان وخمسين وستمئة، وبنى إدريس بسور عدوة الأندلس القبلي بابًا وسماه باب القبلة فلم يزل الباب على ما بناه إدريس إلى أن هدمه دوناس الأزداجي حين غلب على عدوة الأندلس فدخلها بالسيف؛ فبناها الفتوح بن المعز بن زيري بن عطية الزناتي المغراوي أيام ولايته على المدينة المذكورة، وقيل أن الذي بناها الفتوح بن معنصر اليفرني وبه سميت.

قاله ابن غالب في تاريخه، وقال عبد الملك الوراق: وكانت مدينة فاس في القديم بلدين، لكل بلد منها سور يحيط بها وأبواب تختص بها، والنهر بين البلدين فاصلاً وهو الوادي الكبير الداخل من ناحية باب الحديد من أبواب عدوة القرويين فيجري بين العدوتين حتى يخرج من موضع يسمى بالرميلة قد صنع له هنالك في السور بابين عظيمين يخرج عليهما شبائك من خشب الأرز مزودة وثيقة يخرج منها الماء، وكذلك صنع له في موضع دخوله باب كبير عليه شباك محكم وثيق، وأسوار المدينة منيعة مرتفعة وأبوابها حصينة، فلعدوة القرويين في سورها الغربي باب الحديد، ومنه

يخرج إلى واديها وإلى جبال فازان ومعدن عوام وباب سليمان، وهو بابها الأعظم، ومنه يخرج إلى مدينة مراكش وبلاد المصامدة، وغير ذلك من بلاد المغرب، ولها أيضًا في سورها المرضي باب الجوف، وهو باب مقبرة ومنه يخرج إلى الرابطة القديمة التي برأس العقبة سُدّ في زمان المجاعة سنة سبع وعشرين وستمئة فلم يزل على حاله إلى الآن، ولها أيضًا في سورها الجوفي باب حصن سعدون، وهو الباب الذي كان أنشئه إدريس بعقبة السعتر فلما أكثر الناس بالمدينة واتسعت الأرباض بخارجها في أيام زناتة أدار عليها الأمير عجيسة بن المعز سورا وصنع فيه بابًا فوق باب حصن سعدون المذكور وسماه باسم عجيسة كما فعل أخوه الفتوح في عدوة الأندلس، فلم يزل باب عجيسة على حاله بقية أيام زناتة وأيام لمتونة إلى أيام أمير المؤمنين محمد أبي عبد الله الناصر الموحد حين أمر ببناء سور المدينة الذي كان هدمه جده عبد المؤمن عام أربعين وخمسمئة، فبنا فوق باب عجيسة بالقرب منه بابًا كبيرًا وسماه باسم باب عجيسة وترك باب عجيسة على حاله، ثم أمر بتغيير اسم الباب الذي بناه وترك إضافته إلى عجيسة فأسقط الناس العين من اسم عجيسة وادخلوا الألف واللام عوضا منها فقالوا باب الجيسة، ولم يزل باب الجيسة على ما بناه الناصر منها إلى أن تهدمت وتخرّب أكثرها لمر السنين عليها وتوالى الأيام والليالي فعرف أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق - رحمه الله ورضي عنه بأمره - وهو في بلاد الأندلس، فنفذ أمره الكريم من الجزيرة الخضراء ببناء الباب وإصلاحه، فجددت بأسرها ما عدا القوس البراني منها فإنه وجد صحيحًا فترك على حاله، وذلك في سنة أربع وثمانين وستمئة، وكذلك أمر أيضًا أمير المسلمين أبو يوسف، رحمه الله، بإصلاح السور القبلي من عدوة الأندلس فجدد أكثره ورمم ما تخلّق منه، وهدم من باب زيتون بن عطية إلى باب الفتوح على يد قاضيه الفقيه أبي أمية الدلائي، فأصلحه وأتقنه وذلك في سنة إحدى وثمانين وستمئة.

ودور مدينة فاس أكثرها على طبقتين الأعلى والأسفل، ومنها ما يكون على ثلاثة طبقات وأربع طبقات، وذلك لعقد تربتهم وكثرة خشب الأرز عندهم، وهو أطيب خشب في الأرض، يعمر العود منه في سقف البيت ألف سنة لا يعفن ولا وبتسوس ولا يعتره شيء ما لم يصبه الماء، ولم تزل الخطبة تقام في عدوتي مدينة فاس من حين بنيت إلى الآن خطبة بعدوة الأندلس وخطبة بعدوة القرويين، وقيسارية ودار سكة بكل عدوة منها، وكان بها في أيام زناتة سلطانان أخوان أشغاء أبناء الأمير المعز بن زيري بن عطية، وهما المفتوح وعجيسة فكان الفتوح بالأندلس وعجيسة بالقرويين وكل واحد منهما له جيش وحشم وألقاه الله تعالى بينهما العدو والبغضاء كل ذلك على طلب الرياسة وتنافسًا على الظهور في الدنيا فلم تزل الحرب بين الفريقين على قديم الزمان والقتال بينهما على ضفة النهر الكبير بموضع يعرف بكهف الرقادين بين المدينتين وكان أهل عدوة الأندلس. أهل نجدة وشدة، وأكثرهم يتحلل الحراث والفلاحة، وأهل عدوة القرويين أهل رفاة ونخوة في البناء واللباس والفرش والمطعم والمشرب، وأكثرهم صناع وتجار وسوقة، ورجال عدوة القرويين أجمل من رجال عدوة الأندلس ونساء عدوة الأندلس أجمل من نساء عدوة القرويين. وبمدينة فاس من أصناف الأزهار والفواكه ما لا يوجد في غيرها من البلاد إلا مفترقة في أقاليم شتى، وتوجد في مدينة فاس مجتمعة في نهاية الحسن والطيب، وتختص عدوة القرويين بكثرة الأنهار والأرجاء والعيون العذبة والآبار القريبة الطيبة، وبها الرمان السفري الذي ليس في المغرب مثله حلاوة ولذة، والتين السفري والسبتي الطيب الحسن، والعنب والخوخ والجوز والعناب والسفرجل والأنرج وسائر الفواكه الخريفية تأتي في عدوة القرويين في نهاية الطيب والحسن والحلاوة، وتختص عدوة الأندلس أيضًا بحسن الفاكهة الصيفية وطبيها كالتفاح الطرابلسي الحلو الأصفر الذي ليس مثله في جميع المغرب لحسنه وحلاوته ولذته ومطعمه وخفته وزفة بشرته

وطيب رائحته واعتدال حلقته، والتفاح الأبومي الطلحي والكلخي، وأصناف الكمثرى والمشمش والبرقوق والتوت كل ذلك بها في نهاية الطيب والحسن وبخارج بني مسافر من أبوابها موضع يعرف بمرج فرتة تثمر بها الأشجار مرتين في كل سنة فيأكل الناس التفاح والكمثرى بالمدينة الصيف والشتاء، ويحصد الزرع بفحص المصارات التي بخارج باب الشريعة من أبواب عدوة القرويين عن أربعين يومًا.

قال المؤلف للكتاب قد شاهدت الزرع حرث بالمصارات المذكورة في خامس عشر من شهر أبريل وحُصد في آخر شهر مايو منشئه في الطيب والبركة عن خمس وأربعين يومًا، وذلك في سنة تسعين وستمئة، وهو عام الشرفية دامت فيه الريح الشرفية أربعة أشهر، ولم ينزل مطر تلك السنة، ولم ترو أرض إلا في الثاني عشر من شهر إبريل المذكور، فحرث الزرع مخاطرة فجاء كما ذكرنا.

ومما تفوق به مدينة فاس سائر مدن الأرض أن بها ماء: ماء العيون، ومياه الأنهار؛ فمياه العيون باردة في الصيف حين يراد ذلك منها لتبريد الحر وقطع الظماء، وهي أيضًا مستخنة في الشتاء حين يحتاج إلى ذلك منها، ومياه الأنهار في العكس في ذلك سخينة في الصيف باردة في الشتاء، فلا يزال الماء المسخن والبارد موجودان بها في الشتاء والصيف، فهي بسبب ذلك معينة على الدين والطهارة والصلاة والتنظيف، واختلف الناس في السبب الذي سميت من أجله «فاس» فقليل أن إدريس لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيده مع الصناعات والفعلات والبناءين؛ تواضعًا منه لله تعالى ورجاء الأجر والثواب؛ فصنع له بعض خدمته فأسًا من ذهب وفضة فكان إدريس يمسكه بيده ويبدأ به الحفر ويخطط به الأساس للفعلة فكثير عند ذلك ذكر الفاس على ألسنتهم في طول مدة البناء فكان الفعلة يقولون هاتوا الفاس خذوا الفاس أحفروا

بالفاس فسميت مدينة فاس لأجل ذلك، قاله صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ويقال أنه أيضًا لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة وجد في الحفير فاسا كبيرًا طوله أربعة أشبار وسعته شبرًا وزنته ستين رطلًا فسميت المدينة به، وأضيفت إليه، وقيل أن إدريس لما شرع في بنائها قال له كاتبه: أيها الأمير، كيف تسميها قال سموها باسم أول رجل يطلع عليكم، فمر بها رجل فسألوه عن اسمه وكان التغ فقال اسمي فارس فأسقط الراء من لفظه لأجل اللثغة، فقال إدريس سموها كما نطق بها. فقالوا: فاس، وقيل سميت فاسًا لأن قومًا من الفرس نزلوها مع إدريس حين أسسها فسقط عليهم جرف فماتوا تحته من حينهم، ولم ينج منهم إلا قليل، فسميت بهم مدينة الفرس ثم خفف الناس الاسم، فقالوا: مدينة فارس ثم أسقطوا الراء من اللفظ اختصارًا فقالوا: مدينة فاس، وقيل لما تمت بالبناء قيل لإدريس كيف تسميها قال أسميها باسم المدينة التي كانت قبلها في موضعها الذي أخبرني الراهب أنه كان هنا مدينة أزلية من بنيان الأول؛ فخرجت قبل الإسلام بألف وسبعمئة سنة وكان اسمها مدينة ساف، لكن أقلب اسمها الأول واسمها به، فقلبه فأتى منه فاس فسميت مدينة فاس، وهذا أصبح ما يمكن في تسميتها والله أعلم.

ولما فرغ إدريس من بناء المدينة وأدار السور على جميعها وركب الأبواب أنزل بها القبائل كل قبيلة بناحية، فنزلت العرب القيسية من باب أفريقية إلى باب الحديد من أبواب القرويين، ونزلت الأزد على حدهم ونزلت الخصبون على حدّ الفيسية من الجهة الأخرى، ونزلت صنهاجة ولوالة ومصمودة والشيخان كل قبيلة بناحيتها فأمرهم إدريس بغرس الأرض وعمارتها فغرسوا جانبي الوادي من منبعثة بفحص أساس إلى مصبه بنهر سبوا بالشجر والكرم والزيتون وضروب الثمار؛ فعمرت الأرض بالحرثة والغراسة وأينعت الثمار، وأطعمت الكروم والأشجار من سنتها،

وذلك ببركة إدريس وأسلافه الطاهرين - صلوات الله عليهم ورحمته - وطيب التربة وعذوبة المياه واعتدال الهواء؛ فظهرت البركات وتوالت الخيرات وزادت العمارات، وقصدها الناس من جميع البلاد والجهات، وأتاها من رغب في جوار السلالة الكريمة الطاهرة أهل بيت المصطفى - صلى الله عليهم وسلم - ومن ركن إلى الأئمة والقافية، فاجتمع بها خلق كثير من اليهود ممن رغب في العافية، فأنزلهم بناحية أغلان إلى باب حصن سعدون وفرض عليهم الجزية؛ فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألف دينار، وأنزل جميع أجناده وقواده بعدوة الأندلس، وجعل بها جميع كسبه من الخيل والإبل والبقر والغنم بأيدي ثقاته، ولم ينزل معه بعدوة القرويين غير مواليه وحشمه وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقة، فأقامت مدينة فاس على ما بناه طول مدته وأيام ولده من بعده إلى أيام زناته؛ فكثرت العمارات بها وبنيت الأرياض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة، فبنيت بها الفنادق والحمامات والأرجاء والمساجد والأسواق من باب أفريقية إلى عين أيصيلن وبنى الناس من الجانب القبلي والجوفي والشرقي، ونزلتها القبائل من زناته ولواتة ومغيلة وجراوة وأوربة وهوارة وغيرهم، واقتطعوا الجهات فنزلت كل قبيلة جهة مثل حارة لواتة وحارة الربط وأغلان والضرامنة، وحارة ابن أبي برقوقة، وبرزخ، وحارة بني عامر والبحر الأحمر وغير ذلك، ودارت الأرياض بالمدينة من كل الجهات واتصل البناء بعضه ببعض.

وأما أهل الأندلس من قرطبة حين أوقع بهم الإمام الحاكم بن هشام وأجلاهم عن الأندلس إلى العدو فصعدوا إلى مدينة فاس وكانوا ثمانية آلاف بيت فنزلوا بعدوة الأندلس، وشرعوا بها في البناء يميناً وشمالاً إلى ناحية الكدان ومصمودة والفوارة وحارات الباردة، والكنيف إلى الرميطة فسميه بهم عدوة الأندلس.

وسميت عدوة القرويين لأن من نزلها مع إدريس ثلاثمئة بيت من أهل القرويين فسميت بهم ونسبت إليهم، وبنا بعدوة القرويين في أيام زناتة حمام قرقف وحمام الأمير وحمام الرشاشة وحمام الربض وبنا بعدوة الأندلس حمام جزواوة وحمام الكدان وحمام الشيخان وحمام الحرية وبنو الفناديق وزادوا مساجد كثيرة وأزالوا الخطبة عن جامع الشرفاء الذي بناه إدريس لصغرها وأقاموها بجامع القرويين لسعتها، ولم تزل مسجد الشرفاء على ما بناه إدريس بن إدريس لم يزد بها أحد من الملوك ولا من الرعيذة زيادة تحريًا منها وتبركًا بإبقاء ما بناه إدريس منها، إلى أن عفنت سقوفها وتخلفت جدارتها وأشرفت جميعها على السقوط والانكباء لتقدم العهد ومرور الأيام؛ فانتدب إلى بنائها الفقيه الموفى الحاج المبارك أبو مدين شعيب بن الفقيه الحاج المبرور المرحوم أبي عبد الله بن أبي مدين، ابتغاء وجه الله تعالى، ورجاء مغفرته وثوابه، فشرع في نقضها وبنائها وردها إلى ما كانت عليه من غير زيادة ولا نقصان؛ وذلك في سنة ثمان وسبعمئة.

وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن الغرب انتهى عدد مساجدها في أيام المنصور الموحّد وولده الناصر سبعمئة مسجد وخمسة وثمانون مسجدًا، وأحصى ما بها من السقايات وديار الوضوء مئة واثنان وعشرون موضعًا منها ديار الوضوء اثنان وأربعون وباقيها سقايات منها بمياه العيون ومنها بمياه الأنهار، وأحصيت الحمامات بها المبرزة للناس في تلك المدة؛ فكانت ثلاث وتسعين حمامًا، وأحصيت الأرجاء التي دار عليها سور المدينة؛ فوجدت أربعمئة حجر واثنين وسبعين حجرًا دون ما بخارجها من الأرجاء.

وأحصيت الديار بها في أيام الناصر فكانت تسعة وثمانون ألف دار ومائتي دار

وسنة وثلاثون دارًا وتسعة عشر ألف مضرية وإحدى وأربعون مضرية ومن الفنادق المعدة للتجارة والمسافرين والغرباء أربعمئة فندقًا وسبعة وستون فندقًا، وأحصيت الحوانيت بها في المدة المذكورة فكانت تسعة آلاف حانوت واثنان وثمانون حانوتًا، وقيسارتان إحدهما بعدوة القرويين والثانية بعدوة الأندلس على وادي مصمودة، وأحصى بها من الترايع والأطرزة المعدة للصناعة والحياكة ثلاثة آلاف موضعًا وأربعة وستون موضعًا، وكان بها من الديار المعدة لعمل الصابون سبعة وأربعون دارًا، ومن الديار للدباغ ستة وثمانون دارًا، وديار الصباغ مئة دار وستة عشر دارًا، وكان بها اثنا عشر دارًا لسبك النحاس، وكان بها من الكوش المعدة لعمل الخبز وبيعه مئة كوشة وخمس وثلاثون كوشة، وكان بها إحدى عشر موضعًا لعمل الزجاج، وبخارجها من الديار المعدة لعمل الفخار مئة دار وثمانية وثمانون دارًا، وكان بضفتي الوادي الكبير الذي يشقها من حيث يبتدي لدخول البلد إلى آخرها؛ حيث يخرج بالرميلة بالجانيين منه دار الصباغين وحوانيتهم ودار الدباغ ودار الصباغين وحوانيت الحناطين والقصابين والسفاجين والكوش والأفران المعدة لطبخ الغزل، وغيرهم مما يحتاج إلى الماء وفي إعلاء ذلك دله أطرزة للحياكة، ولم يكن بالمدينة واد يظهر للناس حشا الوادي الكبير المذكور، وباقي أنهار بني عليها ديار وبني أعلاها ديار ومصاري وحوانيت ولم يكن داخلها رياض ولا غرس حاشا زيتون ابن عطية خاصة، وكان بها أربعمئة حجر لعمل الكاغيد، وخرب ذلك كله في أيام المجاعة والفتنة التي كانت في أيام العادل وأخيه المأمون والرشيد، وذلك من سنة ثمانية عشر إلى سنة سبع وثلاثين وستمئة، وكان توالي مدة الخراب عليها عشرين سنة، إلى أن ظهرت دولة المرينية فانجبرت البلاد وتأمنت الطرقات، قال المؤلف نقلت ذلك كله من تقييد بخط الشيخ الفقيه المشرف أبي الحسن علي بن عمر الأوسي نقله من زمام بخط المشرف القوبقر مشرف المدينة في أيام الناصر الموحد. وذكر ابن

غالب في تاريخه أن الإمام إدريس لما فرغ من بناء المدينة وحضرت الجمعة - صعد المنبر وخطب الناس، ثم رفع يده في آخر خطبته، فقال: «اللهم إنك تعلم إنني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك فيها، وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد - صلى الله عليهم وسلم - ما أبقيت الدنيا، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير، وأعنهم عليه وأكفهم مؤنة أعدائهم، وأدر عليهم الأرزاق وأعمد عنهم سيف الفتنة والشقاق والنفاق، إنك على كل شيء قدير»

فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات بالمدينة وظهرت البركات فكان الزرع بها في أيام إدريس وأيام ذريته لا يباع ولا يشتري لكثرت، فبلغ وسق القمح بها في أيامهم درهمين، ووسق الشعير درهماً، والقطنية ما لها سوم، والكبش بدرهم ونصف، والبقرة بدراهم، والعسل خمسة وعشرين رطلاً بدرهم، والفاكهة لا تباع ولا تشتري من كثرتها دام ذلك بها خمسين سنة.

ولما فرغ إدريس من بناء المدينة وانتقل إليها بجملته واستوطنها واتخذها دار ملكه أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومئة فخرج إلى غزوة نفيس وبلاد المصامدة فوصل إليها فدخل مدينة نفيس، ومدينة أغمات وفتح سائر بلاد المصامدة، ورجع إلى مدينة فاس؛ فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين؛ فخرج منها برسم غزو قبائل نفرة فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فنظر في أحوالهم وصلح أسوارها وجامعها وصنع فيها منبراً.

قال أبو مروان عبد الملك الوراق: دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمئة؛ فرأيت في رأس منبرها لوحاً من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوب «هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين

بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومئة، فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازا ثلاث سنين ثم رجع إلى مدينة فاس؛ فلم يزل بها إلى أن توفي - رحمه الله - في سنة ثلاث عشر ومئتين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ودفن بمسجده بإزاء الحائط الشرقي منها وقيل دفن قبلتها.

وقال "البرنوسي" توفي إدريس بن إدريس بمدينة "وليلي" من بلاد زرهون في الثاني عشر من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشر ومئتين المذكورة، وسنة يومئذ ثمان وثلاثين سنة، ودفن إلى جانب قبر أبيه برباطة وليلي وكان سبب وفاته أنه أكل عنباً فسوّق حبة منه فمات من حينه فكانت أيام ملكه بالمغرب ست وعشرين سنة، وخلف من الولد اثني عشر ذكراً أولهم محمد، وعبد الله وعيسى، وإدريس، وأحمد، وجعفر ويحيى، والقاسم، وعمر، وعليّ، ودواد، وحمزة فولي بعده محمد وهو أكبر منهم.

الخبر عن دولة الأمير محمد بن إدريس بن إدريس الحسني بالمغرب
هو الأمير محمد بن الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - أمه حرة من أشراف نفرة. صفته: أسمر اللون، حسن القدّ، شاب السن، مليح الوجه أجعد الشعر، لما ولي قسم بلاد المغرب بين أخوته، وذلك برأي جدته كنزة أم أبيه، ولي أخاه القاسم مدينة طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر ومدينة تطون وبلاد مصمودة، وما ولي ذلك من البلاد والقبائل، وولي أخاه عمر مدينة تيجنسّاس، ومدينة ترغنة، وبلاد صنهاجة، وغمارة. وولي أخاه دواد بلاد هوار، وبلاد تسول، ومكناسة، وجبال غياثة. وولي أخاه يحيى مدينة البصرة، ومدينة أصيلا ومدينة العرايش إلى بلاد ورغة، وولي أخاه أحمد مدائن: مكناسة، وبلاد فازان، ومدينة تادلا. وولي أخاه عبد الله مدينة أغمات وبلاد نفيسة، وبلاد المصامدة، والسوس الأقصى، وولي أخاه حمزة مدينة تلمسان وأعمالها، وأقام

هو بمدينة فاس دار ملكهم وقرار سلطانهم، وتصاغر الباقون عن الولاية؛ فبقوا في كفالة جدتهم مع أخيهام محمد الأكبر، فأقام الأدارسة ولاة على بلاد المغرب فضبطوا ثغورهم، وحكموا بلادهم، وأمنوا سبلهم، وحسنت سيرتهم إلى أن خرج على الإمام محمد أخوه عيسى بمدينة شالة وبلاد تامسنا، ونكث بيعته ونبد طاعته واستبد لنفسه، فكتب الإمام إلى أخيه القاسم صاحب طنجة وسبته يأمره بحربه؛ فامتنع القاسم من ذلك، وأحجم عنه فكتب محمد إلى أخيه عمر صاحب مدينة تيجنساس وبلاد غمارة بمثل ما كاتب به القاسم، فامثل أمره وسارع إليه وجمع عسكرياً عظيماً من قبائل البربر من غمارة وأوربة وصنهاجة وغيرهم، وسار نحو عيسى، فلما قرب من أحوازه كتب إلى أخيه محمد يستمدد فأمده بألف فارس من قبائل زناتة وفرسانهم فمضى عمر لوجهه فأوقع بأخيه عيسى وهزمه هزيمة عظيمة، وأخرجه عن مدينة شالة وعن سائر عمله، وولي بلاده وكتب إلى أخيه محمد بالفتح والهزيمة؛ فكتب إليه الإمام محمد يشكر فعله ويوليه عمله، ويأمره بالمسير إلى قتال أخيه القاسم الذي عصى أمره؛ فسار الأمير بجيوشه إلى قتال أخيه القاسم حتى نزل عليه بمدينة طنجة فخرج القاسم إلى لقائه فكانت بينهما حرب شديدة ثم هزم فيها القاسم واحتوى عمر على ما بيده من البلاد، وسار القاسم إلى ساحل البحر مما يلي مدينة أصيلا فبنى هنالك مسجداً على ضفة النهر بموضع يعرف بتاهرات. فقام يتعبد فيه وزهد في الدنيا إلى أن مات - رحمه الله - وأقام الأمير عمر بن إدريس عاملاً لأخيه محمد على ما كان بيده وبيد أخيه القاسم إلى أن توفي بموضع يقال له فج الفرس من بلاد صنهاجة؛ فحمل إلى مدينة فاس فدفن بها، وصلى عليه أخوه محمد الإمام عمر بن إدريس هذا هو جد المحموديين القائمين بالأندلس بعد الأربعمئة للهجرة وترك عمر بن إدريس من الولد علي وإدريس أمهما زينب بنت القاسم الجعدي، وعبد الله ومحمد أمهما جارية متولدة اسمها رباب، وأقام الإمام محمد بن إدريس بعد وفاة

أخيه عمر سبعة أشهر، وتوفي بمدينة فاس، فدفن بشرقي جامعها مع أبيه وأخيه، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومئتين؛ فكانت أيامه بالمغرب ثمانية أعوام وشهرًا واحدًا واستخلف ولده علي في مرضه الذي توفي منه.

الخبر عن دولة الأمير علي بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسني هو الأمير علي بن محمد بن إدريس بن إدريس

أمه حرة، اسمها: رقية بنت إسماعيل بن عمير بن مصعب الأزدي بويح يوم وفاة أبيه فاستخلافه له في حياته وسنه يوم بويح تسعة أعوام وأربعة أشهر، فظهر منه من الذكاء والنبيل والفضل ما يقتضيه شرفه وحسبه الصميم، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل والفضل والدين والحزم وإقامة الحق وتأسيس البلاد وقمع العداء وضبط البلاد والثغور، فكان الناس بالمغرب في أيامه في أمن ودعة إلى أن توفي في شهر رجب من سنة أربع وثلاثين ومائتين فكانت أيامه بالمغرب نحو الثلاثة عشر سنة وولى بعده أخاه يحيى.

الخبر عن دولة الأمير يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسني

هو الأمير يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن عليّ ابن أبي طالب، رضي الله عنهم، وولي بعد وفاة أخيه عليّ وبعهده إليه في حياته، فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده، وفي أيامه كثرت العمارة بفاس، وقصد إليه الناس من الأندلس وأفريقية وجميع بلاد المغرب، فضاقت بسكانها فبنى الناس الأرياض بخارجها، وبنى الأمير يحيى بها الحماقة والفنادق للتجارة، وفي أيامهم بني جامع القرويين شرّفه الله بذكره.

الخبر عن جامع القرويين وصفته وما زيد فيه في كل زمان من حين أسس إلى وقتنا هذا وهو عام ستة وعشرين وسبع مئة
قال المؤلف، عفا الله عنه، لم تزل الخطبة بجامع الشرفاء الذي بناه إدريس بعدوة القرويين، وبجامع الأشياخ من عدوة الأندلس، طول أيام الأدارسة.

وكان موضع جامع القرويين أرض بيضاء يعمل بها أصناف الجصّ، وبها أصناف من الشجر لرجل من هواراة كان قد حازها والده قبله حين بنيت المدينة؛ فأتى أهل وفد القرويين إلى إدريس في جمع كثير بعيالاتهم وأولادهم؛ فأنزلهم حوله بعدوة القرويين، وكانت فيهم امرأة مباركة سالحة اسمها فاطمة وتكنى أم البنين بنت محمد الفهري القيرواني أتت من أفريقية مع أختها وزوجها فسكنوا بالقرب من موضع الجامع المذكور، فتوفى زوجها وأختها، فورثت منهم مالا جسيما حلالا طيبا ليس فيه شبهة، لم يتغير ببيع ولا شراء، فأرادت أن تصرفه في وجه البرّ وأعمال الخير، فعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه في الآخرة يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، فاشترت موضع القرويين ممن كان حازه، ودفعت إليه المال، ثم شرعت في حفر أساسه وبنائه، وذلك يوم السبت مهل رمضان سنة خمس وأربعين ومائتين فبنته بالطينة والكدان، وحفرت في وسطه فصنعت كهوفاً واقتطعت الكدان، وأخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب، فبنت به الجامع المذكور كله حتى تم، ولم تدخل فيه أشياء من تراب غيرها.

وحفرت البئر التي في الصحن فكان البناءون يسقون منها لبناء الجامع المكرم حتى فرغ من بنائه ولم تصرف فيه سواه احتياطاً منه وتحرياً من الشبهات، ولم تزل فاطمة القروية المذكورة صائمة من يوم شرع في بنائه إلى أن تم، وصلت فيه شكراً لله تعالى الذي وفقها لأعمال الخير.

وكان المسجد الذي بنته فاطمة المذكورة أربع بلاطات وصحن صغير وجعلت

محاربه في موضع الثريا الكبرى الآن، وجعلت طوله من الحائط الغربي إلى الحائط الشرقي مئة وخمسين شبرًا وبنت صومعة غير مرتفعة في موضع القبة التي على رأس العنزة الآن، فتم الجامع أربع بلاطات وصحن صغير ذكره أبو القاسم بن جنون في تفسيره في تاريخ مدينة فاس، وقيل كانتا أختين فاطمة أم البنين ومريم بنتي محمد الفهري المذكور، فبنت فاطمة الجامع القرويين وبنت مريم جامع الأندلس من مال حلال طيب موروث عن أبيهما وأخوتهما فلم يزل المسجدان على ما بنته الأختان المذكورتان بقية أيام الأدارسة كلها حتى انقضت أيامهم وملكت زناته على البلاد واستقام ملكهم بالمغرب، فبنوا الأسوار على أرباض العدوتين والأندلس والقرويين، فزادوا في الجامعين القرويين والأندلس زيادة كثيرة حدودها باقية إلى الآن، وكثر الناس وضاق مسجد الشرفاء بالناس لصغره، فأزالوا عنه الخطبة وأقاموها بجامع القرويين لكبره وسعته، وصنعوا به منبرًا من خشب الصنوبر، وذلك في سنة ست وثلاثمئة، وكان أول خطيب خطب به الشيخ الفقيه الصالح أبو محمد عبد الله بن عليّ الفارسي، وقيل أن أول من أزال الخطبة عن مسجد الشرفاء ونقلها إلى جامع القرويين الأمير حامد بن محمد الهمداني عامل عبيد الله الشيعي على المغرب؛ وذلك في سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة، ونقل الخطبة عن مسجد الأشياخ بالعدوة إلى جامع الأندلس، وكان أول خطيب خطب به الفقيه الصالح أبو الحسن بن محمود الصديقي، فلم يزل الأمر على ذلك، ولم يزل الجامعان على حالهما - القرويين والأندلس - إلى أن تغلب أمير المسلمين عبد الله الناصر لدين الله ملك الأندلس على بلاد العدو فبايعته مدينة فاس فيمن بايعه، فولى عليها عاملًا له من زناته يعرف بأحمد بن أبي بكر الزناتي، وكان رجلًا فاضلاً من أهل الدين والفضل والورع، وكتب إلى أمير المؤمنين الناصر يستأذنه في إصلاح مسجد القرويين وإتقانه والزيادة فيه فأذن له في ذلك، وبعث إليه بهال كثير من أخماس غنائم الروم، وأمره أن يصرفه في

بنائه فأصلح جامع القرويين وزاد فيه من ناحية الشرق وناحية المغرب والجوف وهدم صومعته القديمة التي كانت فوق العترة وبنا الصومعة التي به الآن.

الخبر عن بناء صومعة القرويين شرف الله ذكره

لما شرع الأمير أبو العباس أحمد بن أبي بكر في بناء صومعة القرويين جعل سعة كل وجه منها سبعة وعشرين شبراً فيتحصل في الأربع جهات مئة شبر وثمانية أشبار، وهو الذي في ارتفاعها بلا شك ولا ريب، وكذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسي وجعل بابها من جهة القبلة وكتب عليه في مربعة بالخص وحشاه بالأزورد «بسم الله الرحمن الرحيم المثلث لله الواحد القهار هذا ما أمر به أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي سعيد عثمان بن سعيد الزناتي هداه الله ووفقه ابتغاء ثواب الله تعالى وجزيل إحسانه فابتدأ العمل في هذه الصومعة في يوم الاثنين غرة رجب الفرد من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وفرغ من بنائها وتشيدتها في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة» وكتب في طرفي المربعة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وجعل في تربعة أخرى من جهة الصحن مكتوب فيها {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم}.

وركب على رأس المنارة تفافيحاً صغرى مموهة بالذهب وركب في أعلاها سيف الإمام إدريس بن إدريس الذي بنى المدينة تبركاً به، وسبب إلقاء المنار أن الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي لما فرغ من بناء الصومعة اختصم إليه بعض حفدة إدريس في السيف المذكور وطلب كل واحد منهم أن يحوز السيف لنفسه فطال

نزاعهم فيه بين يديه فقال لهم الأمير أحمد بن أبي بكر هل لكم أن تبعوه مني وتتركوا النزاع فيه، قالوا: وما تصنع به أيها الأمير؟ قال: اجعله في إعلاء هذه الصومعة التي بنيت تبركاً به. فقالوا: أما إذ تفعل هذا فنحن نهبة لك طيبة بذلك نفوسنا. فوهبوه له، فجعله في إعلاء المنار. ولم تزل الصومعة على ما بناها أحمد بن أبي بكر بالحجر المنجور المحكم وبها أثقاب تعشش فيها الطيور وأصناف الطير من الحمام والزرراير إلى أن ولي الفقيه الخطيب الصالح أبو عبد الله بن أبي الصبر خطة القضاء مع الخطابة والإمامة بالجامع المذكور، وذلك في سنة ثمان وثمانين وستمئة؛ فاستشار في إصلاحها وتبييضها وإصلاحها أمير المسلمين أبا يعقوب بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، رحمهم الله ورضي عنهم، فأذن له في ذلك وأمره أن يأخذ من أموال أعشار الروم ما يحتاج إليه، فقال: إن في مال الأعباس ما فيه كفاية إن شاء الله. فشرع في تبييضها فلبس الصومعة بالحصّ والجيار، وسَمّر المسامير الكبيرة بين أحجارها ليثبت التليس والبناء فدخل فيها من المسامير ثلاثة عشر ربعاً ونصف ربع، فلما فرغ من تلييسها دلّكها حتى صارت كالمرأة الصقلية فانقطعت منها أذاية الطير، فحسنت وبنى حينئذ الغرفة التي على بابها البيت للمؤذنين والخصوصة، وبقي الجامع المكرم على ما زاد فيه الأمير أحمد بن أبي بكر إلى أيام هشام المؤبد، فتغلب حاجبه المنصور بن أبي عامر فبنى بالجامع المبارك القبة التي على رأس العنزة في وسط الصحن؛ حيث كان المنار القديم، ونصب على إعلائها طلاسماً وتمانيلاً كانت قبل ذلك على رأس القبة فوق المحراب مما صنعه الأوائل، ومنه ما صنع في أيام الشيعة، فجعل الطلاسّم على أعمدة من حديد فوق القبة منها طلسم للفار فكان الفار لا يدخلها ولا يعشش فيها ولا يفرخ بها، وأن دخلها افتضح وقتل.

ومنها طلسم للعقرب وهو صورة طائر في منقارة شبه ذنب عقرب فالعقرب لا يدخل الجامع المكرم أصلاً ولا يفرخ فيها وأن أدخله بعض المصلين في توبة ملصقة

جمد فلا يتحرك، قال الحاج الفقيه ابن هارون: لقد شاهدت عقرباً ظهر به في يوم جمعة جاءت في ثياب بعض المصلين وفي بعض أمتعتهم فوقعت بين الصفوف جامدة فلا تتحرك كمثل الميت حتى كملت الصلاة، والناس قد فسحوا من حولها خوفاً من إزائها فلما فرغوا من الصلاة قتلوها فتحركت حين قتلت وهذه غايتها.

ومنها طلسم على رأس عمود من نحاس أصفر فيه تفافيح يذكر أنه للحية فهي أيضاً لا تنفرخ فيها ولا تدخلها وأن دخلتها انتضحت وقُتلت وقيل أن ما وجد فيها من الحيات فهو من عمار الجن وهذا لا ينكر ولم ويجد قط على قديم الزمان وحديثه من لدغته فيه حية ولا عقرب، وبنا أيضاً الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر السقافة والبيت المستظلة بإزار باب الحفات وجلب إليها الماء من وادي حسن الذي بخارج المدينة من ناحية باب الحديد وصنع بالجامع المكرم منبراً من خشب القنب والأبنوس وكتب عليه «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً، هذا ما أمر بعمله الخليفة المنصور سيف الإسلام عبد الله هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن أبي عامر - وفقهم الله تعالى - وذلك في شهر جمادي الآخرة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة».

فكان ذلك المنبر يخطب عليه إلى أيام لمتونة ولم تزل المولاة والأمراء والملوك يهتمون في الزيادة في الجامع المكرم وإصلاح ما تهدم منه تبركاً به وابتغاء ثواب الله تعالى حتى قام المرابطون بالمغرب وملكوا جميعه وجاءت دولة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، فكثرت العمارات بالمدينة وتناهت القبضه، فضاقت الجامع بكثرة الخلق حتى كان الناس في أيام الجمعة يصلون في الأسواق والشوارع والطرق؛ فاجتمع الفقهاء والأشياخ وتكلموا في ذلك مع قاضي المدينة، وهو الفقيه

أبو عبد الله محمد بن داود، وكان أحد القضاة الفضلاء من أهل العلم والعدل والورع، فأعلم القاضي إلى أمير المسلمين بما رُفِع إليه من أمر الجامع المكرم واستأذنه في الزيادة فيه، فأذن له فيه، وقال له يكون فيه الإنفاق في ذلك من بيت المال، فقال له القاضي: لعل الله أن يغنيه عنه بماله الذي يجمع من أحباسه بأيدي الوكلاء. فأمره علي بن يوسف بتقوى الله تعالى والتحري في ذلك من الشبهات والاجتهاد في أمر الجامع وبنائه، والزيادة فيه والنظر في أحباسه وجميع أمواله واستخراجها، فدعا له وانصرف عنه إلى مجلس قضائه فسأل عن الأحباس، فوجدها في أيدي قوم قد أكلوها وحسبوها من أموالهم فأزالها عن أيديهم وقدم وكلاء غيرهم ممن يوثق بدينهم، وحاسب المعزولين الذين كانت بأيديهم وطالبها بغلات الرباع والأرضين المحبسة فخرج عنهم بالمحاسبة أموالاً كثيراً فأغرمهم إياها وأضاف إليه غلة تلك السنة، فاجتمع له من ذلك ما يزيد على الثمانين ألف دينار ثم شرع في الزيادة في الجامع من قبلته وشرفه وغربه؛ فابتدأ بشراء الأملاك والديار التي في قبلة الجامع وشرقه وغربه، فاشترى منها ما أحب واحتاج إليها بأحسن شراء وأتم ثمن دون غبن على أحد في ذلك، وكان أكثرها ديار اليهود لعنهم الله.

ومن امتنع من البيع قوم عليه موضعه ودفع له الثمن بالزيادة، اقتداء بعمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين زاد في المسجد الحرام فلما كمل له من شراء الدور ما أراد وما يصلح به أخذه في هدمها وبيع نقضها فاجتمع له في ثمن نقضها مثل قيمتها التي اشترى به وبقيت الأرض وزيادة بركة من الله تعالى فرضاها للجامع في البناء فبنى أولاً الباب الكبير الغربي وهو باب الفخارين القدماء ويعرف الآن بباب الشماعين، وكان يجلس على بنائه بنفسه فحسنة في طوله وارتفاعه وعرضه واتساعه وركب عليه أبواب عظيمة، وحسن قواعده حتى لا يمكن أن يصنع مثله وصنع على ظاهر الباب من داخل المسجد قبة مكتوب فيها: «صنعت

هذا الباب والقبة، وكلت بالبناء والتركيب فى شهر ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وخمسة.

ولما حفر أساس هذا الباب وجد تحت رتاج المصرع الذى عن يسار الداخل فى الباب المذكور؛ حيث هى الدكانة الآن عين ماء مغبو عليها تربيع شبه الصهرىج طوله ثمانية أشبار، وعرضه كذلك. والبناء عليه مغبو لا يعلم أحد كم له من السنين فخیل لهم، أنه كنز مدفون فهدم الأقباء فلم يجدوا غير صهرىج یندقق بماء معين وفيه سلحفا قد ملأت الصهرىج بأسره من أوله إلى آخره فلما أرادوا إخراجها منه فلم يستطيعوا ذلك، فاستشار القاضى ابن داود الفقهاء فى أمره فاجتمع أمرهم أن یترك فى موضعه، ويعاد عليه الأقباء كما كان فسبحان الله العظیم القائم برزقه الخالق لما یشاء لا إله إلا هو إلیه المصیر فبنى علیه موضعه، وأعاد علیه الأساس، وطبع الباب وجعلت قواعد من نحاس أحمر قاله أبو القاسم بن جنون.

قال المؤلف للكتاب: رأیت تقييداً بخط الحاج الفقيه الصالح أبى الحسن بن محمد بن فرون الأزدي أن الأقباء المذكورة إنما وجدت فى موضع رتاج المصرع الذى على یمین الداخل من ناحية القرسطون، ولم یزل الباب الكبير على ما بناه القاضى أبو عبد الله بن داود إلى أن احترق السوق فى ليلة أربع وعشرين من شهر جمادى الآخرة من سنة إحدى وسبعین وخمسة لقطع حريق النار من سوق باب السلسلة حتى وصل إلى باب المذكور؛ فاحتقرت القبة التى كانت أمامه فى الخشب وأحرق أكثر الباب فجددت الباب والقبة على يد السيد أبى حفص بن أمير المسلمين يوسف بن على بن عبد المؤمن بن على، وبأمره وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ستمئة وكان الناظر فى بنائها أبو الحسن بن محمد الأزرق العطار، والإنفاق فيها من بیت مال المسلمين على يد القاضى أبى یعقوب بن عبد الحق، وتوفى القاضى الفقيه أبو

عبد الله بن داود فولي القضاء مكانه الفقيه المبارك عبد الحق بن عبد الله بن معينة فحذا حذوه واقتفا أثره في ذلك، وجمع أهل البناء والنظر السديد وكان من نظره أن يجعل محراب القرويين على عين قرقاف فلم يمكنه ذلك لأجل ديار الفقيه أبي علي بن أبي الحسن التي تعرضت له في طريقه، فكان الذي أجمع رأيهم عليه من الزيادة ثلاث بلاطات ومحراب ومنبر، وزاد فيه من ناحية الغرب البلاط المرتفع على الأرض المذكورة من القبلة إلى الجوف، وزاد فيه من ناحية المشرق بلاطين من القبلة إلى المستودع، بنى ذلك كله بترابه الذي خرج منه ولم يدخل في بنائه من تراب الكهوف والمقاطع التي يبنى الناس منها شيء، وكذلك الكذان الذي بنيت به أنما قطع منها، لأنه حفر في وسط البلاط الثاني من القبلة حفيرا يظهر فيه كهف بعيد المراخي لا يظهر قعره، فكان الفعلة يقطعون الكذان منه ويحفرون التراب ويخرجه الرجال على رؤوسهم للبنائين فيبنون به، ولم يصرفوا في بنائه ماء حاشى ماء البئر الذي في الصحن كل ذلك تحرياً من الشبهات إلا يدخله وتأثق في بنائه غاية وتحفظ وراء من نظره السديد أن يجعل الأبواب كلها مغشياً بالنحاس الأصفر ويبدلها مما هي عليه ويعمل أمام كل باب قبة ويزيد في سعته وكمال ويبدل الصومعة؛ فشرع في بناء المحراب والقبة التي عليه منقوشين بالذهب والأزورد وأصناف الأصبغة فتم ذلك على غاية الجمال والكمال وكان يبهت الناظر إليه من حسنه ويشغل المصلى، فلما دخل الموحدون المدينة، وذلك يوم الخميس الخامس عشر ربيع الآخر سنة أربعين وخمسة، خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن يستنقذ الموحدون عليهم ذلك النقش والزخرف الذي فوق المحراب لأنهم قاموا بالتقشف والناموس فقل لهم أن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن عليّ يدخل غداً المدينة مع أشياخ الموحدين يرسم صلاة الجمعة بالقرويين، فخافوا لذلك فأتى الحامون الجامع تلك الليلة فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغيد ثم لبسوا عليه بالجلس

وغسل عليه بالبياض، وذلك فنقصت تلك النقوش كلها وصارت بياضاً.

وصنع المنبر الذى به الآن من الأبنوس والصندل والعاج والنارنج والعناب وأصناف الخشب العظيم، وكان الذى عمله عليه وأنحته الشيخ الأديب أبو يحيى العتاد عمر عمراً طويلاً حتى نيف على المئة وكان أماماً فى اللغة والشعر فغشي منها ثلاثة، وجاءته العزلة، فعزل والمنبر والبناء وباب الجنائز وصحنه كل ذلك على أن يتم.

فولى بعده قضاء المدينة المذكورة الفقيه الحافظ العالم المشاور أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيصى؛ فتم ذلك كله على ما بدأه أبو محمد عبد الحق بن معيشة، حاشا نقشه باقى الأبواب بالصفى وإبدال الصومعة، فإنه لم يرد فى ذلك شيئاً، ووقف فيه حيث انتهى من معيشة، وكان الفراغ من هذه الزيادة المذكورة وحجرة الجامع وباب الجنائز والمنبر فى شهر شعبان المكرم سنة ثمان وثلاثين وخمسة.

وأول خطيب خطب عليه الشيخ الصالح أبو محمد مهدي بن عيسى وكان من أفصح الناس وأكثرهم قريجة، كان يخطب كل جمعة خطبة لا تشبه الأخرى فلما دخل الموحدون المدينة بدلت أحوال بأحوال، ورجال برجال، وبدل الخطباء والأئمة بجميع البلاد؛ فكان لا يؤم ولا يخطب إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربرى.

وأما الصحن بالجامع المكرم فعمل وفرش فى أيام الفقيه القاضى أبى عبد الله بن داود وكان الذى نزل فرشه وبناه صخر البناء وكان من أعرف الناس بالبناء والنجارة، وكان قد فرشه غيره قبله فلم يرض عمله ولم يكمل، فحفره العريف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الخولاني، واشترط على نفسه ألا يبقى فيه تحصيناً ولا رقدة، وأنه إن صب أعلاه قلة ماء انحدرت فى أسفله مجموعة لا ينقص منها شيئ

لشدة اعتداله، فكان رحمه الله باع أربعة من الديار أصولاً موروثة عن آبائه، وصنع بأثائها أجر أشبه البجماط نصف أجرة الطول، وصنع الجير، فبناه العريف المذكور بمئة وبدأ هو وصخر بن مسعود حتى كمل عمله وإتقانه ولم يأخذ عليه شيئاً إلا ابتغاء ثواب الله تعالى نفعهما الله بنيتهما.

وكان جملة ما دخله من الأجر لفرشه أربعة وأربعون ألف أجرة لأن طول الصحن أحد عشر قوساً في القوس الواحد من القبلة إلى الجوف عشرون صفّاً في كل صف مئتي أجرة فيتحصل في كل قوس أربعة ألف أجرة، فجملة ما يحصل في أحد عشر قوساً أربع وأربعون ألف أجرة، وحوله طرد ديار فيه ثمانية ألف أجرة فيجتمع في الجميع كله اثنان وخمسين ألف أجرة دون شك ولا ريب.

وكان فراش الصحن وبناء الباب الكبير المقابل القرسطون على يد القاضي بن دواد المذكور في سنة ست وعشرين وخمسمئة، ولما تم الصحن الفرش والبناء أمر الفقيه القاضي فصنع بكاكير وشرائط غليظة وقلاع من شفاق الكتاب مبطنة بالمغبرة على قدر الصحن وما يظله فكان إذا أتى زمان الصيف واشتد الحرب شدد البكاكير وجبدت الشرائط فيرتفع القلاع في الطوي على الصحن كله، فيستظل الناس تحته من حر الشمس ويكونون في الظل، وجعل في القلاع أبواباً للرباط تدخل منها ليلاً يهلك الناس بالغم والحر، فلم يزل القلاع تنصب في زمن الصيف فيستظل به الناس في زمان الحر كله حتى تمزق بطول السنين ومر الأيام والليالي، فلم يقدر أحد أن يعمل مثلها.

وأما الخصة والبيلة التي بالصحن فعملت في سنة تسع وتسعين وخمسمئة على يد أبي عمران موسى بن حسن بن أبي شامة، وهو صانعها، وكان من أهل الهندسة والمعرفة بالبناء، وكان الذي أنفق فيها ماله الفقيه المبارك أبو الحسن السجلماسي -

نفعنا الله بقصده - وكان من أهل الدين واليسار والإيثار، كان يتصدق كل يوم بعشرة دنانير من صُلب ماله وربحه، ولما شرع في عملها أخرج من المعدة الكبيرة قادوس من رصاص، فشق به في الصحن حتى وصل إلى البيلة والخصبة المذكورتين وهي بيلة من رخام أبيض لم ير مثلها لحسنها وصفائها وشدة بياضها وطولها، وفيها عشرون ثقباً من جهة اليمين وعشرون ثقباً من جهة الشمال وينصب الماء إلى البيلة من أنابيب خمسة، فإذا امتلأت انحدر الماء في الأربعين ثقباً التي على اليمين والشمال فيصير إلى الخصبة وهي خصبة من نحاس أحمر مموه بالذهب قامت على ساق من نحاس مموه منقوش طوله خمسة أشبار من الأرض وقسم الساق بنصفين يصعد الماء من النصف الواحد فيفور في وسط الخصبة من تفاحة فيها عشر أنابيب فيملأ الخصبة ثم يغور في أثقاب بجوانب الخصبة لأنها بطانتين ثم ينحدر من النصف الثاني من العمود المذكور فلا تزال البيلة والخصبة مملوكان بالماء يجريان ولا يسيل على الأرض منها قطرة واحدة والناس يشربون منها ويتنفعون بهاها وصنع حول الخصبة أكواب مموهة بالذهب بسلاسل من نحاس دايرة يشرب بها الناس منها وفوق البيلة شبك من رخام أبيض عابة في الزمان وتحت كتاب منقوش في حجر «أحمد بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وأن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وأن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون كملت في جمادي الآخرة سنة تسع وتسعين وخمسمئة وبصير فضل ماء الخصبة والبيلة المذكورتين إلى حياضي عين قرقف، فيتنفع به هنالك في البيوت والسقاية، ثم يصير إلى دار الصباغ، وهنالك يغور وتتم منفعته.

وأما العنزة التي يُصلى إليها في زمان المصيف فكانت القديمة من خشب اللأرز ألواحاً ساذجة في أعلاها كتابة صنعت هذه العنزة في شهر شعبان المكرم من سنة أربع وعشرين وخمسمئة، وأما العنزة التي بها الآن فصنعها الفقيه الخطيب قاضي

الجماعة وخطيبها أبو عبد الله بن أبي الصبر أيام ولايته القضاء بمدينة فاس، وأنفق فيها من مال أحباس، وابتدأ فيها بالعمل في أول شهر ذي القعدة عام سبعة وثمانين وستمئة وفرغ من عملها وركب في موضعها في يوم السبت خامس يوم من شهر ربيع الأول عام تسعة وثمانين وستمئة موافق الثامن عشر لشهر مارس بالعجيمة.

وعدد سوارى الجامع المكرم مئتا سارية واثنتان وسبعون سارية، منها قديمة ومنها جديدة، وعدد المسقفة منها ستة عشر بلاطاً من القبلة إلى الجوف ومن غرب إلى شرق وتربيع لا اعوجاج فيه من كل الجهات، يحمل كل بلاط منها أربعة صفوف في الصف الواحد من الناس مائتان واثنا عشرة رجلاً لأن في كل بلاط إحدى وعشرين قوساً يجلس في كل قوس عشرة من الرجال فيكمل من العدد في كل بلاط ثمانمئة وأربعون رجلاً لا شك فيها ولا ريب، وعدد البلاطات ستة عشر بلاطاً فيتجمل فيها جميعها من عدد الرجال ثلاثة عشر ألف رجل وأربعة وأربعون رجلاً بلا شك ولا ريب وكسر ما بين السوارى منه فوجد يحمل خمسمئة وستون رجلاً فيتجمل من العدد أربعة عشر ألفاً الصحن فوجد يحمل ألفين وسبعمئة رجل.

وحجر الجامع يصلي فيها صفوف من الناس غير معتدلة فصّح العدد بألف وخمسمئة رجل وحول الجامع رحاب وأسواق يصلي فيها الناس يوم الجمعة كسرت بأربعة آلاف رجل وخمسمئة رجل، فتجمل فيها من عدد المصلين يوم الجمعة اثنان وعشرون ألفاً وسبعمئة تنقص قليلاً وتزيد قليلاً، والإمام واحد، وذلك في سنين الرخاء والعمارة.

وعدد القرمود الذي في سقف الجامع المكرم أربعمئة ألف قرمود وسبعة وستون ألف قرمودة وثلاثمئة قرمود.

وعدد أبوابه خمسة عشر بابًا كبيرة لدخول الرجال وبابان صغيران للنساء لا يدخل عليهما رجل الأبواب القديمة منها أبواب الشرقي وأبواب الغربي وأبواب القبلة والجوف محدثة وآخر ما أحدث بها الباب الكبير المدرج الذي يلي القبلة أحدثه وبناءه الفقيه أبو الحسن عليّ بن محمد بن عبد الكريم الحدودي أيام ولايته على فاس وصنعها باب جفات مضيقًا بها ومقابلًا بباب الجفات التي بجامع الأندلس وجلب إليها الماء من عيون ابن الصادي المعروفة الآن بعيون الكوازين فأتى بالماء حتى وصل به إلى رحبة الزبيب فصنع هناك سقاية وأجرى بها من ذلك الماء ثم سار به حتى وصل به إلى الباب المذكور، وكان فتح هذا الباب وبناءه وجلب مئة في سنة تسعة وثمانين وستمئة، وكان فتح هذا المذكور من غير استئذان ولا مؤامرة لأمير المسلمين أبي يعقوب بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، رحمهم الله ورضي عنهم، فلما عرف أمير المسلمين بفتحه الباب قبله الجامع المذكور أنكر ذلك عليه وقبح فعله، ونكبه بسببه إذ أحدث بالجامع المذكور ما لم تدع إليه ضرورة، ولم يستأذنه فيه فأمر في الباب فُسِدَّ.

وأما الثريا الكبرى فصنعت في أيام الفقيه الصالح الخطيب الورع أبي محمد عبد الله بن موسى المعلم، وهو الذي اجتهد في عملها، وكان قبلها في موضعها ثريا مثلها في الجرم، ولكنها تخلقت بطول الدهر فتكسرت، فهبطت ونقضت وسبكت وزيد عليها نحاس مثلها، واستأجر الصنّاع على عملها، فقامت بسبعمئة دينار وسبعة عشر دنانير ودرهمين ونصف درهم، وعدد قناديلها خمسمئة قنديل وتسعة قناديل وورنتها سبعة عشر قنطار ونصف قنطار وثلاثة عشر رطلًا من نحاس والذي يحمل قناديلها من الزيت قنطارًا واحدًا وسبع قلال، وعدد قناديل الجامع كلها إذا وقدت ألف قنديل واحد وسبعمئة قنديل، يسرج فيها من الزيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان ثلاثة قناطير ونصف قنطار ولم تنزل هذه الثرية الكبرى تسرج في ليلة سبع

وعشرين من رمضان خاصة إلى أن ولي قضاء المدينة الفقيه أبو يعقوب يوسف بن عمران فأمر بإسراجها في أول ليلة من شهر رمضان إلى آخر الشهر فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن توفي القاضي المذكور يوم عرفة سنة سبع عشرة وستمئة.

وفي أيامه فتح الباب بالوراقين وعملت عليه القبة العظيمة المقرسة بالحص، وذلك في سنة سبع عشرة وستمئة المذكورة، فأقامت الثريا الكبرى تسرج بعده سنة واحدة واختلفت الأحوال، وجاءت أيام المجاعة والفتن، فقلت الجبايات بالمدينة، ومات أكثر الناس جوعاً، وقل الإنفاق على الجامع، وعُدم الزيت، وكانت تشعل في ليلة سبع وعشرين خاصة إلى أن ولي القاضي الحيوتي فأمر ألا يشعل منها كأساً واحداً لا في ليلة سبع وعشرين ولا في غيرها، وقال: إننا لا نعبد النار، وإنما نعبد الله فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن ولي الفقيه الخطيب أبو عبد الله بن أبو الصبر قضاء المدينة في سنة سبع وثمانين وستمئة، فاستشار في إسراجها أمير المسلمين أبا يعقوب بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، رحمهم الله ورضي عنهم، فنفذ أمره بوقدها في ليلة سبع وعشرين من رمضان خاصة، فدام العمل على ذلك إلى الآن، وأما الدف الحمر الذي على أبواب القبلة؛ حيث يخرج إلى باب الجنائز فكانت لأبي القاسم ابن الملجوم المعروف بابن رقية صنعها للعلية التي كانت بداره من حارة لواتة، وقامت عليه العلية والأبواب بهال جليل فحسن في بنائها، فرفع عنه إلى أمير المسلمين يعقوب بن يوسف بن عبد الحق من أنه يكشف من تلك العلية على الديار وعلى مسلخ حمام بنت الباز المجاور لها فينظر منها إلى النسوة إذا تجردن في مسلخ الحمام المذكور، وشهد بذلك عليه عند الخليفة فنفذ أمره إلى قاضي المدينة إلى محمد التادلي بهدم العلية وتعفية أثرها فهدمت يوم الأربعاء دلت يوم رجب سنة ثمان وثمانين وخمسمئة فبقيت الدف عند ورثته فلم يرو لها أحسن من تصريفها إلا في الجامع المكرم فوهبها لها طيبة نفوسهم بذلك، وفي الدف صنعة مكتوبة فيها

اسمه واسم الصانع الذي عملها في آخرها وكان عملها في شهر رجب عام ثمانية وسبعين وخمسمئة، ورُكبت هذه الدف في القرويين في سنة سبع عشرة وستمئة.

وأما المستودع فصنع في أيام الفقيه الصالح أبي محمد يشكر فحفر أرضه وركر بالتراب والجورات وجعل طاقة من حجارة الرخام وطبقت من الرمل والجير وكان المتولى لبنائه الفقيه أبو القاسم بن حميد حتى تم وجعل له مفاتيح ثلاثة في أول دقة وثلاثة في الباب الثاني وجعل فيه صناديق كثيرة عليه أبلاج وثيقة، ولكنه احتيل عليه ودخل جميع ما فيه من أموال الأحباس وربعات الجامع وكتب وأمانات الناس، وذلك في أيام الفقيه القاضي أبي عمران ولم يعلم من فعل ذلك، وأما الحائط الشرقي منها مع ما قرب منه من المشرقة؛ فإنه عمل من القدم وأشرف على السقوط والانكباء، وذلك في أيام المجاعة والفتن وخراب المدينة، ولم يكن في ذلك الوقت لأحد قدرة على بنائه فوهي وترك على حاله فبقي كذلك إلى سنة اثنين وثمانين وستمئة فاستشار والي المدينة أبو عبد الله الحدودي أمير المسلمين القادم بالحق أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق في نفضه وإصلاحه فنفذ أمرهم الكريم، رضي الله عنهم، ببنائه وبصلاح ما يحتاج إليه الجامع المكرم وأن يكون الإنفاق في ذلك من مال الجزية والأعشار إذ نفذ مال الأحباس فبني الحائط الشرقي وما والاها من المسقفة وأنفق في ذلك مالا كثيرا.

وأما الحائط الجوفي فإنه تخلق أيضا بمرّ السنين عليه وأشرف على السقوط فاستأذن الفقيه القاضي أبو غالب المغلي إلى أمير المسلمين أبي يعقوب في بنائه فنفذ أمرهم رضي الله عنهم ببنائه وإصلاحه وأعطاه خلخال الذهب زنتها خمسمئة دينار ذهبًا وقال له صرفه في بناء الحائط المذكور فإنها حلال محض كان صنعها والذي أمير المسلمين لوالدي؛ مما أفاء الله تعالى عليه من أخماس الروم ببلاد الأندلس

فورثتهما عنهما فلم أر لتصرفهما موضعاً أوجب من هذا فعسى الله تعالى أن ينفع به الجميع فنقض الحائط من باب الجفات إلى آخر بيت النساء وبقي من المال المذكور، وذلك في سنة تسع وتسعين وستمئة.

وأما السقاية الكبرى فصُنعت في أيام الفقيه الإمام الفاضل الزاهد الورع المبارك أبي محمد يشكر نفعنا الله به، وكان المنفق فيها الشيخ الموفق أبو عمران موسى بن عبد الله بن سداب أتى من جبال بني يازغة بهال كثير فاستوطن مدينة فاس وكان يأنف الشيخ الفقيه أبا محمد يشكر المذكور فذكر له يوماً أنه جاء بهال طيب ويريد أن يصرفه فيما يحتاج إليه الجامع وأن المال حلال ورثه عن أبيه عن جده، لم يتغير بيع ولا بشراء وأصله من الحرث والماشية، فامتنع الفقيه أبو محمد يشكر أن يقبل منه شيئاً ويصرف منه درهماً في الجامع المذكور فألح عليه في أن يعمل سقاية ودار وضوء بإزاء الجامع تكون عوناً للمصلين، فلم يتركه ولم يقبل منه حتى أخذ بيده وحمله إلى محراب الجامع المكرم، وأعطاه ختمة من الكتاب فاستحلفه فيها في وسط المحراب أن ذلك المال حلال طيب من تركة والده وجده لم يتغير بيع ولا شراء، فلما حلف قال له: أشرع الآن فيما أردت من عمل الميضات والسقاية، والله تعالى ينفعك بقصدك.

فاشترى فندق كان هنالك في موضع دار الوضوء مقابلاً لباب الجفات وشرع في نقضه وبناء الميضات والسقاية في مكانه وذلك في غرة صفر من سنة وست وسبعين وخمسمئة وكتب الشيخ الفقيه أبو محمد يشكر إلى أمير المسلمين يعلمه بالأمر، ويستأذنه في جلب الماء فأذن له بظهيره وأن يشق به؛ حيث شاء من شوارع المدينة وطرقها، فأجمع العرفاء والبنائين وأهل الهندسة وأمرهم أن ينظروا في المواضع التي يمكن إتيان الماء منها فلم يجدوا أوفق من عيون دار الدباغين فلم يستحسنها الفقيه

أبو محمد يشكر بسبب أوساخ الدباغين المجاورين لها، وكون الموضع كثير الأزبال والشعر، فتركوه ووجدوا بالغرب من ديار الدباغين المذكورين دار صباغ، وبها عين عظيمة تعرف بعين حومال فاشتراها أبو عمران موسى بن سداب المذكور، فأكثر في قيمتها أضعافاً بسبب العين التي بها وهذه العين تخرج من بيت مغبو تحت الأرض شبه بيت الحمام، والماء يفور فيه من موضعين، من كل موضع فوارة وخرج من حجر صلد، وهي في غاية العذوبة والطيب إلا أن فيه ثقل فأحصر الماء إلى قادوس يخرج منه إلى صهريج ملبس بالرصاص مربع، كل وجه منه عشرة أشبار والصهريج إلى جانب البيت ثم أخرج الماء من الصهريج في قوادر الرصاص التنورية فشق به في وسط عقبة سوق الدخان إلى القرسطون في قبلة جامع الشرفاء ثم في سماط سوق القيسارية ثم في سوق الحرارين ثم في تربيعة الغزازين إلى أن وصل المعدة التي بالموثقين، وهي معدة من الرصاص في آخر حانوت من سماط الموثقين الملتصق بالجامع، وينصب الماء من المعدة المذكورة إلى صهريج مربع من رصاص، ومنه يفرق الماء إلى جميع السقايات والخصّة والبيلة وباب الجفات ودار الوضوء وبيوتها وسقاية الشباك، فيصير إلى كل موضع القدر الذي يصلح له لا يزيد ولا ينقص، وفرشت بيوت دار الوضوء بالرخام وهي خمسة عشر بيتاً فدخل الماء إلى كل بيت منها على حدة وجعل في وسط الميضات بيلة متسعة تشبه الصهريج، وفي وسط البيلة جعبة من نحاس موهة بالذهب، فيها أنابيب ينصب منه الماء إلى الصهريج في غاية الحسن، وجعل سمك هذه الميضات قبة كبيرة عظيمة مقربصة بالجصّ منقوشة بالأزورد وأصناف الأصبغة، ويقابل هذه الميضات باب الجفات من الجامع المكرم، وهو باب كبير يدخل منه إلى الصحن، واتساع هذا الباب أكثر من ارتفاعه فيه بيلة من رصاص بطولة تندفق فيها المياه المعينة، وينصب منها على رخام أزرق وأخضر وأحمر يغسل عليها الحُفّات أرجلهم، وسائر الباب مفروش كله بالرخام حتى إلى

الصحن، فرشه الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي الصبر أيام ولايته القضاء بالمدينة المذكورة، وكان قبل ذلك مفروشاً بالأجر من جنس الصحن، وبجانب باب الجفات السقاية القديمة المستطيلة التي بناها عبد الملك المظفر، يتوضأ منها الناس للصلاة ويسقى منها الساقون بالزقاق ويخرج فيضها إلى ميزاب بخارج السقاية فيسقى منها الخدم والصبيان.

الخبر عن خطباء القرويين في الدولة الموحدية والدولة المرينية العبد الحقية أطلها الله وخلصها

قال المؤلف للكتاب عفا الله عنه:

كان أول خطيب خطب على منبر القرويين الذي صنعه القاضي أبو محمد عبد الحق بن معيشة الفقيه الخطيب الصالح الورع أبو محمد مهدي بن عيسى وكان من أحسن الناس خلقاً وخلقاً وأفصحهم لساناً وأكثرهم بياناً وكان موعظته تؤثر في القلوب لصدقه وإخلاصه وكان يخطب في كل جمعة خطبة لا تشبه الأخرى فأقام يخطب عليه مدة من خمسة أشهر ودخل الموحدون المدينة فعزلوا أبا محمد مهدي وقدموا مكانه الفقيه الصالح المبارك أبا الحسن بن عطية لأجل حفظه اللسان البربري فتقدم أبو الحسن بن عطية لأنهم كانوا لا يقدمون للخطابة والإمامة إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري فتقدم في أول جمعة من شهر جمادي الأولى سنة أربعين وخمسمئة فكان يخطب بها إلى أن توفي، رحمه الله، في يوم السبت الثامن من ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وخمسمئة.

ثم ولي بعده الفقيه الصالح الورع أبو محمد يشكر بن موسى الجوراوي وهو أحد أشياخ المغرب في الدين والفضل والورع والزهد والمجاهدة والتقشف والإيثار والصدقات؛ فإنه كان موسراً له غنم وماشية كثيرة يبلده ورثها عن آبائه وكان يوم ولا يخطب لأنه أعجمي اللسان شديد العجمة فقدم من ينوب عنه في الخطابة، وهو

الفقيه الزاهد أبو عبد الله محمد بن حسن بن زيادة الله المزني، فلم يزل يخطب إلى أن توفي رحمه الله يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادي الأولى سنة اثنتين وسبعين وخمسمئة، فخطب بعده الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن حميد باستخلاف الفقيه أبي محمد يشكر له في ذلك فأقام الفقيه أبو محمد يشكر أماما بالقرويين أربعين سنة لم يسه فيها يوما واحدا في صلاته لشدة حضوره وتوفي الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن حميد يوم الاثنين الرابع عشر لشهر رمضان المعظم من سنة إحدى وثمانين وخمسمئة.

فاستخلف مكانه للخطبة الفقيه الصالح الورع أبو عمران موسى المعلم كان يقرئ الصبيان بقنطرة أبي رؤس وكان له صوت شجن حسن يبكي كل من يسمعه يقرأ القرآن، فلما وصلوه الأمر بالخطبة داخلته دهشة وأطلق صبيانه ثم أخذ في البكاء ويدعو ويقول اللهم لا تفضحني بين عبادك يا أرحم الراحمين فلما كان بكرة يوم الخميس خرج إلى الرابطة التي بخارج باب أيصلين وجعل يتمشى بين مقابر الصالحين ويدعو ويبكي، حتى جاء الليل فدخل الرابطة وبات بها مع جماعة من الناس، فأقام الليل كله يصلي ويتلوا القرآن ويدعو ويبكي، والناس يبكون لبكائه وخشوعه حتى أصبح، فصلى بهم صلاة الصبح ثم أخذ في البكاء والدعاء، حتى أقام المؤذنون بالأذان الأول من يوم الجمعة فلبس أحسن ثيابه وسار إلى الجامع المكرم والمؤذنون حوله فقعد في حجرة الجامع حتى قرب الأذان فصعد المنبر، والناس ينظرون، إليه وهو يبكي ويرعد حتى فرغ المؤذنون من الأذان فقام خطب ولم يتوقف ولم يتلجلج ثم أدخل المحراب فأتى بالحكمة وفصل الخطاب، وبكى وأبكى من سمعه، ومن كان خلفه فلما تمت الصلاة أقبل الناس إليه يقبلون يده ويتبركون به، ولم يزل خطيباً إلى أن وصل الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن ميمون الهواري فكان أول سؤاله لأهل المدينة عن خطيب القرويين، فذكر له فيه خير وأثنى عليه كثيراً، فلما جاءت الجمعة وراه فلم تعجبه صورته واستبشعه وقال فيه قولاً، فقال

له بعض الناس ممن حضر: لو سمعت خطبته لأعجبك. فلما سمع خطبته بكى وطلب منه المغفرة والدعاء.

وكان الفقيه أبو عمران موسى المعلم سريع الدمعة كثير الخُشوع الغالب على أحواله الخوف، فمات أبو محمد يشكر في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمئة فاستبد الفقيه أبو عمران المعلم بالخطبة والإمامة فلم يزل عليها إلى أن مات في الموفى عشرين لشهر صفر عام تسعة وتسعين وخمسمئة فكان بين وفاتيهما ثلاثة أشهر نفعا الله بهما، فولي بعده ولده الفقيه أبو محمد عبد الله بن موسى المعلم، وسنه يوم ولي المحراب ثمانى عشرة سنة، وكان له حظ وافر من الحسن والجمال والعلم والدين المتين والفضل والورع العظيم، والصوت الحسن، ولم تكن له صبوة في شبابه، ولم يزل من صغره مشغلاً بالعلم وطلبه، منقطع للعبادة، ولم يدخل محراب القرويين من يوم بني إلى يومنا هذا أمام شاب دون اللحية سواه، وذلك لاجتماع خلال الخير والفضل فيه وإجماع الناس على فضله ودينه وورعه، وكان له من حسن الخلق ما يطابق صورته الحسنة، ولما مرض والده أبو عمران قيل له: استخلف ولدك للمحراب فإنه أهل له، فقال لهم: إن علم الله فيه خيراً فهو يستخلفه إلى خدمة بيته. فلما توفي أبو عمران وحمل إلى قبره ووضع على شفيره ضجّ الناس بالبكاء وذكروا من يصلي عليه بالناس فقال القاضي لولده تقدم فصل على أبيك فقام وكبر وصلى على أبيه وانصرف الناس فقدم في موضع أبيه للإمامة، فكان يصلي بالناس، فلما جاءت الجمعة لبس ثياب أبيه التي كان يخطب بها، وأعطاه أبو مرران بن حيوان برنساً أبيض فطلع به المنبر فأتى بالحكمة في خطبته وقراءته واستحسنه الناس، وكان صيئاً كثير الخشوع والبكاء، ولما أتى أمير المؤمنين أبو عبد الله الناصر إلى مدينة فاس بعث إليه أن يصله ليراه فطلع إليه في ضحى يوم الاثنين فدخل عنده إلى قصره الذي على وادي فاس، فاجتمع به وسلم عليه، وبقي يحادثه

ويستحسن كلامه وألفاظه إلى أن حان وقت صلاة الظهر، فقال له: قُمْ فصل بنا، ففعل. فقال: من تركت في موضعك؟ فقال: تركت فيه من هو خير مني وهو معلمي الذي قرأت عليه كتاب الله العزيز لما وصلني رسولك تحيرت في أمر المحراب والصلاة بالناس. وقلت لا أعلم متى يكون رجوعي فمررت بمعلمي الذي هو سيدي مولاي، لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((مولاك من علمك آية من كتاب الله تعالى...))

فأعلمته القضية واستخلفته في مكاني. فقال له الناصر: جزاك الله خيرًا. ثم أمره بالانصراف وأتبعه مملوكًا بسبعة ثياب وخريطة فيها ألف دينار فرجع إلى أمير المؤمنين فشكره ودعا له وقال له: يا أمير المؤمنين أما الثياب فقبلتها، وأما الدراهم فلا حاجة لي بها، فأني رجل نسّاخ أتعيش من نسخ يدي. فقال له: تستعين بها وتصرفها فيما يصلح لك. فقال له: يا أمير المؤمنين لا تفتح على هذا البيت وأعفني من أخذها، فأنت أحق بها مني تفرقها في الأجناد والغزات وتصرفها في مصالح المسلمين وسد ثغورهم فانصرف ولم يأخذ منها شيئًا.

ولم يزل إمامًا وخطيبًا إلى أن توفي رحمه الله يوم الأحد الحادي عشر من رجب الفرد عام أحد عشر وستمئة وكان قد استخلف في موضعه الفقيه أبا محمد قاسم القضاعي معلمه الكتاب الله العزيز فلما توفي أقام أبو محمد القضاعي يوم ويخطب عوضًا منه فانتقد عليه، وطعن فيه بعض الفقهاء والأشياخ، وقالوا: إنه يبعث الصبيان إلى النفائس، فكتب الفقيه أبو محمد بن نميري إلى أمير المؤمنين بخبره فقال لهم أن الذي قدمه إلى الصلاة أقر بين يدي أنه خير منه فاتركوه على حاله فحينئذ ترك الفقيه أبو محمد قاسم القضاعي المكتب، واعتكف في الجامع، وسكن الدار المحبسة على الأيمة إلى أن توفي، رحمه الله، يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رمضان

المعظم سنة خمس عشرة وستمئة.

فخطب بعده الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السقفي، وكان من أهل العلم والدين والفضل وكان له صوت حسن ومعرفة بالأوقات والنجوم، وفي مدة إمامته جاء الفقيه المؤذن أبو الحجاج يوسف بن محمد بن علي السفطي من قصر كتامة وكان له صوت حسن في الآذان والقراءة، ومعرفة بالأوقات؛ فأمر الفقيه القاضي أبو يعقوب يوسف بن عمران الخطيب أبا عبد الله الشلبي أن يتركه يخطب يومًا واحدًا ليشهد بذلك، ويرتسم في زمام الخطباء فتهاضر الشلبي، وخطب في موضعه وكان يخطب بجامع القصبة إذا مرض خطيبه وتوفي الفقيه أبو عبد الله الشلبي في سنة تسع وعشرين وستمئة.

فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الورع المبارك المجاب الدعوة الحاج الخطيب إلى أن توفي في سنة خمس وثلاثين وستمئة، فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الورع أبو محمد عبد الغفار نحو ستة أشهر وتأخر، فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح المبارك أبو الحسن علي بن الحاج إلى أن توفي في سنة ثلاث وخمسين وستمئة، فولي بعده الشيخ الإمام العالم المجتهد المشاور الصالح الورع أبو عبد الله محمد بن الشيخ الحاج الصالح المبارك المبرور أبي الحجاج يوسف بن المزدغي، نفعا الله به، فقدم ولده الفقيه الصالح الزاهد الورع المبارك أبا القاسم للخطابة وبقي هو للإمامة.

ولما دعي للإمامة استرجع ثلاث مرات فقبل له في ذلك. فقال: أخبرني الشيخ الحافظ الصالح المحدث أبو در الخشني وأنا أروي عليه كتاب الأحكام يوم توفي الإمام أبو محمد بن موسى المعلم وولي القضاء نظر إلى مليئًا، ثم قال لي: يا محمد أنك تلي أمر الصلاة بالناس في جامع القرويين، وذلك في آخر عُمرِكَ فلما دُعيت

للإمامة تذكرتُ مقالة الشيخ وعلمت أن أجلي قد قرب فاسترجعت فقام الفقيه أبو عبد الله المزدغي أمام وولده أبو القاسم خطيباً إلى أن توفي الإمام أبو عبد الله المذكور فولي الإمامة بعده الشيخ الفقيه الصالح الزاهد الورع أبو الحسن علي بن حميد ثم توفي الفقيه الخطيب أبو القاسم المزدغي المذكور فولي الخطابة مكانه الفقيه أبو عبد الله محمد بن زيادة الله المرني إلى أن توفي، وتوفي الإمام أبو الحسن بن حميد المذكور؛ فقدم الفقهاء المدينة وأشياخها الشيخ الفقيه الصالح المبارك قارئ الكتاب بالجامع المذكور أبا العباس أحمد بن أبي زرع أماً والشيخ الفقيه الصالح الورع الفاضل أبا القاسم بن مشوطة خطيباً مدة من سبعين يوماً فوصل ظهير كريم من قبل أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق بتقديم الشيخ الفقيه الصالح المبرور أبي عبد الله محمد بن أبي الصبر أيوب أماً وخطيباً، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله في سنة أربع وتسعين وستمئة، فقدم أمير المسلمين أبو يوسف بن عبد الحق -رحمهم الله ورضي- عنهم بعده للإمامة الشيخ الفقيه المحدث الورع أبا العباس بن الفقيه العالم المرحوم أبي عبد الله بن راشد أمام عصره في علوم الأصول والاعتقادات، وقدّم أيضاً للخطبة الفقيه المحدث الصالح الفاضل المبارك أبا الحسن بن الشيخ الفقيه الخطيب المرحوم أبي القاسم المزدغي فبقي أبو العباس ابن راشد إماماً بالجامع المذكور نحو ثلاثة أعوام ثم آخر، واستبد الفقيه أبو الحسن المزدغي بالإمامة والخطبة إلى أن كبرت سنّه وضعف عن الخطابة؛ فقدم للخطابة ولده الفقيه الفاضل الصالح المبارك أبا الفضل أبقي الله بركتهم بمنّه وفضله أنه كريم محبوب.

جامع الأندلس

وأما جامع عدوة الأندلس فلم يزل على ما بُني عليه أولاً، لم يزد فيه أحد زيادة

إلى سنة ستمئة، فأمر أمير المؤمنين أبو عبد الله الناصر ببنائه وإصلاحه، وتجديد ما تهدم منه، وأمر بفتح الباب الكبير الجوفي المدرج الذي بصحنه، وجعل بأسفله بيلة من رخام أحمر، وأمر بعمل السقاية والمييزات وجلب الماء إلى ذلك كله من خارج باب الحديد من أبواب المدينة المذكورة.

وأما الخصة والبيلة التي بالصحن فأمر بعملها السيد أبو زكرياء يحيى نجل الخلفاء، وأنفق فيها من ماله على يد صانعها أبي شامة الجياس، فلم يزل الجامع على ذلك إلى سنة خمس وتسعين وستمئة فاعتل كثير منه، فعرف خطيبه وأمامه الشيخ الفقيه الصالح الورع الفاضل المبارك أبو عبد الله بن مشونة إلى أمير المسلمين أبي يعقوب بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق، رحمهم الله ورصي عنهم، فنفذ أمره بإصلاحه، فأصلح وجدد فيه كثير منه من مال الأحباس، ولم تزل الخصة والبيلة والسقاية والمييزات بهاء العين المجلوب من خارج باب الحديد إلى أن خرب ذلك في سني المجاعة ودُرس أباره، فجلب إليها عوضاً منه ماء نهر مصمودة، فلم يزل ماء النهر المذكور إلى أن ولي أمير المسلمين أبو ثابت عامر بن الأمير عبد الله بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق رحمه الله، فرد ماء العين الذي كان جلبه الناصر الموحد إلى الجامع فدثر فجدد وأتبع أثره فجلب حتى وصل إلى الجامع، وجرى في الخصة والبيلة والسقايات كما كان وكان المتولّى لبنائه والنظر فيه العريف أبو العباس أحمد الجياني والإنفاق في ذلك من بيت المال وذلك في سنة سبع وسبعمئة.

ورجع الخبر إلى أيام الأدارسة، ولما توفى الأمير يحيى بن محمد بن إدريس الذي بني القرويين في أيامه، ولي بعده ولده يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس فأساء السيرة ودخل على جارية من بنات يهود في الحمام اسمها حنة - وكانت من أجمل نساء

عصرها - فراودها على نفسها فاستغاثت فبادر إليه الناس منكرين لفعله وتغيروا عليه أهل المدينة فبادر إليه عبد الرحمن بن أبي سهل الجدامي فلما رأت زوجة يحيى الحسني وهي عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس أن زوجها يحيى بادر إليه العامة مع عبد الرحمن بن أبي سهل ليقتلوه أمرته بالفرار ففر أمامهم من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلس، فمات بها من ليلته فقعة وندامة لما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار والخجل والفضيحة، فقام بأمر المدينة بعده عبد الرحمن بن أبي سهل فلما علمت عاتكة أن زوجها قد مات ورأت عبد الرحمن بن أبي سهل قد ثار بالمدينة فكتبت إلى أبيها علي بن عمر بن إدريس تعلمه بصنع زوجها يحيى وموته وثورة عبد الرحمن بن أبي سهل بالمدينة بعده وكان والدها علي بن عمر بن إدريس صاحب بلاد صنهاجه وغمارة، فلما وصله الكتاب جمع جيوشه وحشمه وقصد إلى مدينة فاس فدخل عدوة القرويين على عبد الرحمن بن أبي سهل الثائر بها فبايعه أهل المدينتين القرويين والأندلس وخطب له على جميع منابر أعمال المغرب، وانتقل الأمر من بني محمد إلى بني عمهم عمر بن إدريس الحسني.

الخبر عن دولة الأمير علي بن عمر بن إدريس الحسني بمدينة فاس وأعمال المغرب

هو الأمير علي بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، بويع له بمدينة فاس وسائر أعمال المغرب بعد وفاة ابن عمه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس الحسني، واستقام له الأمر إلى أن خرج عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي، وكان من أهل رشقة من بلاد الأندلس، قام بجبال وبلان من أعمال فاس على مسيرة يوم ونصف منها فأتبعه خلق كثير من البربر من مديونة وغياية وغيرهم، فبنا قلعة منيعة بجبل سهل بجوار بلاد مديونة وسماها رشقة باسم بلده، وهي باقية في تلك الناحية حتى الآن، ثم قصد إلى قرية صفروا فدخلها وبايعه كافة البربر الصفرية فرجع بهم إلى مدينة فاس فخرج إليه

الأمير عليّ بن عمر بن إدريس في عسكر عظيم فكانت بينهم حرب عظيمة كان الظفر فيها لعبد الرزاق الخارجي فهزم عليّ بن عمر وقُتل خلق كثير من جنده وفرّ عليّ بنفسه إلى بلاد أوربة ودخل عبد الرزاق مدينة فاس فملك عدوة الأندلس وخطب له بها وامتنع منه أهل عدوة القرويين، وبعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالمقدام، فوصل إليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم وقاتل عبد الرزاق الخارجي حتى هزمه وأخرجه عن عدوة الأندلس، فدخلها وبايعه أهلها وجميع من بها من الأندلس الذين نزلوا بها من الرافضين فاستعمل الأمير يحيى بن القاسم على عدوة الأندلس ثعلبة بن محارب بن عبد الله من أهل الرافض من شدونة فلم يزل واليًا عليها إلى أن توفيّ فقدّم الأمير يحيى مكانه ولده عبد الله المعروف بعبود ثم توفيّ فولد بعده ولده محارب بن عبود بن ثعلبة، وهو من الأزد من ولد المهلب بن أبي صفرة.

الخبر عن دولة الأمير يحيى بن القاسم بن إدريس الحسنى المعروف بالمقدام

بويغ له بمدينة فاس بعد هروب ابن عمه عليّ بن عمر عنها، وقاتل عبد الرزاق الخارجي حتى أخرجه عن عدوة الأندلس واستعمل عليها عامله ثعلبة بن محارب، وخرج إلى قتال الصفريّة، فكانت له معهم حرب عظيمة ووقائع كثيرة، ولم يزل يحيى بن القاسم ملكًا على فاس وأعمالها إلى أن جاء لقتاله ربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومئتين، فولد مكانه حفيد عمه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس.

الخبر عن دولة الأمير يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس الحسنى
قام يحيى هذا بعد قتل ابن عمه المقدام يحيى بن القاسم بن إدريس فبايعه أهل مدينتي فاس القرويين والأندلس وخطب له بهما، وعاد الأمر إلى بني عمر بن إدريس فملك الأمير يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس جميع أعمال المغرب،

وخطب له على سائر منابرہ وكان یحیی هذا أعلى بني إدريس قدرًا وصيتًا وأطيبهم ذكرًا وأقواهم سلطانًا، وأوسعهم ملكًا وأكثرهم عدلاً وأغزرهم كرماً، وكان فقيهاً حافظاً للحديث ذا فصاحة وبيان ولسان ومع ذلك بطلاً شجاعاً حازماً ذا صلاح ودين وورع لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه ولم يزل على مملكة المغرب إلى أن قدم إليه مصالة بن حبوس المكناسي قائد عبید الله الشيعي القائم بأفريقية، وذلك في سنة خمس وثلاثمئة فخرج یحیی بن إدريس مدافعاً لمصالة المذكور، فهزمه مصالة، ودخل یحیی مدينة فاس مهزوماً، فتحصن بها منه، فحاصره مصالة مدة إلى أن صالحه یحیی بهال، وكتب بالبيعة لعبید الله الشيعي صاحب أفريقية، وارتحل مصالة راجعاً إلى القيروان.

وكان موسى بن أبي العافية صاحب تسول وبلاد تازة قد خدم القائد مصالة وهاداه وتقرب إليه بالإحسان وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب، فلما انصرف مصالة إلى القيروان قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه فكان موسى بن أبي العافية، كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد فيه عمده یحیی بن إدريس الحسني بشرفه وكرمه ودينه وعدله وقطع به على كل ما يريد فكان على قلبه منه حملاً ثقیلاً، فلما قدم مصالة المغرب في كرتة الثانية، وذلك في سنة تسع وثلاثمئة سعى موسى بن أبي العافية یحیی ابن إدريس عنده حتى وغر صدره عليه فعزم مصالة على القبض عليه فلما قرب من مدينة فاس خرج إليه الأمير یحیی بن إدريس ليسلم عليه، في قوم من وجوه عسكره فقبض عليهم مصالة، وقيد یحیی بالحديد ودخل مصالة مدينة فاس ويحیی ابن إدريس بين يديه مقيداً على جمل فعذبه بأنواع من العذاب حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره، فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا وقد أساءت حاله وانفض جمعه، فأقام بمدينة أصيلا مع بني عمه مدة فأعطوه مالاً ووصلوه وعملوا له ما يقوم به فلم يرض بذلك فارتحل عنهما يريد

أفريقية فقبض عليه في طريقه موسى بن أبي العافية المكناسي فسجنه سجنًا طويلًا بمدينة مكناسة ثم أطلقه وكان أبوه إدريس بن عمر بن إدريس دعا عليه أن يميته الله جوعًا في أرض غربة فخرج يحيى من سجن ابن أبي العافية إلى أفريقية وهو في ذلة وفقر وضيقة، فإنه قام في سجن ابن أبي العافية نحو من العشرين سنة فوصل المهديّة وهو على تلك الحال فوافق فيها فتنة أبي زيد فجلد بن كيداد الزناني الشيعي وحصاره للمهديّة فمات بها جوعًا في غربة، وذلك في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمئة.

ولما قبض مصالة على يحيى بن إدريس وثقفه قدم على مدينة فاس ريجان المكناسي ورجع إلى أفريقية؛ فأقام ريجان المكناسي عاملاً على مدينة فاس وأحوازها مدة من ثلاثة أعوام إلى أن قام عليه بها الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الحسني فأخرجه عنها.

الخبر عن دولة الأمير الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس الحسني المعروف بالحجام

هو الأمير الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن عليّ مرضي الله عنهم، ويلقب بالحجام، وعرف بذلك لأنه كانت بينه وبين عمه أحمد بن القاسم حرب شديدة حمل فيها الحسن على فارس من جند عمه قطعنه بالمحاجم ثم فعل ذلك بثاني وثالث، كل ذلك لا يطعنهم إلا في موضع المحاجم، فقال عمه أحمد: إنما ابن أخي حجام فلزمه ذلك الاسم، فعرف به، وفي ذلك يقول بعضهم:

وُسِّمْتُ حَجَّامًا وَلَسْتُ بِحَجِّمٍ وَلَكِنْ لِّلضَّعْفِ فِي مَكَانِ الْحَاجِمِ
دخل مدينة فاس في خفية مع بعض رجاله، فأقام بها وذلك في سنة عشرة وثلاثمئة، فبايعه أهلها، وخفي عنها عاملها ريجان المكناسي، وبايعه أكثر قبائل البربر، وملك مدينة لواتة وصفرو ومدينة مديونة ومدائن مكناسة، ومدينة البصرة،

واستقام أمره بالمغرب، وفى سنة إحدى عشرة وثلاثمئة خرج الأمير الحسن المعروف بالحجام إلى قتل موسى بن أبى العافية فالتقى معه بفحص الزاد على مقربة من وادى المطاحن، فأوقع فيه الحسن الحجام وقعة عظيمة لم يقع فى دولة الأدارسة مثلها، قتل بها من عسكر ابن أبى العافية ألفان وثلاثمئة رجل منهم ولده سهل بن موسى، ومات من عسكر الحسن بن حمد نحو سبعمئة رجل، فرجع الحسن إلى مدينة فاس، فترك عسكره بخارج المدينة ودخل وحده منفردًا دون جيش، فغدر به عاملة عليها بها حامد بن حمدان الهمداني الأوربي وهو من قرى أفريقية، دخل عليه ليلاً فى داره فقيده وحبسه عنده وغلق أبواب المدينة فى وجه العسكر، ثم أرسل إلى موسى بن أبى العافية يخبره بصنعه، ويأمره بالقدوم عليه ليمكنه من المدينة، فسارع نحوه، فأدخله عدوة القرويين، ثم قاتل عدوة الأندلس حتى غلب عليها، فلما ملك مدينة فاس قال لحامد بن حمدان: مكى من الحسن الحجام أقتله بولدى منهل فدافعه حامد فى ذلك وسوّفه، وكره المجاهرة فى سفك دماء أهل البيت، فلما جن الليل سار حامد بن حمدان الحسن الحجام فأزال عنه قيده وأدلاه من سور المدينة دون حبل، فسقط وانكسرت ساقه، وسار إلى عدوة الأندلس فمات بها مستخفياً إلى ثلاثة أيام من تلك الليلة، فأراد ابن العافية قتل حامد بن حمدان الذى مكنه من البلد حين أطلق الحسن الحجام؛ ففر حامد منه إلى المهدية فكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو عامين.

الخبر عن دولة موسى بن أبى العافية بفاس وكثير من أعمال المغرب

هو الأمير موسى بن أبى العافية بن أبى باسل بن أبى الضحاك بن مجزول بن تامريس بن فارديس بن ونيف بن مكناس بن ورصطيف المكناسي أمير مكناسة كلها، ملك مدينتي فاس فى سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة، وملك بلاد تازة وتسول وألكاي ومدينة طنجة والبصرة وكثيراً من أعمال المغرب، فلما ملك فاس وبايعه أهلها واستقام أمره بها ألح على حامد بن حمدان فى قتل الحسن الحجام، فكره ذلك

حامد، وندم على ما كان منه من الغدر وجعل يسوّفه إلى أن أكثر عليه في الطلب ففعل بالحسن ما ذكرناه أولاً، واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب، وبايعه القبائل والأشياخ، فأجلا جميع الأدارسة عن بلادهم وأخرجهم عن ديارهم، وملك مدينة أصيلا ومدينة شالة وغيرها من بلادهم، وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مقهورين مغلوبين، فانحصروا بها، وفي حصن منيع بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس طلع في عنان السماء، فنزل عليهم ابن أبي العافية واشتد عليهم الحصار، وأراد استيصالهم وقطع دابرهم فعدله على ذلك رؤساء المغرب وأكابر أهل دولته، وقالوا له: أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين؟ هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس يمنعهم من التصرف، وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمئة؛ فأقام موسى بن أبي العافية بمدينة فاس إلى أن قدم المغرب حميد بن سبيل قيد عبيد الله الشيعي من المهديّة في جيش عظيم ومعه حامد بن حمدان الهمداني، وذلك في سنة عشرين وثلاثمئة، وسبب قدومه أن ابن أبي العافية لما ارتحل عن قلعة النسر سار إلى مدينة فاس، فأقام بها أياماً وقتل عامله على عدوة الأندلس عبد الله بن ثعلبة بن محارب بن عبود، وولي مكانه أخاه محمد بن ثعلبة ثم عزله، وولي مدنه طوال بن أبي يزيد فلم يزل عاملاً عليها إلى أن خرجت فاس عن يد ابن أبي العافية واستعمل على عدوة القرويين وندّه مدين وارتحل إلى مدينة تلمسان، وملكها وتغلب على أحوازها وكان ذلك بيد الحسن بن أبي العيش بن إدريس الحسني، فأخرجه عن تلك البلاد بأسرها وملكها، وذلك في سنة تسع عشرة وثلاثمئة وهرب الحسن بن أبي العيش إلى مدينة مليلة من جزائر ملوية فتمنع بها، وزحف ابن أبي العافية بعد ملكه تلمسان إلى مدينة تक्रور فملكها وجميع أحوازها، وذلك في شهر شعبان من سنة عشرين وثلاثمئة، فلما ملك ابن أبي العافية تلمسان

وتكرور وفاس -بايع عبد الرحمن الناصر لدين الله ملك الأندلس، وقام بدعوته وخطب له على جميع منابر عمله، فاتصل الخبر بعبيد الله الشيعي بالمهدية؛ فبعث إليه قائده حميد بن سبيل الكتامي في عشرة آلاف فارس فالتقى بموسى بن أبي العافية بفحص مسون؛ فكانت بينهم حرب عظيمة وسجال ثم أن حميد بن سبيل الكتامي بيته ليلة فضرب في عسكر موسى بن أبي العافية، فانهزم موسى بن أبي العافية وأصحابه وفرّ إلى عين إسحاق من بلاد تسول، فتحصّن بها وارتحل حميد بن سبيل إلى مدينة فاس، فلما قرب منها هرب عنها مدين بن موسى فدخلها حميد، فولى عليها حامد بن حمدان الهمداني وانصرف إلى أفريقية، وتظاهر بنو إدريس الذين بحجر النسر على أبي الفتح قائد ابن أبي العافية فهزموه ونهبوا عسكره، وذلك حين بلغهم هزيمة ابن أبي العافية وهروب مدين ابنه عن مدينة فاس، وتملك حامد عليها في سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة وأقام حامد بن حمدان الهمداني عاملاً على فاس إلى أن ثار عليه أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن سهل فقتل حامداً، وبعث برأسه وبولده إلى موسى بن أبي العافية، فبعث بهم موسى إلى أمير المؤمنين الناصر لدين الله بقرطبة وأقام أحمد بن أبي بكر عاملاً على فاس لموسى بن أبي العافية إلى أن قدم ميسور الفني قائد أبي القاسم الشيعي، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة بعثه إلى المغرب على أثر والده عبيده الله الفهري؛ فحاصر ميسور مدينة فاس أياماً إلى أن خرج إليه أحمد بن أبي بكر مبايعاً، وأخرج له هدية عظيمة ومالاً جسيماً فقبض منه المال والهدية، وثقفه في القيود، وبعث به إلى المهديّة فسّد أهل مدينة فاس مدينتهم في وجه ميسور الفتى، ولم يمكنوه من دخولها، وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي فحاربهم ميسور مدة سبعة أشهر، فلم يقدر عليهم بشيء فصالحهم ميسور على أن أعطوه ستة آلاف دينار وإقطاع ولُبود وقرب للماء وأثاث، وكتبوا ببيعتهم إلى أمير المؤمنين أبي القاسم الشيعي وكتبوا اسمه في سكّتهم وخطبوا له على منابرهم فقبل

ميسور ذلك منهم وارتحل عنهم نحو موسى بن أبي العافية حتى لحق به. فكانت بينهما حروب عظيمة ولي معظم تلك الحروب بنو إدريس قاتلوه حتى هرب إلى الصحراء أمامهم، وتملك الأدارسة أكثر ما كان بيد موسى بن أبي العافية قائمين بدعوة أبي القاسم الشيعي فلم يزل ابن أبي العافية شريدًا في الصحراء وأطراف البلاد التي بقت بيده، وذلك من مدينة أجرسيف إلى مدينة تكررور إلى أن قُتل ببعض بلاد ملوية، وذلك في سنة إحدى وأربعين مئة وقليل في سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة قاله البرنوسي. فولي بعده إبراهيم ولده إلى أن توفي في سنة خمسين وثلاثمئة، فولي بعده ولده عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية إلى أن توفي في سنة ستين وثلاثمئة، فولي عمله بعده ولده محمد وعليه انقرضت أيام بني أبي العافية المكناسيين سنة ثلاث وستين وثلاثمئة.

وذكر بعض المؤرخين لأيامهم أنه لما توفي محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى ابن أبي العافية، ولي بعده ولده القاسم بن محمد المحارب للمتونة، فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة إلى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين فقتله، واستأصل بلاده حتى قطع مسافة ذرية موسى بن أبي العافية من المغرب وكانت أيامهم فيه من سنة خمس وثلاثمئة إلى سنة خمس وأربعين وأربعمئة، وذلك مئة وأربعون سنة من أول دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى قيام لمتونة.

وأما القائد ميسور فإنه لما صالح أهل مدينة فاس وأخذ بيعتهم لأبي القاسم الشيعي صاحب أفريقية أقر حسن بن أبي القاسم اللواتي على عمالتها، فلم يزل عاملاً عليها إلى أن قدم أحمد بن أبي بكر من المهديبة مطلقاً مكرماً فتخلّى له على ما كان بيده، وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمئة، وكانت مدة ولاية حسن بن قاسم على مدينة فاس ثمان عشرة سنة من سنة ثلاثة وعشرين وثلاثمئة إلى سنة إحدى وأربعين

المذكورة. قال ابن ألبان في تاريخه المسمى بجلاء الأذهان لما فر موسى بن أبي العافية أمام ميسور القائد سارت الرئاسة بالمغرب بعد فراره عنه لبني محمد بن القاسم بن إدريس الحسني وكانوا أخوين شقيقين كنون وإبراهيم ابني محمد بن القاسم بن إدريس فتقدم منهم للرياسة والأمارة كنون.

الخبر عن دولة الأمير القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس الحسني الملقب بكنون

هو الأمير القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قدمه بنو إدريس على جميعهم بعد فرار موسى بن أبي العافية عنهم، فملك أكثر بلاد المغرب إلا مدينة فاس فإنه لم يملكها وكان سكناه قلعة حجر النسر؛ فأقام على إمارته إلى أن توفي في سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة، فولي بعده ولده أبو العيش أحمد بن كنون.

الخبر عن دولة الأمير أبي العيش أحمد بن القاسم كنون الحسني

هو الأمير أبو العيش أحمد بن القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، وكان أبو العيش هذا عالماً فقيهاً ديناً ورعاً وحافظاً للسيرة عالماً بتاريخ الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر، عاقلاً حليماً شجاعاً كريماً كان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل، وكان مائلاً إلى بني مروان متشيعاً فيهم، لما ولي بعد أبيه قطع الدعوة في جميع بلاده عن العبيدين، وباع لعبد الرحمن الناصر لدين الله صاحب الأندلس، وخطب له على جميع منابر عمله، فلم يقبل ذلك منه الناصر وقال له لا أقبل لك دعوة بيعة إلا أن تمكني من مدينة طنجة وسبتة، فامتنع أبو العيش من ذلك فبعث إليه الناصر بالقطائع والجيوش إلى قتله وضيق عليه فصالحه على ما طلب منه، فأعطاه سبتة وطنجة وأبقاه أبو العيش وأخوته، وبنو عمه من الأدارسة بمدينة

البصرة وأصيّلاً تحت بيعة الناصر وفي كفقه منتقضين بدعوته وجاز قواد الناصر وجيوشه من الأندلس إلى العدو، يقاتلون من حالفهم من البربر ويستألفونهم ويحملون الطائع على المخالف، والناصر ممد لمن عجز برجاله، مقوي لمن ضعف بهاله، حتى ملك أكثر بلاد المغرب وبايعه أكثر قبائله من زناتة وغيرهم من البربر، وخطب له على منابر من مدينة تاهرت إلى مدينة طنجة، ما عدا سجلماسة فإنه قام بها في ذلك الوقت منادر البربري، وبايع مدينة فاس الناصر فيمن بيعه من بلاد العدو، فولي عليها محمد بن الخير بن محمد اليفرنى ثم الزناتي، وكان من أبسط ملوك زناتة يدًا وأعظمهم شأنًا وأحسنهم إلى ملوك بني أمية انحياشا، وأخلصهم لهم طوية، وذلك بولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه لجدهم حرب بن حفص بن صولات بن وزمار اليفرنى وإسلامه على يده، وتقديمه إياه على قومه من زناتة فصرت لمحبة لبني أمية وإرثه في بنيهم من بعده، فأقام محمد بن الخير أميرًا على مدينتي فاس نحو سنة وارتحل عنها إلى الأندلس برسم جهد الرومن واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الرناني وهو الذي بني الصومعة المباركة بجامع القرويين سنة أربع وأربعين وثلاثمئة وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمئة، ولي الناصر بمدينة طنجة وأحوازها يعلي بن محمد اليفرنى، أمير بني يفرن، فنزلها في فضل بني يفرن، فلما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدو كتب إليه إلى قرطبة يستأذنه في الجهاد، فأذن له وأمر أن يبني له في كل منزل ينزله قصرًا من الجزيرة الخضراء إلى الثغر، وأن يجري له فيه ألف دينار في كل يوم ضيافة، ومن بالفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر؛ فلم يزل في ذلك حتى وصل إلى الثغر، فكانت منازل في رحلته من الجزيرة ثلاثين منزلًا فلما خرج أبو العيش إلى الأندلس برسم الجهاد استخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون، فمات أبو العيش في جهاد الروم سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة رحمه الله.

الخبر عن دولة الأمير الحسن بن كنون

هو الحسن بن القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس الحسني ولي بعد انصراف أخيه إلى الغزو الذي مات فيه، وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب، ولم يزل مبايعاً للمروانيين متمسكاً بدعوتهم إلى أن اتصل الخبر بالشيعة صاحب أفريقية بغلبة الناصر الأموي على بلاد العدو، وأن جميع من بها من قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوته ودخلوا في بيعة بني أمية؛ فعظم الأمر على معد بن إسماعيل وبعث قيده جوهر الرومي في جيش عظيم من عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم، وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذل لها ويستنزل من بها من الثوار وتشتد وطأته عليهم، فخرج جوهر من القيروان يريد المغرب، وذلك في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، فاتصل خبر قدومه بعلي بن محمد اليفرنى، أمير بني يفرن، وخليفة الناصر لدين الله على بلاد العدو، فحشد بني يفرن وجميع قبائل زناتة وتلقاه في جيوش عظيمة على مقربة من مدينة زهرت، فاقتحم الحرب بين الفريقين فأخرج القيد جوهر الأموال وبذلها لقواد كتامة فصمتموا له قتل أمير زناتة يعلي بن محمد اليفرنى، فلما اشتد القتال صممت عصابة من أنجاد قواد كتامة وأنجدها وقصدوا إلى يعلي بن محمد أمير بني يفرن، فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلى جوهر، فأعطاهم أموالاً جلييلة بشرة عليه، وبعث بالرأس إلى مولاة معد بن إسماعيل فطوفه بالقيروان وهزم بنوا يفرن وتفرق جمعهم بعد قتل أميرهم بعد مدة التأم ملكهم، واجتمع فلهم على ولده بدو ابن يعلي بن محمد اليفرنى، وانصرف جوهر بعد قتل يعلي إلى سجلهاسة وكان قد قام بها محمد بن الفتح الخارجي المعروف بواشول بن ميمون بن مدرار الصفرى، وادعى الخلافة وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالشاكر لله، وضرب بها السكة وكتب عليها اسمه وسكته معروفة بالشاكرية، وكانت في غاية الطيب وكان محمد بن الفتح على غاية في إظهار العدل، وإقامه السنة، وكان مالكي المذهب فنزل عليه جوهر، وحاصره بها وضيق عليه حتى دخلها عنوة بالسيف فقبض على

الشاكر، وتفرقت عنه جموعه وقتل رجاله وحماته من الصفرية وأوثقه في الحديد، وأتى به أسيرًا بين يديه حتى نزل على مدينة فاس، وذلك في سنة تسع وأربعين وثلاثمئة، فحاصرها وأدار بها القتال من كل ناحية مدة من ثلاثة عشر يومًا حتى دخلها عنوة بالسيف، فقتل بها خلقًا كثيرًا وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي الذي ولاه الناصر الأموي عليها حين بايعه أهلها، وقتل حماها وأشياخها، ونهب المدينة، وسبأ أهلها وهدم أسوارها، وكان الحادث بها عظيمًا، وكان دخول جوهر إياها صحوة يوم الخميس الموافق عشرين لشهر رمضان المعظم سنة تسع وأربعين وثلاثمئة، ثم سار جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويفتح البلاد والمعاقل، وفرت أمامه القبائل من زناته وغيرهم فأنفذ الأمر في المغرب ثلاثين شهرًا ثم انصرف إلى مولاه معد بن إسماعيل العبدى بعد أن دوخ بلاد المغرب وأثخن فيها، وقتل حماها وقطع الدعوة به للمروانيين وردها للبيديين، فخطب لهم على جميع منابر المغرب، فوصل القائد جوهر إلى المهديّة وحمل معه أحمد بن أبي بكر اليفرنى أمير فاس وخمسة عشر رجلًا من أشياخها ومحمد بن الفتح أمير سجلماسة أسارا بين يديه في أقفاص من خشب على ظهور الجمال، وجعل على رؤوسهم فلانسا من لبد مستطيلة مثبتة بالقرون فطوّف بهم في أسواق القيروان ثم حملهم إلى المهديّة فدخلهم المدينة بين يديه ثم حبسهم بها حتى ماتوا في سجنها.

وكان الأمير الحسن بن كنّون قد بايع البيديين فيمن بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب، فلما انصرف جوهر إلى أفريقية في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمئة نكث الحسن بن كنون بيعة البيديين وعاد إلى بيعة المرونيين، وتمسك بدعوة الناصر ودعوة ولده الحاكم المستنصر من بعد خوفًا منهم لا محبة فيهم لقرب بلاده منهم فلم يزل في طاعتهم؛ فإنما بدعوتهم إلى أن قدم بلفين بن زيري بن مناد الصنهاجي من أفريقية قصدًا إلى المغرب لأخذ ثأر أبيه، فقتل زناته واستأصلهم وملك المغرب

بأسره، وقطع أيضًا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع بلاد المغرب لمعد بن إسماعيل كما فعل جوهر قبله.

فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته وقتل أولياء المرwanيين وقطع دولتهم من أمراء المغرب -الحسن بن كنون صاحب مدينة البصرة، وكشف وجهه، في ذلك وعمل فيه جهده، فاتصل خبره بالحاكم المستنصر فحقد له ذلك، فلما انصرف بلقين بن زيري إلى أفريقية بعث الحاكم قائده محمد بن القاسم في جيش كثيف إلى قتل الحسن بن كنون فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم وعدد كثير، وقوة وعُدّة كاملة، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمئة، فرحف إلى قتاله الحسن بن كنون في قبائل البربر، والتقى الجمع بأحواز طنجة بموضع يعرف بفحص بني مصرخ، فكانت بينهما حروب عظيمة قُتل فيها محمد بن القاسم قائد الحاكم المستنصر، وقُتل معه خلق كثير من أصحابه وفرّ الباقي فدخلوا سبتة فتحصنوا بها وكتبوا إلى الحاكم يستغيثون به فبعث إليهم قائد عثير وصاحب حروبه غالبًا مولاه وكان غلب على غاية الحزم والنجدة والشهامة والدهاء والإقدام، فأعطاه الحاكم أموالاً جلييلة وعدداً كثيرة، وجيوشاً وافرة، وأمر بقتال العلويين واستنزاهم من معاقلمهم، وقال له عند وداعه: يا غالب! سرّ مسير من لا أذن له بالرجوع حيًّا إلا منصورًا، أو ميتًا معذورًا، ولا تشحّ بالمال، وأبسط يدك به يتبعك الناس.

فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة، في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمئة، فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون، فخاف منه وأخلى مدينة البصرة، وحمل منها حريمه وجميع أمواله وذخائره إلى حصن حجر النسر القريب من سبتة، واتخذ معقلًا له حصن فيه لمنعته، فجاز غالب البحر من

الخضرا إلى قصر مصمودة فتلقاه الحسن بن كنون هنالك بجيوشه، فقاتله أيامًا، وأخرج غالب الأموال فبعث بها إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون، ووعدهم وأمنهم ففروا عن الحسن وأسلموه حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله، فلما رأى ذلك سار إلى حصن حجر النسر فتحصن به، وأتبعه غالب فحاصره به ونزل بجميع جيوشه عليه، وقطع عنه المواد وأمدّه الحاكم بالعرب الذين ببلاد الأندلس، كافة ورجال التغوير، فوصل المدد إلى غالب في غرة محرم سنة ثلاث وستين وثلاثمئة، فاشتد الحصار على الحسن بن كنون فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله وينزل إليه فيسير معه إلى قرطبة فيكون بها، فأجابه غالب إلى ذلك، وعهده عليه فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله وأسلم الحصن إلى غالب ملكه، واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدو من معاقلهم وأخرجهم عن أوطانهم ولم يترك في العدو رئيسًا منهم، وسار إلى مدينة فاس فملكها واستعمل عليها محمد بن علي بن قشوش في عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة على عدوة الأندلس، فلم تنزل بأيدي عمال بني أمية إلى أن غلب عليها زنري بن عطية الزناني المغراوي، وانصرف غالب إلى الأندلس وحمل معه الحسن بن كنون، وجميع ملوك الأدارسة وقد وطأ جميع بلاد المغرب، وفرّق العمال في جميع النواحي وقطع دعوة بني عبيد من جميع أفاقه، وردة الدعوة إلى الأموية الحاكمة، فخرج بهم غالب من مدينة فاس في آخر شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمئة، فوصل إلى سبتة فركب البحر منها واستقر بالخضراء، وكتب إلى الحاكم المستنصر بالله يعلمه بقدمه، وبمن قدم به من العلويين، فلما وصل كتابه إلى الحاكم أمر الناس بالخروج إلى لقائهم وركب هو في جمع عظيم من وجوه أهل دولته فتلقاهم، فكان يوم دخوله قرطبة يومًا عظيمًا مشهورًا وكان دخلهم قرطبة أول يوم من شهر المحرم سنة أربع وستين وثلاثمئة، وسلم الحسن بن كنون على الحاكم فأقبل عليه وعفي عنه ووفى بعهده

وأوسع له ورجاله في العطاء، وأجزأ عليهم الجزايات الكثيرة والخلع الرفيعة، وأثبت جميع أهله ورجاله في ديوان العطاء، وكانوا سبعمئة رجل من الجند يعدون بسبعة آلاف من غيرهم وأسكنه قرطبة.

فبقي الحسن بن كنون بقرطبة إلى سنة خمس وستين وثلاثمئة، وكان له قطعة عنبر غريبة الشكل كثيرة الجرم ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدو أيام ملكه بها فسواها منشورة يتوسد بها، فبلغ أمير المؤمنين الحاكم خبرها فسأله حملها إليه وضمها إلى ذخائره على أن يرضيه عنها بحكمه، فامتنع من ذلك وأبى أن يسلمها إليه فنكبه عليها، وأخذ أمواله وسلبه من جميعها وأخذ القطعة فبقيت في خزانته إلى أن ظهر عليّ بن حمود الحسني على ملك الأندلس، ودخل قرطبة وسكن القصر، وظفر ببني أمية، فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة قد أعففتها الأيام حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها، ولما نكبا الحاكم الحسن بن كنون وأخذ أمواله أمر به وبالعلوية فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق فجوزوا من المرية إلى تونس، ليستريح من نفقاتهم، وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمئة، فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر، فنزلوا بها على نزار بن معد فأقبل عليهم نزار، وبالغ في إكرامهم ووعد للحسن النصر والأخذ بثأره، فأقام عنده مدة طويلة إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة في أيام هشام المؤيد، فكتب له نزار بن معد بعهدده على المغرب وأمر عامله بأفريقية بلفين بن زيري بن مناد أن يقويه بالجيوش فسار الحسن إلى بلفين فأعطاه جيشًا من ثلاثة آلاف فارس ففتح بهم بلاد المغرب، فسارعت إليه قبائل البربر بالطاعة فشرع في إظهار دعوته، فاتصل خبر بالمنصور بن أبي عامر حاجب هشام المؤيد، والقائم بملكه فبعث إليه ابن عمه الوزير أبا الحاكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر في جيش كثيف، وقلده أمر المغرب وسائر أعماله، وأمره بحرب الحسن بن كنون فنفذ لوجهه وجاز البحر إلى سبتة، وخرج إلى حرب الحسن فأحاط

به وحاصره أيامًا، ثم جَوَز المنصور بن أبي عامر ولده عبد الملك في أيام الوزير أبي الحاكم في جيوش كثيرة ممد له، فلما رأى ذلك الحسن بن كنون سقط في يده، ولم يجد حيلة فطلب الأمان على نفسه على أن يسير إلى الأندلس كمثّل حاله الأول فأعطاه الوزير أبو الحاكم من ذلك ما وثق به وكتب إلى ابن عمه المنصور يخبره، فأمره بتعجيله إلى قرطبة موكلًا به، فبعثه ووصل الخبر إلى المنصور بقدمه وجوازه، فلم يُمض أمان ابن عمه وأنفذ إليه من يقتله في طريقه، فقتل وقطع رأسه ودفن جسده وحمل الرأس إلى المنصور، وذلك في جمادي الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمئة، فكانت دولة الحسن بن كنون الأولى بالقرب ست عشرة سنة من سنة سبع وأربعين إلى سنة أربع وستين وثلاثمئة، ومدة إقامته بدولته الثانية سنة واحدة وتسعة أشهر وكرت ريح العلوية بالمغرب، وتفرّق جمعهم وبقي منهم جماعة بقرطبة فكانوا في ديوان السلطان في جماعة المغاربة إلى أن ملك عليّ بن حمود الأندلس فسما ذكرهم.

ولما قُتل الحسن بن كنون هبت ريح عاصف في الوقت فاحتملت رداء الحسن فلم يوجد بعد، وكان الحسن بن كنون على ما ذكره ابن الفياض فظًا غليظًا شديد الجرأة قاسي القلب قليل الشفقة كان إذا طفر بأحد من أعدائه أو سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته المسماة بحجر النسر ويهوي به إلى الأرض مد البصر يرفع الرجل بخشبة تمد إليه، فلا يصل إلى الأرض إلا وقد تقطع.

قال المؤلف للكتاب:

فانقرضت أيام الأدارسة بالمغرب بموت الحسن بن كنون آخر ملوكهم، وكانت مدة ملكهم به من يوم بويع إدريس بن عبد الله بن حسن بمدينة ويلي، وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومئة إلى أن قتل الحسن بن كنون في شهر جمادي الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمئة، وذلك مائتي

سنة وستين وخمسة أشهر، وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران، وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة، وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين وعملين كبيرين: دولة العبيديين بمصر وأفريقية، ودلة بني أمية بالأندلس. وكان ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة ويقعد بهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم، فكان سلطانهم إذا قوي امتد إلى مدينة تلمسان، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وأصيلة وحجر النسر، إلى أن اعتراهم الأدبار والفرقة وانقضت أيامهم وانقطعت مدتهم والبقاء لله وحدهم لا ربّ غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن الأحداث التي كانت في أيامهم بالمغرب إلى انقضائها
كان الرخاء العظيم بالمغرب متواليًا من سنة ثمان ومائتين إلى سنة سبع وأربعين ومائتين بيع القمح بها بمدينة فاس في أكثر سنين هذه المدة ثلاثة دراهم للوسق وأقل وأكثر، وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين قحطت بلاد الأندلس حتى هلكت المواشي واحترقت الكروم والشجر وكثرت الجراد وقلّت الأسعار في جميع بلاد الأندلس فكانوا يمترون من بلاد العدو. وفيها توفي الإمام عبد الرحمن بن الحاكم. وفي سنة سبع وثلاثين قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدّعي النبوة وتأول القرآن على غير وجهه وتأويله، فتبعه خلق كثير من الغوغاء، وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الأظفار ونتف الأبطين والاستحداد وأخذ الزينة، ويقول: لا تغيير لخلق الله فأمر أمير تلمسان بالقبض عليه فهرب وركب البحر من مرسى هنين إلى الأندلس، فأشاع بها خبره وأمره، فتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة، فبعث إليه ملك الأندلس فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه، وهو يقول عند قتله: {أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله}.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين كانت ببلاد العدو والأندلس فحوط كثيرة عظيمة فنضبت المياه، ولم يزل القحط يتوالى من سنة ثلاث وخمسين إلى سنة خمس وستين، وفي سنة أربع وخمسين كسف بالقمر كله من أول الليل حتى أصبح ولم ينجل، وفي سنة ستين ومائتين عم الغلاء والقحط جميع بلاد المغرب والأندلس وأفريقية ومصر، وبلاد الحجاز كلها حتى رحل الناس من مكة إلى الشام وبقيت مكة خالية ليس بها إلا نفر يسير وسدنة الكعبة، فبقيت كذلك مدة وكان فيها ببلاد المغرب والأندلس وباء عظيم مع غلاء السعر وعدم الأقوات، فمات فيها خلق كثير.

وفي سنة ست وخمسين ومائتين كانت بالسما حمرة عظيمة من أول الليل إلى آخره ولم يعهد قبل ذلك مثلها، وذلك في ليلة السبت لتسع بقين من صفر من السنة المذكورة.

وفي سنة سبع وستين ومائتين في يوم الخميس الثاني والعشرين من شوال منها كانت زلزلة عظيمة ما سمع الناس مثلها قبلها تهدمت منها القصور وانحطت منها الصخور والجبال وهرب الناس من المدن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض والسقوف والحيطان والدور، وفرت الطيور من أوكارها وفراخها وماجت في الهوى زمانا حتى سكنت الزلزلة وعمت هذه الرجفة بدلاً العدو من تلمسان إلى طنجة وجميع بلاد الأندلس سهلها وجبالها من البحر الشامي إلى أقصى المغرب إلا أنها لم يمت فيها أحد لطفاً من الله تعالى بخلقه.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين توفي الإمام محمد بن عبد الرحمن بن الحاكم ملك الأندلس وولي ولده المنذر، وفي سنة ست وسبعين ومائتين طبقت الفتنة جميع آفاق الأندلس والمغرب وأفريقية، وفي سنة خمس وثمانين ومائتين كانت المجاعة الشديدة التي عمّت جميع بلاد الأندلس وبلاد العدو حتى أكل الناس بعضهم

بعضًا، ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير هلك فيها من الناس ما لا يحصى، فكان يدفن في القبر الواحد أعداد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم، وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة.

وفي سنة تسع وتسعين ومائتين كان الكسوف العظيم للشمس كسفت الشمس كلها، وذلك في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شوال من السنة المذكورة وكان بعد صلاة العصر، فبدر كثير من الناس بالآذان في المساجد للمغرب، فغاب القرص كله وظهرت النجوم ثم انجلت بعد ذلك، وعادت مضيئة قدر ثلث أو نصف ساعة ثم غربت، وأعاد الناس الآذان والصلاة، وفي سنة ست وتسعين ومائتين تغلب الشيعي على أفريقية، وأخرج عنها بني الأغلب وقطع ملكهم، وفي سنة سبع وتسعين ومائتين قطع الشيعي دولة بني العباس من أفريقية وأظهر مذهبه، وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالمهدي، وهو أول من نقش الدراهم وتسمى بأمر المؤمنين في أيامهم، وفي سنة ثلاث وثلاثمئة كانت بالأندلس وبلاد العدو وأفريقية فتن كثيرة ومجاعة عظيمة، شبت بمجاعة عام ستين ومائتين بلغت فيها الحاجة مبلغها لا عهد لهم بمثله، وصل مد من القمح ثلاثة دنانير، ووقع الموت في الناس حتى عجز الناس من دفن موتاهم.

وفي سنة خمس وثلاثمئة حرقت النار أسواق مدينة تاهرت قاعدة زناتة وأحرقت أسواق مدينة فاس وأحرقت أرباض مدينة مكناسة من بلاد جوف الأندلس وأحرقت أسواق قرطبة، وذلك كله في شهر شوال من سنة خمس وثلاثمئة المذكورة فسميت سنة النار، وفي سنة سبع وثلاثمئة بالمغرب وبالأندلس وبأفريقية رخاء مفرط ووباء كثير وطاعون، وفيه كانت بالمغرب الريح الشديدة السوداء التي قلعت الأشجار وهدمت الديار بمدينة فاس، فتاب الناس وخافوا ولزموا المساجد

وارتدوا عن كثير من الفواحش والفساد.

وفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة ملك الأمير موسى بن أبي العافية مدينة فاس واستولى على جميع أعمال المغرب، وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة دخل القائد ميسور الشيعي مدينة فاس بالسيف، فقتل فيها ثلاثة آلاف رجل وفيها دخل أيضًا مدينة وأرزيغة، ومدينة عوسجة من مدائن مكناسة دخلها بالسيف، فقتل بهما ما يزيد على سبعة آلاف رجل، وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمئة كانت سنة الغمام، أقام الغمام بالمغرب خمسة أيام لا يرى الناس فيها الشمس، ولا يرى أحد من الأرض إلا موضع وقوفه، فخاف الناس لذلك وأخرجوا الصدقات وتابوا فكشف عنهم ذلك الغمام.

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة توفي موسى بن أبي العافية أمير مكناسة كلها، وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة دخل أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني مدينة القيروان، وغلب على جميع أفريقية، وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمئة دخل جوهر قائد الشيعي مدينة فاس بالسيف، وقتل فيها خلقًا كثيرًا، وحمل أشياءها أسارى إلى أفريقية، وفتح سجلماصة وقطع دولة بني مدرار عنها، وفيها ملك عبد الرحمن الناصر مدينة سبتة وطنجة من بلاد العدو، وبناهما وأصلح أسوارهما وقيل بل ملكهما في سنة تسع عشرة وثلاثمئة.

وفي سنة خمس وعشرين وثلاثمئة ادعى النبوة رجل يسمى حاميم في جبال غمارة، ودخل في دينه خلق كثير من غمارة، والديانة التي شرع لهم صلاتان بالنهار الواحدة عند طلوع الشمس، والأخرى عند غروبها ثلاث ركعات في كل صلاة، ويسجدون ويطنون أيديهم تحت وجوههم، وجعل لهم قرآنًا يقرءونه بلسانهم بعد تهليل يهللون به، وهو: «خلي من الذنوب يا من خلا المنظر ينظر في الدنيا، أخرجني

من الذنوب يا من أخرج يونس من بطن الحوت وموسى من البحر» ثم يقول في ركوعه: «آمنت بحاميم وبأبي يخلف صاحب وأمنت بتالية عمّة حمّ» ثم يسجد وكانت تالية هذه امرأة كاهنة ساحرة وفرض عليهم صوم يوم الاثنين وصوم يوم الخميس إلى الظهر وصوم يوم الجمعة وصوم عشرة أيام من شهر رمضان، ويومين من شوال ومن أفطر في يوم الخميس عمدًا، فكفارته أن يتصدق بثلاثة أحوار ومن أفطر في يوم الاثنين فكفارته ثوران، وفرض عليهم الزكاة العُشر من كل شيء، وأسقط عنهم الحج والوضوء والطهر من الجنابة، وحل لهم أكل أنثى الخنزير، وقال: إنما حرم قرآن محمد الخنزير الذكر منه، وجعل الحوت لا يؤكل إلا بزكاة، وحرم عليهم أكل البيض، وأكل رأس كل حيوان فبعث إليه الناصر ملك الأندلس فقبض عليه فقتله وصلبه بقصر مصمودة، وبُعث برأسه إلى قرطبة ورجع أتباعه إلى الإسلام.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة نزل برد عظيم كبير الحجر وزنة الحجر منه رطل وأزيد قتل الطيور والوحوش والبهائم وطوائف من الناس، وكسر الثمار والشجر وكان ذلك بأثر قحط شديد وغلاء عام، وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمئة نزل أيضًا برد عظيم لم يعهد مثله قتل المواشي والثمار واستسقى الناس في هذه السنة واستصحوا، وجاءت السيول العظيمة بجميع المغرب، وكان بها الرعود القاصفة والبروق الشديدة دام ذلك أيام كثيرة، وفيها كانت الرياح الشديدة التي هدمت المباني، وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمئة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس هلك فيه أكثر الخلق وفيها ملك الناصر لدين الله مدينة تلمسان من أرض العدو، وفي سنة خمسين وثلاثمئة توفي عبد الرحمن الناصر لدين الله، وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمئة كانت ريح شديدة قلعت الثمار، وهدمت الديار، وقتلت الرجال، وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شهر رجب الفرد منها ظهر في البحر شهاب ثاقب مائل

كالعمود العظيم أضاءت الليل بسطوع ذوره وشبهت بليلة القدر، وقارب ضؤها ضوء النهار وفي هذا الشهر، كسف بالشمس والقمر كسف القمر ليلة أربع عشرة منه، وطلعت الشمس مكسوفة في اليوم الثامن والعشرين منه.

وفي سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ملك الشيعي مصر، وفي سنة إحدى وستين كان الجراد بالمغرب، وفي سنة اثنتين وستين دخلوا زناتة المغراويين المغرب وتملكوه، وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوي، وفيها توفى الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبو ميمونة دراس بن إسماعيل، وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمئة توفى معد بن إسماعيل الشيعي ملك مصر وأفريقية، وفي سنة ست وستين توفى الحاكم المستنصر ملك الأندلس وولي ولده هشام المؤيد وهو ابن عشرة أعوام، وفيها دخل يعلي بن يدوا الكزناني مدينة مكناسة الزيتونة بالسيف، وفي سنة ثمان وستين غلب يعلي بن يدوا اليفرني على مدينة لواتة، وفي سنة تسع وستين وثلاثمئة دخل بلقين بن زيري بن مناد المغرب، ونزل على مدينتي فاس فقتل سلاطينهما محمد بن أبي عليّ بن قشوش صاحب القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الأندلس، وسار إلى سبتة ثم رجع إلى أفريقية، وفي سنة ثمان وستين وثلاثمئة ملك زيري بن عطية على قبائل زناتة، وفي سنة خمس وسبعين زحف عسقلجة إلى مدينة فاس الأندلس فدخلها بالسيف، وملكها، وخطب بها لبني أمية، وبقي محمد بن عامر المكناسي عامل العبيدين بعدوة القرويين إلى سنة ست وسبعين وثلاثمئة، وهو عام أبي بياش فأتى أبو بياش واسمه يطول بن بلفين المغراوي، فدخل عدوة القرويين بالسيف فقبضها وقتل عاملها محمد بن عامر المكناسي، وخطب بها أيضًا لبني أمية، وفي سبع وسبعين عم الجراد الكثير جميع بلاد المغرب وسمح بها، وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة كان بلغ الفيض الذي فاضت فيه أودية المغرب، وفي سنة تسع وسبعين كانت الرجح الشرفية بالمغرب دامت إلى ستة أشهر؛ فأعقب الوباء العظيم والأمراض الكثيرة،

وفي سنة ثمانين وثلاثمئة كان الخلف والرخاء المفرط بالمغرب فكان الزرع لا يوجد من يشتريه، لكثرت كان الحراثون يتركونه في فدادينهم ولا يحصدونه لرخصه.

الخبر عن دولة زناتة المغراويين واليفرنيين بالمغرب وقيام ملكهم به
قال أول ملك ملك منهم بالمغرب زيري بن عطية بن عبد الله بن تيا دلت بن محمد بن خزر الزناقي المغراوي الخزري ملك على زناتة في سنة ثمان وستين وثلاثمئة، فقام بالمغرب بدعوة هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وذلك بعد انقطاع أيام الأدارسة منه وبني أبي العافية المكناسيين، فغلب زيري على جميع بوادي المغرب، وملك مدينتي فاس دخلها قواده عسقلجة وأبو بياش، ثم أتاها هو بعدهم فدخلها واستوطنها وصيرها دار ملكه في سنة سبع وسبعين وثلاثمئة المذكورة فلما ملك مدينة فاس استقام له أمر المغرب فعلى قدره وقوي سلطانه، وارتفع شأنه وخالف أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي على ابن أخيه منصور بن بلقين أمير أفريقية، وظهير الدولة العبدية وخلع دعوة العبيديين ومال إلى دعوة المرابطين، وغلب على مدينة تلمسان ومدينة تونس ومدينة وهران وشلف وشلشل وجبال وانشريس والمهدية وكثير من بلاد الزاب. وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر وبعث بيعته إليهم، وذلك في سنة سبع وسبعين وثلاثمئة، فلما وصلت بيعته المنصور بن أبي عامر بعث إليه بعثه على ما بيده من البلاد، وبهدية وخلع وأربعين ألف دينار، فلما قبض المال والهدية أقام على بيعتهم نحو الشهرين ثم خلعهم، وعاد إلى العبيديين، فبلغ ذلك المنصور فغاضه ذلك وكتب إلى زيري بن عطية بعثه على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله عليها، فسار إليه زيري بن عطية من مدينة فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم، ففر أبو البهار بنفسه أمامه ولحق بابن أخيه منصور بن بلقين وترك له البلاد، فملك زيري بن عطية مدينة تلمسان وسائر أعمال

أبي البهار، فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الأقصى إلى الزاب. وكتب بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر وبعث له بهدية عظيمة فيها مئتي فرس من عتاق الحيل، وخمسين جملاً مهرية سوابق، وألف درقة من اللط وأحمال كثيرة من قسي الزان وقطوط الزبدة والزرافة وأصناف من الوحوش الصحراوية، وغيره وألف حمل من الثمر في جنسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة - فسرّ بها المنصور وكافأه عليها، وكتب له بتجديد عهده على المغرب، وذلك في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، فأقام زيري بن عطية بمدينة فاس وأسكن قبيلة في أنحائها، وبالقرب منها في قياطينهم إلى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، فاستدعاه المنصور أن يقدم عليه بقرطبة، فاستخلف على المغرب ولده المعزّ وأمره بسكن تلمسان، واستخلف على عدوة الأندلس من مدينة فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرويين عليّ بن محمد بن أبي عليّ بن قشوش، وولي قضاة المدينتين الفقيه الفاضل أبو محمد قاسم بن عامر الأزدي، وسار إلى الأندلس وحمل بين يديه هدية عظيمة من جملة طائر فصيح يتكلم بالعربية وبالبربرية، ودابة من دواب المسائل ومهات وحشية تشبه الفرس، وحيوانات غريبة وأسدان عظيمان في قفصين من حديد، وثمر كثيرة في غاية الفخر الثمرة منه تشبه الخيار من عظمها، وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل فصنع له المنصور بروزاً عظيماً وأنزله بقصر جعفر الحاجب، وتوسع له في الجزايات والإكرام، ولقبه باسم الوزراء وأعطاه أموالاً جسيمة، وخلع نفيسة، وصرفه إلى عمله، وجدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه منه، فجاز البحر ووصل بمدينة طنجة، فلما استقر بساحلها وضع يده على رأسه، وقال: الآن علمت أنك لي، فاستقل مما وصله به المنصور، واستقبح اسم الوزارة الذي سماه بها؛ ولقد خاطبه بها بعض رجاله فنهاء عن ذلك. وقال: ويحك وزير والله أمير ابن أمير واعجباً من أبي عامر وخرقته: لأن تسمع بالمعيدي خيراً من أن تراه، ولو كان

بالأندلس رجل ما تركه على حاله.

وكان الأمير يدو بن يعلي اليفرني قد انتهز الفرصة في غيبة زيري بن عطية بالأندلس، فزحف إلى مدينة فاس فدخل منها عدوة الأندلس بالسيف وملكها، وذلك في شهر ذي قعدة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمئة، فلما جاز زيري بن عطية إلى طنجة اتصل به خبر يدو بن يعلي، وغلبته على فاس، فأسرع السير نحوه فكانت بينهما حروب عظيمة، وكان الأمير يدو بن يعلي اليفرني مضاهياً لزيري بن عطية في الحسب والفضل والمال أمير بني يفرن كلها، ويفرن ومغراوة إخوان شقيقان ابنا يصلين بن مسري بن زاكيا بن ورسيع بن جانا بن زانات، وكان يدو بن يعلي قد قام بأمر بني يفرن بعد قتل أبيه يعلي ابن محمد حين قتله جوهر بأمر الشيعي سنة سبع وأربعين وثلاثمئة فملك كثير من بوادي المغرب، فكانت بينه وبين زيري بن عطية المغراوي حروب كثيرة ومنازعات على الإمارة والرياسة، وكان الأمير يدو بن يعلي إذا غلب دخل مدينة فاس، وإذا هزم وغلب زيري بن عطية أخرجه عنها وملكها، وكانت بينهما سجال فلما دخلها في غيبة زيري قتل بها خلقاً كثيراً من مغراوة فأتاه زيري حتى نزل قريباً من المدينة فكانت بينهما حروب كثيرة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين مغراوة وبني يفرن إلى أن هزمه زيري ودخل عليه فأساً عنوة فقتله ومثل به. وذلك في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمئة وبعث برأسه إلى المنصور بن أبي عامر بقرطبة، وقوي أمر زيري بن عطية بالمغرب، ولم يبق له به منازع وهابه الملوك وبقي الأمر مستقيماً بينه وبين المنصور، فبنى مدينة وجدة وشيّد سورها وقصبتها وركب أبوابها وسكنها بأهله وحشمه ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدته، ودار ملكه لكونها واسطة بلاده وكان اختلط زيري بن عطية لمدينة وجدة في شهر رجب الفرد سنة أربع وثمانين وثلاثمئة، ولم يزل زيري بن عطية في علو سلطان وارتفاع شأن إلى سنة ست وثمانين وثلاثمئة فانفسد ما بينه وبين المنصور، واتصل بالمنصور أن زيري

ينتقصه ويرعرض في شأنه وتلكم فيه بالقيح، فقطع المنصور عنه ما كان يجزيه له في كل سنة فعزم زيري على خلافه وقتاله، فقطع ذكره من الخطبة وترك الدعاء له واقتصر على ذكر هشام المؤيد خاصة، فلما وصل المنصور أن زيري خلع طاعته وطرده عماله من المغرب وألجأهم إلى سبتة واقتصر على الدعاء للمؤيد خاصة أنفذ إليه مولاه واضحًا الفتافي في جيوش عظيمة لمحاربتة، فجاز واضح البحر واستقر بمدينة طنجة، فأثاء بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم فبايعوه على قتال زيري بن عطية ومن معه من قبائل زناتة وأعطاهم الخلع والأموال، وبعث له المنصور من كان عنده بالأندلس من أجناد البربر، فتكاملت جيوشه فخرج بهم واضح نحو زيري بن عطية من طنجة، فاتصل خبر قدومه بزيري فخرج إليه من مدينة فاس في عساكر زناتة فالتقى الجمعان بوادي زادت فكانت بينهما حروب شديدة من ثلاثة أشهر إلى أن هُزم واضح الفتافي، وقتل أكثر جيشه، وفر واضح إلى طنجة فدخلها مهزومًا وكتب إلى المنصور يخبره بحاله وهزيمته ويطلب منه أن يمدّه بالخيّل والرجال والأموال فخرج المنصور من قرطبة فوصل الجزيرة الخضراء، فجوّز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عساكر الأندلس وجيوشها وقوادها، وبقي المنصور وحده، وأمره بحرب زيري بن عطية، فركب عبد الملك المظفر البحر من الجزيرة إلى سبتة، فبلغ زيري جواز عبد الملك بن المنصور لحربه فخافه وأخذ في الاستعداد لملاقاته، وكتب إلى جميع قبائل زناتة فاستصرخهم فأثته الوفود من بلاد الزاب وبلاد تلمسان وملوبة وسجلماسة وسائر بوادي زناتة فنهض بهم إلى قتال عبد الملك المظفر، وخرج عبد الملك من طنجة ومعه وأصبح الفتافي في جيوش لا تحصى فالتقى الجمعان بوادي منا من أحواز طنجة، فكانت بينهم حرب لما يسمع قط بمثلها يومًا كاملاً من طلوع الشمس إلى غروبها، فأتى غلام أسود اسمه سلام كان زيري قتل أخاه فوجد الفرصة فيه فأخذ داره منه فضربه بسكين في لبتة يريد نحره

فجرحه ثلاث جراحات ولم يقض عليه، فسار الأسود إلى عبد الملك المظفر فأعلمه بضربه لزيـري، فأمكنـت عبد الملك الفرصة فشد بجميع جيشه على زناته وهو في حال دهشة من جرح أميرهم، فهزمهم واستمرت الهزيمة على زيـري وأصحابه، وكثر القتل فيهم، وأتبعهم عبد الملك بالقتل والسبي وملك محلة زيـري بأسرها، واحتوى على جميع ما فيها من المال والسلاح والأبل والكراع والعدة فأخذ من ذلك ما لا يوصف ولا يحاط بعده، وسار زيـري حتى وصل إلى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مدائن مكناسة فأقام به واجتمع إليه الفلّ من قومه فعزم على الرجوع لمناهضة عبد الملك المظفر، فاتصل خبره بالمظفر فانتخب من عسكره خمسة آلاف فارس وقدم عليهم واضح الفتافي فالتقى بهم وضرب على محلة زيـري وهو بمضيق الحية ليلاً وهم في غفلتهم آمنين، وذلك في نصف شهر رمضان المعظم سنة سبع وثمانين وثلاثمئة، فأوقع بهم وقعة عظيمة وأسر من إشراف مغراوة نحو ألفي رجل فامتن عليهم عبد الملك المظفر، وركبهم، فكانوا من جنده، وفرّ زيـري إلى مدينة فاس في شرذمة من أصحابه وبني عمه، فغلق أهلها الأبواب في وجهه فسألهم أن يخرجوا إليه عياله وأولاده فأخرجوهم إليه، وأعطوه الزاد والدواب، فأخذهم وانصرف إلى الصحراء هارباً أمام المظفر، فنزل بلاد صنهاجة وسار المظفر إلى المدينة فدخلها واستقبله أهلها مستبشرين به، فأحسن لقاءهم وكان دخوله مدينة فاس يوم السبت منسلخ شوال سنة سبع وثمانين المذكورة، وكتب إلى أبيه بالفتح فقرأ الكتاب على منبر جامع الزهراء من قرطبة، وعلى منابر قواعد الأندلس كلها شرقاً ومغرباً وأعتق المنصور ألف مملوك وخمسمئة مملوك وثلاثمئة مملوكة شكرًا لله تعالى، وفرّق أموالاً كثيرة لأهل السفر وذوي الحاجات، وكتب إلى ولده المظفر بعهدده على المغرب، وأوصاه بحسن السيرة والعدل فقرأ كتابه على منبر جامع القرويين، وذلك في يوم الجمعة آخر ذي قعدة من السنة المذكورة وانصرف واضح إلى الأندلس

واستوطن عبد الملك بمدينة فاس وعدل في أهلها عدلاً لم يروه من أحد قبله، فأقام بها ستة أشهر ثم صرّفه والده عنها إلى الأندلس، وبعث إليها عوضاً عنه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة، فأقام والياً عليها إلى شهر صفر من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، فعزله المنصور عنها وعن ما كان ولاه من بلاد العدو ووليّ على ذلك واضح الفتافي وانصرف عنها عيسى بن سعيد إلى الأندلس، وذلك من سنة تسع وثمانين المذكورة، ووصل زيري بن عطية إلى بلاد صنهاجة، فنزل بها فوجدهم قد اختلفوا على ملكهم بأديس بن منصور بن بلفين بعد وفات أبيه منصور، فبعث زيري إلى قبائل زناتة فأتاه منهم خلق كثير من مغراوة وغيرهم فاغتنم زيري تلك الفرصة وزحف بهم إلى صنهاجة فأوغل في بلادهم، وهزم جيوشهم ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب فملك ذلك مع تلمسان وتلف والمسيلة، وأقام بها الدعوة للمؤيد، وحاصر مدينة أشير قاعدة بلاد صنهاجة، وبقي عليها يقاتلها بالغدو والرواح إلى أن انتقضت عليه جراحاته التي كان جرحه الأسود فمات في سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، فولي بعده ولده المعزّ فبايعته قبائل زناتة وضبط أمرهم وقام بملك أبيه وصالح المظفر بن المنصور بن أبي عامر فقلده أمر المغرب، فكانت مدة ملكه بالمغرب نحو عشرين سنة.

الخبر عن دولة الأمير المعز بن زيري بن عطية المغراوي بقاس وبلاد المغرب

وهو المعز بن زيري بن عطية الزناتي المغراوي، أمه حرة، اسمها: تكاتيون بنت مناد بن تبادلت المغراوي.

ولي مُلك المغرب بعد وفات أبيه، وبايعته قبائل زناتة، فضبط ملكه وقام به أتم قيام، وصالح المنصور بن أبي عامر، وقام بدعوته ورجع إلى طاعته، فلم يزل على ذلك إلى أن توفي المنصور وولي بعده ولده عبد الملك المظفر، فبايعه أيضاً ودعا له

على منابرہ فعزل المظفر واضحاً عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرّفه إلى الأندلس، وكتب إلى المعز بن زيري بعهدہ على مدينة فاس وسائر أعمال المغرب مدنه وبواديہ، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة، وشرط له المعز أن يعطيه في كل سنة خيلاً ودرقاً ومالاً معلوماً يوصله إلى قرطبة، وأعطاه المعزّ مع ذلك ولده معنصر رهيئة، فأقام معنصر بقرطبة إلى أن قامت الفتنة بالأندلس وانقضت الدولة العامرية، والبقاء لله وحده ولا معبود سواه، فانصرف معنصر إلى أبيه المعزّ، ولم تزل بلاد المغرب أيام المعزّ في غاية الهدنة والعافية والرخاء والأمن إلى أن توفّي في جمادي الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة؛ فكانت أيامه بالمغرب ثلاث وثلاثين سنة، فولي بعده ابن عمه حمّامة بن المعزّ بن عطية الزناتي المغراوي، وقال بعض المؤرخين ولي بعده ولده حمّامة بن المعزّ بن زيري بن عطية وليس بصحيح، وإنما ذلك غلط ووهم منهم إذا اتفقت أسماءهم أسماء آبائهم، وإنما الولي بعده ابن عمه حمّامة بن المعزّ بن عطية المذكور، وقيل أنه لم يكن للمعزّ بن زيري بن عطية ولد إلا معنصر خاصة.

الخبر عن دولة الأمير حمّامة بن المعزّ بن عطية الزناتي المغراوي

هو الأمير حمّامة بن المعزّ بن عطية بن عبد الله بن تبادلت بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي الحزري، ولي ملك المغرب بعد وفات ابن عمه المعزّ بن زيري بن عطية المذكور فقام بأمر زنّانة واستوطن مدينة فاس، فقام عليهم بمدينة سّلا الأمير تميم بن زمرور بن يملی بن محمد بن صالح اليفرني، وزحف إليه إلى مدينة فاس في قبائل بني يفرن، فخرج إليه حمّامة بن المعزّ من مدينة فاس في قبائل مغراوة فالتقى الجمعان فكان بينهما قتال عظيم مات فيه خلق كثير من مغراوة وانهزم حمّامة بن المعزّ أمام تميم اليفرني وفرّ إلى مدينة وجدة من أحواز تلمسان ودخل الأمير تميم مدينة فاس.

الخبر عن دولة الأمير تميم اليفرني بمدينة فاس وأعمالها

وهي الدولة الأولى بها

هو الأمير أبو الكامل تميم بن زمور بن يملي الزناتي ثم اليفرني أمير بني يفرن كلها في وقته ملك مدينة فاس بعد هروب حماسة عنها وهزيمته، وذلك في شهر جمادي الآخرة سنة أربع وعشرين وأربعمئة، فأوقع فيها باليهود فقتل منهم خلقاً كثيراً يزيدون على الستة آلاف يهودي، وأخذ أموالهم وسبى نساءهم وكان تميم اليفرني رجلاً مصمماً في دينه الغالب عليه الجهل، وكان مولعاً بجهاد برغواطة كان يغزوهم في كل سنة مرتين فيقتل منهم ويسبى، فلم يزل على ذلك إلى أن مات في سنة ثمان وأربعين وأربعمئة فلما كان في سنة اثنتين وستين وأربعمئة وقتل ولده محمد في حرب لمتونة أتوا به ليدفنونه إلى جنب قبر أبيه تميم فسمعوا من قبره تكبيراً عظيماً وتشهداً فنبشوا القبر فوجدوه لم يتغير منه شيء، فرآه بعض قرابته في النوم في تلك الليلة وقال له ما ذلك التكبير والتسبيح والتشهد الذي سمعنا من قبرك قال ملائكة وكلهم الله تعالى بقبري يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون أجر ذلك لي فلا يقطع لي عمل إلى يوم القيامة. قال له: وبم نلت ذلك وبلغت من الله تعالى هذه المنزلة حتى أكرمك بهذه الكرامة؟ قال: بجهاد في الكفرة برغواطة وفعلي فيهم في كل سنة.

فأقام الأمير بمدينة فاس مدة من سبعة أعوام ووصل حماسة بن المعز إلى وجدة؛ فأقام بها سنة وقد تفرقت عنه جيوشه وتمزقت جموعه، فلما رأى ذلك خرج من مدينة وجدة إلى مدينة تونس، وكتب إلى قبائل مغراوة فاجتمعوا إليه بها وأقام حركة وزحف بجيوش مغراوة إلى مدينة فاس فملكها وفر عنها تميم بن زيري اليفرني إلى مدينة شالة، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة، وقيل كان دخوله فاس في دولته الثانية في ذي الحجة سنة تسع وعشرين وأربعمئة، وأقام حماسة بن المعز على ملك مدينة فاس وكثير من أعمال المغرب ومدنه إلى أن توفي في سنة أربعين وأربعمئة، فكانت أيامه بالمغرب ثمان عشرة سنة غلب عليه فيها تميم اليفرني بمدينة

فاس نحو خمسة أعوام أو سبعة على اختلاف الروايات وولي بعد حمامة ولده دُوناس.

الخبر عن دولة الأمير دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي
ولي الأمير دوناس بن حمامة مدينة فاس وأحوازها وجميع ما كان بيد أبيه من أعمال المغرب ومدنه وكانت أيامه أيام هدنة ودعة ورخاء كثير، وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرياضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي والبلاد، فأدار دوناس من السور على الأرياض، وبنى المساجد والحمامات والفنادق، فصارت حاضرة المغرب، ولم يشتغل دوناس من يوم ولي إلى أن توفى إلا بالبنى والتشيد، وتوفى دوناس بمدينة فاس في شهر شوال من سنة اثنتين وخمسين وأربعمئة، فولي بعده أولاده الفتوح وعجيسة، فكان الفتوح على عدوة الأندلس، وعجيسة على عدوة القرويين وكانت أيام ملكة دوناس اثنتي عشرة سنة تنقص قليلاً.

الخبر عن دولة الأميرين الأخوين الفتوح وعجيسة ابني دوناس بن حمامة

لما توفى الأمير دوناس ولي بعده ولده الفتوح وهو الأكبر فاستوطن عدوة الأندلس من مدينة فاس، وولي أخاه عجيسة على عدوة القرويين وكان أصغر منه سنًا إلا أنه كان شهماً، فقام عليه بعدوة القرويين فكان بينهما الحرب على الدوام وبنى الفتوح بعدوة الأندلس قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكدان، وبنى أيضاً أخوه عجيسة قصبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين، وكثرت العداوة بينهما

فكانوا لا يزالان يقتتلان ليلاً ونهاراً، وكثر الخوف في أيامهما بالمغرب، وغلت الأسعار، واشتدت المجاعة، وعظم الهرج، وقويت الفتن في جميع نواحي المغرب، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد فملكته، والحرب بين الأخوين الفتوح وعجيسة على الدوام والاستمرار ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال آناء الليل وأطراف النهار إلى أن ظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله.

والفتوح بن دونس هو الذي بنى باب الفتوح من مدينة فاس الذي بسورها القبلي، وبه عرف إلى الآن، وأخوه عجيسة هو الذي بنى باب عجيسة من باب القرويين برأس عقبة السعتر من ناحية الجوف، وسماها باسمه، فلما ظفر الفتوح بأخيه عجيسة وقتله أمر الناس بتغيير اسم الباب الذي بناه أخوه، وترك إضافتها إليه فأسقط الناس العين من عجيسة وأدخلوا عوضاً منها الألف واللام فقالوا باب الجيسة فبقي ذلك إلى الآن.

وكانت مدة إقامة الفتوح يحارب أخاه عجيسة ثلاث سنين متوالية إلى أن دخل عليه عدوة القرويين ليلاً بالغدر فقتله، وملك العدوتين، ولم يزل الفتوح على ملك مدينة فاس إلى أن أتته لمتونة فنزلوا عليه وضيّقوا عليه بالحصار والغارات، فتخلّى عنها ووليها ابن عمه معنصر بن المعزّ بن زيري بن عطية، وذلك في سنة سبع وخمسين وأربعمئة فكانت أيام الفتوح بها خمسة أعوام وسبعة أشهر وكلها في شدة وخوف ومجاعة وحرب وغلاء مفرط.

الخبر عن دولة الأمير معنصر بن المعزّ بن زيري بن عطية المغراوي بمدينة فاس

لما تخلّى الفتوح بن دوناس عن ملك مدينة فاس ولي ابن عمّ أبيه معنصر بن المعزّ بن زيري بن عطية فبايعته قبائل مغراوة الذين بها، وذلك في شهر رمضان المعظم من سنة سبع وخمسين وأربعمئة وكان معنصر ذا حزم ورأي وتدبير وأقدام وشجاعة

ونجدة، فبقي أميرًا على مدينتي فاس يحارب لمتونة إلى أن اشتد عليه الأمر، وعظمت الحرب في بعض الوقائع ففقد، فلا يُدري ما فعل الله به. وذلك في سنة ستين وأربعمئة.

ودخل المثلثون مدينة فاس بعد فقد معنصر بن المعز بخمسة أيام مع أميرهم يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني وهي الدخلة الأولى لهم بها دخلوها صلحًا بالأمان؛ فأقام الأمير يوسف بن تاشفين بها أيامًا ثم ارتحل عنها إلى جبال غمارة، وترك بها عامله في مئة فارس من لمتونة، فأتى تميم بن معنصر في جمع عظيم من زناتة فدخلها على من بقي بها من لمتونة وقتلهم، ومثل بهم بالحرق والصلب وقام بها وملكها وضبطها، ولم يزل يقاتل بها لمتونة إلى أن اشتد عليه الحصار فدخلها عليه الأمير يوسف عنوة بالسيف بعد حروب كثيرة، وهي الدخلة الثانية الكبرى قتل بها من مغراوة وبني يفرن في جوامعها وأزقتها ما يزيد على العشرين ألف رجل، وذلك في سنة اثنتين وستين وأربعمئة، فكانت أيامه بهو نحو الستين، وكانت أيام مغراوة وبني يفرن بالمغرب نحو المئة سنة، وذلك من سنة اثنتين وستين وثلاثمئة إلى اثنتين وستين وأربعمئة، وفي أيامهم تهدنت فاس وعظم شأنها وبنيت الأسوار على أرياضها، وحصنت أبوابها وزيد في جوامعها القرويين والأندلس زيادات كثيرة، واتسع الناس في أيامهم في البناء؛ فكبرت المدينة وكثرت الخيرات بها واتصل الأمن والرخاء بطول أيامهم إلى أن ظهر المرابطون بالمغرب، وقد ضعفت أحوال مغراوة ونقص ملكهم وجاروا على رعيته، فأخذ أموالهم وسفك دمائهم وتعرض لحرهم، فانقطعت عنهم المواد وكثر الخوف في البلاد، وغلت الأسعار وتبدل الرخاء بالشدة والأمان بالخوف والعدل بالجور فكانت آخر أيامهم أيام جور وظلم وعدوان على رعيتهم وغلاء مفرط لم يسمع بمثله، وفتن شديدة، فاتصل الجوع والغلاء وعدم الأقوات بمدينة فاس وأعمالها أيام الفتوح بن دوناس وأيام بن عمه

معنصر وأيام ولده تميم بن معنصر إلى أن بلغ الدقيق بمدينة فاس وغيرها من بلاد المغرب الغربية منها أوقية درهم وعمدت الأقوات فيها بالكلية فكان رؤساء مغراوة وبني يفرن يدخلون على الناس في ديارهم فيأخذون ما يجدون فيها من الطعام، ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصددهم عن ذلك، ولا يتجرأ يكلمهم فيه ومن لم يوافقهم في شيء من ذلك أو صددهم عنه قتلوه، وكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على فُتَّة جبل العرض فينظرون إلى الديار التي بالمدينة، فأبدا رأوا فيها دخاناً قصدوا إليها فدخلوها وأخذوا ما يجدون بها من الطعام، فلما فعلوا ذلك سلبهم الله ملكهم، وغير نعمه لديهم فإن الله لا يغير نعمة بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فسلط الله عليهم المرابطين فأزالوا ملكهم، وشتتوا جمعهم، وقتلوههم وأخرجوهم عن بلاد المغرب بأسرها، وفي أيام جورهم اشتد الجوع بالمغرب فاتخذ أهل مدينة فاس المطامير في ديارهم وبيوتهم للخبز والطحن والطبخ ليلاً يسمع دوي الرحا وفيها أيضاً اتخذوا عُرفاً لا أدراج لها إذا كان عشي النهار طلع رجل فيها بسلم هو وعياله وأولاده ثم يرفع السلم معه ليلاً كي لا يدخل عليه فجأة.

الخبر عن الأحداث التي كانت في أيام زناطة بالمغرب من مغراوة وبني يفرن وذلك من سنة ثمانين وثلاثمئة إلى سنة اثنتين وستين وأربعمئة

سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة كان قحط شديد بالمغرب والأندلس وأفريقية جفت من أجله المياه جفواً كثيراً، وجاء في هذه السنة بوادي سجلماسة سيل عظيم لم يعهد مثله، ولم يربتللك الأرض كلها في تلك السنة مطر فعجب الناس من ذلك، وفيها كانت المجاعة الشديدة بأفريقية والمغرب والأندلس دامت هذه المجاعة ثلاث

سنين من سنة تسع وسبعين إلى آخر سنة إحدى وثمانين، وفيها ظهر نجم في السماء، وذلك في ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر رجب من العام المذكور، كان هذا النجم في رأي العين كالصومعة العظيمة طلع من جهة المشرق وتهافت جرياً من بين المغرب والجوف، وتطايير منه شرر عظيم فراح الناس منه، ودعوا الله تعالى في صرف مكروهه عنهم وكسف بالشمس في آخر هذا الشهر، قاله ابن الفياض في كتاب النير وقاله ابن مزين كان ذلك في سنة ثمانين وثلاثمئة.

وفي آخر سنة إحدى وثمانين أغاث الله تعالى الأمة وتداركهم بالرحمة، ومطر الناس مطراً عظيماً، وأكلأت الأرض، وحطت الأسعار، وحيى الناس وانتعشت البهائم والدواب وفيها أتى جراد كثيرة فوق النهاية عم جميع بلاد الأندلس فسمح بها وكان جُلُّه وأكثره بقرطبة، حتى كثر به الأذى وعظم به البلاء فأبرز المنصور الأموال للناس، وأمرهم بجمعه وعقره وجعل جمعه وطيفة كل واحد بقدر طاقته، وأفرد له سوقاً لبيعه بجانب السوق وتمادى أمر هذه الجراد ثلاث سنين من سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة إلى آخر سنة ثلاث وثمانين.

وفي سنة إحدى وثمانين المذكورة نبذ يدو بن يعلى طاعة المنصور بن أبي عامر وفيها ولي ابن ثعلبة مدينة عدوة الأندلس من فاس، وولي ابن قشوش عدوة القرويين وفيها، ولي الفقيه عامر بن قاسم قضاء المدينتين الأندلس والقرويين، وفي سنة اثنتين وثمانين فيها دخل يدو بن يعلى اليفرني عدوة الأندلس من فاس بالسيف، وفيها جاء السيل الطائر بالقرطبة فأذهب أسواقها وعلا على الزاهرة، وفيها كانت الريح الشديدة بالمغرب وهدمت الديار، وأفسدت الثمار، وفيها الكسوف الذي أذهب القرص كلها، وفيها قطع المنصور بن أبي عامر من الكتب خاتم المؤيد واختص على خاتمه فسمي المؤيد من تلك السنة، وفيها ولد الفقيه الظاهري أبو

محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب مولى يزيد بن أبي سفيان، وله تواليف جُمّة في أنواع العلوم، وتوفى سنة ست وخمسين وأربعمئة، وفي سنة خمس وثمانين كانت الريح الهيلة ونظر الناس إلى البهائم تمر بين السماء والأرض نعوذ بالله من سخطه، وفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمئة توفى الأمير زيري بن عطية وولي ولده المعز، وفي سنة اثنتين وتسعين توفى المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس في شهر رمضان فدفن في مدينة سالم ولحد في الغبار الذي كان يعلوه في غزواته وكان سنة يوم توفى خمس وستين سنة، وفي سنة تسع وتسعين وثلاثمئة توفى ولده عبد الملك الوالي بعده مسمومًا وولي بعده أخوه عبد الرحمن فبعث إليه المعزّ بن زيري بهدية عظيمة فيها مئة وخمسون فرسًا وكان ولده معنصر مرتهاً عنده بقرطبة فأحضر الحاجب عبد الرحمن بن المنصور معنصر بن المعز حين وصلته الهدية فخلع عليه وعلى الرسل الذين قدموا عليه بالهدية وبعثه إلى أبيه مكرماً فجمع المعز كل فرس كان عنده وبعث بها إلى قرطبة وكان مبلغها تسعمئة فرس، ولم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها، وفي سنة إحدى وأربعمئة توفى الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد، رحمه الله، وفي سنة سبع وأربعمئة غلب الأمير المعز بن زيري بن عطية على مدينة سجلماسة، وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمئة طلع الكوكب الوقاد في السماء وكان نجماً عظيم الجرم كثير الضياء، وفي سنة ست وتسعين وثلاثمئة طلع نجم عظيم من ذوات الذوائب شديد الارتعاد وهو أحد النيازك الأثني التي ذكرها الأوائل ورصدها علماءهم في المدة الطويلة وزعموا أنه لا يظهر منها كوكب إلا لقضية يحدثها الله تعالى في العالم والله أعلم بغيبه، وفي سنة سبع وأربعمئة انقرضت الدولة الأموية بالأندلس، وقامت بها الدولة الحمودية وكان مبلغ مدتهم بها مئتي سنة وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً، وفي سنة إحدى عشرة وأربعمئة اشتد القحط ببلاد المغرب كلها، من تاهرت إلى سجلماسة، وكثر الفناء بالناس وفيها ظهرت

الثوار على بلاد الأندلس، وبدت بها ملوك الطوائف واستبد كل واحد منهم بجهة، وفي سنة خمس عشرة كانت الزلزلة العظيمة ببلاد الأندلس هُدَّت الجبال واضطربت الأرض، وفي سنة ست عشرة توفي الأمير المعز بن زيري بن عطية بفاس، وفي سنة سبع عشرة توفي الفقيه ابن العجوز بفاس، وفي سنة ثلاثين وأربعمئة فيها توفي الفقيه أبو عمران الفاسي - رحمه الله - في مدينة القيروان، وفي سنة إحدى وثلاثين، فيها توفي الفاضي إسماعيل بن عباد القائم بإشبيلية، وفي سنة ثمان وأربعين، فيها دخل الأمير أبو بكر بن عامر المغرب، وفي سنة خمسين وأربعمئة قُتل الفقيه أبو محمد عبد الله بن ياسين الجزولي مهدي لمتونة، قتله مجوس بن غواطة فمات شهيداً، وفي سنة اثنتين وخمسين دخل المهدي ابن نوالاً مدائن مكناسة.

الخبر عن ظهور الدولة المرباطة للمتونية وقيامها بالقبلة والمغرب وبلاد الأندلس وذكر ملوكهم ومدة أيامهم إلى انقضائها وذهابها

ذكر محمد بن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني - صاحب كتاب الإكليل في الدولة الحميرية - أن لمتونة فخذ من صنهاجة، وصنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، وأن الملك أفريقش بن وائل بن حمير لما ملكها حمير خرج غازياً نحو بلاد المغرب وأرض أفريقية، فلما توغل بالمغرب بنى مدينة أفريقية، وهي مشتقة من اسمه وخلف بها من قبائل حمير، وزعمائها صنهاجة ليردوا البربر عن شاكلتهم، ويأخذوا خراجهم ويدبروا أمرهم، وروي أبو عبيدة عن ابن الكلبي أن أفريقش لما نعل البربر عن الشام ومصر إلى المغرب، وبنى مدينة أفريقية، وأنزل البربر منازلهم من المغرب ترك فيهم قبيلتين من دهاته، وهما صنهاجة وكتامة فهما في البربر إلى اليوم، وقال الزبير: بن بكان أن صنهاج أبو صنهاج هو صنهاج بن حمير بن سبأ ولد حمير من سبأ لصلبه، وقال أبو فارس عبد العزيز المزروزي الشاعر في أرجوزته في التاريخ المسمى بنظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك:

مرابطون أصلهم من حمير قد بعدت أنسابهم عن مصر
وأن صنهاج أبوه حمير هو ابنه لصلبه لا العنصر
أكرم به من نسب صريح فقلته لا تخفه بالتصریح
وعدهم وفضلهم مشهور ومجدهم وسعدهم مذكور
وقيل صنهاجة فخذ من هواره، وهواره فخذ من حمير يمانيون من ولد
الحصوري بن وائل بن حمير، وإنما سموا هواره لأن أباهم المشهور لما آجال في
البلاد، ووقع بالمغرب بقبلة القيروان من بلاد أفريقية، قال: لقد تهورنا في البلاد
فسموا هواره بذلك والله أعلم.

وتقسم صنهاجة على سبعين قبيلة منهم لمتونة وجدالة ومسوقة ولمطة ومسراتة
وتلكاتة ومداسة وبنو وإرث وبنو مشلير وبنو دخير وبنو زياد وبنو موسى وبنو
لماس وبنو فشتال، وفي كل فرقة وقبيلة بطون وأفخاذ وقبائل أكثر من أن تحصى،
وهذه القبائل كلها صحراويون بلادهم في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولاً ومسيرة
أربعة أشهر عرضاً من نول لمطة إلى قبلة أفريقية وقبلة القيروان من بلاد أفريقية وهي
ما بين بلاد البربر، وبلاد السودان وهم قوم لا يعرفون حرثاً ولا ثماراً وإنما أموالهم
الأنعام، وعيشهم من اللحم واللبن يقوم أحدهم عمره فلا يأكل خبزاً إلا أن يمر
ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق، وأكثرهم على السنة والجماعة يجاهدون
السودان، وكان أول ملك منهم بالصحراء تيولوثان بن تيكلان الصنهاجي اللمتوني
ملك بلاد الصحراء بأسرها ودان له بها أزيد من ملوك السودان كلهم يودون إليه
الجزية، وكان عمله مسيرة ثلاثة أشهر في مثلها كلها عامرة، وكان يركب في مئة ألف
نجيب وكان في أيام الإمام عبد الرحمن القائم بالأندلس، ودامت أيامه وطال عمره
نحواً من ثمانين سنة إلى أن توفي في سنة اثنتين وعشرين ومائتين، فولي بعده حفيده
الأثر بن بطين بن تيولوثان المذكور، فقام بأمر صنهاجة إلى أن توفي سنة سبع

وثلاثين ومائتين فكانت أيامه خمسًا وستين سنة، فولى بعده ولده تميم بن الأثر فأقام ملكًا على قبائل صنهاجة إلى سنة ست وثلاثمئة، فقامت عليه أشياخ قبائل صنهاجة فقتلوه، فافترق أمرهم فلم يجتمعوا على أحد بعده، فاختلفت كلمتهم وتفرقت أهواؤهم مدة مئة وعشرين سنة إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفات المعروف بتارسنا اللمتوني فاجتمعوا عليه، وقدموه على أنفسهم وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والحج والجهاد، فأقام أميرًا على صنهاجة مدة من ثلاثة أعوام إلى أن استشهد في غزوة له بموضع يقال له بقارة وهم قبائل من السودان يسكنون مقربة من مدينة بتكلاسين غربًا منها كانوا على دين اليهودية، ومدينة تاتكلاسين يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببني وأرث وهم قوم صالحون على السنة والجماعة أسلموا على يد عقبة بن نافع الفهري أيام فتح المغرب، وهم يجاهدون السودان الذين هم على غير الإسلام، فلما توفي الأمير أبو عبد الله بن تيفات اللمتوني ولي أمر صنهاجة بعده صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي.

الخبر عن دولة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي وقيامة بأمر صنهاجة

ولي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي بعد وفات محمد بن ترسنا اللمتوني وجدالة وملتونة أخوة يجتمعون في أب واحد وهم يسكنون آخر بلاد الإسلام، ويحاربون السودان ويلبهم من جهة المغرب البحر المحيط، فأقام الأمير يحيى بن إبراهيم على رياسة صنهاجة وحروبهم مع أعدائهم إلى سنة سبع وعشرين وأربعمئة فاستخلف ولده إبراهيم بن يحيى على رياسة صنهاجة، وحروبهم مع أعدائهم وارتحل إلى المشرق برسم حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي -عليه السلام- فوصل فقضي حجه وزيارته، وقفل إلى بلاده فمرّ في طريقه بمدينة القيروان فلقى بها الفقيه الصالح

أبا عمران موسى بن أبي حاج الفاسي كان قد رحل من مدينة فاس، فاستوطن القيروان يأخذ عن أبي الحسن القاسبي، ثم رحل إلى بغداد فحضر بها مجلس الفقيه القاضي أبي بكر الطيب، فأخذ عنه علماً كثيراً ثم عاد إلى القيروان، فلم يزل بها حتى توفي - رحمه الله - لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان المعظم سنة ثلاثين وأربعمئة، فلما وصل يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى القيروان ألفي بها أبا عمران الفاسي يدرس العلم، فجلس إليه، وسمع منه قراءة أبو عمران محباً في الخير فأعجبه حاله، فسأله عن اسمه ونسبه وبلده وأخبره بذلك وأعلمه بسعة بلاده وما فيه من الخلق، فقال: له ومن يتحلون من المذاهب، فقال له: أنهم قوم غلب عليهم الجهل، وليس فقال له ومن يتحلون من المذاهب فقال له أنهم قوم غلب عليهم الجهل، وليس لهم كثير علم، فاخبره الفقيه، وسأله عن موجبات دينه ولم يجده يعرف من دينه شيئاً، ولا يحفظه لا من الكتاب ولا من السنّة إلا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة واليقين جاهل، بما يصلح دينه، فقال له: ما يمنعك من تعليم العلم. فقال له: يا سيدي أن أهل بلادنا قوم عمهم الجهل ليس فيهم من يقرأ القرآن، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه، ويسارعون إليه، لم يجدوا من يقرأهم القرآن ويدرسهم العلم، ويفقههم في دينهم ويدعوهم إلى العلم بالكتاب والسنّة ويعلمهم شرائع الإسلام ويبين سنن الذي - عليه السلام - فلو أبتغيت الثواب من الله تعالى في تعليمهم الخير لبعثت معي إلى بلدنا بعض طلبتك وتلاميذك فيقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويسمعون له ويطيعون، فيكون لك في ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم عند الله تعالى إذ تكون سبباً لهدايتهم، فندب الشيخ الفقيه أبو عمران تلاميذه إلى ذلك فامتنعوا منه وأشفقوا من دخول الصحراء، ولم يجبه منهم أحد من يرضاه الشيخ فلما يئس منهم قال له أني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيهاً حادثاً تقياً ورعاً لقيني هنا وأخذ علي علماً كثيراً، وعرفت ذلك منه

اسمه وحاج بن زلوا اللمطي من أهل السوس الأقصى وهو الآن يتعبد ويدرس العلم ويدعو الناس إلى الخير في رباطة هنالك وله تلاميذ جملة يفرون عليه العلم اكتب له كتابًا لينظر في تلاميذه من بيعته معك فسر إليه فعنده تجد ما تريد فكتب إليه الفقيه أبو عمران كتابًا فيه سلام عليك ورحمة الله تعالى، أما بعد إذا وصلتك حامل كتابي هذا هو يحيى بن إبراهيم الجدالي فأبعث معه إلى بلده من ثثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسة ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام، ويفقههم في دينهم ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، والسلام.

فسار يحيى بن إبراهيم الجدالي بكتاب أبي عمران حتى وصل الفقيه وجاج بمدينة نفيس فسلم عليه ودفع إليه الكتاب، وذلك في شهر رجب الفرد سنة ثلاثين وأربعمئة، فقرأ الفقيه وجاج الكتاب ثم جمع تلاميذه، فقرأ عليهم ونبذهم لما أمر به الشيخ أبو عمران الفاسي فانتدب لذلك رجل منهم جزولي النسب يعرف بعبد الله بن ياسين الجزولي، وكان من حذاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء من أهل الدين والفصل والتقوى والفقه والأدب والسياسة، مشارك في العلوم فخرج مع يحيى بن إبراهيم حتى وصل إلى بلاد جدالة فتلقاه قبائل جدالة ولمتونة بالسروور وفرحوا به غاية وبالغوا في إكرامه وبرّه.

الخبر عن دخول الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ببلاد صنهاجة وقيامه بها مع لمتونة والمرابطين من قبائل صنهاجة

هو عبد الله بن ياسين ابن مكوك بن سير علي بن ياسين الجزولي لما وصل مع يحيى بن إبراهيم إلى بلاد صنهاجة، ونزل بساحتهم وراء المنكرات ظاهرة فيهم شائعة عندهم، ووجد الرجل منهم تتزوج ست نسوة وسبع عشرة وما شاء، فأنكر ذلك عليهم ونهاهم عنه، وقال لهم ليس هذا من السنة، وإنما السنة الإسلامية

أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط، وله سعة فيما شاء من ملك اليمين، فجعل يعلمهم الدين، ويبين لهم الشرائع والسنة يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فلما رأوا ه شدد في ترك ما هم عليه من المنكرات تبرأوا منه وهجروه ونفروه ونقل ذلك عليهم ومع ذلك فإنه وجد أكثرهم لا يصلون وليس عندهم من الإسلام إلا الشهادتين وقد غلب عليهم الجهل، فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه واتباعهم أهواءهم أراد الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام إذ كان الإسلام بها قد ظهر فلم يتركه يحيى بن إبراهيم الجدالي، وقال له: إني لا أتركك تنصرف، وإنما أتيت بك لانتفع بعلمك في خاصة نفسي وديني وما عليّ ممن ضلّ من قومي، ولكن يا سيدي هل لك في رأي أشير به عليك أن كنت تريد الآخرة؟ قال: وما هو؟ قال: إن هاهنا في بلدنا جزيرة في البحر إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا، وإذا ملأ دخلنا في الزوارق وفيها الحلال المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البرية، وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت، فندخل إليها فنعيش فيها بالحلال ونعبد الله حتى نموت فقال له: عبد الله بن ياسين هذا أحسن فهل بنا ندخلها على اسم الله تعالى، فدخلاها. ودخل معها سبعة نفر من جدالة فأبتنا بها رابطة، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر فتسامع الناس بخبرهم، وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثرت الوارد عليهم، والتوابون فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن، ويستميلهم إلى الخير، ويرغبهم في ثواب الله تعالى، ويحذرهم أليم عذابه حتى تمكن حبه في قلوبهم، فلم تمر عليه حتى اجتمع عليه من تلاميذه نحو ألف رجل من أشرف صنهاجة فسماهم المرابطين للزومهم رابطته وأخذ يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيباً فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم الأجر ثم دعاهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة، وقال لهم: معشر المرابطين أنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهدئكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في سبيل الله حق جهاده فقالوا له: أيها الشيخ المبارك مُرَّنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا، فقال لهم: أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته؛ فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا مما هم عليه فخلوا سبيلهم وإن أبوا عن ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استغثنا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلام عما هم بسبيله فلم يكن منهم من يقبل ولا يرجع فخرج إليهم عبد الله بن ياسين، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم، وقرأ عليهم حجة الله ودعاهم إلى التوبة، وخوفهم عقاب الله فأقام يندرهم سبعة أيام وهو في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فسادًا، فلما يئس منهم قال لأصحابه قد أبلغنا الحاجة وأنذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم فأغزوهم على بركة الله تعالى فبدأ أولاً بقبائل جدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين، فانهزموا بين يديه فقتل منهم خلقًا كثيرًا وأسلم الباقيون إسلامًا جديدًا وحسنت حالتهم وأدوا ما يلزمهم من جميع ما فرض عليهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمئة، ثم سار إلى قبائل لمتونة، فنزل بهم وقتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة وتابوا وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة.

ثم سار إلى قبائل مسوقة فغزاهم حتى أذعنوا له وبايعوه على بايعته قبائل لمتونة وجدالة، فلما رأى ذلك قبائل صنهاجة فتسارعوا إلى التوبة، وإلى مبايعته، وأقروا له

بالسمع والطاعة، فكان كل من أقبل إليه تائباً منهم طهره بأن يضربه مئة سوط ثم يعلمه القرآن، وشرائع الإسلام، ويأمرهم بالصلاة والزكاة وإخراج العشر وجعل لذلك بيت مال يجمعها فيه، وأخذ يركب منه الجيوش ويشترى السلاح ويغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء، واستولى على قبائلها وجمع أسلاب المقتولين في تلك الغزوات وجعلها للمرابطين، وبعث بهال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاها، فاشتهر أمرهم في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر المغرب، وأنه قام رجل بجدالة يدعو إلى الله وإلى الطريق المستقيم ويحكم بما أنزل الله وأنه متواضع زاهد في الدنيا وانتشر ذلك عنه في بلاد السودان، وتوفي يحيى بن إبراهيم الجدالي فأراد عبد الله بن ياسين أن يقدم غيره في موضعه ليقوم بحروبهم وكان أكثر قبائل صنهاجة طائعة لله تعالى ودينًا وصلاحًا للمتونة، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم على قبائل صنهاجة، وذلك لما أراد الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس فجمع عبد الله بن ياسين برؤساء القبائل من صنهاجة فقدم عليهم يحيى بن عمر اللمتوني، وأمره على سائرهم وعبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة، لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي ويأخذ فكان الأمير يتولى النظر في أمور حروبهم وعبد الله بن ياسين ينظر، في دياناتهم وأحكامهم ويأخذ زكاتهم وأعشارهم.

الخبر عن الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني

لما قدم عبد الله بن ياسين يحيى بن عمر اللمتوني المرباط، وكان من أهل الدين المتين والفضل والورع والزهد في الدنيا والصلاح لأمره بالجهاد، وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه، فمن حسن طاعته له أنه لما قال له يومًا: وجب عليك أدب. قال: فلماذا يا سيدي؟ قال له: لا أعرفك به حتى أخذه منك. فكشف من بشرته فضربه عشرين سوطاً، ثم قال له: إنها ضربتك

لأنك باشرت القتال وأمضيت الحرب بنفسك، وذلك خطأ منك؛ فإن الأمير لا يقاتل وإنما يقف يحرض الناس ويقوي نفوسهم، فإن حياة الأمير حياة عسكره، وموته فناء جيوشه، فاستولى الأمير يحيى على جميع بلاد الصحراء وغزا بلاد السودان ففتح كثيراً منها فلما كان في سنة سبع وأربعين وأربعمئة جمعوا فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاهم فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين، وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول إلى بلادهم ليظهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي، فلما وصل الكتاب لعبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر. فقالوا له: أيها الشيخ الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله تعالى. فأمرهم بالجهاد وخرج بهم في الموفى عشرين لصغر سنه سبع وأربعين وأربعمئة في جيش عظيم من المرابطين فسار حتى وصل بلاد درعة فوجد بها عامل أمير سجلماسة فأخرجه عنها، ووجد بها خمسين ألف ناقة كانت في مراعيها لصاحب سجلماسة مسعود المغراوي فعلم الأمير مسعود بذلك فجمع جيوشه وخرج نحوهم فالتقى الجمعان. فكانت بينهم حروب عظيمة ثم منح الله تعالى المرابطين فيها النصر على مغراوة فقتل مسعود بن وانودين المغراوي وأكثر جيوشه وفر الباقون فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الإبل الذي أخذ في درعة، فأخرج منه خمس جميعه ففرقه لفقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم، وقسم الباقي على المرابطين، وارتحل من فوره حتى دخل مدينة سجلماسة فقتل بها من وجد فيها من مغراوة، وأقام بها حتى هدنها وأصلح أحوالها وغير ما وجد فيه المنكرات وقطع المزامير وأحرق الديار التي كانت بها بيع الخمر، وأزال المكوس، وأسقط المغارم المخزنية وترك ما أوجب تركه الكتاب والسنة؛ فقدّم عليها عاملاً من

لمتونة وانصرف إلى الصحراء وتوفى الأمير أبو زكرياء يحيى بن عمر في جهاد كان له هنالك ببلاد السودان، فقدّم الفقيه عبد الله بن ياسين في مكانه أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني، وذلك في شهر محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمئة.

الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني المرباط

لما توفى يحيى بن عمر قدّم عبد الله بن ياسين عوضاً منه أخاه أبا بكر بن عمر، وقلّده أمر الحرب فندب المرباطين إلى غزو بلاد المصامدة وبلاد السوس فخرج إليها في جيوش عظيمة، وذلك في شهر ربيع الثاني من سنة ثمان وأربعين وأربعمئة، وكان الأمير أبو بكر رجلاً صالحاً متورعاً فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني، ثم سار حتى وصل بلاد السوس فغزا بلاد جزولة وفتح مدينة ماسة ومدينة تارودانت وجميع بلاد السوس، وكانت بتارودانت قوم من الروافض يقول لهم البجيلة منسوبين إلى عليّ بن عبد الله البجليّ الرافضي كان قدم إلى السوس في حين قام عبيد الله الشيعي بأفريقية؛ فأشاع هنالك مذهبه فتوارثوه بعده جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، لا يرون الحق إلا ما في أيديهم فقاتلهم الأمير أبو بكر وعبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة، وقتل بها من الروافض خلق كثير فرجع من بقي منهم إلى السنة وأخذ أموال من قتل منهم فجعلها فيها للمرباطين وأظهر الله المرباطين، وأعلا كلمتهم ففتح معاقل بلاد السوس وأطاعتهم جميع قبائلها فأخرج عبد الله بن ياسين عماله على نواحيها وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة فيها وأخذ الزكاة والعشر وأسقط ما سوى ذلك من المغارم المحدثّة، وارتحل إلى بلاد المصامدة ففتح جبال درن وفتح أيضاً بلاد رودة وفتح مدينة شفشاعة بالسيف، ثم فتح نفيس وسائر بلاد جدميوة، وأتته قبائل رجراجة وحاحة، فبايعوه وارتحل إلى مدينة أغمات وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف بن عليّ المغراوي، فنزل عليها وضيّق عليه بالحصار، وقاتله أشد القتال فلما رأى لقوط ما لا طاقة له به أسلمها له وفرّ عنها ليلاً

هو وجميع حشمه إلى ناحية تادلاً فنزل في حماء بني يفرن أربابها، ودخل المرابطون مدينة أغمات في سنة تسع وأربعين وأربعمئة، فأقام عبد الله بن ياسين بمدينة أغمات نحو الشهرين حتى استراح المرابطون ثم خرج بهم إلى غزو تادلا ففتحها، وقتل من وجد بها من بني يفرن من ملوكها وظفر بلقوط المغراوي فقتله، ثم سار إلى بلد تامسنا ففتحها فأخبر أن بساحلها قبائل برغوانة في عدد عظيم، وأنهم مجوس كفار.

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين مجوس برغواطة وذكر مذهبهم السخيف وديانتهم الخسيصة

لما وصل عبد الله بن ياسين إلى بلاد تامسنا أخبر أن بساحلها قبائل برغواطة في أمم لا تحصى، وأنهم مجوس أهل ضلال وكفر وأخبر بديانتهم الخبيثة التي تمسكوا بها، وقيل له أن برغواطة قبائل كثيرة وليس لهم أب واحد ولا أم واحدة وإنما هم أخلاط من قبائل شتى من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف القائم بتامسنا حين ادعى النبوة في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان أصله -لعنه الله- من برنات حصن من عمل شدونة من بلاد الأندلس، فكان يقال من تبعه ودخل في ديانته برناتي فعربته العرب، وقالوا: برغوطي. فسموا: برغواطة.

وكان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم النبوة رجلاً خبيثاً يهودي الأصل من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام نشأ بـرنط من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد الله المعتزلي القدري، واشتغل بالسحر فجمع منه فنونا كثيرة وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا، فوجد بها قبائل من البربر جهالاً فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع فأخذ يعقوبهم، واستمالهم بسحره ولسانه وأراهم من نوارجه وتمويهاته فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضلته واعترفوا بولايته فقدموه على أنفسهم وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم ووقفوا عند أمره ونهيه فادعى النبوة وتسمى بصالح المؤمنين، وقال لهم أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي

أنزله على محمد - صلى الله عليه وسلم - وشرع لهم الديانة، التي أخذوها عنه، وذلك في سنة خمس وعشرين ومئة.

وكان الضلال الذي شرع لهم يقرؤون بنبوته وأنهم يصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمسا بالليل وخمسا بالنهار، وأن الأضحية واجبة على كل مسلم في الحادي والعشرين من المحرم، وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين، وصلاتهم إيماء لا سجود فيها، ويسجدون في آخر ركعة خمس سجعات، ويقولون عند الطعام والشراب باسم ياكس وزعم أن تفسيره باسم الله وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار، وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ولا يتزوج من بنات عمه، ويطلقون ويرجعون ألف مرة في اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك، وأمرهم بقتل السارق حيث وجد، وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف، وأمرهم بالدية من البقر وحرّم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكروه أكلها، وقد وقتهم في الأوقات الديكة، وحرّم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكًا وأكله أعتق رقبة، وأمرهم أن يلحسوا بزاق ولاتهم تبرّكًا فكان يبصق في أكفهم فيلحسونه تبرّكًا به ويحملوا به إلى مرضاتهم فيستشفون به، ووضع لهم قرآنًا يقرأونه في صلواتهم ويتلونونه في مساجدهم وزعم أنه أنزل عليه، وأنه وحي من الله تعالى إليه، ومن شك في شيء من ذلك منهم فهو كافر والقرآن الذي شرع لهم ثمانين سورة سماها لهم بأسماء النبيين، منها: سورة آدم، وسورة نوح، وسورة أيوب، وسورة موسى وسورة هارون، وسورة الأسباط، وسورة فرعون، وسورة بني إسرائيل، وسورة الديك، وسور الحجر، وسورة الجراد، وسورة الجمل، وسورة هاروت وماروت، وسورة إبليس وسورة الحشر، وسورة غرائب الدنيا - وفيها العلم العظيم عندهم. وأمرهم ألا يغسل من جنابة إلا من الحرام.

وقد ذكرنا أخبار برغواطة وملوكهم مستوفية في كتابنا الكبير المسمى بزهرة البستان في أخبار الزمان وذكر الموجود مما وقع في الوجود.

قال المؤلف - عفا الله عنه - فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الضلالة رأى أن الواجب تقديم جهادهم على غيرهم فسار إلى غزوهم في جيوش المرابطين والأمير على برغواطة يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبي عبيد محمد بن مقلد بن اليسع بن صالح بن طريف البرغواطي المتنبئ، فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين حروب عظيمة وملاحم شديدة مات فيها من الفريقين خلق كثير، فاستشهد فيها عبد الله بن ياسين للجزولي مهدي المرابطين ورئيسهم، ثقل بالجراح في الحرب وحمل إلى معسكره وبه رمق فجمع أشياخ المرابطين ورؤساءهم فقال لهم: يا معشر المرابطين! إنكم في بلاد أعدائكم، وأنا ميت في يومي هذا لا محالة، فإياكم أن تجنبوا فتفشلوا فتذهب ريجكم، وكونوا ألفة وأعوانًا على الحق وإخوانًا في ذات الله تعالى، وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرئاسة، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، وأنا قد ذهبت عنكم فانظروا من تقدموه منكم يقوم بأمركم، ويقود جيوشكم ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيأكم ويأخذ زكاتكم وأعشاركم، فاتفق رأيهم على تقديم أمير الحرب أبي بكر بن عمر اللمتوني فقدّمه عبد الله بن ياسين عليهم باتفاق من جميع أشياخ صنهاجة واجتماع منهم على ذلك، وتوفي عبد الله بن ياسين في عشي يومه ذلك، وذلك يوم الأحد الرابع والعشرين لجمادي الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمئة ودفن بموضع يعرف بكريفة بتامسنا وبنى على قبره مسجدًا، وكان عبد الله بن ياسين شديد الورع في المطعم والمشرب فكان بطول إقامته فيهم لم يأكل شيئًا من لحمهم ولا شرب من ألبانهم، فإن أموالهم كانت غير مطيبة لشدة جهلهم، فكان يتعيش من لحوم الصيد وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج في كل شهر عددًا من النساء ويطلقهن ولا يسمع

بامرأة جميلة إلا خطبها ولا يجوز في مهرها أربعة مثاقيل وكان يأخذ الثلث من الأموال المختلطة ويرى أن ذلك يحلل فاقبها، وذلك شذوذ من الفعل، ومما يذكر من فضله وصلاحه ومن بركاته التي شاهدها الناس أن المرابطين خرجوا معه في بعض غزواته للسودان فنغدوا الماء حتى أشرفوا على التلف فقام عبد الله بن ياسين وتيمم فصلا ركعتين ودعا الله تعالى وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم أحفروا تحت مصلاي هذا فحفروا فوجدوا الماء على مقدار شبر من الأرض فشربوا منه واستقوا وملئوا أو عيتهم بماء عذب بارد. ومن بركاته أنه نزل منزلاً بركة كثيرة الضفادع لا يقدر أحد أن يستقر حوله لكثرة نقيقتها وصياحها فوقف عليه عبد الله بن ياسين حداها فسكنت الضفادع ولم يسمع لها نقيق فلما تباعد عنها عادت، ولم يزل صائماً من يوم دخل بلادهم إلى أن توفي رحمه الله، ومن حسن سياسته فيهم أنه أقام فيهم السنة والجماعة في المدة القليلة، وحكم عليهم أن من فاتته الصلاة في الجماعة ضربه عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة ضربه خمسة أسواط.

الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عمر الصنهاجي اللمتوني
هو الأمير أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين بن واياطين اللمتوني المحمدي، أمه حرة جدالية، اسمها: صفية.

لما قدمه عبد الله بن ياسين بايعته قبائل المرابطين من صنهاجة وغيرهم فتمت له البيعة، كان أول فعله أن أخذ في دفن عبد الله بن ياسين فلما فرغ من دفنه عبأ جيوشه وقصد إلى قتال برغواطة مصمماً في حربه متوكلاً على الله تعالى في جميع أموره، فاستأصل برغواطة حتى فروا بين يديه، وهو في أثرهم يقتل ويسبي حتى أئخن فيهم، وتفرقت برغواطة في الشعاري وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلاماً

جديداً ولم يبق لديانتهم الخسيصة أثر إلى اليوم، وجمع أموالهم وغنائمهم وقسمها بين المرابطين، ورجع إلى مدينة أغمات فأقام بها إلى شهر صفر سنة اثنتين وخمسين وأربعمئة فخرج بجيوشه إلى بلاد المغرب في أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة ففتح بلاد فأزاز وجبالها وسائر بلاد زناتة، وفتح مدائن مكناسة وارتحل عنها إلى مدينة لواتة، فحاصرها حتى دخلها بالسيف، وقتل بها خلقا كثيراً من بني يفرن وكان دخوله إياها وتخريبها في آخر يوم شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وأربعمئة فلم تعمر بعدها إلى اليوم.

فلما فرغ من فتح لواتة ارتحل إلى مدينة أغمات، وكان قد تزوج بها امرأة اسمها زينب بنت إسحاق الهواري رجل من التجار أصله من القيروان، وكانت امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور، حتى كان يقال لها ساحرة، فأقام الأمير أبو بكر معها بأغمات من ثلاثة أشهر إلى أن قدم عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال الصحراء، وكان الأمير أبو بكر رجلاً صالحاً كثير الورع فلم يستحلّ قتال المسلمين وسفك دماءهم فعزم على السير إلى الصحراء ليصلح أحوالها ويقيم فيها يجاهد الكفار من السودان، فلما عزم إلى الخروج للصحراء طلق زوجته زينب وقال لها عند فراقه لها: يا زينب إنك ذات حسن وجمال فائق، وأنا سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعل أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر وأنت امرأة غليظة لا طاقة لك على بلاد الصحراء وأنا مطلقك فإذا تمت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب، فطلقها ثم ارتحل عن أغمات وأخذ على بلاد تدلا حتى خرج إلى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياماً حتى أصلح أحوالها فلما أراد السفر منها دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين فعقده على المغرب وفوض إليه أمره وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وقبائل البربر وزناتة، واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلموا من دينه وفضله وشجاعته

وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقييته فرجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بنصف جيش المرابطين وارتحل الأمير أبو بكر بن عمر بالنصف الثاني إلى الصحراء، وذلك في شهر ذي قعدة من سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة، فتزوج يوسف بن تاشفين زينب المذكورة فكانت القائمة بملكه والمديرة لأمره والفاخرة بحسن سياستها أكثر بلاد المغرب إلى أن توفت في سنة أربع ستين وأربعمئة.

وسار الأمير أبو بكر إلى الصحراء فهدنها، وسكن أحوالها، وجمع جيوشاً كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر، وغلب أيضاً يوسف بن تاشفين على أكثر بلاد المغرب، واستوثق أمره به فلما سمع الأمير أبو بكر بضحامة ملك يوسف بن تاشفين، وما فتح الله عليه من بلاد المغرب أقبل إليه من الصحراء ليعزله، ويولي غيره فأحس يوسف بن تاشفين بذلك فشاور زوجته في ذلك الأمر، فقالت له: يا يوسف أن ابن عمك رجل متورّع في سفك الدماء فإذا لقيته فقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع، وأظهر له غلظة حتى كأنك مساوياً له ومقاوم، ولاطفة مع ذلك بالهدية والأموال والخلع والثياب والطعام والطرف واستكثر من ذلك؛ فإنه ببلاد الصحراء وكل شيء عندهم من هنا مستطرف فلما قرب الأمير أبو بكر بن عمر من عمل يوسف خرج إليه فتلقيه في الطريق فسلم عليه وهو راكب سلاماً مختصراً ولم ينزل له فنظر الأمير أبو بكر كثرة جيوشه فقال له: يا يوسف، ما تصنع بهذه الجيوش كلها؟ قال له: استعين بها على من خالفني. فارتاب أبو بكر من سلامه عليه ركباً ومن جوابه ونظر إلى ألف بعير موقرة قد أقبلت، قال: ما هذا الإبل الموقرة؟ قال: أيها الأمير أني جئت بك بكل ما معي من مال وثياب وشيء من الطعام والآدم لتستعين به على الصحراء. فازداد تعرفاً من حاله وعلم أنه لا يتخلى له عن الأمر. فقال له: يا ابن عمي! انزل أوصيك. فنزل يوسف ونزل الأمير أبو بكر ففرش لهما فرش فقعدا عليه. فقال له: يا يوسف! إني قد

وليتك هذا الأمر وأني مسئول عنها فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك، ولا يضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم، ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء فأقام بها مدة يجاهد الكفرة من السودان إلى أن استشهد - رحمه الله - في بعض غزواته، رمي بسهم مسموم فمات - رحمه الله - وذلك في شهر شعبان المكرم سنة ثمانين وأربعمئة بعد أن استقام له أمر بلاد الصحراء إلى جبال الذهب من بلاد السودان وخلص الأمر ليوסף بن تاشفين من بعده.

الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني وسيره وغزواته

هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن وتلمي بن تلميت الحميري الصنهاجي اللمتوني من ولد عبد شمس بن واتل بن حميار، أمه حرة لمتونية بنت عم أبيه، اسمها: فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقطين المذكور.

صفته: أسمر اللون، نقيه، معتدل القامة نحيف الجسم، خفيف العارضين رقيق الصوت، أكحل العينين أقرنى الأنف، له وفرة تبلغ شحمة أذنية مقرون الحاجبين أجعد الشعر وكان - رحمه الله - بطلاً نجداً شجاعاً حازماً مهاباً ضابطاً للملكه متفقداً لموالي من رعيته وبلاده من ثغوره، ومواظباً على الجهاد مؤيداً منصوراً جواداً كريماً شيخاً زاهداً في زينة الدنيا متورعاً عادلاً صالحاً متقشفاً على ما فتح الله عليه من الدنيا لباسه الصوف ولم يلبس قط غيره، وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصرًا على ذلك لم ينتقل عنه مدة عمره إلى أن توفي رحمه الله على ما منحه الله من سعة الملك في الدنيا وخوله منها فإنه خطب له بالأندلس والمغرب على ألف منبر

وتسعمئة منبر، وكان ملكه من مدينة أفرانج أول بلاد الإفرنج قاضية شرق بلاد الأندلس إلى آخر عمل منشرين والأشبونة، على البحر المحيط من بلاد غرب الأندلس، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً طويلاً وفي العرض ما يقرب من ذلك، وملك بالمغرب من بلاد العدو من جزائر بني مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبل الذهب من بلاد السودان، ولم يجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا في حاضرة ولا في بادية إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والعشر وجزيات أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين، وجبا في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبه أحد قبله فيقال أنه وُجد في بيت المال بعد وفاته ثلاثة عشر ألف رُبع من الورق وخمسة آلاف وأربعين رُبعاً من دنانير الذهب المطبوعة.

ورد أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون الأحكام الشريعة وكان يسير في أعماله فيتفقد أحوال رعيته في كل سنة وكان محباً في الفقهاء والعلماء والصلحاء مقرباً لهم، صادراً عن رأيهم مكرساً لهم، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طول أيامه وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعاً كثير الحياء جامعاً لخلال الفضل، فكان كما قال الفقيه الكاتب أبو محمد بن حامد فيه وفي بنيه.

ملك له شرف العلي من حمير وأن اتهموا صنهاجة فهم هم لما حووا أحواز كل فضيلة غلب عليهم الحياء فتلثم مولده في سنة أربعمئة ببلاد الصحراء ووفاته في سنة خمسمة، فكان جميع عمره مئة سنة، أيامه منها بالمغرب منذ استخلفه الأمير أبو بكر عمر على أن توفي رحمه الله سبع وأربعين سنة، وذلك من سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة إلى سنة خمسمة، كنيته أبو يعقوب وكان يدعى بالأمير، فلما فتح الأندلس وصنع غزاة الزلاقة، وأذل الله تعالى بها ملوك الروم وبايعه في ذلك اليوم ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا

معه تلك الغزاة، وكانوا ثلاثة عشر ملكًا فبايعوه وسلموا عليه بأمر المسلمين وهو أول من تسمى بأمر المسلمين من ملوك المغرب، فخرجت كتبه مصدرة عنه بذلك إلى بلاد العدو وبلاد الأندلس فى ذلك اليوم، فقرأت على المنابر يخبرهم فيها بغزاة الزلافة وما من الله تعالى فيها من النصر والظفر والفتح العظيم وضرب السكة من يومئذ وجددها، ونقش فى ديناره لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب فى الدائرة {ومن يتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين} وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته، بنوه على الخليفة بعده: تميم وأبو بكر والمعز وإبراهيم وكوتة ورقية، لما قدمه أبو بكر بن عمر على المغرب وفوض إليه أمره، وذلك فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة، وانصرف عنه من مدينة سجلماسة فوصل إلى وادي ملوية، فميز جيوشه فوجدهم أربعين ألفًا من المرابطين فاختر منهم أربعة من القادة، وهم: محمد بن تميم الجدالي، وعمران بن سليمان المسوفي، ومدر ك التلكاني، وسير بن أبي بكر اللمتوني.

وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته وقدمهم بين يديه إلى قتال من بالمغرب من مغراوة وبنى يفرن وغيرهم من قبائل البربر القائمين به، وسار هو فى أثرهم فغزا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة، وبلدا بعد بلد فقوم يفرن بين يديه، وقوم يقاتلونه وقوم يدخلون فى طاعته حتى أنخن فى بلاد المغرب، وسار حتى دخل مدينة أغمات فتزوج زينب التي فارقتها ابن عمه أبو بكر بن عمر فكانت عنوان سعدة.

ودخلت سنة أربع وخمسين وأربعمئة، وفيها تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب، وكثر صيته وفيها، اشترى موضع مدينة مراکش ممن كان يملكه من

المصامدة، فسكن الموضع بخيام الشعر وبنا به مسجداً للصلاة، وقصبة صغيرة لإخوان أمواله وسلاحه ولم يبين على ذلك سوراً وكان -رحمه الله- لما شرع في بناء المسجد يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه وتورعاً -غفر الله له ونفعه بقصده- والذي بناه يوسف من تلك هو الموضع المعروف الآن بسور الخير من مدينة مراكش جوقاً من جامع الكتبيين منها، ولم يكن بها ماء، فحفر الناس فيها آبار فخرج لهم الماء على قرب فاستوطنها الناس، ولم يزل كذلك لا سور لهم.

فلما ولي ولده على بعده بنا سورها في ثمانية أشهر، وذلك في سنة ست وعشرين وخمسة ثم احتفل في بنائها ومصانعها أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحد أيام ملكه بالمغرب، ولم تزل مدينة مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحيدين من بعدهم من يوم أسست إلى انقراض الدولة الموحدية؛ فانتقل الملك منها إلى مدينة فاس، وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند يوسف الأجناد واستكثر القادة، وفتح كثيراً من البلاد واتخذ الطبول والبنود وأخرج العمال وكتب العهود، وجعل في جيشه الأغزاز والرمات كل ذلك إرهاباً لقبائل المغرب، فكمل له من الجيوش في تلك السنة أزيد من مئة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والأغزاز والرمات، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصداً نحو مدينة فاس فتلقاه قبائلها من زواغة ولماية وصدية وسدراتة ومغيلة وبهلولة ومديونة وغيرهم في خلق عظيم وعدد كثير فقاتلوه فكانت بينه وبينهم حروب شديدة انهزموا فيها بين يديه، وانحصروا له بمدينة مديونة، فدخلها عليهم بالسيف فهدم أسوارها وخرّبها وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف رجل، وارتحل إلى مدينة فاس فنزلها بعد أن فتح جميع أحوازها، وذلك في آخر سنة أربع وخمسين وأربعمئة، فأقام عليها أياماً فظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله، وارتحل عنها إلى مدينة صفروا فدخلها من يومه عنوة بالسيف وقتل أربابها أولاد

مسعود المغراوي المالكين لها والقائمين بأمورها، ثم رجع إلى فاس فحاصرها حتى فتحها، وهو الفتح الأول، وذلك في سنة خمس وخمسين وأربعمئة، فأقام بها أياماً ثم استخلف عليها عاملاً من لمتونة وخرج إلى بلاد غمارة، فلما بعد يوسف عن فاس وتوغل في بلاد غمارة خالفه إليها بنوا معنصر بن حماد فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذي كان بها، وفي هذه السنة بايع المهدي بن يوسف الكزناني صاحب بلاد مكناسة يوسف بن تاشفين ودخل في طاعة المرابطين فأقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بعسكره لقتال بلاد المغرب وقبائله، فتجهز المهدي وخرج في جيشه من مدينة عوسجة يريد يوسف بن تاشفين، فسمع بذلك تميم بن معنصر المغراوي القائم بمدينة فاس فخاف على نفسه منه أن يتقوى عليه برابطين فعاجله وخرج إليه من فاس في أنجاد مغراوة وقبائل زناتة فلحق به في بعض الطريق فكان بينهما قتال شديد قتل فيه المهدي بن يوسف وافترق جمعه، وبعث تميم بن معنصر برأسه إلى صاحب سبتة وهو سقرة البرغواطي، فلما قتل المهدي بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة إلى يوسف بن تاشفين فأخبروه بموت أميرهم وأعطوه البلاد فملكها يوسف، وتوالت عساكر المرابطين على تميم بن معنصر المغراوي صاحب فاس بالغارات فلما رأى أن الأمر قد اشتد عليه وطالت عليه الفتنة وانقطعت عنه المواد وعدمت الأقوات بفاس جمع جيشاً من مغراوة وبني يفرن وخرج بهم إلى عسكر المرابطين، ف وقعت الهزيمة عليه وقتل تميم بن معنصر وقتل معه خلق كثير من حشمه، فتقدم مكانه بفاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية الزناتي المكناسي، فجمع قبائل زناتة وخرج بهم إلى لقاء جيش المرابطين، فالتقى معهم بوادي صيفير فكانت بينهما حرب شديد فهزم فيها المرابطون وقتل منهم جماعة من فرسانها فاتصل خبر هزيمتهم بيوسف بن تاشفين وهو ببلاد فازان محاصراً لقلعة مهدي فارتحل عنها وترك عليها جيشاً من المرابطين محاصراً له، فقاموا

عليها تسعة أعوام فدخلوها صلحاً في سنة خمس وستين وأربعمئة ولما رحل يوسف عن القلعة، وذلك في سنة ست وخمسين سار إلى بني مراسن، وأميرهم يومئذ علي بن يوسف فغزاهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً وفتح بلادهم، وسار إلى بلاد فندلاوة فغزاها وفتح جميع تلك الجهات، وسار منها إلى بلاد ورغة وفتحها، وذلك في سنة ثمان وخمسين، وفي سنة ستين وأربعمئة فتح يوسف جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة، وفي سنة اثنتين وستين أقبل إلى مدينة فاس فنزل عليها بجميع جيوشه، وشدّد عليها في الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف، فقتل من بها من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة خلقاً كثيراً حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الأندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف وفرّ من بقي منهم إلى أحواز تلمسان وهو الفتح الثاني، وكان دخول يوسف إياها يوم الخميس الثاني من جمادي الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمئة، فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس حصنها وأتقنها وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرّاً واحداً، وأمر ببنين المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها، وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله وجهزهم على بناء مسجد فيه، وبناء الحمامات والفنادق والأرجاء، وأصلح أسواقها وهذب بناءها، وأقام بها إلى شهر صفر سنة ثلاث وستين وأربعمئة فخرج منها إلى بلاد ملوية ففتح حصون فطاط، وفي سنة أربع وستين وأربعمئة وجه يوسف إلى أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة والصامدة وغمازة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه فبايعوه فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال ثم خرج معهم فيطوف على جميع أعمال المغرب يتفقد أحوال الرعية وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه فصلح جمعي عما بين يديه بذلك كثيراً من أمور الناس.

وفي سنة خمس وستين غزا يوسف بن تاشفين مدينة الدهنة من بلاد طنجة

فدخلها عنوة وفتح جبل علودانن، وفي سنة سبع وستين فتح جبال غيابة وبني مكود وبني رهينة، وقتل منهم خلقاً، وفيها فرق عماله على بلاد المغرب، فولي سير بن أبي بكر مدائن مكنسة وبلاد مكلالة وبلاد فازان، وولي عمر بن سليمان مدينة فاس وأحوازها، وولي دواد بن عائشة سجلماسة ودرعة، وولي ولده تميم مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تدلا وبلاد تامسنا، وفيها بعث المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز برسم الجهاد ونصر البلاد، فقال له: لا يمكنني ذلك إلا إن ملكت طنجة وسبتة، فراجعه ابن عباد فيشير عليه أن يسير إليها بعساكره في البرّ فينزلها ويبعث ابن عباد قطائعه فينزلونها في البحر حتى يتملكها فأخذ يوسف في محاولة ذلك.

وفي سنة سبعين وأربعمئة نظر يوسف في حرب طنجة وسبتة فبعث لهما قائده صالح بن عمران في اثني عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفاً من سائر قبائل المغرب من زناتة وغيرهم، فلما قربوا من أحواز طنجة خرج إليهم الحاجب سقرة البرغواطي بجموعه وهو شيخ كبير سنّه ست وثمانين سنة، فقال: والله لا يسمع أهل سبتة طبول المسلمين وأنا حي أبداً. فالتقى الجمعان بوادي منا من أحواز طنجة فالتحم القتال بينهم فقتل سقرة وهزم جيشه وسار المرابطون إلى طنجة فدخلوها، وبقي بسبتة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقرة، فكتب القائد صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف.

وفي سنة اثنتين وسبعين بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدي لغزو مدينة تلمسان فسار إليها في عشرين ألفاً من المرابطين فهتكها ودخلها وظفر بولد أميرها معلى بن يعلى المغراوي فقتله، ثم رجع إلى يوسف فألفاه بمدينة مراكش ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين فيها بدل يوسف بن تاشفين السكة في جميع عمله، وكتب عليها اسمه،

وفيهما فتح مدينة أجرسيف ومدينة مليلة وجميع بلاد الريف وفتح مدينة تكرر وخرّبها فلم تعمّر بعد.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين فيها طلع يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد يرناز وما والاها، ثم سار إلى مدينة تلمسان ففتحها، وفتح مدينة تونس ومدينة وهران وجبل وتشريش، وجميع أعمال شلف إلى الجزائر، ورجع إلى مراکش فدخلها في شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمئة، فورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الأندلس وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها وبلادها، ويسأله نصرها وإعانتها. فأجابه يوسف: إذا فتح الله لي سبّة اتصلت بكم فأبذلت في جهاد العدو المجهود. وفي هذه السنة تحرك الفنش - لعنه الله - في جيوش لا تحصى من الروم من الإفرنج والبشكنس والجلالقة وغيرهم فشقّ بلاد الأندلس شقّاً يقف على كل مدينة منها فيفسد ويحرب ويقتل ويسبى ويرتحل إلى غيرها، ونزل على أشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد أحوازها وهتكها وخرب بالشرق قرى كثيرة، وكذلك فعل في شدوتة وأحوازها ثم سار حتى وصل إلى جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال هذا آخر بلاد الأندلس قد وطيته ثم رجع إلى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها، وحلف ألا يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت بيه وبين ما يريد وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها من بلاد الأندلس فبذل إليه أمهرها المستعين بن هود بمال عظيم فبذله له، فلم يقبله منه. فقال: البلاد والمال لي. وبعث إلى كل قاعدة من قواعد بلاد الأندلس جيشاً للتضييق عليهم والحصار فملك مدينة طليطلة، وذلك في سنة سبع وسبعين وأربعمئة فلما رأوا ذلك أمراء الأندلس ورؤساؤها اتفق رأيهم على جواز يوسف بن تاشفين فكتبوا إليهم جميعهم يستنصرونه ويستصرخون به وتنفي العدو عن مخنق بلادهم، ويكونون معه يداً واحدة في جهاد العدو، فلما تواترت الكتب على يوسف بالاستصراخ لنصرة

المسلمين وتنفي العدو عن مخنق بلادهم -بعث ولده المعز في جيش عظيم إلى سبتة فنزل عليها وحاصرها حتى فتحها، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة سبع وسبعين وأربعمئة، وكتب إليه بالفتح فوصله الكتاب وهو بمدينة فاس ينظر في أمر الجهاد ويستنفر له قبائل المغرب ففرح بفتح سبتة، فخرج من حينه نحوها ليجوز منها إلى الأندلس فلما رأى المعتمد بن عباد أن الفنش قد ملك طيلطة وأحوازا وشد الحصار على سرقسطة، وسمع أن يوسف فتح سبتة، ركب البحر وجاز إلى عدوة الأندلس لاستجلاب يوسف بن تاشفين فلقية مقبلاً ببلاد طنجة بموضع يعرف ببليطة على ثلاثة مراحل من سبتة، فأخبره بحال الأندلس، وما هي عليه من شدة الخوف والضعف والاضطراب، وما يلقيه المسلمون بها من القتل والأسر والحصار من الفنش وجنوده، وأنه قد عزم على دخول سرقسطة. فقال له يوسف: ارجع إلى بلدك، وخذ في أمرك فأني قادم عليك في أثرك إن شاء الله. فرجع ابن عباد إلى الأندلس ودخل يوسف سبتة فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود، وأتاه من بلاد الصحراء والقبلة والزاب والمغرب القبائل والحشود، فشرع في تجويز الجيوش إلى الأندلس فجوز منها ما لا يحصى كثرتة فلما كمل جواز الجيوش واستوفت عساكر المجاهدين بساحل الخضراء جاز هو في أثرهم في جيش عظيم من قادة المرابطين وأنجادهم وصلحائهم فلما ركب السفينة واستقر على ظهرها رفع يديه ودعا الله تعالى، وقال في دعائه اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاً للمسلمين فسهّل على جواز هذا البحر وإن كان غير ذلك فصعبه على حتى لا أجوزه فسهّل الله عليه الجواز في أسرع ما يكون، فكان يوم الخميس عند الزوال بنصف ربيع الأول المبارك سنة تسع وسبعين وأربعمئة ونزل بالخضراء فصلى بها صلاة الظهر من يومه ذلك، فالتقاء بها المعتمد في جميع أمراء الأندلس ورؤسائها، فاتصل بالفنش خبر جوازه فارتحل عن سرقسطة قاصداً للقاء

أمير المسلمين يوسف.

الخبر عن جواز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس برسم الجهاد وذكر غزاة الزلاقة

قال المؤلف للكتاب لما جوز أمير المسلمين يوسف جيوش المسلمين للجهاد وقدمها بين يديه فاستقروا بساحل الخضراء جاز هو في أثرهم فالتقاء ملوك الأندلس مستبشرين بقدومه، واتصل خبر جوازه بالفنش وهو محاصر سرقسطة، فسقط في يده وانحلت عزائمه فانزعج عن سرقسطة وبعث إلى ابن ردمير -لعله الله- وإلى البرهانس، وكان ابن ردمير على مدينة طرطوشة محاصرًا لها، والبرهانس على بلنسية، فأتوه بجيوشهما فلحقوا به، وبعث إلى بلد قشتالة وجليقية وبيوتة فأتاه من تلك البلاد من حشود الروم أمم لا تحصى، فلما اجتمعت للفنش جيوش الكفر، واستوفت بيديه حشودهم ووفودهم -ارتحل إلى لقاء يوسف بن تاشفين وجيوش المسلمين، وارتحل يوسف عن الخضراء قصدًا نحوه، وقدم بين يديه قائده أبا سليمان بن دواد بن عائشة في عشرة آلاف فارس من المرابطين، وتقدم أيضًا المعتمد بن عباد أمام ابن عائشة مع أمراء الأندلس وجيوشهم، منهم: ابن صادق صاحب المرية، وابن حبوس صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذا النون، وابن الأفظش وبنو غرون. فأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد بن عباد فتكون ملوك الأندلس محلة واحدة ومحلة المرابطين أخرى، فتقدم بهم ابن عباد فكانوا إذا قلع ابن عبد ورؤساء الأندلس من موضع إلى غيره نزله يوسف بن تاشفين بمحلته فلم يزالوا على ذلك حتى نزلوا بمدينة طرطوشة؛ فأقاموا بها ثلاثة أيام وكتب منها يوسف بن تاشفين كتابًا إلى الفنش يدعوه فيه إلى الجزية أو الحرب أو الإسلام فلما وصل كتابه إلى الفنش أدركته الأنفة وداخله الكبر، وقال للرسول: قل للأمر: لا

تتعجب نفسك أنا أصل إليك. فارتحل يوسف وارتحل الفنش حتى نزل بالقرب من مدينة بطليوس، ونزل يوسف بموضع يعرف بالزلاقة من أحواز بطليوس، وتقدم المعتمد وأمراء الأندلس فنزلوا بجهة أخرى بينهما ربوة حازجة ترهيباً للعدو وتخويفاً، وبين الفريقين وعسكر الروم نهر بطليوس نهر حازج يشرب منه هؤلاء وهؤلاء فأقاموا ثلاثة أيام والرسل تختلف بينهم إلى أن اتفق رأيهم أن تكون الملاقاة يوم الاثنين الرابع عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربعمئة فلما وقع الاتفاق بينهما على ذلك، بعث المعتمد إلى يوسف بن تاشفين أن يكون على أهبة واستعداد للحرب، وأن العدو صاحب مكر وخديعة في الحرب، فلما جاء الليل من يوم الخميس العاشر لرجب المذكور عبأ ابن عباد كتائبه، وصف جيوشه واستعد للقتال، وجعل على عسكر للعدو عيوناً على خيل سبق يأتونه بأخبارهم وما يرونه من حركاتهم فلم يزل كذلك إلى الفجر من يوم الجمعة، فبينما ابن عباد في آخر ركعة من صلاة الصبح وكان قد غلس بالصلاة إذا أقبلت الخيل التي كانت طالعة على العدو مسرعة إليه فأخبروه أن العدو قد زحف نحو المسلمين بأمر كالجراد المنتشر، فأرسل في الحين بالخبر إلى يوسف بن تاشفين فوجده على أهبة للحرب قد عبأ كتائبه طول ليلة لم ينم في محلته أحد تلك الليلة فأرسل قائده المظفر داود بن عائشة في جيش عظيم من المطوعة ووجوه المرابطين وأفيالهم ليكون طليعة له، وكان دواود بن عائشة لا نظير له في الحزم والعزم والنجدة، وكان عدو الله الفنش قد قسم عساكره على فريقتين، فتوجه هو وفرقته نحو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فوقع في الجيش الذي كان مع القائد دواود بن عائشة فاقتتلوا قتالاً عظيماً وصبر المرابطون صبراً جميلاً، وداسهم اللعين بكثرة جنوده حتى كاد يستأصلهم وكانت بينهم اقتطاع تفلتت فيه السيوف وتكسرت الرماح وسارت الفرقة الثانية من عسكر اللعين مع البرهانس وابن ردمير نحو محلة ابن عباد فداسوها واستمرت الهزيمة على رؤساء

الأندلس إلى جهة بطليوس، لم يثبت منهم غير ابن عباد وجيشه، فإنهم ثبتوا في ناحية يقاتلون لم ينهزموا وقاتلوا قتالاً شديداً وصبروا صبر الكرام لحرب اللئام، فاتصل الخبر بيوسف أن الهزيمة قد استمرت على عساكر أمراء الأندلس، وأن المعتمد ودواد بن عائشة صابرين يقاتلون لم ينهزموا فبعث قائده سير بن أبي بكر في قبائل المغرب وزناتة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر الذين كانوا في محله إعانة إلى دواد بن عائشة وابن عباد، وسار هو في جيش لمتونة وقبائل المرابطين من صنهاجة قاصداً إلى محلة الفنش حتى ضرب فيها، والفنش مشغل بقتال دواد بن عائشة فأضرمو ناراً وأحرقها وقتل من كان بها من الأبطال والرجال والفرسان الذين تركهم الفنش بها يحرسونها ويحمونها وفرّ الباقون منهزمين نحو الفنش فأقبلت عليه خيله من محله فارين وأمير المسلمين يوسف في أثرهم بساقته وطبولة وبنوده، وجيوش المرابطين بين يديه يحكمون في الكفرة بسيوفهم، ويروون من دمائهم ومائهم، فقال الفنش: ما هذا؟ فأخبروه الخبر بحرق محله ونهبها وقتل حماها وسبي حريمها فرد وجهه إلى قتاله وصمم أمير المسلمين نحوه فانتشبت الحرب بينهما فكانت بينهما حروب عظيمة لم يسمع قط بمثلها، وكان أمير المسلمين على فرس أنثى يمر بين ساقات المسلمين يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر، ويقول: يا معشر المسلمين! اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة. فقاتل المسلمون في ذلك اليوم فنال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت، وكان المعتمد -رحمه الله- وأصحابه الذين ثبتوا معه قد يئسوا من الحياة، ولا علم لهم بالحال إذ نظروا إلى الروم منهزمين على أعقابهم ناكسين فظنوا أنهم هم الذين هزموهم فقال لأصحابه: شدوا على أعداء الله. فشدوا عليهم وحمل القائد سير بن أبي بكر بمن معه من قبائل المغرب وزناتة ومصامدة وغمارة فاستمرت الهزيمة على الروم وتراجعت الطائفة

المنهزمة من المسلمين نحو بطليوس لما أخبروا أن أمير المسلمين يوسف قد ظفر وتدارك الناس بعضهم ببعض طائفة بعد طائفة وفوج بعد فوج، واشتد القتال على الفتش حتى أيقن بالفناء، ولم يزل القتال يشتد عليه إلى غروب الشمس فلما رأى الفنش اللعين أن الليل قد أقبل وأكثر جنوده قد قُتل ورأى صبر المرابطين وصدق نيات المسلمين في جهاده - علم أنه لا طاقة له بقتالهم، ففر منهزماً على وجهه في نحو الخمسمئة فارس على غير طريق، وركبهم المرابطون بالسيف فيقتلونهم في كل فج وسهل ويلتقطونهم التقاط الحماح الحب القليل إلى أن حل الليل بظلمه بينهم، وبات المسلمون بتلك الليلة على خيولهم يقتلون ويأسرون ويغنمون ويشكرون الله على ما منحهم، حتى أصبح فصلوا صلاة الصبح في وسط المقتلة وكانت هذه الهزيمة العظيمة على أعداء الله من أعظم الوقائع، قُتل فيها ملوك الشرك وأنصاره ولحماته وشجعانه، ولم ينج من جميعهم إلا الفنش اللعين مثقلاً بالجراح في شردمة قليلة نحو الخمسمئة فارس مثنخين بالجراح، فمات منهم في الطريق أربعمئة فارس، ودخل طليطلة في مئة فارس ممن حماه من رجاله، وكانت هذه الغزوة المباركة يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب الفرد عام تسع وسبعين وأربعمئة، واستشهد فيها من المسلمين نحو الثلاثة آلاف رجل ممن سبقت له من الله الحُسنى، وختم له بالشهادة، وأمر أمير المسلمين يوسف بقطع رؤوس القتلى من الروم فقطعت وجمعت بين يديه كأمثال الجبال وبعث منها إلى أشبيلية عشرة آلاف رأس وإلى قرطبة كذلك وإلى بلنسية مثلها وإلى سرقسطة ومرسية مثلها، وبعث إلى بلاد العدو أربعين ألف رأس فقسمت على مدن العدة ليراها الناس فيشكرون الله على ما منحهم من النصر والخير والعظيم.

وكان عدد الروم فيها نقل ثمانين ألف فارس ومائتي ألف رجل، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم إلا الفنش في مئة فارس، وفيها أذل الله الشرك ببلاد الأندلس فلم تقم

له قائمة نحو الستين سنة، وفي هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمر المسلمين، ولم يكن يدعاه قبل، وأظهر الله تعالى الإسلام وأعز أهله، وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدو، وإلى حميم المعز صاحب المدينة، فعلمت المفرحات في جميع بلاد أفريقية وبلاد المغرب والأندلس، واجتمعت كلمة الإسلام وأخرج الناس الصدقات واعتقوا الرقاب شكرًا لله تعالى على صنعه الجليل وفضله، ومن فصول الكتاب الذي كتب به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدو:

«أما بعد حمد الله المكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه، فإن العدو الطاغية -لعنه الله- لما قربنا من حماه، وتوافقنا بإزائه، بلغناه الدعوة وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب؛ فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الخامس عشر لرجب، وقال: الجمعة عيد المسلمين، والسبت عيد اليهود، وفي عسكرنا منهم خلق كثير والأحد عيدنا نحن. فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه، وعلمنا أنهم أهل خدع ونقص عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة الثاني عشر من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدته قبل أن يتعدها، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برأيتنا السعيدة المنصورة في سائر المشهدة المنتشرة، ونظروا إلى جيوش ملتونة نحو الفنش فلما أبصر النصارى رأيتنا المشتبهة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المتظرة المظفرة وأغشتهم بروق الصفاح، وأضلتهم سحائب الرماح، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم الفنش وحملوا على المسلمين حملة منكرة،

فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب، وصاحب المهج وأقبل سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج، وولى الفنش مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في خمسمئة فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف رجل قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص -لعه الله- إلى جبل هنالك، ونظروا الذهب والنيران في محلته من كل جانب، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ويحيد عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفعاً ولا لها نصراً فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المسلمين يحمد الله قد ثبت في وسط مراكبه المظفرة تحت ظلال بنوده المنتشرة منصوراً، لجهاد مرفوع الإعداد، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغزاة في محلاتهم تهدم بناءها وتصطلم ذخائرها وأسبابها وترى رأي العين دمارها ونهبها، والفنش ينظر إليها نظر المغشي عليه، ويعض غيطاً وأسفاً على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المنهزمين نحو بطليموس والغار، فتراجعوا حذراً من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقادة أبو القاسم المعتمد بن عباد فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح مريض عنه جراح فهنأه بالفتح الجليل والصنع الجميل، وتسلسل الفنش تحت الظلام فاراً لا يهدأ ولا ينام، ومات من الخمسمئة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمئة؛ فلم يدخل طليطلة إلا في مئة فارس والحمد لله على ذلك كثيراً وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمئة موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمي»

وفي ذلك يقول ابن اللياقة:

يوم العروبة كان ذلك الموفق وافي شهدتُ فأين من يستوصف
وقال ابن جمهور:

لم تعلم الروم أن جاءت مصممة يوم العروبة أن اليوم للعرب
ولم يكن لرؤساء الأندلس الذين شهدوا الزلاقة في هذا اليوم أثر يشكر فيقيد
عنهم ويؤثر، إلا ابن عباد وطائفة من جيوشه، فإنه ثبت وأبلى بلاء حسناً وجرح
ست جراحات، وفي ذلك يقول يخاطب بعض ولده:

أبا هاشم هـشمتي أشفار فله صبري لذلك الأوار
ذكرت شخيرك ما بينها فلم يتنبي ذكره للقرار
واتصل بأمر المسلمين يوسف بن تاشفين في ذلك اليوم وفاة ولده أبي بكر
وكان تركه مريضاً بسبته؛ فاغتم لذلك وانصرف راجعاً إلى العدو بسبب وفاة ولده،
ولولا ذلك لم يرجع.

فجاز إلى العدو ودخل حضرة مراکش فأقام بها إلى سنة ثمانين وأربعمئة فخرج
في شهر ربيع الآخر منها يتطوّف على بلاد المغرب يتفقد أحوال الرعية وينظر في
أمر المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته، وفي سنة إحدى وثمانين
وأربعمئة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد وسبب جوازه
أن الفنش -لعنه الله- لما هزم وجرح وقتلت جموعه عمد إلى حصن لبيط الموالي
لعمل ابن عباد فشحنه بالخيال والرجال والرمات وأمرهم يدخلون من حصن لبيط
المذكور، فيغيرون في أطراف البلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس إذ كان المسبب
في جواز أمير المسلمين يوسف، فكانوا يدخلون منه خيلاً ورجالاً فيقتلون ويأسرون
في كل يوم، وجعلوا ذلك وظيفة عليهم فساء ابن عباد ذلك وضاق ذرعه، فلما رأى

تماديهم على ذلك عبر البحر إلى العدو إلى لقاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فلقيه بالمعمورة من حلق وادي سبو فشكى إليه حصن لبيط وشدة ضرره على المسلمين، واستغاث به في ذلك فوعده بالجواز والوصول إليه فرجع المعتمد وسار يوسف في أثره، فركب البحر من قصر المجاز إلى الخضراء فتلقيه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة، فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد وقال لهم: الموعد بيننا حصن لبيط. ثم تحرك يوسف من الخضراء وذلك في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثمانين وأربعمئة فنزل على حصن لبيط، فلم يأتهم ممن كتب إليه من أمراء الأندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية والمعتمد بن عباد، فنزلا معه الحصن وشرعوا في قتاله والتصديق عليه وشنّ يوسف الغارات على بلاد الروم في كل يوم فدام الحصار على لبيط أربعة أشهر لا يفر عنه القتال ليلاً ولا نهاراً إلى أن دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز أمير مرسية وبين ابن عباد أمير إشبيلية نزاع وشنان، فشكى المعتمد إلى أمير المسلمين يوسف بابن عبد العزيز فدعا يوسف قائده أمير بن أبي بكر يأمره بالقبض على ابن عبد العزيز وثقافه فقبض عليه وثقفه بالحديد، وأسلمه إلى المعتمد فاختلفت المحلة بسبب ذلك، وفرّ جيش ابن عبد العزيز وقادته عنها، وقطعوا الميرة على المحلة، ووقع بها الغلاء، فلما رأى ذلك الفنش حشد وقصد إلى حماية حصن لبيط في أمم لا تحصي فلما قرب الفنش من لبيط انحرف له يوسف عن الحصن إلى ناحية لورقة ثم إلى الميرة ثم جاز إلى العدو وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأتهم أحد إلى نزول حصن لبيط الذي كتب لهم به، ولما رحل يوسف عن لبيط فجاز إلى العدو أقبل الفنش حتى نزل على لبيط فأخلاه وأخرج من كان فيه من بقايا النصارى المنفلتين من مخالب الموت وارتحل إلى طليطلة، فأخذ ابن عباد الحصن بعد خلافته وفناء جميع من كان به بالقتل والجوع، وكان فيه لما نزله يوسف من النصارى اثني عشر ألف مقاتل

دون العيال والذرية فني جميعهم بالقتل والجوع، ولم يبق فيه غير مئة من الرجال وهم الذين أخرجهم الفنش حين أخلاه، وأقام يوسف ببلاد العدو إلى سنة ثلاث وثمانين جاز إلى الأندلس برسم الجهاد وهي الغزاة الثالثة فسار حتى نزل طليطلة، وحاصرها والفنش بها وهتكها وقطع ثمارها وخرب أحوازها وقتل وسبى ولم يأت أحد من أمراء الأندلس، ولم يعرج فغاظه ذلك، فلما رجع من غزو طليطلة سار إلى غرناطة فزّلها فإن صاحبها عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس كان قد صالح الفنش وظافره على يوسف وبعث إليه بهال واشتغل بتحسين بلده وفي ذلك يقول بعض أدباء عمره:

ينبي على نفسه سفها كأنه دودة الخرب
دعوه ينبي فسوف يدري إذا أتت قدرة القدير
فلما وصل يوسف إلى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلقين وأغلق الأبواب في وجهه، فحاصره أمير المسلمين مدة من شهرين فلما رأى تمادي الحصار إليه، فبعث إليه بالأمان فأمنه وأسلم إليه البلد، فملك يوسف غرناطة وأحوازها وجميع ما كان بيد عبد الله بن بلقين من الأعمال والبلاد، وبعث بعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخيه تميم صاحب مالقة إلى مراکش مع حريمهما وأولادهما، فأقاما بها وأجرى عليهما النفقة إلى أن ماتا بها، فلما خلع يوسف بني بلقين بني باديس عن غرناطة ومالقة وملك بلادهما خاف منه ابن عباد وأنقض عنه، فسعى بينهما الوشاة بالنائم فتغير عليه يوسف وجاز إلى العدو في شهر رمضان المعظم من سنة ثلاث وثمانين المذكورة وقصد إلى مراکش، وقدم على الأندلس قائده سير بن أبي بكر اللمتوني، وفوض إليه جميع الأمور كلها، ولم يأمره في ابن عباد بشيء فسار سير بن أبي بكر نحو إشبيلية وهو يظن أن ابن عباد إذا سمع بن يخرج إليه ويتلقاه على بعد بالضيافات فلم يفعل وتحصن منه ولم يضيفه ولم يلتفت إليه فراسله سير بن أبي بكر

أن يسلم إليه البلاد ويدخل في طاعته، فامتنع المعتمد من ذلك، فأخذ سير في حصاره وقتاله، وبعث قائده بطي إلى جيان محاصرها حتى دخلها صلحاً وملكها المرابطون، وكتب سير بالفتح إلى يوسف، وأمر القائد بطيء أن يرتحل عن جيان ويسير إلى قرطبة، فسار إلى قرطبة، وبها يومئذ المأمون بن المعتمد بن عباد، فنزل عليه بطيء بعساكر المرابطين حتى فتحها وفتح حصونها ومعقلها، وكان فتح المرابطين لقرطبة يوم الأربعاء الثالث من صفر سنة أربع وثمانين وأربعمئة، ثم فتح بياسة وايدة وحصن البلاط والمادون والصخيرة وسقورة ولم ينقض شهر صفر المذكورة، حتى لم يبق لابن عباد بلد إلا وقد ملكه المرابطون ماعدا قرمونة وإشبيلية وأقام القائد بطيء بن إسماعيل بقرطبة حتى سكنها وزم ثغورها، وبعث إلى قلعة رباح قاضية بلاد المسلمين قائداً من لمتونة في ألف فارس من المرابطين ليضبطها ويسد ثغورها، وارتحل سير بن أبي بكر إلى قرمونة فقاتلها حتى دخلها عنوة، وذلك يوم السبت عند الزوال السابع عشر من ربيع الأول من سنة أربع وثمانين المذكورة، فاشتد الأمر على ابن عباد وطال عليه الحصار، فبعث إلى الفنش -لعه الله- يستغيث به ويستصرخه على لمتونة ويعده بإعطاء البلاد، وبذلك الطارف والتلاد إن كشف عنه ما هو فيه من الحصار، فبعث إليه الفنش قائده القرمش في جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف رجل فلما علم سير بقدوم الروم إليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة، وقدم عليهم إبراهيم بن إسحاق اللمتوني، وبعثهم للقاء الروم، فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين، ومنحهم الله النصر فهزموا الروم وقتلوهم، ولم يفلت منهم إلا قليل ثم ينزل سير بن أبي بكر وقادته من لمتونة بالحصار والتضييق على إشبيلية حتى دخلها على المعتمد فأمنه في نفسه وأهله وولده وبعث بهم إلى أمير المسلمين فكانوا عنده بأغمت إلى أن أتاهم الموت وكان

دخول سير بن أبي بكر إشبيلية وتملك المرابطون لها يوم الأحد الثاني والعشرين لرجب من سنة أربع وثمانين المذكورة، وفي شعبان من هذه السنة ملك المرابطون مدينة نبرة، وفي شهر شوال منها دخل القائد يوسف بن دواد بن عائشة مدينة مرسية وأعمالها، وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين يوسف، وكان القائد يوسف بن عائشة عادلاً في أحكامه صالحاً ورعاً لا تأخذه في الله لومة لائم فأحبه الناس، وفيها رحل القائد محمد بن عائشة بجيش المرابطين فنزل المرية فهرب عنها صاحبها معز الدولة بن صمادح في البحر إلى أفريقية بأمواله وعياله وأسلم له البلد، فملك المرابطون وكتب محمد بن عائشة بالفتح إلى يوسف فملك يوسف مملكة خمسة أمراء من أمراء الأندلس في سنة ونصف وهم ابن عباد وابن حبوس وأبو الأحوص وابن عبد العزيز وعبد الله بن بكر صاحب جيان وأبلة واسجة، وفي سنة خمس وثمانين أمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قائده ابن عائشة أن يسير إلى دانية فسار لها فملكها وملك شاطبة، وكان صاحبها ابن منقذ، ففر عنها، ودخلها المرابطون، ثم سار القائد ابن عائشة إلى مدينة شقورة فملكها وسار إلى بلنسية، وكان بها القادر بن ذي الشون يحكم الرجل في جمع من النصاري يجبون خراجها ففر عنها ودخلها القائد ابن عائشة وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين يوسف.

وفي سنة ست وثمانين وأربعمئة فتح المرابطون مدينة أفراغ من بلاد شرق الأندلس، ولم يزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يبعث قواده وجيوشه إليها برسم جهاد الروم وخلع أمرائها المتغلبين عليها حتى ملك جميع بلاد الأندلس واستوثق له أمره، وفي سنة ست وتسعين وأربعمئة أخذ أمير المسلمين البيعة لولده عليّ بقرطبة فبايعه جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهاؤها، وذلك في شهر ذي حجة منها وكان عليّ غائباً بسبته، وبها نُشئ، وفي آخر سنة ثمان وتسعين، مرض أمير المسلمين يوسف وابتدأت به العلة التي توفي منها وهو بمدينة مراکش، فلم يزل

المرض يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي رحمه الله فى مستهل شهر محرم عام خمسئة، وقد بلغ عمره مئة سنة فكانت مدة ملكه من يوم دخل مدينة فاس سنة اثنتين وستين وأربعمئة إلى أن توفي ثمان وثلاثين سنة، ومن حين قدمه أبو بكر عمر نيف وأربعين سنة.

الخبر عن دولة أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين بالمغرب والأندلس

هو عليّ بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن ورتاطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن واصل بن تلمية الصنهاجي اللمتوني. كنيته: أبو الحسن.

أمه أم ولد رومية، اسمها: قمرا، وتسمى فاضل الحسن.

مولده بسبئة سنة سبع وسبعين وأربعمئة.

صفته: أبيض اللون مشرب حمرة، تام القد، أسيل الوجه، أفلج أفنى، خفيف العارضين، أكحل العينين، سبط الشعر.

بنوه تاشفين الموالى بعده أبو بكر وسير كاتبه أبو محمد بن أسفاط ببيع له يوم مات أبوه بمراكش بعهد أبيه له وتسمى بأمر المسلمين، وذلك فى غرة المحرم سنة خمسئة وسنة يوم ببيع ثلاث وعشرين سنة، وملك جميع بلاد المغرب من مدينة بجاية إلى آخر بلاد السوس الأقصى، وملك جميع بلاد القبله من سجلماسة إلى جبل الذهب فى بلاد السودان، وملك جميع بلاد الأندلس شرقاً وغرباً، وملك الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة، وخطب له على ألفى منبر ونيف وثلاثمئة منبر، وملك من البلاد ما لا يملكه والده؛ لأنه وجد البلاد هادنة والأموال وافرة والملك قد توطأ والأموال قد استقامت.

لما ولي أقام العدل وضبط الثغور ووالى الجهاد وسرح السجون، وفرّق الأموال، وردّ أحكام البلاد إلى القضاة، وسلك طريقة أبيه في جميع أموره، واهتدى بهديه، وعزل عن قرطبة الأمير أبا عبد الله بن الحاج، وولي مكانه القائد أبا عبد الله محمد بن أبي زلفى، فغزا طليطلة، وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلاً ذريعاً بباب القنطرة أخذهم على غرة، وقيل لما توفّى والده يوسف سجاه بثوبه، وخرج ويده في يد أخيه أبي الظاهر تميم إلى المرابطين فنعاها لهم فوضع أبو الظاهر يده في يد عليّ فبايعه ثم قال للمرابطين قوموا فبايعوه أمير المسلمين فبايعه جميع من حضر من ملتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وأشياخ القبائل فتمت له البيعة بمراكش، فكتب إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وبلاد القبلة يعلمهم بموت أبيه واستخلافه من بعده ويأمرهم بالبيعة، فأنته البيعة من جميع البلاد، وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة إلا مدينة فاس، فإن ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن أمير المسلمين كان أميراً عليها من قبل جده يوسف، فلما وصله الخبر بموت جدّه وولاية عمّه عظم ذلك عليه، وأنف من بيعة عمّه، وخالف عليه وامتنع من البيعة، ووافقه على ذلك جماعة من قادة ملتونة، فخرج إليه أمير المسلمين عليّ بن يوسف من مراكش حتى قرب من مدينة فاس، فخاف يحيى بن أخيه على نفسه وعلم أنه لا طاقة له بحربه؛ ففرّ عن مدينة فاس وأسلمها لعمه، فدخلها أمير المسلمين عليّ بن يوسف واستقام له الملك، وكان دخوله مدينة فاس وفرار الأمير يحيى بن أبي بكر عنها يوم الأربعاء ثامن ربيع الآخر من سنة خمس مئة، وقيل أن أمير المسلمين عليّ بن يوسف لما قرب من مدينة فاس نزل بمدينة مغيلة من أحواز فاس، ثم كتب إلى ابن أخيه كتاباً يعاتبه فيه على فعله، ويدعوه إلى الدخول في الطاعة كما دخل الناس، وكتب إلى أشياخ البلاد كتاباً يدعوهم فيه إلى بيعته ويهددهم ويوعدهم، فلما وصل الكتاب إلى يحيى وقرأ كتابه جمع أهل البلد واستشارهم في الحصار والمقابلة فلم يوافقوه على ذلك، فلما يئس منهم خرج فاراً إلى

مزدلي العامل على تلمسان فلقية مزدلي بوادي ملوية، وهو مقبل برسم البيعة لأمر المسلمين عليّ بن يوسف والسلام عليه، فأعلمه يحيى بما كان من شأنه فضمن له مزدليّ على عمه العفو والصفح، فرجع معه يحيى حتى وصل مدينة فاس فدخل الأمير مزدلي إلى أمير المسلمين عليّ ونزل يحيى مختفياً بحومة وادي شدروغ فلما دخل مزدلي وباع أمير المسلمين وسلم عليه فرأى منه قبولاً وإكراماً عظيماً فأعلمه بخبر يحيى، وبما ضمن له من العفو فأجابه إلى ذلك، وعفا عنه وأمنه فأتاه يحيى فبايعه وخيّره أمير المسلمين أما أن يكون سكناه بجزيرة ميورقة، أو ينصرف عنه إلى بلاد الصحراء فاختر الصحرَاء، فانصرف إليها ثم سار منها إلى الحجاز فحجّ بيت الله الحرام ورجع إلى عمه فاستأذنه أن يكون من جملة ويكُون سكناه معه بحضرة مراکش فأذن له في ذلك. فسكنها مدة فاتهمه عمه بالقيام عليه فثقفه وبعث به إلى الجزيرة الخضراء، فبقي بها إلى أن مات، وفي سنة إحدى وخمسة عِز عليّ أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب، وولي مكانه القائد أبا عبد الله بن الحاج فأقامه والياً على مدينة فاس وسائر أعمال المغرب ستة أشهر، ثم عزله وولاه مدينة بلنسية من بلاد شرق الأندلس، ومنها دخل سرقسطة سنة اثنتين وخمسة، وفي سنة اثنتين وخمسة كانت وقعة أقليج على النصارى وكان أمير جيوش المسلمين تميم بن يوسف بن تاشفين، وكان والياً على غرناطة، فخرج منها غازياً إلى بلاد الروم فنزل حصن إقليج، وبه جمع عظيم من الروم فحاصروهم حتى دخل عليهم الحصن فتحصن النصارى بالقصبة، فبلغ خبرهم إلى الفنش فاستعد للخروج إلى إغاثة بلده، فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً منه فيكون مقابلاً لتميم لأن تميم ابن ملك المسلمين وشالجة ابن ملك الروم فسمع منها، فبعث ولده شالجة في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم، وساروا حتى قرب من أقليج فأخبر تميم بقدمه فأراد أن يقلع عن الحصن، ولا يلقى القوم فأشار إليه عبد الله بن محمد بن فاطمة ومحمد

بن عائشة وغيرهم، من قادة لمتونة بالمقام ولا يرحل، وشجعوه وهو نوي عليه أمرهم، وقالوا له: لا تخف فإنما قدموا في ثلاثة آلاف فارس، وبيننا وبينهم مسافة فأطاعهم في ذلك فلم يكن إلا عشي يومهم ذلك حتى وافتهم جيوش الروم في ألوف كثيرة، فأراد تميم الفرار، وأحجم عن قتالهم فلم يجد سبيلاً للفرار ولا للروع مخلصاً وصمم قادة لمتونة على لقاء العدو ومناجزته، فالتقوا فكانت بينهم حروب عظيمة لم يسمع بمثلها، فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين، وقتل ولد الفنش، وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفاً ونيف ودخل المسلمون أقليم بالسيف، واستشهد فيها جماعة من المسلمين -رحمهم الله- واتصل الخبر بالفنش فاعتم لقتل ولده ودخول بلده وهلاك عسكره، فمرض بالفقعة ومات لعشرين يوماً من الكائنة، وكتب تميم بالفتح إلى أخيه أمير المسلمين علي بن يوسف، وفيها سار محمد بن الحاج من بلنسية إلى سرقسطة فدخلها وأخرج منها بني هود وملكها، وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين علي ولم يزل بها إلى أن خرج غازياً إلى برشلونة، فاستشهد بها، وذلك في سنة ثمان وخمسة وكان -رحمه الله- طول ولايته ببلنسية وسرقسطة قد ضيق بالنصارى تضييقاً عظيماً بالغارات على بلادهم، فخرج في غزات له فأخذ على طريق البرية، فغنم وسبى وكان معه جماعة من قادة لمتونة، فبعث بالمغنم على الطريق الكبير، وأخذ هو على البرية لقربه من بلاد المسلمين، ومراكش والناس مع المغنم، وكان طريق البرية الذي أخذه محمد بن الحاج لا سلك إلا على طريق واحد لصعوبته وشدة وعرته، فلما توسطه الأمير أبو عبد الله بن الحاج وأخذته الأوعار والمضايق وجد النصارى قد أمكنوا في جهة من تلك الجهات، فقاتلهم قتالاً شديداً قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة إذا لم يجد منفذاً يخلص منه، فاستشهد -رحمه الله- واستشهد معه جماعة من المطوعة وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة في نفر بالخيالة إلى بلاد المسلمين، فاتصل خبر وفاته بأمر المسلمين علي فأسف لموته وولي

مكانه أبا بكر بن إبراهيم بن تافلوت، وكان عاملاً له على مرسية، فوصل عهده ببلنسية وطرطوشة ويفرغ وسرقسطة وهو بمرسية، فخرج بجيش المرسية إلى بلنسية، فاجتمع إليه من كان بها من الجند إلى جند سرقسطة وسار بهم إلى برشلونة فنزلها وقام عليها عشرين يوماً حتى هتكها وقطع ثمارها وخرب أنحاءها وقراها، فأتاه ابن ردمير في جيوش كثيرة من حشود بسيط وبرشلونة وبلاد أربونة فكانت بينهم حروب عظيمة مات فيها خلق كثير من الروم واستشهد من المسلمين نحو السبعمئة رجل.

وفي سنة ثلاث وخمسمئة جاز أمير المسلمين عليّ بن يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد، فجاز من سبته في الخامس عشر من المحرم من السنة المذكورة في جيوش عظيمة تزيد على مئة ألف فارس فوصل إلى قرطبة، فأقام بها شهراً ثم خرج منها غازياً إلى مدينة طلابوة، ففتحها عنوة بالسيف، وفتح من أحواز طليطلة سبعة وعشرين حصناً وفتح مجديط، ووادي الحجارة، ووصل طليطلة فحاصرها شهراً وقطع ثمارها، وبلغ فيها من النكاية كثيراً، ثم قفل منها إلى قرطبة بعد أن دوخها، وفي سنة أربع وخمسمئة، فتح الأمير سير بن أبي بكر سنترش وبطليوس وبرتقال ويافورة والأشبونة وجميع بلاد الغرب، وذلك في شهر ذي قعدة منها، وكتب بالفلج إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف، وفي سنة سبع وخمسمئة توفي الأمير سير بن أبي بكر بإشبيلية ودفن بها فولى إشبيلية عوضاً منه محمد بن فاطمة، فلم يزل عليها إلى أن توفي في سنة عشر وخمسمئة، وفي سنة سبع المذكورة غزا الأمير مزدلي طليطلة ونحائها فدوخها، وفتح حصن أرجنة عنوة، وقتل كل من كان به من الرجال وسبي النساء والذرية، فاتصل الخبر بالبرنانس ملك الروم، فأقبل لنصرتهم واستنقدهم فسمع به مزدلي فقصده لقاته ففر أمامه ليلاً ورجع مزدلي إلى قرطبة ظافراً غانماً فأمر بحمل الميرة إلى أرهينة وتحصينها ورتب بها الرجل والرمات والفرسان وأعلم الأمير مزدلي

أن بني الزند غرسييس صاحب وادي الحجرة قد حاصر مدينة سالم، فقصد إليه مزدي، فاتصل الخبر ببني الزند غرسييس فولى هاربًا وأقلع عنها حاصرًا ولم يكذب.

وترك جميع أسبالة وأثقاله ومضاربه فاحتوى مزدي ذلك كله، وفي سنة ثمان وخمسة توفى الأمير مزدي - رحمه الله - غازيًا ببلاد الروم، وكتب بموته إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فولى مكانه على قرطبة محمد بن مزدي، فأقام واليًا عليها ثلاثة أشهر وتوفى شهيدًا في غزاة له، وفي سنة تسع وخمسة ملك أمير المسلمين علي بن يوسف الجزر البحرية من شرق الأندلس، وفي سنة إحدى عشرة ولي عبد الله بن مزدي بلنسية وسراقسطة فسار إليها من غرناطة، فوجد ابن ردمير اللعين قد أذاق أهلها شرًا، وكانت بينهم حروب عظيمة حتى هزمه وأخرجه عن البلد، وأقام عبد الله بن مزدي على سرقسطة عامًا كاملاً فتوفى، فبقيت سرقسطة دون أمير فأتاها ابن ردمير فنزلها وأتى الفنش أيضًا في أمم لا تحصى من قبائل الروم فنزل لاردة من بلاد الجوف، فاتصل الخبر بأمر المسلمين علي بن يوسف، فكتب إلى أمراء الأندلس بالمسير إلى أخيه تميم وكان واليًا على شرق الأندلس ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة، فقدم على تميم عبد الله بن مزدي وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة بعساكرهما فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء لمتونة، فقصد نحو لاردة وكان بينه وبين الفنش قتال عظيم أقلعه عن لاردة خاسئًا حاصرًا بعد أن بذل جهده في قتالها وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على العشرة آلاف رجل ورجع تميم إلى بلنسية فلما رأى ابن ردمير ذلك، بعث إلى طرائف الأفرنج يستنصر بهم على قتل سرقسطة فأتوه في أمم كالنمل والجراد فنزلوا معه بها وشرعوا في قتالها وصنعوا أبراجًا من خشب تجرى على بكارات وقربوه منها، ونصبوا فيه الرعدات ونصبوا عليها عشرين منجنيقًا ووقع طمعهم فيهم، فاستمر الحصار عليها حتى فنيت الأقوات وفني أكثر الناس جوعًا فراسلوا ابن ردمير على أن يدفع عنهم القتال إلى

أجل، فإن لم يأتهم من ينصرهم خلفوا له البلد وأسلموها له فعاهدهم على ذلك، فتم الأجل ودفعوا إليه المدينة وخرجوا عنها إلى مرسية وبلنسية، وذلك في سنة اثنتا عشرة وخمسة وبعدها دخلوها وتملك النصارى إياها وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين عليّ لاستنقاذه فوجدها قد فرغ منها، وملكها العدو ونفذ حكم الله فيها، وفي سنة ثلاث عشرة وخمسة تغلب ابن ردمير على بلاد شرق الأندلس واستولى على أكثر ثغوره، وملك قلعة أيوب التي ليس في بلاد الشرق أمنع منها، وألح بالغارات على بلاد الجوف فاتصلت هذه الأخبار بأمير المسلمين عليّ بن يوسف فجاز إلى الأندلس برسم الجهاد وإصلاح أحوال بلادها وضبط ثغورها، وهو الجواز الثاني، فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمطوعة من العرب وزناته والمصامدة وسائر قبائل البربر، فوصل بجيوشه إلى قرطبة، فنزل بخارجها وأتاه بها وفود بلاد الأندلس للسلام عليه، وسألهم عن أحوال بلادهم وثغورها بلدًا بلدًا فعرفوه بما كان عندهم من ذلك وعزل ابن رشد من قضاء قرطبة، وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين، ثم ارتحل إلى مدينة سنبرية فنزل عليها حتى فتحها عنوة، وسار منها غازيًا في بلاد المغرب يقتل ويسبي ويقطع الثمار ويخرب القرى والديار حتى دوخها، وفر أمامه الروم، وتحصنوا بالمعاقل المنيعه، وفي سنة خمس عشرة وخمسة جاز أمير المسلمين إلى بلاد العدو، وولى أخاه تميم جميع بلاد الأندلس، فلم يزل عليها إلى سنة عشرين فتوفي تميم وولى مكانه الأمير تاشفين بن عليّ بن يوسف فجاز إلى الأندلس في جيش من خمسة آلاف فارس، وبعث إلى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازيًا إلى طليطلة فدخل حصنًا من حصونها بالسيف، وهتك أحوارها، وفيها أعني سنة عشرين المذكورة هزم الأمير تاشفين النصارى بفحص الصباب، وقتلهم ذريعًا، وفتح ثلاثين حصنًا من حصون بلاد المغرب، وكتب بالفتح إلى أبيه، وفي سنة ثمان وعشرين غزا الأمير تاشفين بن عليّ قنطرة محمود

فدخلها بالسيف، وفي سنة ثلاثين وخمسمئة فيها هزم الأمير تاشفين جموع الروم بفحص عطية وأفنى منهم خلقًا كثيرًا، وفي سنة إحدى وثلاثين دخل الأمير تاشفين مدينة كركي بالسيف، فلم يحى بها بشرًا، وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة جاز الأمير تاشفين من الأندلس إلى العدو بعد أن غزا مدينة أشكونية وحمل من سبيها إلى العدو سنة آلاف سبية، وفتحها عنوة فوصل إلى مراكش فتلقيه والده أمير المسلمين عليّ في زي عظيم وفرح به، وفي سنة ثلاث وثلاثين أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين، وفي سنة سبع وثلاثين توفي أمير المسلمين عليّ بن يوسف وتولى بعده ولده تاشفين ولي عهده.

الخبر عن دولة أمير المسلمين تاشفين بن يوسف بن تاشفين التمتوني

هو أمير المسلمين تاشفين بن عليّ بن يوسف بن تاشفين الصنهاجي.

كنيته: أبو المعز.

وقيل أبو عمرو أمه أم ولد رومية، اسمها: ضو الصباح، ولي بعد وفاة أبيه وبعده إليه في حياته، وذلك في الثامن لرجب الفرد من سنة سبع وثلاثين وخمسمئة في معظم أيام الفتنة، وقد قام الموحدون وظهر أمرهم واشتد سلطانهم وملكوا كثيرًا من بلاد العدو فكانت بينهم وبين عبد المؤمن بن عليّ حروب عظيمة ووقائع كثيرة، ولما خرج عبد المؤمن بن عليّ من تينمال يريد فتح بلاد المغرب خرج تاشفين من مراكش واستخلف عليها ولده إبراهيم فكان يتبع عبد المؤمن من حيث ما توجه من البلاد يبادره بالحرب إلى أن سار إلى مدينة تلمسان فدخلها، وأتاه عبد المؤمن فنزل عليه بها، فخرج تاشفين إلى قتاله فنزل عبد المؤمن بجيوش الموحد بين الصخرتين

بظاهر تلمسان؛ مما يلي الجبل ونزل بجيوش صنهاجة بالوطأ، مما يلي الصفصاف فرحف المرباطون إلى قتال الموحدين، فنهاهم تاشفين فلم ينتهوا وتعلقوا بالجبال لقتالهم فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شنيعة، وفر تاشفين إلى مدينة وهران فنزل بظاهرها وترك تلمسان للأمير محمد المعروف بالشيور يضبطها، فترك عليها عبد المؤمن بن يحيى بن بومر بجيش الموحدين محاصراً لها، وانصرف إلى وهران في طلب تاشفين بن علي فنزل عليه بوهران، فلما اشتد الحصار على تاشفين بن علي خرج ليلاً ليضرب في محله الموحدين فتكاثر عليه الخيل والرجال، ففر أمامهم، وكان بجبل عال منيف على البحر، فظن أن الأرض متصلة فأهوى من شاهق عال بإزاء رابطة وهران فمات. وذلك في ليلة مظلمة ممطرة وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم من سنة تسع وثلاثين وخمسمئة فوجد من الغد بإزاء البحر ميتاً، فاجتز رأسه، وحمل إلى تينمال فعلق بها على شجرة، وذلك بعد ملازمة الحرب في البيداء مع الموحدين لا يأوى إلى وطاء من يوم ولي إلى أن مات - رحمه الله تعالى - وكانت مدته ستين اثنتين وشهراً ونصف، ولله عاقبة الأمور، لا باقي سواه ولا معبود غيره.

الخبر عن سيرهم والأحداث التي كانت في أيامهم

وذلك من سنة اثنتين وستين وأربعمئة إلى سنة أربعين وخمسمئة كانت لمتونة قوم غلب عليهم البداوة وكانوا مع ذلك أهل دين متين، وقام لهم بالمغرب والأندلس ملك عظيم فعدلوا في أحكامهم وواظبوا الجهاد قال ابن جنون: كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب، ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيطن، ومن مدينة بجاية من بلاد العدو إلى جبال الذهب من بلاد السودان، لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكروه معونة ولا خراج لا في بادية ولا في حاضرة، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر، وكانت

أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية، وأمن تناهي القمح في أيامهم، إلى أن يبيع أربع أوسق بنصف مثقال، والمثامر ثمان أوسق بنصف مثقال، والقطاني لا تباع ولا تشتري كان ذلك مصطحبًا بطول أيامهم ولم يكن في بلد من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيفة من الوظائف المخزنية حاشى الزكاة والعشر، وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع ولا من يقوم عليهم، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم مهدي الموحد في سنة خمس عشرة وخمسة.

وأما الأحداث التي كانت في أيامهم سنة اثنتين وستين وأربعمئة فتحوا مدينة فاس واستوثق لهم ملك المغرب، وفي سنة اثنتين فتحوا بلاد فازان، وفي سنة ثلاث وستين تملكوا حصون وطاط من بلاد ملوية، وفي سنة أربع وستين توفي المعتمد بن عباد بن القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد صاحب أشبيلية، ووليها بعده ولده محمد بن المعتمد بن عباد، وفي سنة خمس وستين قاتل يوسف بن تاشفين سدارته وأهل صفروا، وفي شهر ذي حجة من سنة سبع وستين ظهر النجم المكعك بالمغرب، وفي سنة سبع وستين أيضًا دخل يوسف بن تاشفين مدينة تادارة التي بقرب ملوية بالسيف، وقتل أميرها القاسم بن محمد بن أبي العافية، وأباد جميع جيوشه، ولم يبق منهم بقية، وفيها ملك يوسف بن تاشفين طنجة وتوفي صاحبها سر قوة البرغواطي، وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمئة كسفت الشمس يوم الإثنين عند الزوال، وهو في اليوم الثامن والعشرين وهو كسوف الشمس العظيم الذي لم يعهد قبله مثله، وفي هذه السنة ملك الفنش مدينة قورية وخرج منها المسلمون، وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمئة فتح يوسف وجدة وجبالها وفي ربيع الآخر منها كانت الزلزلة العظيمة التي لم ير الناس بالمغرب مثلها، هدت البنيان، ومات فيها خلق كثير تحت الهدوم ووقعت الصوامع والمنارات، ولم تزل الزلزلة تتعاقب وتكرر في كل يوم وليلة من

أول يوم ربيع الأول إلى آخر يوم جمادي الآخرة من السنة المذكورة، وفي شهر ذي قعدة منها دار أهل طليطلة على ملكهم القادر بن ذي النون، وقتلوا أكثر رجاله ووزرائه، فخرج القادر فارًا بنفسه وعياله إلى حصن كناكة، وفي سنة أربع وسبعين فتح يوسف مدينة تلمسان، وفيها توفي صاحب السوق وأحكامه بقرطبة وهو الفقيه الحافظ أبو طالب مكّي، وفيها ولد الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن أصبغ المعروف بابن مناصف صاحب الأرجوزة، وفي جمادي الأولى منها توفي المقدم أبو جعفر بن هود صاحب سر قسطة وولي مكانه ولده يوسف المؤمن وفي كل سنة تتزايد فيهم الفتوح والآيات وغير ذلك، فقد استغنينا عن جملة ذلك كله وسنذكر بعضه دون بعض.

وفي سنة سبع وتسعين توفي الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد الطلاع، وله تواليف، وذكر صاحب كتاب التشوف أن أبا جبل توفي في سنة ثلاث وخمسمئة ودفن بظاهر الرابطة التي بخارج باب يصلتين من أبواب فاس، وكان أبو جبل، نفعنا الله به، من كبار الفضلاء، لقي بمصر أبا الفضل عبد الله بن الحسن الجوهري، وكان جزارًا أسود اللون مليح الوجه نقي القلب أحد المخلصين الخائفين من الله تعالى، ويقال أنه رأى الخضر عليه السلام بعد أربعين سنة من إقباله على الله تعالى ومجاهدته، فبشّره أن الله قد أثبتته في الإبدال وكان كثير السياحة في الأرض وهو القائل:

سافر لتكسب في الأسفار فائدة قُرب فائدة تلقى مع السفر
ولا تَقُم بمكان لا تصيب به شيئًا ولو كنت بين الظل والزهر
فإن موسى كلّم الله أعوزه علم تكسبه في صحبة الخضر
وفي سنة أربع عشرة وخمسمئة ظهر المهدي الموحّد بالمغرب واجتمع في طريقه
من المشرق بعبد المؤمن بن علي.

وفي سنة تسع عشرة ضعفت الدولة اللمتونية، وظهر فيها الخلل، واشتغلوا بحرب المهدي والموحدين القائمين عليهم بجبل درن، وعجزوا عن نصره بلاد الأندلس وضعفت أحوالهم، واشتغلوا بأنفسهم عنها، وقوي أمر الموحدين، وملكوا بلادًا كثيرة من بلاد المغرب حتى ضاقت الأرض على المرابطين.

وفي سنة إحدى وعشرين وخمسمئة التاسع عشر من شهر ربيع الأول منها توفي الفقيه القاضي أبو الوليد الباجي بإشبيلية وهو معزول عن القضاء، وفي سنة تسع وثلاثين ثار القاضي ابن حمدين بقرطبة على المرابطين وقتلهم مع العامة.

الخبر عن الدولة الموحدة المؤمنية وقيامها على يد محمد بن تومرت المسمى بالمهدي

قال المؤلف -عفا الله عنه- أما المهدي القائم بدولة بني عبد المؤمن بالمغرب الأقصى فهو على ما ذكره المؤرخون لدولتهم محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تماش بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وقيل هو دُعي في هذا النسب الشريف ذكره ابن مطروح القيسي في تاريخه، وقال هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي، وقيل هو من جنفيسة والله أعلم بذلك كله.

كان أول أمره وابتداء حاله رجلًا فقيرًا مشغلًا بطلب العلم وتحصيله، وكان له ناموس عظيم، فارتحل إلى المشرق في طلب العلم فرأى مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علمًا كثيرًا، وحفظ كثيرًا من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واتبع في علم الأصول والاعتقادات، وكان في جملة من لقي من العلماء الذين أخذ عنهم العلم الشيخ الإمام الأوحى أبو حامد الغزالي -رحمه الله ورضي عنه- لازمه لاقتباس العلم عنه من ثلاث سنين فكان الإمام أبو حامد إذا دخل عليه المهدي

يتأمله ويختبر أحواله الظاهرة والباطنة، فإذا خرج عنه يقول جلسائه: لا بد لهذا البربري من دولة، وإما أنه يثور بالمغرب الأقصى ويظهر أمره ويعلو سلطانه ويتسع ملكه فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته وبائن عنه في شمائله وردت بذلك الأخبار ودلت عليه العلامات والآثار فنقل إليه الخبر بعض الأصحاب وأخبروه أن ذلك عند الشيخ في كتاب فلم يزل يجتهد في خدمة الشيخ ويقرب إليه حتى أطلعه على العلم الذي كان عنده فيه، فلما تحققت عنده الحالة استخار الله سبحانه وعزم على الترحال.

قال المؤلف - عفا الله عنه - أقبل محمد المهدي المذكور من المشرق يؤم بلاد المغرب متوكلاً على الله عازماً على إقامة شرائع الله وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - وكانت رحلته عن بلاد المشرق في أول يوم من ربيع الأول المبارك من عام عشرة وخمسة، فكان حيثما حل من مدن أفريقية وبلاد المغرب يدرس العلم ويظهر التقشف والورع والزهد في الدنيا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى وصل إلى بلاد تلمسان فنزل منها بقرية تعرف بتاجر من أحواز تلمسان، فلقيه بها عبد المؤمن بن علي، فانضاف على خدمته وقرأ عليه وأخذ عنه، وعلم بمراده وما قصده من طلب الخلافة فوافقه على حاله وتبعه في أمره وبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والعسر واليسر والأمن والخوف، وقدم معه إلى المغرب الأقصى وكان المهدي أوحده عصره في علم الكلام وعلوم الاعتقاد، حافظاً للحديث والفقه، له لسانه وفصاحته، فأخذ يشبع عند الناس أنه الإمام المهدي المنتظر المخبر به القائم في آخر الزمان الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وأخذ يستنقص المرابطين ملوك المغرب ويطعن عليهم وينسبهم إلى الكفر والتجسيم، ويدعو إلى خلع طاعتهم ويمشي في الأسواق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكسر المزامير وآلات اللهو، ويريق الخمر حيثما وجده، ففعل ذلك في أي بلد حل فيها، وأي

موضع نزل به إلى أن وصل إلى مدينة فاس، فنزل بها في مساجد طريانة فأقام به يدرس العلم إلى سنة أربع عشرة وخمسمئة، فارتحل إلى مدينة مراکش دار مملكة المرابطين لعلمه أنه لا يظهر أمره إلا منها، فسار حتى وصلها وبها أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين، فدخل المدينة بزي الزهد وقصد مسجدًا يأوي إليه ومعه عبد المؤمن في خدمته مريع بإمامته، فكان يمشي في أسواق المدينة وشوارعها يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويريق الخمر ويكسر آلات الطرب من غير إذن أمير المسلمين ولا مواراة من أحد من القضاة والوزراء، فاتصل خبره بأمر المسلمين عليّ بن يوسف، فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه ورثائه حاله فاستحقره وهان عليه أمره، وقال له: ما هذا الذي بلغنا عنك. قال: وما بلغك أيها الأمير؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة وليس بطالب دنيا ولا حاجة لي بها، غير أنني أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك؛ فإنك المسئول عنه، وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة، وقد ظهرت ببلدك المنكرات وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنّة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسئول عنه وقد عاب الله العظيم أمة تركوا النهي عن المنكر، فقال تعالى: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}.

فلما سمع ذلك أمير المسلمين عليّ بن يوسف من مقالته هابه، وأطرق برأسه إلى الأرض مليًا يفكر في أمره ومقالته وينظر في حاله، ثم رفع رأسه إلى وزرائه فأمرهم بإحضار الفقهاء إلى مناظرته واختباره، فأحضر فقهاء مراکش وطلبتها وأشياخ لمتونة والمرابطين حتى امتلأ المجلس وغصّ بالناس، وعرفهم أمير المسلمين بأمر المهدي وبمقالته، وقال لهم: إنما بعثتُ فيكم لتختبروا أمره؛ فإن كان عالمًا اتبعناه، وإن كان جاهلًا أدبناه. فأكثروا الكلام وأخذوا في الملام، وكان المهدي عالمًا بالجدل وقال لهم: قدموا منكم من تقوم به حجتكم، وتأدبوا بآداب أهل العلم، وسلموا عند

شروط المناظرة، واتركوا اللجاج، فقدموا أحدكم ممن توثقوا بمعرفته وتقدمه. وكان رجل ممن حضر ذلك المجلس من الفقهاء أصحاب حديث وفروع وليس منهم من له المعرفة بالأصول والجدل، فكان أول ما سألهم عنه أن قال للذي تقدم لكلامه: أيها الفقيه أنت لسان الجماعة المتقدم للكلام فأخبرني هل تنحصر طرق العلم أم لا تنحصر؟ فأجابه: هي تنحصر من الكتاب والسنة والمعاني التي بنيت عليها. فقال له المهدي: إنما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا فلم تذكر إلا واحدة منها، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال. فلم يفهم مقالته وعجز عن الجواب ثم سأله عن أصول الحق والباطل ما هي فعاد إلى جوابه الأول، فلما رأى عجزه وعجز أصحابه عرفهم السؤال ومجرى الخطاب، ولم تكن لهم معرفة بالجواب شرح لهم في تبين أصول الحق والباطل، فقال لهم: أما أصول الحق والباطل فهي أربع: العلم، والجهل، والشك، والظن فالعلم أصل الهدى والشك والظن والجهل أصل الضلال ثم أخذ في تبين طريق العلم فبصرهم بأنوار العلم، وغلقت دونهم أبواب الفهم، وعجزوا عن جوابه ولم يفهموا معنى خطابه؛ فلما رأوا باهر علمه وإصابة معرفته أخذتهم فضيحة العجز وركنوا إلى ظلمة الجحد والإنكار فألبوا عليه، وقالوا لأمر المسلمين: على هذا رجل خارجي مسعور أحق صاحب جدل ولسان، يُضل جهال الناس، وإن بقي في المدينة يفسد عقائد أهلها، ونشروا ذلك عند الناس حتى رسخ ذلك في قلوب أكثر العامة، فأمره أمير المسلمين بالخروج عن المدينة فخرج منها، فبنى خيمة بالجبانة بين القبور بقرب المدينة، وقعد فيها، فكان يأتيه بعض الطلبة فيقرأون عليه ويأخذون عنه حتى كثر عليه الجمع وعزّ عليه أتباعه وتلاميذه، وتكاثر عليه الناس وامتلات قلوبهم له محبة ومهابة وتعظيماً فأعلم الخاصة منهم بالذي قصده، وبما يريد وأخذ يطعن على المرابطين: هم كفره مجسمين، وغزوهم واجب على كل من يعلم أن الله تعالى واحد في ملكه أوجب من غزو الروم والمجوس،

وتابعه على ذلك ما يزيد على ألف وخمسمئة رجل، فعرف خبره إلى أمير المسلمين عليّ وعرفه أنه يطعن في دولة المرابطين ويكفرهم، وأنه قد كثر أتباعه على مذهبه، فبعث إليه، فقال له أيها الرجل امتثلت أمرك وخرجت عن المدينة إلى الجبانة، فبنيت خيمة بين الموتى، واشتغلت بطلب الآخرة؛ فلا تسمع لأقوال المضلين. فأغلظ له أمير المسلمين بالقول وتوعده بالنكال وهم بالقبض عليه فعصمه الله منه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فأمره بالانصراف فانصرف يريد خيمته، فبينما هو في بعض الطريق إذ أغروا به أمير المسلمين، وشرح له جلية حاله ويدعو الناس إليه من إمامته وبيعته، فبدا له في أمره، وعزم على قتله، وبعث من يأتيه برأسه، فسمع بذلك بعض تلاميذه فأتاه مسرعاً حتى وقف بالقرب من خيمته ونادى بأعلى صوته: {يا موسى إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك فأخرج أني لك من الناصحين} فكرر النداء ثلاث مرات ثم سكت، ففطن المهدي لندائه، وخرج في الحين مسرعاً مستخفياً حتى بلغ بلاد تينمال، وذلك في شهر شوال من سنة أربع عشرة وخمسمئة، فنزل هنالك ولحق به أصحابه العشرة، وهم: عبد المؤمن بن عليّ، وأبو محمد البشير، وأبو حفص بن يحيى بن بنتي، وأبو حفص عمر بن عليّ أزناج، وسليمان بن خلوف، وإبراهيم بن إسماعيل الهزرجي، وأبو محمد عبد الواحد الخضري، وأبو عموان موسى بن ثمار، وأبو يحيى بن بحيت، فهؤلاء أهل العشرة أصحاب المهدي السابقون إلى دعوته، والمصدقون بإمامته، المنقادون لإمارته، المسارعون إلى بيعته فأقاموا معه بتينمال إلى شهر رمضان المعظم من سنة خمس عشرة وخمسمئة، فكثرت أتباعه وعظم صيته في جبل درن، واجتمع عليه خلق عظيم فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس إلى بيعته فكان أول من بايعه أصحابه العشرة المذكورون، وكانت بيعتهم له بعد صلاة الظهر يوم الجمعة الخامس عشر من شهر رمضان عام خمسة عشر وخمسمئة، فلما كان من الغد وهو يوم السبت السادس عشر من رمضان المذكور خرج إلى المسجد

الجامع بتينال مع أصحابه العشرة متقلدين سيوفهم، فصعد المنبر، وخطب الناس وأعلمهم أنه الإمام المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً، وأظهر دعوته، ودعاهم إلى بيعته فبايعه كافة أهل تينال ومن جاورهم بها من الناس، وبعد ذلك يستجلب القبائل وأهل الجبل، وبعث أصحابه دعاه إلى القبائل، وفرق من يثق بسياسته من تلاميذه في البلاد القاصية والدانية يدعون إلى بيعته، ويثبتون عند الناس إمامته، ويزرعون في قلوبهم محبته مما يذكرون من الفضائل والكرامات ويصفونه به من الزهد في الدنيا وإظهار الحق؛ فقصده الناس إليه من كل جهة، وكانوا يبايعونه ويتبركون برؤيته، فيأخذ عليهم البيع، ويعلمهم أنه المهدي المنتظر حتى علا أمره، وقوي سلطانه، ويسمى كل من دخل في طاعته وبايعه وتابعه على طريقته بالموحدين، وعلمهم التوحيد باللسان البربري، وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور، وقال لهم: من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا توكل نبيحته. فسار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز لأنه وجدهم قومًا جهلة لا يعرفون شيئًا من أمر الدين، ولا من أمر الدنيا فاستهواهم بكيده، وغلبهم بعذوبة لفظه ولسانه ومكره، حتى كانوا لا يذكرون غيره، ولا يمثلوه أمرا إلا أمره، وبه يستغيثون في شدائدهم، ويتبركون بذكره على موائدهم، ويقولون هذا الإمام المعلوم المهدي المعصوم على منابرهم، فدخل الناس في طاعته أفواجًا واتخذوا سنته شريعة ومنهاجًا، فرتب العشرة والخمسين، وتمكن في الملك أي تمكين، وسمي العشرة من أصحابه السابقون الأولون، وجعل الخمسين للرأي والمشورة وعقد الإمامة والنظر للمسلمين، فلم يزل تقبل إليه الجموع والقبائل وتفد عليه الوفود ويخطب له في المحافل حتى كمل له من أنصاره الموحدين وأصناف قبائل المصامدة ما يزيد على العشرين ألف رجل، فقام فيهم خطيبًا وندبهم إلى جهاد المرابطين؛ فانتدب إليه الناس وبايعوه على الموت بين يديه، فانتخب منهم

جيشًا من عشرة آلاف رجل من أنجاد الموحدين، وقدم عليهم أبا محمد البشير، وعقد له راية بيضاء، ودعا لهم وودعهم، فخرجوا قاصدين إلى مدينة أغمات؛ فاتصل خبرهم بأمير المسلمين عليّ بن يوسف، فبعث لقتالهم جيشًا من الحشم والأجناد، وقدم عليهم الأحول أكلتوم، وكان له النظر على لمتونة، فهزم جيش عليّ بن يوسف، وقتل الأحول أكلتوم، واستمرت الهزيمة على لمتونة وأتبعهم الموحدون بالسيف حتى أدخلوهم مدينة مراکش؛ فأقاموا عليها محاصرين لها أيامًا ثم ارتحلوا عنها إلى الجبل لما تكاثرت عليهم جيوش لمتونة، وذلك في ثلاث من شعبان المكرم من سنة ست عشرة وخمسمئة؛ فانتشر أمر المهدي بجميع بلاد المغرب والأندلس، وقسم المغانم التي غنموا من عسكر لمتونة على الموحدين، وتلا عليهم قوله تعالى: {وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم...}.

الخبر عن غزواته وحروبه مع لمتونة

قال المؤلف -عفا الله عنه-:

لما هزم الموحدون جيوش أمير المسلمين عليّ بن يوسف عظم أمر المهدي وقوي سلطانه، وركب أكثر جيشه من خيل المرابطين التي غنموها من عسكرهم، فنهض إلى قتال المارقين وأهل الزيغ المبطلين، فسار حتى نزل بجبل كليز قريبا من المدينة؛ فأقام بها ثلاثة أعوام يباكر جيوش لمتونة بالقتال ويرأو حها في كل يوم من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة، فلما طال مقامه هنالك ارتحل إلى وادي نفيس، وسار مع مسيل الوادي، فانقاد إليه أكثر تلك الجهات والنواحي من السهل والجبال، وبايعه قبائل جدميوة، ثم غزا بلاد رجرجة، فأخذهم بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وتعليم شرائع الإسلام، فسار في بلاد المصامدة، وكل من اختلف عن دعوته غزاه الموحدون، ففتح بلادًا كثيرة، ودخل في طاعته عالم كثير من قبائل المصامدة، ورجع إلى تينمال، فأقام بها شهرين حتى استراح الناس، ثم غزا مدينة

أغمات وبلاد هزرجة، فخرج إليها من تينمال في ثلاثين ألفا من الموحدين، فاجتمع أهل أغمات وقبائل هزرجة وخلق كثير من الحشم وملتونة وغيرهم واستعدوا لقتال المهدي، فالتقى الجمعان فكان بينهما قتال شديد، فنصر عليهم المهديون فهزموهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وقسم المهدي الأنفال على الموحدين، ثم غزا قبائل درن، فسار فيها يقتل من عصا ويؤمن من اتبعه وانقاد إليه، ففتح جميع قلاع درن وحصونه وأوديته، وأطاعه جميع من فيه من قبائل هنتانة وجنفيسة وهرغة وغيرهم، ثم رجع إلى تينمال فأقام بها مدة حتى استراح الناس، فميز الموحدين وأمرهم بالخروج إلى قتال، وجهاد من بها من المرابطين وقدم عليهم عبد المؤمن بن عليّ وأبا محمد البشير، وجعل إمام الصلاة عبد المؤمن بن عليّ، فارتحل بعساكر الموحدين من تينمال قاصدين إلى مراکش؛ فلما وصلوا إلى أغمات تلقاهم بها الأمير أبو بكر بن عليّ بن يوسف اللمتوني في جيش عظيم من ملتونة وقبائل صنهاجة والحشم وغيرهم، فكانت بينهم حروب عظيمة ثمانية أيام، ثم منح الله تعالى الموحدين النصر، وهزم الأمير أبو بكر بن عليّ وملتونة، وأتبعهم عبد المؤمن بن عليّ بجيش الموحدين يقتلونهم بكل فجّ، واتصلت الهزيمة بهم إلى أن أدخلوهم مراکش وسدوا الأبواب في وجوههم، فحاصروهم بها ثلاثة أيام، ثم ارتحلوا عنها إلى تينمال، وذلك في شهر رجب الفرد من عام أربعة وعشرين وخمسمئة، فلما رجع الموحدين إلى تينمال خرج المهدي إلى لقاءهم فسلم عليهم ورحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح، وما يملكونه من البلاد، ويمتده ملكهم، وأعلمهم أنه يموت في تلك السنة، وبكوا لذلك وأسفوا ثم بدى به المرض الذي توفي منه، فأقام مريضًا أيامًا، وقدم عبد المؤمن بن عليّ بالصلاة في أيام مرضه، ولم يزل مرضه يشتد إلى أن توفي اليوم الخامس والعشرين من رمضان المعظم سنة أربع وعشرين وخمسمئة.

الخبر عن وفاته رحمه الله وعفا عنه

وذكر بعض المؤرخين لأيامهم أن المهدي الموحد رأى في منامه قبل وفاته بيسير
كأن رجلاً وقف له بباب بيته، فأنشد:

كأنني بهذا البيت قد باد أهله وقد درست أعلامه ومنازله
فأجابه المهدي:

كذلك أمور الناس يبلى جديدها وكلّ منّا حقّاً ستبلى جماله
فأجابه الرجل:

تزوّد من الدنيا فإنّك راحل وأنتك مسؤل فما أنت قائله
فأجابه المهدي:

أقول بأن الله حقّاً شهدته وذاك مقال ليس تحصى فضائله
فأجابه الرجل:

فخذ عدّةً للموت أنك ميت وقد أزفّ الأمر الذي أنت بازله
فأجابه المهدي:

متى ذاك خبرني هُديتَ فأنني سأفعل ما قد قُلتَه وأعاجله
فأجابه الرجل:

تلبث ثلاثاً بعد عشرين ليلة إلى مُتَّهَى شهرٍ فما أنت كامله
فلم يعيش بعد ذلك إلا ثمان وعشرين ليلة ومات - رحمه الله - وقيل: لما ثقل به
المرض وأيقن بالموت دعا عبد المؤمن فأوصاه بما أحبّ، وأوصى بإخواته خيراً
وأعطاهم كتاب الجفر الذي سار إليه من قبل الإمام أبي حامد الغزالي - رضي الله
عنه - وأمره أن يخفى موته أياماً حتى تجتمع كلمة الموحدين، وأمره بما يكفنه فيه من

الثياب، وأن يتولى كفنه وغسله بيده، ويتقدم للصلاة عليه، ويدفنه بجامع تينمال، فبكى عبد المؤمن لفراقه بكاء شديداً، وتوفي في ضحى يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان المعظم سنة أربع وعشرين وخمسمئة، قاله البرنوسي، وقيل: توفي يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر رمضان المذكور قاله ابن الخشاب، في تفسيره، وقاله غيره، وكان قيام المهدي وبيعته وظهور دعوته في يوم السبت غرة شهر المحرم مفتتح عام خمسة عشر وخمسمئة، وتوفي يوم الأربعاء الثالث عشر لرمضان سنة أربع وعشرين المذكورة، فكانت دولته على هذا ثمانية سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً أولها يوم السبت مفتتح خمسة عشر، وآخرها يوم الأربعاء المذكور، والصحيح في بيعته ووفاته ما ذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة وأبو علي بن رشيق الموصي في كتاب ميزان العلم أنه ببيع يوم السبت غرة محرم مفتتح عام ستة عشر وخمسمئة، وتوفي يوم الأربعاء الثالث عشر لشهر رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمئة، وقال بعض المؤرخين أنه نقل ذلك من خط أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وأنه قيده بين يدي أبيه عبد المؤمن، وبأمره وإملائه، فكانت أيامه على هذه الرواية ثلاثة آلاف يوم وخمسة وثمانين يوماً يجب له من السنين ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً، أولها يوم السبت، يوم بيعته، وآخرها يوم الأربعاء الذي توفي فيه.

الخبر عن صفته وسيرته ونبذ من أحواله

كان محمد المسمى بالمهدي القائم بدولة الموحدين حسن القد، مستحمر اللون، رقيق البشرة، أبلج، أقنا، غائر العينين، خفيف العارضين، له شامة سوداء في كفه الأيمن، ذا سياسة ودهاء ومكر وناموس عظيم، وكان مع ذلك عالماً فقيهاً راوياً لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - حافظاً له عارفاً بالأصول، عالماً في علم الاعتقادات والجدل، فصحيح اللسان، مقدماً على الأمور العظام، سفاكاً للدماء،

غير متورع فيها ولا متوقف، يهون عليه سفك دم عالم من الناس في هواء نفسه وبلوغ غرضه، وكان مع ذلك متيقظاً في أحواله، ضابطاً لما ولي من سلطانه، شرع وأسرع، ومهد الملك لغيره بالخدع، ووجد قومًا قد غلب عليهم الجهل وتمكن منهم فغلب عليهم، وتحيل على جهال المصامدة حتى بايعوه، وعمل لهم توحيداً بلغتهم، فإنه كان رجلاً منهم، والتوحيد بأيديهم إلى الآن، وأعلمهم أنه هو الإمام المهدي القائم على كمال الخمسمئة، ونسب المرابطين إلى التجسيم والكفر، وأباح لهم جهادهم وسبى نسائهم وذرائعهم وأموالهم، وقال لهم: أنهم تسموا بإمارة المسلمين، وإنما يعرفون بالملتبسين وأخبرهم أنهم القوم الذين وصفهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: ((صنفان لا يدخلون الجنة، الأول: هم قوم يخرجون في آخر الزمان لهم سياط كأذناب البقر، ونساء كاسيات عاريات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت))، وكل ما وصف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمراء آخر الزمان إلا ونسبه إليهم، فاستهوى بذلك قلوب الرعاع الجهال.

ومن تحيله وتهاونه بسفك الدماء أنه أخذ قومًا من أتباعه ودفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره، وقال لهم: إذ أسئلتهم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفة الثواب على جهاد ملتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في جهاد عدوكم، فإنما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق. وقال لهم: إذا قُلتُم ذلك خرجتكم وكان لكم عندي من المنزلة أعلاها وأسناها، وعاهدكم على ذلك، والسبب في ذلك أن جيش الموحدين لما التقى بعسكر المرابطين واشتد الحرب بينهم قُتل من الموحدين خلق كثير، فعظم ذلك على قبائلهم وعشائهم، ففعل ذلك ليهون عليهم ما أصابهم من القتل والجراحات فأتى إلى موضع المقتلة ليلاً مع أصحابه فدفنهم بين القتلى وردّ عليهم التراب، ثم رجع إلى محلته، وقد ذهب أكثر الليل، وقال لأشياخ الموحدين: يا معشر الموحدين أنتم حزب الله وأنصار دينه

وأعوان الحق فجدوا في قتال عدوكم فأنتم على منهاج الحق، وأنتم على بصيرة من أمركم، وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فاذهبوا إلى موضع المعركة واسألوا من مات من إخوانكم يخبركم بفضل جهادكم وعظم ثوابكم عليه في الآخرة، فأتى بهم إلى المقتلة، ثم نادى بأرفع صوته: يا معشر الشهداء! أخبروني بما لقيتم من الله عز وجل. فقالوا: وجدنا عند الله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلما سمعوا الجواب رجعوا إلى قومهم وقبائلهم، فقالوا: قد سمعنا ما أجاب به إخواننا الذين استشهدوا منا وما شهدوا من فضل الله تعالى وجزيل ثوابه، فافتتن بذلك كافة الناس ثم أتى فأغلق على أصحابه الذين دفنهم المنافس التي كانت ترك لهم فماتوا من ساعتهم غمًا، فعمل ذلك بهم لئلا يخرجوا فيسروا إلى خاصتهم ما فعله بهم.

ومن حيلته وسياسته أنه لم يقدر على طائفة المصامدة أن يتعلموا أم القرآن لشدة عجمتهم، فعدد كلمات أم القرآن وسمي بكل كلمة منها رجلاً ثم أقعدهم صفًا واحدًا فقال للأول منهم: اسمك الحمد لله، والثاني: رب، والثالث: العالمين. هكذا.. حتى تمت كلمات السورة. ثم قال لهم: لا يقبل الله لكم صلاة حتى تجمعوا هؤلاء الأسماء كلها على نسقها في كل ركعة من الصلاة، فسهل عليهم الأمر، وحفظوا أم القرآن، ذكره صاحب كتاب المغرب في أخبار ملوك المغرب.

الخبر عن دولة خليفة أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي

هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمني بن موسى بن عون الله يحيى بن وزجائع بن سطفون بن نفور بن مطاط بن هود بن مادغيس بن بربر بن قيس غيلان بن مضر بن نزار بن عدنان. هكذا أثبت

نسبته جماعة المؤرخين لدولته، وأصله منقول من خط حفيده أبي محمد عبد الواحد على ما ذكره والله أعلم؛ فهو زناتي الأصل، وكان والده عليّ فخاراً يعمل النوابيخ، وكان عبد المؤمن قد تطلب من صغره ولازم المساجد لدرس القرآن فمر به المهدي حين أقبل إلى المغرب، فضمه إليه لما أراد الله تعالى من أمره والذي ثبت من خبره أنه رجل زناتي الأصل من كومية هنين من موضع يعرف بتاجرا على ثلاثة أميال من مرسى هنين، وزعم بنوا عبد المؤمن أن المهدي كان استخلفه بعده، فلما توفي المهدي ببيع عبد المؤمن بيعة خاصة بايعه العشرة أصحاب المهدي، وأخفوا موته واجتمعوا على بيعة عبد المؤمن لاختصاص المهدي له، وثباته عليه وقوله فيه:

تجمعت فيك أشياء خُصصت بها فكلّنا بك مَسْرُورٌ ومُغْتَبِطٌ
السنّ صَاحِكَةٌ والكفّ مانِحَةٌ والصّدْرُ مَتَّسِعٌ والوجه مُنْبَسِطٌ
إلى ما كان من تقديمه للصلاة وما يعرفونه من فضله وعلمه ودينه وعزمه
وبسالته وشجاعته وحسن سياسته ورجاجة عقله.

وقيل لما مات المهدي تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده، وكانوا من قبائل شتى وأحبت كل قبيلة من قبائل الموحيدين أن تكون الخلافة منها وأن لا يلي عليها غيرها، فتنافسوا في ذلك وتحاسدوا، فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا بينهم وخافوا النفاق، وأن تفسد كلمتهم ويتفرق جمعهم فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه غريباً بينهم ليس منهم مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وثباته عليه، فبايعوه.

وذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة أن المهدي الموحد لما توفي خفي موته ولم يعلم به أحد إلا عبد المؤمن وأصحابه العشرة، فبقي موته مكتوماً ثلاث سنين وهم يدبرون الأمور، وذلك بسياسة ظهرت لعبد المؤمن في ذلك

الوقت، فإنه لما توفي المهدي عمد إلى شبل أسد وطائر فرباهما ودر بهما فى ما أراد فأنس الأسد بنفسه، فكان الأسد إذا رعاه ربض فى يده وبصبص له وعلم الطائر النطق باللسان العربى فكان يقول النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين، فلما كمل ما أراد من ذلك أمر أشياخ الموحدين وقبائلهم أن يحضروا مجلسه فأمر فضربت له قبة كبيرة بجامع تينمال وفرش له فى وسطها وجعل الطير على عمود القبة وأمر سائس الأسد أن يأتي به إذا غصّ المجلس بالموحدين فيطلقه بينهم فلما اجتمع قام عبد المؤمن خطيباً فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي - صلى الله عليه وسلم - وترضى عن الصحابة وعن الإمام المهدي وترحم عليه وأعلمهم بموته، ونعاه لهم عزاهم فيه، فكثير البكاء منهم، وارتفع الضجيج، فقال لهم: إن الإمام قد سار إلى ما عند الله، ووجد خيراً مما ترك فكونوا فى أنفسكم وانظروا فيمن تولونه أمركم وتجمع عليه كلمتهم بعده ولا تفرقوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ويختل ويترق جمعكم، ويتمكن منكم عدوكم، فتأمر أشياخ الموحدين فى تلك الحال، وإذا بسائس الأسد قد أطلقه ومعلم الطائر قد صفر له فقال الطير عند ذلك بلسان فصيح النصر والفتح والتمكين لسيدنا الخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين، وأما الأسد فإنه لما أطلقه سائسه ورأى الناس زهره وضربه بذنبه وكشف عن أنيابه ففرّ الناس منه يميناً وشمالاً وبقي عبد المؤمن بمكانه قاعداً لم يتحرك، فلما بصر به الأسد بصبص بذنبه، وقصد نحوه حتى بصبص بين يديه، فجرّ عبد المؤمن يده عليه وسكنه، فلما رأى الموحدون فعل الأسد وسمعوا كلام الطائر اتفقوا على تقديم عبد المؤمن، وقالوا: ما على هذا مؤيد وليس أحد أولى بخلافة الإمام المهدي من عبد المؤمن الذى ظهرت له هذه الكرامات، يدعو له الطائر، ويبصبص بين يديه الأسد، ويستخلفه الإمام للصلاة، وهى أصل الإسلام فنقدمه نحن للخلافة ونقتدي فى ذلك بفعل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - والصدر الأول من هذه الأمة فى

تقديم أبي بكر رضي الله عنه لمسابقته وفضله وعلمه، ولكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قدمه للصلاة في مرضه، وكان فيهم من هم أقرب له نسباً منه فبايعوه، وتمت له البيعة، ويقال أنه لما بصبص الأسد بين يديه جرّ يمينه المبارك عليه وأمره بالرجوع فرجع مُطيعاً لأمره، ولو قدر على الكلام لنطق بثنائه وشكره، فظهر له في ذلك المقام ما شاع في الآفاق، وخلد في بطون الأوراق، وأثبت له من عجائب الاتفاق، وفي ذلك يقول أبو علي:

أنس الشبل ابتهاجاً بالأسد	ورأى شَبَهَ أبيه فقصد
وعا الطائر بالنصر لكم	فقضى حقكم لما وقد
أنطق الخالق مخلوقاته	بالشاهدة فكلّ قد شهد
أنك القائم بالأمر له	بعد ما طال على الناس أمد

وكانت بيعة عبد المؤمن يوم الخميس الرابع عشر لشهور رمضان المعظم من سنة أربع وعشرين وخمسمئة، وهي بيعة الخاصة التي بايعه عشرة من أصحاب المهدي، وبويع بيعته العامة يوم الجمعة الموفى عشرين لربيع الأول من سنة ست وعشرين وخمسمئة بعد وفاة المهدي بستين بجامع تينمال بعد صلاة الجمعة من اليوم المذكور.

وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدي، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين ثم كافة الموحدين لم يختلف عن بيعته أحد منهم، وكانت بيعتهم له في طالع سعيد سعدوا بها وانقطعت بها دولة لتونة، فأفناهم بالقتل والجلاء وفتح المغرب بأسره، ثم فتح بلاد أفريقية وفتح جميع بلاد الأندلس بأسرها، وخطب له على منابر هذه الأقاليم كلها، ولما تمت البيعة واستوثق له أمر الموحدين أخذ في الحركة إلى جهاد أعدائه وقاتل أهل الزيغ والعناد عن طاعته وافتتاح البلاد، فكان أول غزوة غزاها في خلافته غزوة تادلا، خرج لها من تينمال يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول

من سنة ستّ وعشرين وخمسمئة في ثلاثين ألفاً من الموحدين حتى وصل تادلا فغنمها وسبى أهلها وانصرف، ثم غزا بعدها بلاد درعة ففتحها، ثم غزا بلاد تيغر ففتحها، ثم غزا بلاد فزان وبلاد غياثة، ثم خرج إلى غزوته الطويلة، وذلك في شهر صفر من سنة أربع وثلاثين فلم يزل فيها يفتح البلاد ويمهدا ويغزو القبائل إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمئة، وكان أول بلد فتحه في هذه الغزوة بلاد تازا وجبال غياثة، واستمرت الحروب بين عبد المؤمن والمرابطين من يوم بويغ إلى أن توفى عليّ بن يوسف بن تاشفين، وولى بعده ولده تاشفين، فاستمر الحال بينهما في الحرب إلى أن مات تاشفين بن عليّ بعد أن قام عبد المؤمن بن علي بكرنطة عامين اثنين، وتاشفين بن عليّ بإزائه يباكره بالحرب ويرواحه، ثم ارتحل عبد المؤمن إلى جبال عُمارة، فارتحل تاشفين في أثره فنزل بوادي تهليط بإزاء عين القديم، وذلك في فصل الشتاء فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم، وهدم بيوتهم وخيامهم، ثم ارتحل عبد المؤمن إلى جهة تلمسان وارتحل تاشفين وأطوى المراحل حتى دخل تلمسان قبله فضبطها وحصنها، وأتى عبد المؤمن بجنود الموحدين فنزلوا عليها بين الصخرتين، فلم يزل الحرب بينهما إلى أن رحل عبد المؤمن إلى وهران وترك جيشاً من الموحدين يحاصر تلمسان؛ فخرج تاشفين من تلمسان في خاصة من قومه، واستخلف عليه بعض المرابطين وسار لحماية وهران فوقعت به رمكته من حافة على البحر بالليل فمات، ففتح عبد المؤمن وهران وتلمسان، وذلك في شهر رمضان من سنة تسع وثلاثين وخمسمئة قاله صاحب المنّ بالإمامة.

قال ابن مطروح القيسي: فلما بويغ عبد المؤمن بتينمال ارتحل بجيوش الموحدين نحو مدينة مراکش، وذلك في شوال سنة ستّ وعشرين المذكورة، فقاتلها أياماً ثم ارتحل عنها إلى تادلا، ففتحها ثم سار إلى درعة ففتحها ثم ارتحل إلى مدينة سلا

ففتحها، وتلقى أهلها طائعين وسامعين، فدخلها يوم السبت الرابع والعشرين لذي
حاجة سنة ستّ وعشرين المذكورة، وخطب له بها وفي سنة سبع وعشرين تسمى
بأمير المؤمنين، وفي سنة تسع وعشرين فتح بلاد تازا، وفي سنة ثمان وعشرين أمر ببناء
رباط تازا وأقام يحارب تاشفين بن عليّ من سنة ثلاثين إلى سنة تسع وثلاثين إلى أن
حاصره بتلمسان، فلما أن ضاق به الحصار خرج منها إلى وهران فسار عبد المؤمن في
أثره فحاصره بوهران وترك جيشًا من الموحدين محاصرًا لتلمسان، فلما اشتد الأمر
على تاشفين خرج في جمع من جنوده من وهران بالليل ليضرب في محلة عبد المؤمن،
وكان ليلة مظلمة فتردّى به فرسه من شاهق الجبل فمات، فأصبح ميتًا بساحل البحر
فقطع رأسه وحمل إلى عبد المؤمن، فأمر به فحمل إلى تينمال فصلب بها على شجرة
صفصاف عالية، ودخل عبد المؤمن وهران عنوة، وذلك في شهر محرم من سنة
أربعين وخمسة وفي شهر صفر دخل تلمسان وملكها الموحدون، وفرت عنها
لمتونة إلى كادير فحصرها بها إلى سنة أربع وأربعين، فدخلها الموحدون عليهم عنوة.

وقال البرنوسي: فتح تلمسان سنة تسع وثلاثين، ولما فتح مدينة تلمسان بعث
إلى الأندلس جيشًا من عشرة آلاف فارس من أجناد الموحدين، فنزلوا بساحل
الخضراء، فكان أول بلد فتحوه من الأندلس مدينة شريش فتحوها صلحًا كان بها
قائدها أبو القمر من بني غانية في ثلاثمئة فارس من المرابطين فخرج بمن معه فتلقى
الموحدين وبايعوا لعبد المؤمن، فدخل في طاعته فكان الموحدون يسمونهم السابقين
الأولين، وحررت أموالهم، ولم تزل أملاكهم محررة إلى انقضاء أيامهم، فليس في
أملاكهم رباغة وجميع بلاد الأندلس مربعة، وكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم
وفود بلاد الأندلس للسلام في كل سنة أول من ينادي من أهل البلاد أهل شريش،
فيقال: أين السابقون أهل الشريش يدخلون للسلام، فإذا سلموا وقضيت حوائجهم
وانصرفوا فحينئذ يدخل غيرهم، وكان فتح شريش في أول يوم من ذي حجة من

سنة تسع وثلاثين وخمسمئة.

وقال ابن فرحون: دخل الموحدون الأندلس في شهر ذي حجة سنة تسع وثلاثين وخمسمئة، فنزلوا بجزيرة طريف، وكان الأمير عليهم الشيخ أبو عمران موسى بن سعيد، فدخلوا طريف طوعاً من أهلها، ثم أرسل إليه أهل الجزيرة الخضراء فدخلها عليهم يوم النحر، وهرب عنها المرابطون إلى أشبيلية، وفي سنة أربعين وخمسمئة فتح عبد المؤمن مدينة فاس بعد الحصار الشديد وقطع عنها النهر الداخل إليها بالألواح والخشب حتى انحصر الماء فوقها في الوطاء، فوصل إلى مركزه، ثم خرقة فهبط الماء عليهم دفعة واحدة فهدم سورها، وهدم من دورها ما يزيد على ألفي دار، وهلك به خلق كثير، وكاد الماء أن يأتي على أكثرها، فدخل عبد المؤمن فاس وأمن أهلها إلا من بها من المرابطين، فإنه لم يمس إليهم أمناً وقتلهم قتلة كفر، وأمر بسور المدينة فهدم فيه ثلثات كثيرة ومسافات، وقل: إنا لا نحتاج إلى سور، وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا، فلم تزل مدينة فاس لا سور لها حتى بناه حفيده المنصور، فمات وقد شرع في بنائه فتمه ولده محمد الناصر في سنة ستّمئة.

وفي هذه السنة فتحت مدينة أشبيلية، وملكها الموحدون وخطب بها لعبد المؤمن بن عليّ، وفيها فتحت مدينة مالقة، وفيها أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن ببناء أسوار تاجرة من تلمسان وبنا جامعها وتحصن المدينة وأعلا سورها، وفيها فتحت بلاد دكالة.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين في نصف شهر محرم منها دخل عبد المؤمن مدينة أغمات صلحاً دون قتال، وفي آخر ربيع منها دخل الموحدون مدينة طنجة وفرّ عنها المرابطون وفي الثامنة عشر من شهر شوال منها، وهو يوم السبت فتح عبد المؤمن مدينة مراكش بعد حرب عظيم وهزائم كثيرة على المرابطين، وقبض على أميرها

إسحاق بن عليّ بن يوسف بن تاشفين فقتله عبد المؤمن، وفي هذا الشهر وفدت جميع قبائل المصامدة بأسرها واستوثق أمر المغرب لعبد المؤمن بن عليّ، ولم يبق له منازع.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة فيها خرج على أمير المؤمنين عبد المؤمن بن عليّ الماستي وتسمى بالهادي، واسمه محمد بن هود بن عبد الله، وكان قصارا بمدينة سلا، وكان أبوه دلالا يبيع الكنايش، خرج على عبد المؤمن بعد أن حضر معه فتح مراكش وبايعه، فغلب على بلاد تامسنا وأكثر بلاد المصامدة وبايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش فبعث إليه عبد المؤمن الشيخ أبا حفص في جيش عظيم من الموحدين، فارتحل عن مراكش في أول يوم من ذي قعدة عام اثنين وأربعين المذكور، وخرج معه عبد المؤمن مشيعاً حتى وصل تانسيفت، ثم ودعهم ودعا لهم وانصرفوا، فالتقوا بالماستي الخارج ببلاد تامسنا فكانت بينهم حروب عظيمة، قُتل فيها الماستي قتله الشيخ أبو حفص بيده، وهزم عسكره، وذلك في شهر ذي حجة عام اثنين وأربعين المذكور فسمي الموحدون الشيخ أبا حفص سيف الله تشبيهاً بخالد بن الوليد -رضي الله عنه- وفي هذه السنة وفد أهل أشبيلية بالبيعة على أمير المؤمنين عبد المؤمن بن عليّ، فوجدوه مشغولاً بحرب الماستي محمد بن هود بن عبد الله؛ فأقاموا عنده بمراكش سنة ونصف لم يروه حتى لقوه بالمصلى يوم عيد الأضحى، وفيهم القاضي أبو بكر بن العربي، فسلموا عليه سلام جماعة ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا وقبلت بيعتهم، وسأل عبد المؤمن القاضي أبو بكر بن العربي عن المهدي هل كان لقيه عند الإمام أبي حامد الغزالي أم لا؟ فقال له: ما لقيته، ولكني سمعت به. فقال له: وما كان أبو حامد يقول فيه؟ قال: كان يقول: إن هذا البربري لا بد سيظهر، ثم صرف الوفود إلى أشبيلية وكتب لهم منشوراً بتحرير أملاكهم، فانصرفوا عنه في جمادي الآخرة سنة ثلاث وأربعين.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين، فيها ارتحل عبد المؤمن بن عليّ إلى سجلماسة فدخلها وأمن أهلها، ثم رجع إلى مراكش فأقام بها أيام وخرج إلى غزو برغواطة، فكانت بينه وبينهم حروب عظيمة هزم فيها عبد المؤمن، ثم كانت الكرة عليهم، فأجال عليهم السيف، ولم يبق منهم إلا من لم يبلغ الحلم، وفي خلال هذه الأحوال قام أهل سبتة على الموحدين بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة، وكان قيامهم عليهم برأي قاضيهم عياض بن موسى فقتلوا من بها من الموحدين وعمالهم وحرقوهم بالنار، وركب عياض البحر إلى ابن غانية بالبيعة وطلب منه واليًا، فأرسل معه الصخراوي، فدخلها وأقام بها أيامًا فلما سمعت برغواطة بخروج عبد المؤمن إليهم كتبوا للصخراوي وإلى سبتة يستنصرون به فأتاهم فبايعوه واجتمعوا عليه، وقاتلوا عبد المؤمن وهزموه، ثم كانت له الكرة عليهم فهزمهم وقتلهم وسباهم، فهرب الصخراوي وأرسل إلى عبد المؤمن يطلب منه الأمان فأمنه فأتاه وبايعه وحسنت طاعته، فلما رأى ذلك أهل سبتة سقط في أيديهم وندموا على صنعهم، وكتبوا ببيعتهم إلى عبد المؤمن، وأتاه بها أشياخ المدينة وطلبته تائبين فعفا عنهم وعن القاضي عياض، وأمره بسكني مراكش وأمر بهدم سور مدينة سبتة فهُدم.

وفيهما فتحت مدينة مكناسة بعد حصار سبعة أعوام، فدخلت عنوة بالسيف، وذلك يوم الأربعاء الثالث لجمادي الأولى سنة ثلاث وأربعين المذكورة، وخربت وقتل أكثر رجالها وخمست أموالهم وبقيت تاجرات المدينة إلى الآن.

وفيهما فتحت مدينة قرطبة وملكها الموحدون، أعطاهم واليها يحيى بن عليّ بن عاشة، وخرج منها إلى غرناطة ليكلّم عاملها اللمتوني في تمكينها للموحدين إذ كان هو قد ملكهم من قرطبة وقرمونة فتوفي بغرناطة، وذلك يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة ودفن بالقصبة بإزاء قبر بادبس

بن حبوس.

وفي هذه السنة ملك عبد المؤمن مدينة جيان وخطب له بها.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمئة فيها ملك الموحدون مدينة مليانة، وفيها قام رجل بتامسنا يعرف بأبي تمرديد فباعه برغواطة وقبائل كثيرة من البربر، وبقي مدة يحارب الموحدين إلى أن ظفر به فقتل، وحمل رأسه إلى مراکش، وقُتِل معه خلق كثير من البربر.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين فيها تحرك أمير المؤمنين عبد المؤمن إلى مدينة سلا فوصل إليها وأجرى إليها ماء عين غبولة حتى وصل إلى مدينة من رباط الفتح، وأذن للوفود من أهل الأندلس في الوصول إلى سلا فوصلوا في نحو خمسمئة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والأشياخ والقادة، فلتقاهم الوزير أبو إبراهيم والوزير أبو حفص والفقهاء الوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية وأشياخ الموحدين على نحو ميلين من المدينة، وأنزلوهم خير نزول وضيّفوهم خير ضيافة، ثم دخلوا على أمير المؤمنين عبد المؤمن بن عليّ فسلموا عليه بعد ثلاثة أيام من وصولهم، وكان دخولهم عليه في أول يوم من شهر محرم عام ستة وأربعين وخمسمئة، فأشار الفقيه أبو جعفر بن عطية لأهل قرطبة بالتقدم فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج فبين ودهش ووصف حال قرطبة، فقال: يا أمير المؤمنين أن الفنش دمره الله قد أضعفها فتلافاه أبو بكر بن الجدد بخطبة بليغة، فاستحسنها عبد المؤمن ووصل الجميع كل على قدره وقضاء حوائجه، وأوصلهم بما أرادوا وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم فانصرفوا.

ثم دخلت سنة ستّ وأربعين فيها تحرك أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن إلى

المشرق برسم غزو بجاية واستخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى فسار حتى وصل مدينة سلا، فأقام بها شهرين ثم تحرك منها قاصداً لمدينة سبتة مظهرًا أنه يريد الجواز إلى الأندلس، فلما وصل إلى سبتة استدعى طلبة أشبيلية وقرطبة وفقهاء الأندلس وقادتها، فوصلوا إليه فأوصاهم بما أراد وودعهم، وأخذ فى الحركة، فلما وصل إلى قصر عبد الكريم ميز جيوشه وفرق لهم الأموال وأمرهم بتجديد الأزواد، وأخذ على غير طريق وجعل مدينة فاس عن يمينه واتصل مسيره حتى خرج إلى وادي ملوية، ثم سار إلى تلمسان، فأقام بها يومًا واحدًا ثم خرج منها، وولى الأمير قاصداً إلى بجاية حتى وصل إلى مدينة الجزائر فدخلها صلحًا وأمن أهلها، وخرج عاملها عنها فارا إلى بجاية، ولم يشعر ابن حماد صاحب بجاية بقدوم عبد المؤمن إليه حتى وصل عامله على الجزائر مخرجًا عنها فأخبره بقدوم عبد المؤمن إليه وتملكه للجزائر والمدينة، فسقط فى يده فسار أمير المؤمنين عبد المؤمن حتى نزل بجاية ففتح له بابها أبو عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون، فدخلها وفر عنها ابن حماد فى البحر إلى مدينة جنوة، ومنها إلى قسطة، وذلك فى شهر ذى قعدة من سنة سبع وأربعين وخمسة.

وفى سنة ست وأربعين المذكورة جاز الشيخ أبو حفص إلى الأندلس بعثه عبد المؤمن فى جيش عظيم من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد بن أمير المؤمنين برسم غزو الروم، واستنقاد المرية من أيديهم فإنهم كانوا قد غلبوا عليها فساروا حتى نزلوا المرية فحاصروها وضيقوا عليها غاية، وبنا السيد أبو سعيد على محله سوراً حياطة لها، فاستغاث النصارى الذين بالمرية بالفنش، فبعث إليه السليطين وابن مردنیش لإغاثتهم فى جيش كثيف فلم يمكنهم إغاثتهم، ولم يتوصلوا إلى محلة السيد أبي سعيد لكونه حصن عليها بسور عظيم منيع، فلما عجز السليطين الرومى وابن مردنیش عن إغاثتهم ألقوا وافترقا، ولم يجتمعا بعد، فحصر السليطين على أبدة وبياسة وكان قد

ملكهما فأخذهما من النصارى، ولزم السيد أبو سعيد حصار المرية حتى فتحها ونزل منها النصارى صلحا بالأمان على يد الوزير الكاتب أبي جعفر بن عطية.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين فيها دخل عبد المؤمن بجاية، وفيها حصر الموحدون ابن حماد بقسطة حتى نزل على الأمان وبايع عبد المؤمن ودخل في طاعة الموحدين، واستنقل إلى مراكش بخاصته فأعطاه عبد المؤمن بها مالاً وأنزله منزلة رفيعة، وأقام عبد المؤمن بجاية شهرين حتى هدنها وفتح جميع أحوازها وأقطارها، وقدم فيها طلبة الموحدين ورجع إلى مراكش، وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمئة رجع أمير المؤمنين عبد المؤمن من فتح بجاية إلى مراكش وبعث إلى ليصليتين قريب المهدي، فأوتي به مكبولاً من سبته فأمر بقتله وصلبه بباب مدينة مراكش، وارتحل عبد المؤمن بعد قتل يصيلتين إلى تينمال بزيارة قبر المهدي، ففرق في أهلها أموالاً عظيمة وأمر ببناء مسجدها وتوسيعها ثم ارتحل منها إلى سلا، فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين، فيها ولي عبد المؤمن ولده محمدًا العهد بعده وأمر بذكره في الخطبة بعده، وكتب بذلك إلى جميع عماله، وفيها ولي بنيه البلاد فولي السيد أبا حفص تلمسان وأحوازها، وأصحابه أبا محمد عبد الحق، ومن الكتاب الفقيه أبا الحسن عبد الملك بن عياش، وكان يكتب بعد ذلك للخليفين، وولي السيد أبا سعيد سبته، وطنجة وأصحابه أبا محمد عبد الله بن سليمان وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي، ومن الكتاب الفقيه أبا الحكم هرموس ثم أبا بكر من طفيل ثم أبا بكر بن حبيس الباجي، وولي السيد أبا محمد عبد الله جاية وأعمالها، وأصحابه أبا سعيد يخلف بن الحسن، وولي السيد أبا يعقوب يوسف أشبيلية وشلف وأحوازها، وولي الشيخ أبا زيد بن مجيب قرطبة وأعمالها، فلما ولي عبد المؤمن أولاده البلاد وجعل

عهده لولده محمد وقتل يصليتين قريب المهدي، خرج عليه عبد العزيز وعيسى أخوا المهدي، وكانا بمدينة فاس، فخرجا منها إلى مراكش على طريق المعدن فاتصل خروجهما من فاس بعبد المؤمن فخرج هو من سلا متلافيا مراكش بعد أن قدم إليها وزيره أبا جعفر بن عطية فوجدهما قد دخلا مراكش وقتلا عاملها أبا حفص بن يفرجن، فلما وصل عبد المؤمن مراكش لم يقدم شيئاً قبل قتلها وصلبها.

وفي هذه السنة دخل الموحدون نبله بعد الحصار الشديد بعث إليها أمير المؤمنين عبد المؤمن فائدة أبا زكرياء ابن بومر فحاصرها حتى دخلها عنوة، فأخرج أهلها إلى خارج المدينة فصفهم صفوفاً ثم أمر بقتلهم جميعاً، وقتل جماعة من فقهاءهم منهم الفقيه أبو الحكم بن بطال المحدث والفقيه الصالح الفاضل أبو عامر ابن الجد الذي وقع عليه الاتفاق من الناس أنه عد من قتل نبله في ذلك الموضع ثمانية آلاف رجل، وفي أحوازها أربعة آلاف. ثم بيعت نساؤهم وأبناؤهم الجميع وسلبهم وأمتعتهم، فعل ذلك برأيه دون إذن عبد المؤمن، فرفع الخبر إلى عبد المؤمن فأنكر عليه استبداده بذلك وسوء فعله، وبعث إليه من مراكش من يقبض عليه، وحمل مكبولاً إلى الحضرة، فوصل به مراكش يوم عيد الفطر فسجن بمراكش مدة ثم سرح وعفا عنه، ولم يصرف على أهل نبله شيئاً من جميع ما أخذ لهم.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمئة فيها أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده، وتغيير المنكر وتحريق كتب الفروع، ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبته من بلاد الأندلس والعدوة.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين فيها ملك الموحدون مدينة غرناطة، وخطب بها لعبد المؤمن بن علي، وبعث أهلها ببيعتهم إليه فقبلها، وبعث إليهم عامله فنكثوا البيعة وقتلوا العامل وقام بها ابن مردنيش وابن همشك والأقرع النصراني.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين، فيها أمر أمير المؤمنين بغزو غرناطة، فسار إليها ولداه يوسف وعثمان بعساكر كثيرة فقاتلوا حتى فتحوها عنوة، وقتل الأقرع النصراني ومن كان معه من النصاري وفر إبراهيم بن همشك وابن مردنيش عنها، قاله ابن مطروح، وقال ابن صاحب الصلاة: كان فتح غرناطة وقتل الأقرع النصراني عام سبعة وخمسين والله أعلم بذلك.

وفيهما نكب أمير المؤمنين وزيره أبا جعفر بن عطية، وسجنه مدة ثم قتله في شوال منها، واستوزر مكانه عبد السلام بن محمد الكومي وكان والده عبد المؤمن تزوج أم عبد السلام هذا، فولدت له ابنة تزوجها أبو حفص ثم طلقها، فاستوزره عبد المؤمن حين قتل أبا جعفر بن عطية، واستكتب في الرسائل والأوامر أبا الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي، ولما حبس أبو جعفر كتب إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن يستعطفه ويطلب عفو هذه الرسالة:

عظفا على أمير المؤمنين قد بان	العزاء الفرط الهم والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج	ورحمة منكم ألجأ من السفن
وصادقتنا سهام البين عن عرض	وعطفة منكم أوقر من الحسن
فتوب يطهر بعد الغسل من درن	والطرف يرهص بعد الركض في سنن
أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم	من دون من بها كلا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم	كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصيبة كفراخ الورق من صغر	لم يألّفوا النوم في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سالفة	والكلّ لولاك لم يوجد ولم يكن
تالله لو أحاطته في كل خطية، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطية، حتى سجن	
بمن في الوجود، وأبت لأدم من السجود، وقلت أن الله لم يوح، في الفلك إلى نوح،	
وأبرمت لاحتطاب نار الخليل حملاً، وأبريت لغدار ثمود نيلاً، وحططت عن يونس	

شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظهرت الأخراب بالقصوى من العدو، وأبغضت كل قرشي، وأحببت لأجل وحشي كل حبشي، وقلت بأن بيعة السقيفة، لا توجب إقامة خليفة، وشجرت شعر غلام المغيرة بن شعبة، واغتلقت من حصار الدار وقتل أشمطهم بشعبة، وغادرت الوجه من الهامة خطيئاً، وناولت من قرع سن الحسين قضيباً، ثم كنت بحفر المعصوم لائذاً، وبقبر المهدي -رضي الله عنه- عائداً، لقد آن لمقالي أن تسمع، أن تغفر لي هذه الخطيات أجمع، فغفر أمير المؤمنين فمّن يجمل قلوب هدها الخفقان والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة، فيها كانت حركة المهديّة، وفُتّحها وتخليصها من أيدي الروم الذين كانوا ملكوها، وفيها فتحت جميع أفريقية، وكانت المهديّة قبل أن يملكها الروم بيد الحسن بن عليّ بن يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس إرثاً من أبيه وأجداده، فنزل عليه بها العدو الرومي صاحب صقلية وشدّ عليه الحصار حتى دخلها عنوة، وذلك بعد أربعين وخمسمئة، فهرب الحسن بن عليّ المذكور إلى الجزائر، واستوطنها فلما وصل عبد المؤمن إلى الجزائر بجيوش الموحدين وجد فيه الحسن بن عليّ المذكور فخرج إليه وبايعه، وصاهره عبد المؤمن وحمله إلى مراكش، فأقام معه إلى سنة ثلاث وخمسين المذكورة، فخرج عبد المؤمن إلى المشرق برسم غزو المهديّة، فوصل إليها ونزلها براً وبحراً، وشرع في قتالها حتى انتزعها من أيدي الروم، وذلك في سنة خمس وخمسين وخمسمئة قاله البرنوسي. وقال ابن جنون: تحرك أمير المؤمنين عبد المؤمن إلى غزو المهديّة من حضرة مراكش، وذلك في العشر الأول من شهر شوال عام ثلاثة وخمسين المذكورة واستخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى، وترك معه ولده السيد أبا الحسن، واستخلف على مدينة فاس وأعمالها أبا يعقوب يوسف بن سليمان، واستخلف على أشبيلية وقرطبة وجميع بلاد غرب

الأندلس ولده السيد أبا يعقوب يوسف، وعلى غرناطة ولده أبا سعيد، وسار هو في أمم لا تحصى وجيوش لا تعد من الموحدين وقبائل العرب زناة والأغراز والرمات، متوجهاً إلى المشرق ففتح الله عليه، وسار في أرض الزاب وبلاد أفريقية يفتح البلاد والمعقل، ويؤمن من استأمن، ويقتل من عصا، حتى وصل إلى مدينة تونس، فحاصرها ثلاثة أيام، وارتحل عنها، وترك عليها جيشاً من الموحدين وسار إلى القيروان ففتحها وفتح سوسة وسفاقس، وارتحل إلى المهدية فنزل على من بها من الروم برّاً وبحراً، ونصب عليها المنجانيق والرعادات في البر والبحر، ولم يرفع عنها القتال ليلاً ولا نهاراً، وجعل قتالها نوباً على قبائل الموحدين حتى فتحها، وقتل فيها خلقاً كثيراً من النصارى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين، في شهر جمادي الأولى منها فتحت تونس، وخطب بها الأمير المؤمن عبد المؤمن، وبعدها ييسير كان فتح المهدية بعد حصارها سبعة أشهر، وفيها ملك عبد المؤمن جميع بلاد أفريقية كلها وأدخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له بها منازع، ففرق فيها أعماله وقضاته وسكنها وأمنها وضبط ثغورها وأصلح أسوارها.

وفي هذه السنة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد أفريقية والمغرب وكسر بلاد أفريقية من برقة إلى بلاد نون من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعاري والأنهار والسبخات والطرق والحزوق وما بقي سقط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب.

وقيل كان تملك عبد المؤمن على المهدية وفتحها لها يوم عاشوراء من سنة خمس وخمسين وخمسمئة.

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمئة أمر أمير المؤمنين ببناء جبل الفتح وتحصينه، فبُني وشيد حصنه، وكان ابتداء البناية في تاسع ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمئة المذكورة وكمل بناؤه في ذي القعدة منها.

وفي هذه السنة تحرك أمير المؤمنين من أفريقية إلى المغرب يريد طنجة برسم الجواز إلى الأندلس فسار حتى وصل إلى قرية من وهران فطلبه عرب أفريقية في الوداع بالرجوع إلى حللهم فأسعفهم بذلك، ونقل منهم إلى المغرب ألفاً من كل قبيلة بعيالهم وأبنائهم، وهم عرب جشم، وبنا في رجعتة هذه مدينة البطحاء، وسبب بنائه أياها، أنه لم طالت بالموحدين الإقامة بالمشرق والتغريب عن أوطانهم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك به في خبائه إذا نام، وتوافقوا على ذلك، فأتى شيخ ممن علم الأمر إلى عبد المؤمن فأخبره الخبر، وقال له: دعني أبيت الليلة في موضعك وأنام على فراشك، فإن فعلوا ما اتفقوا عليه قد كنت فديتك بنفسي في حق المسلمين وأجرى في ذلك على الله، وإن كانت السلامة فمن الله تعالى، ويكون أجري على قدر نيتي فبات على فراشه فاستشهد فلما أصبح وصلى عبد المؤمن الصبح افتقده فوجده مقتولاً فأخذه وحمله بين يديه على ناقة لا يقودها أحد فسارت الناقة تمر يميناً وشمالاً حتى بركت وحدها وأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها وأخذ بزمامها وأزيلت عن مبركتها وحفر قبره فيه ودفن، وبنيت عليه قبة، وبنا بإزاء القبة جامعاً ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد وترك بالمدينة عشرة من كل قبيلة من قبائل المغرب فقبّر الشيخ هناك معظم عند أهل تلك البلاد يزار إلى اليوم، وعند دخول أمير المؤمنين تلمسان من هذه الحركة قبض على عبد السلام بن محمد الكومي وزيره وحبسه ثم سمه في تروة لبن هلك بها من ليلته، وخرج عبد المؤمن من تلمسان إلى المغرب فسار حتى وصل طنجة، وذلك في ذي الحجة سنة خمس وخمسين.

ثم دخلت سنة ست وخمسين فيها جاز أمير المؤمنين عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح فأقام به شهرين فاستشرف على أحوال بلاد الأندلس وأتاه قادتها وأشياخها للسلام، فأمر بغزو بلاد غرب الأندلس فخرج إليه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة فى جيش كثيف من الموحدين، ففتح حصن أطرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى، وأتى الفنش من طليطلة لإغاثة فوجده قد فتح فقصد الموحدون لقتالهم فهزمه الله تعالى، وقتل من عسكره ستة آلاف رجل، وساق المسلمون السبي إلى قرطبة وأشيلية، وفى هذه السنة ملك الموحدون بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر فولى عليها عبد المؤمن محمد بن عليّ الحاج ورجع عبد المؤمن إلى مراكش.

ودخلت سنة سبع وخمسين، فيها أمر عبد المؤمن أمير المؤمنين بإنشاء الأساطيل فى جميع سواحل بلاده، وعزم على غزو بلاد الروم فى البر والبحر فأنشأ منها أربعمئة قطعة، أنشأ منها فى حلق المعمورة ومرساها مئة وعشرون قطعة، ومنها بطنجة وسبتة وباديس ومراسي الريف مئة قطعة، ومنها ببلاد أفريقية ووهران ومرسى عين مئة قطعة، ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة، ونظر فى استجلاب النخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد، وأمر بضرب السهام فى جميع عمله، فكان يضرب له فى كل يوم منه عشرة قناطير جرية، فجمع من ذلك ما لا يحصى كثرة، وفى خلال ذلك ورد على أمير المؤمنين قبيلة كومية فى جيش عظيم من أربعين ألف فارس والسبب فى قدومهم أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذى بات مكانه تحقق ذلك منهم جاء بهم لأخذ ثأره منهم بحيلة؛ لكونه غريباً بين قبائلهم ليس له بهم عشيرة يستند إليها ولا قبيلة يثق بها ويعتمد عليها، فبعث فى خفية إلى أشياخ قبائل كومية قبيلته، فأمرهم بالقدوم عليه وأن يركب كل من بلغ الحلم منهم، ويأتونه فى أحسن زي وأكمل عدة وهيئة، وبعث إليهم بأموال

والكساوي، فاجتمع منهم أربعون ألفاً فأقبلوا إلى أمير المؤمنين بمراكش برسم الخدمة بين يديه، وليشد ظهره بهم، فتشوش المغرب لقدوم هذا الجيش، وتقول الناس الأقاويل، فسار الجيش حتى نزل وادي أم الربيع فسمع الموحدون بإقبالهم فارتعدوا منهم وعرفوا أمير المؤمنين بخبرهم فأمر الشيخ أبا حفص أن يخرج إليهم في جماعة من الموحدين وأشياخهم ليعرفوا خبرهم، فساروا حتى تلقوهم بوادي أم الربيع فقالوا لهم أسلمنا أنتم أم حرباً فقالوا نحن سلم نحن قبائل أمير المؤمنين عبد المؤمن بن عليّ نحن كومية الزناتيين، قاصدين لزيارته والسلام عليه، فرجع أبو حفص وأصحابه فعرف أمير المؤمنين بخبرهم فأمر عبد المؤمن جميع الموحدين أن يخرجوا إلى لقائهم فاختلفوا لذلك، وكان بمراكش يوم دخولهم عيد من الأعياد فرتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية، وجعلهم بين قبيلة تينمال وقبيلة التابعة ثاني درجة، وقرّبهم من نفسه، وجعلهم بطانته يركبونه في ظهره ويقفون على رأسه ويمشون بين يديه إذا خرج، وفي سنة ثمان وخمسين خرج أمير المؤمنين من مراكش إلى الأندلس برسم الجهاد وكان خروجه في يوم الخميس الخامس من ربيع الأول من العام المذكور، فوصل إلى رباط الفتح، فكتب إلى جميع المغرب والقبلة وأفريقية والسوس وجميع القبائل يستنصرهم إلى الجهاد فأجابه خلق كثير؛ فاجتمع له من عساكر الموحدين والمرزقة من قبائل العرب وقبائل زناتة أزيد من ثلاثة مئة ألف فارس، ومن جيوش المطوعة ثمانون ألف فارس ومئة ألف راجل، فضاقت بهم الأرض وانتشر المحلات والعساكر في أرض سلا من عين عبولة إلى عين خميس، فتدارت راجعاً إلى حلق المعمورة، فلما استوفت لديه الحشود وتكاملت لديه الجنود والوفود ابتدأه المرض الذي توفي منه فتماذى مرضه واشتد ألمه، فلما خاف أن يفاجئه الموت فأمر بإسقاط ولده محمد من الخطبة وعزله عن العهد لما ظهر له من العجز عن القيام بالخلافة، وذلك في يوم الجمعة الثاني من جمادي الآخرة من العام

المذكور، وكتب بذلك إلى جميع طاعته وبلاده فتهاذى مرضه واشتد ألمه ووجعه إلى أن توفى ليلة الجمعة الثامن من جمادي الآخرة من العام المذكور، وقيل توفى يوم الثلاثاء عند الفجر العاشر من جمادي الآخرة المذكورة، فسبحان الحي الذي لا يموت ولا يفنى دوامه ولا يفسد ملكه. وسنّه يوم توفى ثلاث وستون سنة وله ابن الخشاب، وقيل أربع وستون سنة ذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة، وحمل إلى تينمال فدفن بها إلى جانب قبر الإمام المهدي فكانت أيام ملكه ثلاث وثلاثون سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرون يومًا فله غير واحد من المؤرخين دولتهم، وخلف عبد المؤمن من البنين جماعة، وهم: أبو يعقوب الخليفة بعده وشقيقه أبو حفص، ومحمد المخلوع من العهد، وعبد الله صاحب بجاية، وعثمان صاحب غرناطة، والحسن، والحسين، وسليمان، ويحيى وإسماعيل، وإبراهيم، وعلي، ويعقوب، وعبد الرحمن، ودواد، وعيسى، وأحمد، ومن البنات: عائشة، وصفية. ومن أولاد النجباء والأدباء: السيد أبو عمران كان استخلفه أخوه يوسف على مراکش فاعتل وغاب ثلاثة أيام لم يره أحد، فكتب إليه القاضي أبو يوسف حجاج:

يغيب البدر يومًا ثم يبدو وأنت تغيب عني ثلاثا
أين بلغت ثلاثا لم أركم فلست بمدرّك يوم الثلاثا
فأجابه السيد أبو عمران بديهة:

أتتنا منكم كمرر فحملت عجلا أوجبت منا انبعاثا
ولولا العذر من سبب قوي لسرنا نحوكم جثما جثا
ولكننا نسير بحال ودُّ إليكم مصباحا يوم الثلاثا

الخبر عن صفة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي وسيره
وفضله رحمه الله تعالى

كانت ولاية عبد المؤمن حسنة، وسيرته جيدة، لم يكن في ملوك الموحدین مثله

أحسن عطية ولا فروسية، ولا دينا ولا أكثر علماً منه، وأما صفته: فكان أبيض اللون مشرباً بحمرة، أكحل العينين، أجعد، تام القد، له وفرة تبلغ شحمة أذنه، أزج الحاجبين قلائم الأنف عريضة مستدير اللحية، فصيح اللسان، فقيهاً عالماً بالجدل، فقيهاً في علم الأصول حافظاً لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - متقن الرواية، مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، إماماً في النحو واللغة والأدب والقراءات، ذاكرةً للتاريخ وأيام الناس، حسن السيرة، نافذ الرأي ذا حزم وسياسة وشجاعة وإقدام في الحرب وفي مهمات الأمور، سري المهمة، ميمون النقيية، منصوفاً مؤيداً لم يقصد قط بلداً إلا فتحها ولا قاتل جيشاً إلا هزمه وكان مع ذلك سخياً كريم الأخلاق محباً في أهل العلم والأدب، مقرباً لهم، مشرفاً لوفادتهم، مشوقاً لبضاعتهم، وله شعر رائق حسن، وقيل أنه خرج يوماً مع وزير أبي جعفر بن عطية متنزهاً إلى بعض بساتين له بمراكش، فمر في طريقه بشارع من شوارع المدينة، فإذا بطاق في دار عليه شبك خشب قد قابله منها وجه جارية كأنه الشمس الضاحية قد بادرت الطاق تنظر إليه، فنظر إليها عبد المؤمن فأعجبه حسننها، وحلت من قلبه كل محل، فقال ارتجالاً:

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال أبو جعفر:

حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن:

كأنها لحظها في قلب عاشقها

فقال أبو جعفر:

سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

فطرب عبد المؤمن واستحسن إجازة وزيره فخلع عليه، وأمر له بهال جزيل، قال ابن جنون: كان عبد المؤمن ذا سياسة وهمة سنية، على أنه لم يكن من بيت ملك ولم ينشأ في نعيم، فمن همته أنه لم يخلد إلى الراحة، ولا ركن إلى اللذات، فتح المغرب بأسرها، ثم توجه إلى المشرق، ففتح أفريقية كلها إلى برقة، وفتح الأندلس وقمع الجبابة، واسترجع من أيدي الروم المهديّة من بلاد أفريقية والمرية وأبذة وبياضة وبطليوس من بلاد الأندلس.

وكتابه: أحمد جعفر بن عطية، وأخوه عطية بن عطية، وأبو الحسن بن عياش، وميمون الهواري، وعبد الله بن جبل.

ووزراؤه: أبو جعفر بن عدلية ثم عبد السلام بن محمد الكومي ثم ولده السيد أبو حفص، ثم إدريس بن جامع يقعد بين يدي السيد أبي حفص.

قضاته: أبو عمران موسى ابن صهر من أهل تينمال، ثم أبو يوسف حجاج بن يوسف ثم الأستاذ أبو بكر بن ميمون القرطبي، وهو القائل في شاب من أهل أغمات يعرف بأبي القاسم بن تسيت:

أبا القاسم والهوى جنة	وها أنا من مسها لم أفق
تبرات جاحم نار الطلوع	كما خضعت بحر دموع الحرق
أكنت الخليل أكنت الكلیم	أمنت الحريق أمنت الغرق

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي رحمه الله

هو أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن الخليفة أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي الزناني الكومي.

أمه: حرة، اسمها: عائشة بنت الفقيه القاضي أبي عمران التينملي.

مولده يوم الخميس الثالث من شهر رجب من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة، صفته: أبيض اللون تشوبه حمرة، حسن القد التمام، أشعر اللحية، أجعد الشعر، أفلج ألقى، أعصر أيسر، مطلق بكلتا يديه عاقلاً صالحاً ورعاً فاضلاً مترفعاً في سفك الدماء حليماً حسن السياسة والتدبير، مصيب الرأي، محب في الجهاد، لما ولي حدا منهجاً أبيه وسلك سبيله واهتدى بهديته، وسار بسيرته، واقتدى بأفعاله، وجمع أموالاً كثيرة، وهو أول ملك من ملوك الموحدين جاز إلى جهاد فغزا بنفسه، ورغب عليه، وأقتنا الذخائر، واستكثر من الجيوش والجنود، ومهد البلاد، وأطاع له من بالعدوتين من العباد، وضخم الملك، فكان ملكه من سويقة بني مطكوك قاصية بلاد أفريقية، إلى أقصى بلاد نون من أرض السوس الأقصى إلى آخر بلاد القبلة، وملك بلاد الأندلس من مدينة تطلية قاصية بلاد شرق الأندلس إلى مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس، يجبي إليه خراج ذلك كله دون مكس ولا جور، وكثرت الأموال في أيامه، وتمهدت البلاد وتأمنت الطرقات، وضبطت الثغور، وصلح أمر الناس بالحاضرة والبادية؛ وذلك بحسن سيرته الجميلة وعدله الشامل لرعيته وتفقدته لأحوال البلاد القريبة والبعيدة ومباشرته أمور مملكته بنفسه حتى لا يغيب عنه منها شيء لا يدخله فتور عن النظر في أموره ولا يكلها إلى غيره، أولاده ثمانية عشر ذكراً أولهم يعقوب الخليفة بعده الملقب بالمنصور، وإسحاق شقيقه ويحيى شقيقهما وإبراهيم وموسى شقيقه، وإدريس شقيقهما، وعبد العزيز شقيقهم، وأبو بكر وعبد الله شقيقه، وأحمد شقيقهما، ويحيى الصغير شقيقهم، ومحمد وعمر وعبد الرحمن وأبو

محمد عبد الواحد المخلوع وعبد الحق وإسحاق وطلحة، حاجبه الضابط لأمواره، والقائم لملكه أخوه السيد أبو حفص، وزيره أبو علي إدريس بن جامع ثم الوزير أبو بكر يقعد بين يدي ولده يعقوب، قضاته الفقيه القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف، والفقيه أبو موسى عيسى بن عمران، والفقيه القاضي أبو العباس بن مضاء القرطبي، كتابه أبو الحسن عبد الملك بن عياس القرطبي، بالنشأة الياثوري بالأصل، وكان -رحمه الله- من أهل الحديث والرواية والكتب البارع له عقل ورأي سديد، ومن كتابه أيضًا الفقيه البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل مدينة بجاية، وهو المعروف بحشرة، وكان -رحمه الله- من أهل العلم والفضل والدين والتقوى والنبيل في الكتابة والبلاغة في الترسيل، ثم كتب لولده المنصور ثم لحفيده الناصر.

أطبأؤه: الوزير الطيب أبو بكر من طفيل من أهل واد ياش من أهل الحدق بصناعة الطب والنظر في الجراحات توفي -رحمه الله- سنة إحدى وثمانين وخمسمئة، ومنهم الوزير أبو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي، من أهل التدبير في صناعة الطب، ومنهم الفقيه الأجل أبو الوليد بن رشد استدعاه أمير المؤمنين إلى سكنى مراكش سنة ثمان وسبعين برسم الطب ثم ولاه القضاء بقرطبة، وهو ابن رشد الحفيد، ومنهم الوزير أبو بكر بن زهر كان يتكرر على الحضرة فيقيهم بها ويرجع إلى الأندلس، ثم انتقل إلى مراكش بجملته وأهله، وذلك في سنة ثمان وسبعين وخمسمئة، فأقام بها إلى أن كانت غزوة شنتين فحضرها ثم اختص بالمنصور، وكان من أهل المعرفة بالطب والحفظ للغة والآداب، وحسن المجالسة والمحاضرة، مشاركًا في الفقه والحديث والتفسير، ذكر عنه ابن الجذانة كان يحفظ كتاب البخاري بأسانيده، وكان من أهل السخا والحمية، شاعرًا مجيدًا، له إشعار بديعة في الزهد، ومن شعره يتشوق إلى ولد له صغير:

ولي واحد مثل فرخ القطا صغيرا تخلفت قلبي لديه
 فأت منه داري فأوحشني لذاك الشخص وذاك الوجيه
 تشوقني وتشوقته فيكي علي وأبكي عليه
 وقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إلي مني إليه
 وتوفي - رحمه الله - بمدينة مراکش في الحادي والعشرين لذي حجة من سنة
 خمس وتسعين وخمسة، وقد بلغ من السنين أربع وتسعين سنة، ومن الفقهاء الذين
 كانوا يجالسونه ويسامرونه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجدة، والفقيه القاضي أبو عبد
 الله أبو الطفر ولي القضاء بأشبيلية ثم نقله أمير المؤمنين يوسف إلى حضرته، فولاه
 الخزان ويوت الأموال، وكان من أهل الأدب، ومن شعره:

لله إخوان تناءت ديارهم حفظوا الوداد على النوى إخوان
 يهدي لنا طيب الثناء ودادهم كالند يهدي الطيب وهو دخان
 وهو القائل أيضًا:

أرضي العدو بظاهر متصنع إن كنت مضطرًا إلى استرضائه
 كم من فتى ألقى بوجه باسم وجوارحي تنقض من بغضائه
 فكان أمير المؤمنين يوسف يجالسهم ويحدثهم ويستطرف ملحمهم.

الخبر عن بيعته وأيامه رحمه الله

ببيع يوسف بعد وفاة أبيه، وذلك في غدوة يوم الأربعاء الحادي عشر من جمادي
 الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسة، وتوفي شهيدًا في غزوة شنتين من بلاد غرب
 الأندلس يوم السبت الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسة هو ابن سبع
 وأربعين سنة؛ فكانت أيامه في الملك إحدى وعشرين سنة وأشهر وأيام، وقيل: أنه
 ببيع يوم الثلاثاء العاشر من جمادي الآخرة المذكورة بعد وفاة أبيه بليلة، قيد ذلك
 بعض ولده، وقيل: لما مات عبد المؤمن كتم موته لأجل غيبة ولده يوسف الخليفة

بعده ببلاد الأندلس، فلم يشهر موته حتى قدم يوسف من أشبيلية، ذكر ذلك ابن الخشاب، وأهل بيته أحق بالتقليد في ذلك، وذكر القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر المؤرخ لدولتهم أن يوسف بويع بيعة الجماعة، واتفقت الأمة على بيعته يوم الجمعة الثامن لربيع الأول عام ستين وخمس مئة، وذلك بعد وفاة أبيه بستين لأنه لما بويع بعد وفاة والده توقف على بيعته قوم من أشياخ الموحدين وامتنع من بيعته أخوته السيد أبو محمد صاحب بجاية، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة، فكفّ عنهما، لم يطلبهما بالبيعة، وتسمى بالأمير، ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمعت عليه الناس.

ذكر ابن مطروح في تاريخه أنه لما مات عبد المؤمن كان ولده يوسف بأشبيلية، فأخفى موته، فوجه إلى يوسف فوصل من أشبيلية إلى سلا في أقرب وقت فبويع، ولم يتخلف عن بيعته إلا أناس قلائل فلم يلتفت إليهم، فكان أول شيء فعله في ولايته حين تمت بيعته أنه سرح الناس المجتمعين للجهاد إلى بلادهم وقبائلهم، وكتب إلى جميع البلاد بتسريح السجون وتفريق الصدقات في جميع عمله، وتسمى بالأمير، وارتحل إلى مراكش فدخلها وأقام بها، وكتب إلى جميع طاعته من الموحدين يطلبهم فأنته البيعة من جميع بلاد أفريقية والمغرب والأندلس ما خلا قرطبة وبجاية، فإن ولاتهما وهما أخوته توقفا في ذلك وانتشر خبره في أقطار البلاد، وكان له بالعدوتين من القياد، وفرقوا الأموال في قبائل الموحدين، وأعطى كل الأجناد، وفي سنة تسع وخمسين وخمسمئة قدم عليه أخوه السيد محمد صاحب بجاية والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة تائبين طائعين مبائعين، وقدم عليه أشياخ بلدهما وفقهاؤهم فوصلهم أمير المؤمنين يوسف وأحسن إليهم بالأموال والخلع.

وفي هذه السنة ثار مرزوغ الغماري الصنهاجي من صنهاجة مفتاح، وضرب له

السكة، وكتب فيها: مرزوغ الغرب، نصره الله قريب. فباعه خلق كثير من غماره وصنهاجة وأوربا، فأفسد تلك الناحية ودخل مدينة تاردا، وقتل فيها خلقا كثيرا وسبها، فبعث إليه أمير المؤمنين يوسف جيشا من الموحدين فقتلوه وحمل رأسه إلى مراكش.

وفى سنة ستين كانت وقعة الجلاب بين السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن وجيش الروم مع ابن مردنيش، وكان الروم ثلاثة عشر ألفا، فهزم ابن مدرنيش وقتل من كان معه من الروم بأجمعهم، وكتب بالفتح إلى أخيه يوسف، وفى سنة إحدى وستين، ولى الأمير أخاه السيد أبا زكرياء بجاية، وأمره بتفقد أحوال بلاد أفريقية ورفع مظالمها وقمع الطغاة بها.

وفى خالف يوسف بن منقباد، وثار بجبل تيزيران من بلاد غماره، وفى سنة اثنتين وستين كانت حركة أمير المؤمنين يوسف إلى غماره لغزو يوسف بن منقباد وأتباعه، فظفر به وقتله وحمل رأسه إلى مراكش وباعته جميع بلاد غماره، وفى سنة ثلاث وستين اجتمعت الأمة على طاعته، وتسمى بأمر المؤمنين، وذلك فى شهر جمادى الآخرة منها، وفى سنة أربع وستين وفد عليه أهل البلاد من أفريقية والمغرب والأندلس القضاة والخطباء والفقهاء والشعراء والأشياخ والأعيان برسم السلام والمطالعة بأحوال بلادهم فوصلت الوفود إلى مراكش فسلموا عليه، ووصل الجميع كل على قدره وأوصاهم بما أراد وكتب لهم الأوامر بحوائجهم وسوءاتهم وانصرفوا شاكرين.

وفى سنة خمس وستين بعث أمير المؤمنين يوسف أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس برسم الجهاد فجاز البحر من قصر الجواز إلى طريف فى جيش من عشرين ألفا من الموحدين والمطوعة فعمد إلى طليطلة.

وفي سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف ببناء قنطرة تانسيفت شرع في بنائها يوم الأحد ثالث شهر صفر من العام المذكور، وفيها جاز أمير المؤمنين إلى الأندلس، لينظر في ضبط ثغورها وأصلح أحوالها ولم سعتها فوصل إلى أشبيلية فأقام بها سنة كاملة وأتاه بها فواد الأندلس ورؤساؤها وقضاها وفقهاؤها برسم السلام عليه والتعريف بأحوالهم ثم خرج بعد السنة إلى غزو مدينة طليطلة وفتح حصونًا كثيرة من أحوالها وقتل خلف كثيرًا من الروم وغنم وسبا وانصراف إلى أشبيلية مؤيدًا منصورًا.

وفي سنة سبع وستين شرع أمير المؤمنين يوسف في بناء الجامع المكرم بأشبيلية، وكان أول خطيب خطب بها الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن غفير النبلي وذلك في ذي حجة عنها حين فرغ من بنائها، وفي هذه السنة عقد أمير المؤمنين يوسف الجسر على وادي أشبيلية بالغوارب، وبنى قصبته الداخلة والخارجة، وبنى الزلائق للحصور، وبنى سور باب جوهر، وبنى الرصفان المدرجة بصفتي الوادي، وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله إشبيلية، وأنفق في ذلك أموالًا لا تحصى، ثم قفل إلى مراکش، وذلك في شهر شعبان المكرّم من سنة إحدى وسبعين وخمسمئة وكان جملة مقامه بالأندلس أربعة أعوام وعشرة أشهر وأيام، وفي سنة سبع وستين المذكورة مات محمد بن سعيد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الأندلس، فتحرك أمير المؤمنين نحو بلاده ففتحها بأجمعها، وأذن له جميع بلاد شرق الأندلس، ورجع إلى أشبيلية.

وفي سنة ثمان وستين غزا أمير المؤمنين يوسف وولده السيد أبو بكر في بلاد الروم، فسار حتى بلغ طليطلة، فقتل وسبي وخرب القرى، فخرج إليه زعيم الروم شانشوا اسمه المعروف بأبي بردعة - عرف بذلك لأنه كان يركب على البردعة من الحرير مسرجة بالذهب مكللة بأصناف الجوهر - فكان بينهما قتال عظيم، قُتل فيه

شانسوا أبو بردعة وجميع جيشه ولم يفلت منهم أحد، وكان عدد من قتل في هذه الغزوة من الروم ستّة وثلاثين ألفاً.

وفي سنة تسع وستين غزا أمير المؤمنين مدينة كرقونة من بلاد شرق الأندلس فأوغل في تلك الناحية يقتل ويسبي ويخرب البلاد بالحرق والهدم وقطع الثمار، ونسف الآثار ثم قفل إلى أشبيلية.

وفي سنة سبعين وخمسمئة تزوج أمير المؤمنين يوسف بنت محمد بن سعيد ابن مردنيش وصنع لها مهر جانا عظيماً يقصر اللسان عن وصفه، وفي سنة إحدى وسبعين جاز أمير المؤمنين إلى العدو، فدخل مراکش في شهر شعبان، فأقام بها إلى سنة أربع وسبعين، فاتصل به أن ابن الزبري قام بقفصة من بلاد أفريقية فاضطربت لأجل ذلك أفريقية، فتحرك أمير المؤمنين إليها في سنة خمس وسبعين، فوصل إلى أفريقية، ونزل على مدينة قفصة وضيّق عليها بالقتال والحصار، حتى دخلها وظفر بابن الزبري القائم بها فقتله، وذلك في سنة ست وسبعين وعاد إلى مراکش ودخلها في سنة سبع وسبعين.

وفي هذه السنة وفد على أمير المؤمنين بمراكش أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة، وفي سنة ثمان وسبعين خرج أمير المؤمنين من مراکش لبنيان حصن زُكُنْدُر فبناه على المعدن الذي ظهر هنالك.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمئة، فيها جاز أمير المؤمنين يوسف الجواز الثاني برسم الجهاد، فخرج من حضرة مراکش في السبت الخامس والعشرين من شوال سنة تسع وسبعين المذكورة، وكان خروجه على باب دكالة برسم خروجه إلى أفريقية، فلما وصل إلى سلا أتاه عبد الله محمد بن أبي إسحاق من أفريقية فأعلمه

بهذونها وسكونها، فصرف الحركة إلى الأندلس فتحرك من سلا صحوة يوم الخميس الموافق ثلاثين لذي قعدة من السنة المذكورة، فنزل بظاهر البلد ثم أقام من ظاهر سلا يوم الجمعة الثاني له، فوصل إلى مدينة مكناسة يوم الأربعاء السادس لذي حجة، فعيد بها عيد الأضحى بخارجها، ثم ارتحل إلى مدينة فاس، فأقام بها بقية الشهر، ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمئة في اليوم الرابع منها خرج أمير المؤمنين من مدينة فاس، فسار حتى وصل سبتة، فأقام بها بقية شهر المحرم وأمر الناس بالجواز، فجازت قبائل العرب أولاً ثم قبائل زناتة ثم قبائل المصامدة، ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة، وأصناف البربر ثم جازت جيوش الموحدين والأغزاز والرمات، فلما كمل الناس بالجواز جاز هو في أثرهم في العبيد والدائرة، وكان جوازه في اليوم الخامس لصفر وهو يوم خميس من العام المذكور، فنزل بمرسى جبل الفتح ثم ارتحل منه إلى الجزيرة الخضراء، وخرج فسلك منها على جبل الصوف إلى قلعة خولان إلى أركش إلى شريش إلى تبريشة إلى أشبيلية، فلما كان في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر صفر، فنزل في وادي بصرقال، فخرج إليه السيد أبو إسحاق ولده وفقهاء أشبيلية وأشياخها للسلام عليه، فبعث إليهم وأمرهم بالوقوف بالمينة حتى يصلهم، فلما صلى الظهر ركب وجاز إليهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا، ثم تحرك إلى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس فوصلها في السابع من ربيع الأول من سنة ثمانين، فنزل عليها وأدار بها الجيوش والعساكر وشدّ عليها بالقتال وضيق عليها بالحصار، وبالعنف في ذلك جهده فأقام محاصراً لها وضيق عليها إلى ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأول المذكور، فانتقل من موضع نزوله بجوفي شنترين إلى غريبها، فأنكر المسلمون ذلك، ولم يعلموا له بشيء فلما جنّ الليل وصلّى العشاء الآخرة، بعث ولده السيد أبي إسحاق إلى أشبيلية، فأمره بالرحيل من تلك الليلة إلى غزوة مدينة أشبونة، وشنّ الغارات على أنحائها، وأن يسير إليها بجيوش الأندلس

خاصة، وأن يكون رحيله نهائياً، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل في جوف الليل إلى أشبيلية وصرخ الشيطان في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل، وفي هذه الليلة تحدث الناس بذلك وتأهبوا له، فرحل من الناس طائفة بالليل فلما كان قريب الفجر أقلع السيد أبو إسحاق، وأقلع من كان يليه، وتابعه الناس بالرحيل، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك، فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله أحداً من أهل المحلات إلا اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله، وقادة الأندلس لأنهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلف منها من الضعفاء، فلما طلعت الشمس تطلعت النصراني المحصورون من حول المدينة إلى المحلة وقد انقطعت وارتحلت ولم يبق حول المدينة غير أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته وتحققوا ذلك من جواسيسهم، ففتحوا أبواب المدينة وخرج جميع من فيها خرجة منكورة، وهم ينادون الرّبيّ الرّبيّ أي أقصدوا السلطان فضربوا في محلة العبيد إلى أن وصلوا إلى خباء أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموها عليه فيها، فقاتلهم بسيفه حتى قتل منهم ستة رجال فطعنوه طعنة نافذة، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصبين عليه حتى طعن وسقط بالأرض، فتصايح الفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقادة الأندلس، وتراجع المسلمون فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قلعوهم عن الخباء بالسيف واشتد القتال بينهم، وتوافقوا ساعة في قتال شديد ثم انهزم أعداء الله ومنح الله عزّ وجل المسلمين أكتافهم بالسيوف، وركبهم حتى أدخلوهم المدينة عنوة، وقُتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف، واستشهد من المسلمين جماعة فركب أمير المؤمنين، والأمر قد فات فيه، وارتحل الناس لا يدرون إلى أين، ثم اهتموا بالطبول فسار إلى أشبيلية فاشتد به آلامه وطعناته فمات بالطريق، قاله ابن مطروح، وكانت وفاته يوم السبت الثاني من شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين

وخمسمئة بقرب جزيرة الخضراء قاصداً للجواز إلى العدو، فحمل إلى تينال فدفن بها إلى جانب قبر أبيه، وقيل أن لم يمت حتى وصل إلى مراکش ودفن بتينال، وكان ولده يعقوب الخليفة بعده، وهو الذي كان يدخل على أبيه ويخرج ويتصرف في الأمور على يديه من يوم طعن والده إلى أن مات، فكانت دولته اثنتين وعشرين سنة وشهراً واحداً وستة أيام، وكنتم ولده موته حتى وصل مدينة سلا فأشهره، والبقاء لله وحده الذي له الأمر من قبل ومن بعده لا رب غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

هو أمير المؤمنين عبد الله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لقبه المنصور بفضل الله.

أمه أم ولد كانت أهداها ابن وزير لأبيه يوسف.

مولده بقصر جده عبد المؤمن، بمدينة مراکش سنة خمس وخمسين وخمسمئة.

كنيته: أبو يوسف.

نقش خاتمه: على الله توكلت.

صفته: آدم اللون، معتدل القد، أكحل العينين، واسع الأكتاف، أقنى الأنف عارى العنفقة، مدور الوجه، أفلج، أعين، له وفرة تنعقد على جبينه، جواداً كريماً شجاعاً شهماً عالماً بالحديث والفقه واللغة، مشاركاً في كثير من العلوم النافعة للدين والدنيا، محباً في العلماء، معظماً لهم، صادرًا عن رأيهم، كثير الصدقة، محباً في الجهاد مواظباً عليه، يشهد جناز الفقهاء والصلحاء ويزورهم ويتبرك بهم، ولده الذكور

أربعة عشر، ولي الخلافة بعده منهم ثلاثة: أبو عبد الله الناصر، وأبو محمد عبد الله العادل، وأبو العلي إدريس المأمون.

وزراؤه: وزراء أبيه.

وكتّابه: كتّاب أبيه.

وأطبائه: كذلك أطباء أبيه.

قضاته: أبو العباس بن مضاء القرطبي، ثم أبو عمران موسى بن القاضي عيسى بن عمران.

أيامه في الملك: بويغ له - رحمه الله - يوم الأحد التاسع عشر لربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمئة وهي بيعة الخاصة وكنم موت أبيه، وتأخرت بيعة العامة بسبب كنم الوفاة المتقدم ذكره إلى يوم السبت الثاني من جمادي الأولى من السلطنة بعينها، وبويغ بيعة العامة وتوفى - رحمه الله - يوم الخميس الثاني والعشرين لربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمئة وقليلة ليلة الجمعة في آخر الليل بمدينة مراكش وحمل إلى تينمال فدفن بها وسنّه يوم توفى أربعين سنة، فكانت دولة أيامه خمسة آلاف يوم ومائتي يوم واثنين وتسعين يومًا يجب لها من السنين أربع عشرة سنة واحد عشر شهرًا وأربعة أيام، ولما تمت له البيعة وطاعت له الأمة كان أول شيء فعله أنه أخرج مئة ألف دينار ذهبًا من بيت المال ففرّقها في الضعفاء من بيتات بلاد المغرب، وكتب إلى جميع بلاده في تسريح المسجونين ورد المظالم التي فعلها العمال في أيام أبيه، وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء والفضلاء، وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، وأوصى ولاته وعماله بالرجوع إلى أحكام القضاة، وتفقد أحوال بلاده ورعيته، وضبط الثغور وشحنها بالخيول والرجال، وفرّق في الموحدين وسائر الأجناد أموالًا كثيرة،

وكان ذا رأي وحزم ودين وسياسة، وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين: «الحمد لله وحده»، فجرى عملهم على ذلك، وهو واسطة عقدهم الذي ضخم الدولة وشرفها، وكانت أيامه أيام دعة وآمن ورخاء ورفاهية وبهجة حسنة، صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالمشرق والمغرب والأندلس، فكانت الطعينة تخرج من بلاد نون لمطة حتى تصل برقة وحدها لا ترى من يعرضها ولا من يكلمها، صنع عام الأراك المشهور، وحصن البلاد، وضبط الثغور، وبنى المساجد والمدارس في بلاد المغرب وأفريقية والأندلس، وبنى المستنانات للمرضى والمجانين، وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم، وأجرى الإنفاق على أهل المستنانات والخدماء والعميان في جميع أعماله، وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء في البرية، واتخذ عليها المنازل من سوس الأقصى إلى سويقية مصكوك، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفاً لأهل الإسلام، لم يزلوا فيها أعزة ظاهرين علي العدو وقاهرين له.

وفي سنة اثنتين وثمانين قتل المنصور أخويه أبا يحيى وعمر وقتل عمه أبا الربيع، وفيها خلفت مدينة قفصة من بلاد أفريقية، فخرج إليها المنصور من حضرة مراکش في ثالث شهر شوال من سنة اثنتين وثمانين المذكورة، فوصل إليها وحاصرها حتى فتحها في سنة ثلاث وثمانين، فلما فتح قفصة خرج إلى غزو عرب أفريقية فهزمهم واستباح حللهم وأموالهم، وبعد ذلك أتوه طائعين فنقلهم إلى المغرب ورجع إلى مراکش، وفيها تحرك إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها، وهي أول غزواته للروم، فجاز إليها من قصر الجواز إلى الخضراء، وذلك يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين المذكورة، فارتحل عن الخضراء حتى نزل شنترين، وشن الغارات على مدينة الأشبونة وأنحائها، فقطع الثمار وقتل وسبي وأضرم النيران في القرى وحرق الزرع وبالع في النكاية، وانصرف إلى العدو بثلاثة عشر ألفاً من

النساء والذرية، فوصل مدينة فاس في آخر شهر رجب من السنة المذكورة، فأقام بها أيامًا، فتواترت له الأخبار أن الميورقي قد ظهر بأفريقية، فارتحل إليها من مدينة فاس في الثامن من شعبان من السنة بعينها، فدخل مدينة تونس في أول شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، فوجد أفريقية ساكنة وقد فرّ عنها الميورقي إلى الصحراء حين سمع بقدومه، وفي سنة ستّ وثمانين دخل النصارى مدينة شلف ومدينة باجة وبايرة من بلاد غرب الأندلس، وذلك لما علموا أن المنصور قد بعد عنهم واشتغل بأفريقية، فاجتمعوا الفرصة، فاتصل الخبر بالمنصور، فاستعظم ذلك وغازاه، وكتب إلى قادة الأندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الغرب ويعلمهم أنه قادم عليهم في أثر كتابه، فاجتمع قادة الأندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة، فخرج بهم في جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس حتى نزل شلف فحاصرها، وشد عليها القتال حتى فتحها، وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة، وبايرة ورجع إلى قرطبة، فدخلها بخمسة عشر ألف سبية وثلاثة آلاف أسير من الروم، أدخلهم في القطاني بين يديه خمسين علجا في كل قطيبة، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمئة، وفي هذا الشهر رجع المنصور من أفريقية، فدخل مدينة تلمسان، فأقام بها إلى آخر سبع المذكورة، وفي أول يوم من المحرم سنة ثمان وثمانين وهو عام أجروا وخرج المنصور من مدينة تلمسان إلى مدينة فاس، وهو مريض وكان يركب في أجروا وفتحها، وأقام بها مريضًا سبعة أشهر حتى استراح من علته، وارتحل إلى مراکش فأقام بها إلى سنة إحدى وتسعين وخمسمئة فخرج من مراکش إلى الأندلس برسم الغزو، فصنع غزوة الأراك المشهورة.

الخبر عن غزوة الأراك وهزيمة الروم وهي غزوة المنصورة الثانية بالأندلس

قال المؤلف -عفى الله عنه-:

لما طالت غيبة المنصور عن الأندلس بأفريقية، وبلاد العدو، واعتراه المرض بها، اغتنم العدو الفرصة في بلاد الأندلس طول تلك الغيبة قتال بالمسلمين مراده، وغازت في بلادهم وشنّ بها الغارات وشقها بجنوده، وأحرق جميعها بوفوده ولم يجد بها من ينازعه، ويحاربه ولا رأى من يقف في وجهه ولا يدافعه، ولا من يصده عن قصده، فسار جيش اللعين فيها حتى نزل بظاهر الخضراء، فكتب منها كتاباً إلى أمير المؤمنين المنصور يستدعيه فيه للقتال لما أدركه من الإعجاب والاحتياال يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من ملك النصرانية إلى أمير الحنيفة، أما بعد:

فإن كنت عجزت عن الحركة إلينا، وتناقلت عن الوصول والوفود، علينا فوجه إلى المراكب والشباطي، أجوّز فيها جيوشي إليك حتى أقاتلك في أعزّ البلاد عليك، فإن هزمتني فهدبة جاتك إلى يدك فتكون ملك الدينين، وإن كان الظهور لي كنت ملك الملتين والسلام»

فلما قرأ المنصور كتابه أخذته غيرة الإسلام، ثم أمر بقراءته على الموحدين والعرب وقبائل زناتة والمصامدة وسائر الأجناد، فقرأه عليهم، فكلهم أنف منه ونعر، وعزم على الجهاد، واستعد للسفر، ثم دعا المنصور بولده محمد وولي عهده، فدفع إليه الكتاب وأمره أن يرد على اللعين الجواب، فقرأه ثم قلبه فكتب على ظهره:

«قال الله العظيم {ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون}».

ورمي الكتاب إلى أبيه، فسرّ والده بالتوقيع العجيب الذي لا يصدر مثله إلا عن عاقل أريب، ثم صرف الرسول بالكتاب وأمر بإخراج أفراق، والقبّة الحمراء، والمصحف في ذلك اليوم، وأمر الموحدين وسائر الأجناد بالحركة والجهاز إلى

الجهاد، وكتب إلى أفريقية وسائر بلاد المغرب والقبلة يستنفر الناس إلى الجهاد، فأقبل إليه الناس خفاً وثقلاً من كل فج عميق، ومن كل بلد سحيق، فخرج من حضرة مراکش في يوم الخميس الثامن عشر من شهر جمادي الأولى سنة إحدى وتسعين وخمسة مئتين يمد السير ويوالي الرحيل ويطوي المنهل، ولا يلوي على فارس، ولا على راجل، والجيوش تتابع في أثره من جميع الأقطار، والوفود تقبل نحوه لغزو الكفار، فلما وصل قصر الجواز أخذ في تجويز الجيوش.

لا يفرغ من تجويز طائفة إلا وقد تلاحقت به طائفة أخرى أكثر منها، فكان أول من جاز البحر قبائل العرب، ثم قبائل زناتة ثم المصامدة ثم غمارة، ثم الجيوش المطوعة من قبائل المغرب وغيرهم من الأغزاز والرمات، ثم الموحدون ثم العبيد، حتى استوفت الجيوش بالجواز واستقروا بساحل الخضراء فعند ذلك جاز أمير المؤمنين في أثرهم في جيش عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة، ومعه فقهاء المغرب وصلحاء، فسهّل الله تعالى عليه الجواز، واستقر بالخضراء في أسرع وقت، وكان وصوله بعد صلاة الجمعة الموفى عشرين لرجب من السنة المذكورة، فأقام بظاهر الخضراء يوماً واحداً، ونهض نحو العدو، وقبل أن تكل قرائع المجاهدين وتفسد نياتهم، سار بجميع جيوشه الوافرة بنيات خالصة وعزائم ماضية غير نكصة فلم يعط العدو الرجوع إلى بلاده بعدده وعديده إلا وقد تواترت عليه الأخبار، وصحّت عنده الأنباء والآثار بجواز المنصور إليه، وقدومه لقتاله في أعز البلاد عليه، فبعد الفنش الثامن للعين بجيوش وجموعه ينتظره بإزاء مدينة الأراك، فارتحل أمير المؤمنين المنصور قاصداً إليه، ومعولاً بحول الله وقوته عليه، لم يدخل بلده ولم ينتظر أحداً، ولم يلتفت لمن أبطأ ولا لمن قعد، بل صمم نحوه وقصده، حتى بقي بينه وبين مدينة الأراك مرحلتان قريبتان، فنزل هنالك، وذلك في يوم الخميس الثالث من شهر شعبان المكرم من سنة إحدى وتسعين وخمسة مئتين.

فلما وصل من يومه ذلك جمع الناس وأخذ في سوار المسلمين في كيفية لقائه لأعدائه، وأعداء الله الكافرين اتباعاً لأمر الله تعالى واقتداء بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ هي الصفة المحمودة التي مدح الله تعالى بها هذه الأمة بقوله تعالى: {وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} وقوله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -: {وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين} فدعا أولاً أشياخ الموحدين فاستشارهم ثم أشياخ العرب ثم أشياخ زناتة ثم أشياخ القبائل ثم الأغزاز ثم المطوعة كل يقول بما يظهر له من القول الرأي، وينيبه من النصيحة والاجتهاد للمسلمين، ويراه رأياً صواباً لهم، ثم دعا أخيراً قادة الأندلس، فلما دخلوا عليه وسلموا وقعدوا بين يديه فكلهم بما كلم به من تقدم قبلهم ثم قال لهم: يا أهل الأندلس أن جميع من استشرت قبلكم، وإن كانوا أولي بأس وشدة ومعرفة بالحرب وقوة في الجهاد ونجدة - لا يعلمون من قتال النصارى ما تعلمون؛ فإنكم المجاورون لهم المدربون على قتالهم، العارفون بخدعتهم وأحوالهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين رأينا أجمع موقوف على واحد منا قد اتفقنا على تقديمه لمعرفته ودينه وحسن عقله وتدبيره، ومعرفته بالحروب ومكائدها وخدعها ونصيحة للمسلمين؛ فهو لساننا وما قال فهو مذهبنا، على أن رأيكم - سدد الله ووفقه - أحسن رأي، وتدبيركم أوفق تدبير رضي الله عنكم وشاروا بأجمعهم إلى القائد الأجل الموفق الصالح أبي عبد الله بن صناديد - رحمه الله - فقربه أمير المؤمنين بين يديه، وأقبل بكليته عليه، ثم سأله عن قصده ورأيه في كيفية الحرب واللقاء لهذا العدو، فقال له: يا أمير المؤمنين إن النصاي - أهلكهم الله تعالى - أهل خدع ومكائد في الحرب؛ فيجب لنا أن نقاتلوهم بما هم عليه، ورأينا في مقابلتهم ورأيك الأعلى أن تقدم لهم أمامك بشيخ من أشياخ الموحدين الموصوفين بالشجاعة والدين والإخلاص والنصيحة لك وللمسلمين بجيوش الأندلس وحشودها وجميع من في

عسكرك من العرب والزناتة والأغزاز والمصامدة وسائر قبائل المغرب المطوعة وغيرهم وتعد لهم رايتك المنصورة، فتقابل بهذا العسكر المبارك عسكر العدو أهلكه الله ودمره، وتعد أنت بجيوش الموحدين أنجدهم الله تعالى والعييد والحشم بالقرب من موضع المقاتلة في موضع خفي رداً للمسلمين؛ فإن ظفرنا بعدونا بففضل الله وبركته، ويمن خلافتك، وإن كان غير ذلك تكون أنت بعسكر الموحدين فئة للمنهزمين فتلقى العدو بهم، وقد انكسرت شوكته وذهبت قوته وجدته، وهذا رأي في ذلك - رضي الله عنكم - فقال له: نعم والله الرأي ما رأيته؛ فلقد وفقك الله تعالى فيما أشرت.

فانصرف الناس إلى مضاربهم وبات أمير المؤمنين ليلة تلك، وهي ليلة الجمعة الرابعة، من شعبان المذكور في فراشه ساجداً راکعاً ومبتهلاً راعباً إلى الله تعالى سبحانه في تأييد المسلمين على أعدائه الكافرين؛ فلما كان عند السحر غلبته عيناه فنام في مصلاه قليلاً، ثم انتبه فرحاً مستبشراً، فبعث إلى أشياخ الموحدين والفقهاء فدخلوا عليه، فقال لهم: إنما بعثت إليكم في هذا الوقت لأبشركم بما بُشِّرْتُ به من نصره الله تعالى في نومي هذه الساعة المباركة، فبينما أنا أركع في مصلاي إذ غلبتني عياني، فرأيت في نومي كأن باباً قد فتح في السماء، ونزل منه فارس على فرس أبيض، حسن الوجه والرائحة، ويده راية خضراء منتشرة، قد سدت الآفاق من عظمها، فسلم عليّ، فقلت له: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا ملك من ملائكة السماء السابعة؛ جئتك لأبشرك بالفتح من رب العالمين أنت وعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك، في الشهادة راغبين، ثواب الله تعالى طالين، ثم أنشد هذه الأبيات فحفظتها، فانتبهت فكأنها نقشت في قلبي:

بشائر نصر الله جاءتك سائرة لتعلم بأن الله ينصر ناصره
فأبشر بنصر الله والفتح أنه قريب وخيل الله لا شك ظافره

فتفنى جيوش الروم بالسيف والقنا وتخلى بلادًا لا ترى بعد عامرة
فأيقنت بالفتح والظفر إن شاء الله عز وجل، فلما كان يوم السبت الخامس من
شعبان المذكور قعد أمير المؤمنين في خبائه الأحمر المعد لقتال الأعداء، ثم دعا الشيخ
الأجلّ أبا يحيى بن أبي حفص، وكان أكبر وزرائه، وكان بنوا حفص في الموحدین
أهل الفضل والتقوى والدين، وإلى بنيهم عاد في المشرق أمر الموحدین، فلما جاءه
قدمه على عساكر الأندلس وحشودها، والعرب وزناته والمطوعة وسائر قبائل
المغرب، وعقد له رايته السعيدة وقدمه بين يديه، ونشرت على رأسه الراية، وضربت
الطبول، وتقدم بقبيلة هنتاته، وقدم بين يديه القائد بن صناديد بعساكر الأندلس
وحشودها، وعقد لجرمون بن رياح على جميع قبائل العرب وعقد لمزيل المغراوي
على قبائل مغراوة، وعقد لمحيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد علي جميع قبائل مرين،
وعقد لجابر بن يوسف على قبائل عبد الوادي، وعقد لعبد العزيز التجني على قبائل
تجين، وعقد لتلجيز على قبائل هسكورة وسائر المصامدة، وعقد لمحمد بن منقافد
على قبائل غمارة، وعقد للحاج أبي حرز يخلف الأوربي على المطوعة، والكل تحت
طاعة أبي يحيى بن أبي حفص وحكمه ويده، وبقي أمير المؤمنين بكافة عسكر
الموحدین والعبید، ثم أمرهم بالرحيل فتقدم الشيخ أبو يحيى بجيوشه والقائد
صناديد على مقدمته بقواد الأندلس وفرسانه وحماته، فكانوا إذا قلعت محلة أبي يحيى
أول النهار من موضع نزلت به محلة أمير المؤمنين في عشيته حتى أشرف أبو يحيى
بجيوش المسلمين على محلة المشركين - دمرهم الله - وهي على ربوة عالية ذات
مهاوي وأحجار كبار، قد ملأت السهل والوعر، بإزاء مدينة الأراك فنزل عسكر
المسلمين في الوطأ، وذلك ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان المكرم من سنة
إحدى وتسعين وخمسمئة، فعبا أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب، وعقد الرايات لأمراء
القبائل لكل أمير راية تلجأ قبيلته إليها، ويقفون عندها، وعقد للمطوعة راية

خضراء، وجعل عساكر الأندلس في ميمنته، وجعل زناته والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في ميسرته، وجعل المطوعة والأغزاز والرياء في مقدمته، وبقي هو في القلب في قبيلته هتانة، فلما أخذ الناس مصافهم للقتال على هذا الترتيب العجيب ولزمت كل قبيلة رايتها، وأخذ للحرب عدتها وأهبتها - خرج الأمير جرمون بن رياح أمير العرب يمشي بين صفوف المسلمين، ويقوي قلوب المجاهدين، ويتلو هذه الآيات: {يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}، {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}

فبينما هم كذلك والعدو أمامهم في رأس الربوة بجانب الخضراء إذ تحرك من جيش العدو - دمره الله تعالى - عقدة كثيرة بسبعة آلاف فارس إلى ثمانية آلاف فارس كلها محتجين بالحديد والبيضات والزرد النظيف النضيد، فدفعت نحو عسكر المسلمين فنادهى منادي الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص معافر المسلمين أثبتوا في مصافكم، ولا تخالفوا موضعكم، وأخلصوا لله تعالى نياتكم وأعمالكم، واذكروا الله عز وجل كثيراً في قلوبكم، فإنما هي إحدى الحسينين: أما الشهادة والجنة، وأما الأجر والغنيمة.

ثم خرج عامر الزعيم يجول في الصفوف، ويقول: عباد الله أنكم حرب الله، وأثبتوا للقتال بين يدي أعداء الله؛ فإن حزب الله هم المفلحون وهم المنصرون وهم الغالبون، وحلت تلك العقدة التي دفعت بجملتها حتى لطمت أطراف رمساح المتعلمين في صدور خيولهم أو كادت ثم تقهقروا قليلاً ثم عادوا بالحملة فعلوا ذلك مرتين ثم تهبوا بالدفعة الثالثة والقائد بن صناديد والزعيم العربي يناديان برفيع أصواتهم: أثبتوا معشر المسلمين ثبت الله أقدامكم لهذه الصدمة! فدفعت النصارى على القلب الذي فيه أبو يحيى قاصدين إليه يظنون أنه أمير المسلمين فقاتل

- رحمه الله - قتالاً شديداً وصبر صبراً جميلاً حتى استشهد - رحمه الله - واستشهد معه جماعة من المسلمين من صنتاته والمطوعة وغيرهم ممن ختم الله تعالى عليه بالشهادة وسبقت له من الله تعالى السعادة، وصبر المسلمون صبراً جميلاً، ورجع النهار بالغبرات ليلاً، وأقبلت قبائل المطوعة والعرب والأغزاز والرماة فأحاطوا بالنصارى الذين دفعوا من كل جانب وزحف القائد بن صناديد بجيوش الأندلس وحشودها، وزحفت معه قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وسائر البربر إلى الربوة التي فيها الفنش - لعنه الله - يقاتلون من بها من جيوش الروم، وكان الفنش فيها مع جيوش الروم وجميع عسكره وأجناده فيها ما يزيد على ثلاثمئة ألف ما بين فارس وراجل، فتعلّق المسلمون بالربوة وأخذوا في قتال من بها واشتد القتال وعظمت الأهوال، وكثر القتل في النصارى الذين دفعوا في الحملة الأولى، وكانوا نحو العشرة آلاف، زعيم انتخبهم الفنش اللعين الذميم، وصلت عليهم الأقسى صلاة النصارى، ورشوا عليهم ماء العمودية في الطهر، وتحالفوا بالصلبان ألا يفروا حتى لا يتركوا من المسلمين إنساناً فصدق الله عز وجل المسلمين وعده ونصر جنودهم، فلما اشتد القتال على الكفار وأيقنوا بالفناء والدمار، ولوا الأدبار في الفرار إلى الربوة التي فيها الفنش ليعتصموا بها، فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها، فرجعوا على أعقابهم ناكسين في الوطأ فرجعت عليهم العرب والمطوعة وهتانة والأغزاز والرماة فطحنوهم طحنًا، وأفنوهم عن آخرهم، وانكسرت شوكة الفنش بفنائهم، إذ كان اعتماده عليهم، وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين وأطلقوا أعنتهم نحوه وقالوا له: قد هزم الله تعالى العدو، فضربت الطبول، ونشرت الرايات، وارتفعت الأصوات بالشهادة، وخففت البنود، وتشاليت لقتال أعداء الله تعالى الأبطال والجنود، وزحف أمير المؤمنين بجيوش الموحدين قاصداً لقتال أعداء الله الكافرين، فتسابقت الخيل وأسرع الرجال وقصدوا نحو الكفرة للطعان والنزال،

فبينما الفنش اللعين عدو الله قد عزم وهم أن يحمل على المسلمين بجميع جيوشه، ويصطدمهم بجنوده وحشوده، إذ سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض، والأبواق قد أطبقت الربا والبطاح، فرفع رأسه لينظر نحوها، فرأى رايات الموحدين قد أقبلت، واللواء الأبيض المنصور في أولها عليه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله لا غالب إلا الله. وأبطال المسلمين قد تسابقت، وجيوشهم قد تنافست وتنابت، وأصواتهم بالشهادة قد ارتفعت، فقال: ما هذا؟ فقيل له: يا لعين هذا أمير المؤمنين قد أقبل، وما قاتلك هذا اليوم كله إلا طلائع جيوشه ومقدمات عساكره، فقذف الله عز وجل الرعب في قلوب الكافرين، وولوا الأدبار منهزمين، على أعقابهم ناكسين، وتلاحقت بهم فرسان المجاهدين يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتفون آثارهم ويمكنون فيهم رماحهم وشفارهم، ويروون من دمائهم للسيوف، ويذيقونهم مرارة الختوف، وأحاط المسلمون بحصن الأراك، ويظنون أن الفنش لعنه الله قد تحصّن فيه، وكان عدو الله قد دخل فيه على باب وخرج على باب من الناحية الأخرى، فدخل المسلمون الحصن بالسيف عنوة وأضرمو النيران في أبوابه واحتوا على جميع ما كان فيه، وفي محلة النصرى من الأموال والذخائر والأرزاق والأسلحة والعدد والأمتعة والدواب والنساء والذرية، وقتل في هذه الغزوة من الكفرة ألوف لا تعد ولا تحصى ولا يعلم أحد عددها إلا الله تعالى وأخذ في حصن الأراك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسارى، فامتن عليهم أمير المؤمنين وأطلقهم بعد ما ملكهم، لتكون له ذلك يد الامتنان، فعزّ فعله ذلك على جميع الموحدين وعلى كافة المسلمين، وحسبت له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك، وكانت هذه الغزوة الكريمة والوقعة العظيمة يوم الأربعاء الثاني من شعبان المكرم سنة إحدى وتسعين وخمسمئة، وكان بين غزوة الأراك وغزوة الزلاقة مئة سنة واثنتي عشرة سنة، والأراك من الغزوات المذكورة المشهورة في الإسلام، وهي

أعظم غزوات جرت على يد الموحدين أعز الله تعالى بهم الإسلام وعلت كلمتهم، وكتب المنصور بالفتح إلى جميع بلاد الإسلام التي تحت يده من الأندلس والعدوة وأفريقية، وأخرج مُحمس الفيء، وقسم الباقي على المجاهدين، ثم سار بجيوشه في بلاد النصرى يخرب المدن والقرى والحصون ويغنم ويسبي ويقتل، وسار حتى وصل إلى جبل سليمان، ثم أدلف راجعاً وقد امتلأت أيدي المسلمين بالغنائم، ولم يعارضه من الروم معارض حتى وصل إلى أشبيلية فدخلها، وشرع في بناء جامعها الكبير ومنارها العظيم.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسة فيها خرج أمير المؤمنين إلى غزوته الثالثة ففتح قلعة رياح ووادي الحجارة ومحويط وجبل سليمان وأفيج وعشير من أحواز طليطلة نزل على طليطلة وبها الفنش، وحاصره وضيق عليه، وقطع ماءها وأحرق رياضتها وهتكها، ونصب عليها المجانيق، ثم ارتحل عنها إلى مدينة ظلمنكة فدخلها عنوة بالسيف، فلم يجي أحداً من رجالها وسبي نساءها وغنم أموالها وحرقها وهدم أسوارها، وتركها قاعاً صفصفاً ورجع إلى أشبيلية بعد أن فتح حصون كثيرة بأسرها، وفتح البلاط وترجالة، فدخل أشبيلية، في غرة صفر من سنة ثلاث وتسعين وخمسة، فأخذ في إتمام بناء الجامع وتشيد مناره وعمل التفافيح من أملح ما يكون، ومن أعظمه، لا أعرف له قدراً إلا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها، وزنة العمود الذي ركب عليه أربعون ربعا من الحديد، وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلي، وموهت تلك التفافيح بمئة ألف دينار ذهباً، وكان لما جاز إلى الأندلس لغزوة الأراك المذكورة أمر ببناء قصبة مراکش وبالجامع المكرم الذي يازائها وصومعته وبيناء منار جامع الكتبيين، وبناء مدينة رباط الفتح من أرض سلا وبيناء جامع حسان، ولما كمل جامع أشبيلية وصلّى فيه، أمر ببناء حصن الفرج على واد أشبيلية

وارتحل إلى العدو فوصل إلى مراکش في شعبان من سنة أربع وتسعين وخمسمئة، فوجد كل ما أمر به من أنواع البناء قد تم مثل القسبة والقصور والجامع والصوامع، ونفق في كل ذلك من أخماس غنائم الروم، وكان قد غير على الوكلاء والصناع الذين تولوا ذلك واكتفلوه، وقيل له أنهم أكلوا المال وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم، فلما دخله أمير المؤمنين أعجبه وسرّ به، فسأل عن عدة أبوابه، فقيل له: إنها سبعة، والباب الذي يدخل منه أمير المؤمنين هو الثامن، فقال: عند ذلك لا بأس بما يقال لي: إذا قيل حسن وفرج به غاية، ولما وصل أمير المؤمنين إلى مراکش واستقر بها أخذ البيعة لولده أبي عبد الله الملقب بالناصر لدين الله، فبايعه كافة الموحدون وبويع له في جميع أقطار بلادهم وطاعتهم، وكانت طاعتهم قد عمّت الأندلس بأسرها والمغرب كله وأفريقية من طرابلس إلى نون من السوس الأقصى إلى الصحراء من بلاد القبلة، وما بين هذه البلاد من القرى والحصون والمعازل والمدن والجبال والأودية، وأهل العمود من عرب وبربر كلهم مدعين طائعين لأمرهم، منقادين لحكمهم، يجبون لهم خراجهم وزكاتهم وأعشارهم، يخطبون لهم على منابرهم فلما تمت البيعة لأبي عبد الله الناصر، وقعد في محل الخلافة وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه في حياة أبيه دخل المنصور إلى قصره، فلزمه وبداه به المرض الذي توفي منه، ولما اشتد به المرض قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاثة، وددت أني لم أفعلها أولها إدخال العرب من أفريقية إلى المغرب، لأنني أعلم أنهم أصل الفساد، والثانية بنا رباط الفتح أنفقت فيه من بيت المال، وهو بعد لا يعمر، والثالثة: إطلاقي أساري الأراك ولا بد لهم أن يطلب بثأرهم وتوفي المنصور - رحمه الله - بعد العشاء الآخرة من ليلة الجمعة الثاني والعشرين لربيع الأول عام خمسة وتسعين وخمسمئة بقسبة مراکش والبقاء لله تعالى وحده لا ربّ غيره ولا معبود سواه.

وكان المنصور - رحمه الله - أجلّ ملوك الموحدين وأكثرهم صيتاً وأحسنهم في الأحوال كلها، ولي الملك واتسق، والمال قد توفر، وكانت له الهمة العالية، والعزائم الملوكية، والدين المتين، والسير الحسنة في المسلمين، رحمه الله تعالى بمنه، وعفا عنه بفضلله وكرمه، أنه غفور رحيم.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين الناصر بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

هو أمير المؤمنين محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ الزناتي الكومي الموحي.

أمه حرة، اسمها: أمة الله بنت السيد أبي إسحاق بن عبد المؤمن بن عليّ.

لقبه: الناصر لدين الله.

نقش خاتمه: على الله توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل.

علامته في الأوامر: الحمد لله وحده.

صفته: أبيض، تام القدّ، نحيل الجسم، مليح العينين، أدعج وافر اللحية كبير الهامة، غليظ الحواجب لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد، معجب برأيه، مستبدّ في أموره وتدير مملكته بنفسه.

وزراؤه: ابن الشهيد، وابن مثني.

حاجبه: وزيره الأكبر أبو سعيد بن جامع استبد بالوزارة والحجابة، وبويع الناصر في حياة أبيه، وتجددت له البيعة بعد وفاته، وذلك يوم الجمعة، صبيحة الليلة

التي توفي فيها أبوه، وأخذت له البيعة في جميع أقطار طاعة الموحدين، وخطب له ودعى على المنابر، فأقام بحضرة مراكش بقية شهر ربيع الأول وربيع الثاني، وخرج في أول جمادي الأولى من سنة خمس وتسعين المذكورة قاصداً إلى مدينة فاس، فوصلها وأقام بها إلى آخر خمس المذكورة، فخرج منها إلى جبال غمارة، فغزى بها علودان الغماري الثائر بها، ورجع إلى مدينة فاس، فأقام بها وبنى قصبتها وأسوارها التي كان خربها جده عبد المؤمن حين دخلها، ولم يزل قائماً بها إلى سنة ثمان وتسعين، ووردت عليه الأخبار من أفريقية أن الميورقي قد غلب على كثير من بلادها، فخرج الناصر من مدينة مراكش قاصداً إلى أفريقية، فوصل إلى جزائر بني مزغنة، فأخذ في تجهيز الأساطيل والعساكر لقتال مدينة ميورقة حتى فتحها، وانتزعها من يد المرابطين، وكان فتحها في ربيع الأول من سنة ستمئة، ووصل أهلها إلى أمير المؤمنين الناصر فسلموا عليه وبايعوه، فعفا عنهم ووصلهم على قدر طبقاتهم، وتكلم إليهم الجميل وقدم على قضاء ميورقة الإمام المحدث عبد الله بن حوط وارتحل الناصر في بلاد أفريقية يطوف على جميع أقطارها، ويتفقد أحوال أهلها، وفرّ المايورقي أمامه حتى دخل الصحراء وارتحل إلى المهديّة، وقد طاع له جميع من قد خرج عليه بأفريقية دون قتال إلا المهديّة، وحدها فإن وليها امتنع فيها، وكان قد ولاه إياها يحيى المايورقي، حين غلب عليها وكان هذا الوالي حاجاً شهماً عالمياً بوجوه الحرب ومكائده، فنزل عليه الناصر بظاهر المهديّة، وحاصره بها براً وبحراً، ونصب عليه المجانيق والرعدات، وكانت قبائل الموحدين وجنود المغرب يتناولون قتالها مع ساعات الليل والنهار، فأظهر هذا الحاج المذكور بها مكائد الحرب وخدعه ما يقصر عنه الوصف؛ فحاصره الناصر مدة طويلة وأشهر عديدة، وكان الموحدون يسمونه الحاج الكافر، ونصب عليه الناصر منجنيقاً كبيراً لم يعلم مثله عظماً، يرمي مئة ربع، فهدم البلد به، فوقع الحجر من المنجنيق في وسط دفة باب المهديّة، فأطوى وسطه

والدقة من الحديد كله قائمة على قاعدة من زجاج أخضر، وفي مواضع العثرات تماثيل أسد من نحاس أصفر، فلما رأى ذلك الحاج والي المهدية علم أنه لا طاقة له بضبطها، ولا بموافقة أمير المؤمنين، فبايعه وأسلم إليه المهدية، فأمنه الناصر وأكرمه كرامة عظيمة، وأنزله منزلة رفيعة، وذلك لما رأى منه لمراعاته لصاحبه واجتهاده في حقه، وأمر الموحدون أن يسموه الحاج الكافي، وكان فتح المهدية سنة إحدى وستمئة، وفي سنة اثنتين وستمئة ولي أمير المؤمنين الناصر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص جميع بلاد أفريقية، وارتحل إلى المغرب، فلما وصل إلى واد شلف خرج عليه يحيى المايورقي في جيش عظيم من العرب وصنهاجة وزناتة، فقاتلا قتالاً شديداً هزم فيه المايروقي هزيمة عظيمة، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الأول سنة أربع وستمئة، وفيها أمر أمير المؤمنين الناصر، ببناء مدينة وجدة فشرع في بنائها في مهل رجب من السنة المذكورة، وفيها بنا السور على المزمة من بلاد الريف وبنيت قصبة بادس، وفي شوال من السنة أربع المذكورة خرج أمير المؤمنين من مدينة فاس إلى حضرة مراکش بعد أن أمر بعمل الساقية، بعدوة الأندلس منها وجلب الماء من عين بخارج باب الحديد، وبنى الباب الجوفي المدرج الذي بالصحن من جامع الأندلس شرفه الله بذكره وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة من بيت المال، وفيها بنى مصلى عدوة القرويين، وأمر أن لا يصلي بمصلى الأندلس، فأقام الناس يصلون بعدوة القرويين ثلاث سنين، ثم عادوا يصلون بالأندلس والقرويين كما كانوا، بعد أن شهد أنها قديمة، فأقام الناصر بمدينة مراکش سنة خمس وستمئة وسنة ست بعدها، فاتصلت به الأخبار من الأندلس أن الفنش -لعنه الله- يفتك في بلاد الإسلام، ويضرب على قرأها وعلى حصونها يقتل الرجال، ويسبي النساء والأموال، فاستغاث أهلها بالناصر أمير المؤمنين، فأخذ في الحركة للجهاد وفرق الأموال على القواد والأجناد، وكتب إلى جميع بلاد المغرب، وأفريقية وبلاد

القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار، فأجابه خلق كثير، وألزم كل قبيلة من قبائل المغرب حصّة خيلاء ورجالاً يخرجون معه للجهاد فقدمت عليه الجيوش من سائر الأمصار، وتسارع الناس حوله خفافاً وثقلاً من الآفاق والأقطار، فلما تكاملت لديه الوفود واستوفت عليه الجنود والحشود، خرج من حضرة مراکش فى التاسع عشر لشعبان المكرم سنة سبع وستمئة حتى وصل إلى قصر الجواز، فنزل به وأخذ فى تجويز الناس، فأقام بقصر الجواز يحوّز العساكر والقبائل والخيّل والعدد من أول شهر شوال إلى آخر شهر ذي قعدة من سنة وسبع وستمئة، فلما تكامل المجاهدون بالجواز جاز هو فى أثرهم، فنزل بساحل طريف، وذلك فى يوم الاثنين الخامس والعشرين لذي القعدة المذكور، فتلّقاء هنالك جميع قادة الأندلس وفقهاؤها وصلحاؤها، فسلموا عليه وأقام بطريقه ثلاثة أيام وارتحل إلى أشبيلية فى جيوش لا تحصى وأمم كالجراد المنتشر قد ملأت السهل والوعر، وضاق بهم المتسع والنجد والغور، فأدرك الناصر الإعجاب بما رأى من كثرة جنوده، فقسم الناس على خمس فرق فجعل العرب فرقة، وزناتة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل بلاد المغرب فرقة، والمطوعة فرقة، وكانوا مئة وستين ألفاً بين فارس وراجل وقادة الأندلس وحشودها فرقة، والموحدون فرقة، وأمر كل فرقة تنزل ناحية، فوصل الخبر إلى أشبيلية فى السابع عشر من ذي الحجة عام سبعة المذكور، فأقام بها واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ووقع خوفه فى قلوب ملوكهم، وأخذوا فى تحصين بلادهم، وأخلا ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم، وكتب إليه أكثر أمرائهم يستلونه سلامتهم، ويطلبون منه عفوه، وجاءه منهم ملك بيونة مستسلماً خاضعاً مستصغراً يطلب صلحه ويستل منه عفوه وصفحه.

ولما سمع هذا اللعين بدخول أمير المؤمنين إلى أشبيلية أدركه الخوف فبادر إلى المداراة عن نفسه وبلاده، فبعث رسوله إليه يستأذنه فى القدوم إليه فأذن له أمير

المؤمنين في الوصول، وكتب إلى كل بلد من بلاد الأندلس هو على طريق هذا اللعين إذا مر بهم يضيفونه ثلاثة أيام، فإذا عزم على الرحيل في اليوم الرابع يجسسون عندهم من جيشه ألف فارس، فخرج هذا اللعين من قاعدة ملكه بجيوشه قاصداً وداخلاً إلى أمير المؤمنين، فكان إذا وصل إلى بلد من بلاد المسلمين تلقاه قادتها وأجنادها، وبرز عليه أهلها في أكمل عدة وأحسن هيئة، وأضافوه ثلاثة أيام خير ضيافة، فإذا كان يوم رحيله حبسوا له ألف فارس من جيشه، فلم يزالوا يفعلون ذلك به حتى وصل مدينة قرمونة، ولم يبق معه من جيشه غير ألف فارس فأقام في ضيافة أهلها ثلاثة أيام فلما أراد الرحيل في الرابع حبست الألف الفارس الباقية معه فقال لقاتها: كيف تمسكون بها، وما بقي لي مع من أسير غيرها؟ فقالوا له: تسير في ذمة أمير المؤمنين، وتحت ظلال سيوفه، فخرج لعنه الله من قرمونة في خاصته وزوجته وخدامه وهديته، التي قدم بها إلى الناصر، وقدم بين يديه كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي كان كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به، ويعلمه أن الملك عنده موروثة كابرًا عن كابر، وكان هذا الكتاب عندهم يتوارثونه محفوظًا مطيئًا في حلة خضراء في وسط صندوق من ذهب علوا مسكنًا تعظيماً له وإجلالا لحقه وأمر أمير المؤمنين الناصر أن يجعل له بروزا من باب مدينة قرمونة إلى باب أشبيلية، فاصطفت الخيل والرجال أمامها عن اليمين والشمال صفين بالثياب الحسنة والعدة الكاملة والسيوف المضية والرماح المشرعة، والقسي الموثورة من قرمونة إلى أشبيلية أربعين ميلاً ونحوها، فخرج ملك بيونة يمشي تحت ظلال سيوف المسلمين ورماحهم، فلما قرب من أشبيلية أمر أمير المؤمنين الناصر بالقبعة الحمراء أن تضرب له بخارج المدينة؛ مما يلي قرمونة ويجعل له فيها ثلاثة مراتب ثم سأل عمن يحفظ لسان العجمية من القادة ف قيل له: أبو الجيوش! عسكر. فأمر بإحضاره، فحضر بين يديه، فقال له: يا أبا الجيوش إن هذا الكافر قد قدم عليّ ولا بد من إكرامه فإن قمتُ

له عن مجلسي إذا دخل كنت قمت خالفت السنة في قيامي لرجل كافر بالله تعالى وإن قعدت ولم أقم له كنت مقصرًا في حقه، وملك كبير، وضيف وارد ودخيل قاصد ولكنني أمرت أن تقعد في المرتبة التي في وسط القبة فإذا دخل العلج من باب القبة دخلت أنا له من الباب المقابل له فتقم أنت فتأخذ بيدي وتقعدني على يمينك، وتأخذه بيده أيضًا فتقعه عن شمالك ثم تكون بعد هذا تترجم بيننا، فقعد القائد أبو الجيوش في وسط القبة فلما دخلا عليه أقعد الناصر عن اليمين وملك بيونة عن الشمال، ثم قال له: هذا أمير المؤمنين فسلم عليه، ثم تكلم ما يجب وتحدثا مليًا، ثم ركب أمير المؤمنين وركب ملك بيونة متأخر عنه قليلًا وركب الموحدون وجيوش المجاهدين، وحشر الناس ضحى، وصنع أهل أشبيلية بروزًا عظيمًا، وكان من الأيام المشهورة، فدخل الناصر أشبيلية وملك بيونة على إثره قريبًا منه، فأنزله بداخل المدينة، وأعطاه تحفًا جليلة وصالحة صلحًا مؤبدًا ما دامت دولة الموحدين، ولعقبه ثم صرفه إلى بلاده مكرمًا مسعفًا، بجميع مطالبه وخرج الناصر في إثره قاصدًا لغزو بلاد قشتالة، وذلك في أول يوم من صفر سنة ثمان وستمئة فصار حتى نزل حصن سريطوة، وهو حصن عظيم على رأس جبل عالٍ قد تعلق بعنان السماء، ليس له مسلك إلا طريق واحد في أوعار ومضائق، ونزل عليه وأدار به الجيوش وأخذ في قتاله ونصب عليه أربعين منجنيقًا فهتك أرياضه ولم يقدر منه على شيء.

وكان وزيره أبو سعيد بن جامع لم يكن شريفًا النسب في الموحدين، فلما ولي حجابة الناصر، ووزارته أخذ يقهر أعيان الموحدين ويهين الأشراف منهم، حتى فر من بساط الناصر كثير من الأشياخ الذين قام الأمر بهم، فانفرد هو بالخدمة هو ورجل معدل يعرف بابن منسا، فكان الناصر لا يقطع أمرًا إلا بمشاورتهما، فلما أمر الناصر بهذا الحصن يريد قشتالة تعجب من منعه فقلا له: يا أمير المؤمنين لا تتجاوزته حتى نفتحه فيكون أول الفتح إن شاء الله تعالى. ويقال: أنه أقام على ذلك

الحصن حتى عشن الخُطّاف في خبائه وباض وأفرخ وطار فراخه من طول مقامه، فأقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر ودخل فصل الشتاء، واشتد البرد، وقلّت العلوفات، وفنيت أزواد الناس، ونفدت نفقاتهم، وكلّت عزائمهم، وفسدت نياتهم التي قصدوا بها للجهاد، وقنط الناس من المقام، وتقطعت المدد من المحلة، فغلت الأسعار، فلما تحقق عدو الله الفنش ذلك كله وعلم أن شوكة المسلمين قد تكسرت، والجدّة التي قدموا بها قد خمدت، فانفجر لطلب الثأر ورفع صلبانه سعارًا في جميع بلاد الكفار، فجاءت ملوك الروم في جيوشهم مستعدين في غاية الاستعداد، وقد شمروا للطعان والجلاد، وأقبلت نحوه عباد شتمربة وأطهر حمية الجاهلية، فلما أشرفت على الفنش جيوشه وحشوده وتكاملت لديه وفوده، أقبل في جيوشه حتى نزل ثغراً من ثغور المسلمين تسمى قلعة رياح كان فيها القائد الأجل المشهور البطل الشجاع المذكور أبو الحجاج بن قادس في سبعين فارساً من المسلمين يضبط بهم ذلك الثغر، فحاصره وشرع في قتاله وضيق عليه تضيقاً كثيراً وابن قادس صابر لقتاله يبعث في كل يوم كتاباً إلى أمير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستنصره على أعدائه، وهو على أشد حصره، فكانت كتبه إذا وصلت الوزير حبسها ولم يطلع عليها أمير المؤمنين لئلا يقلع عن الحصن قبل أن يفتحه، وكان ذلك غشاً منه لأمر المؤمنين الناصر ولجميع المسلمين؛ فإنه لم يكن يخبره بشيء من أخبار بلاده ولا من أمور رعيته، ويخفى عنه مهمات الأمور التي لا ينبغي أن يغفل عنها ولا يتناول بها، فلما طال الحصار على ابن قادس وفني ما كان عنده بالحصن من الأقوات والسهام ويئس من الإعانة، وخشي أن يدخل الحصن على من به من المسلمين والعيال والذرية، فأسلمه إلى الفنش على أن يسلم جميع من فيه من المسلمين فلما خرج المسلمون من حصن قلعة رياح وملكه العدو وسار ابن قادس إلى أمير المؤمنين فتبعه صهره وكان مثله في النجدة فعزم عليه ابن قادس أن يرجع ويتركه وحده، فقال له: ارجع فأنا

والله مقتول لا محالة، ولا أعيش بعد هذا أبدًا، ولكنني بعت نفسي من الله تعالى بسلامة من كان في الحصن من المسلمين. فأبى أن يرجع، وقال له: لا خير في الحياة بعدك. فلما وصلا إلى محلة الناصر تلقاهما قادة الأندلس يسلمون عليهما، فاتصل خبرهما بابن جامع الوزير فخرج إليهما مسرعًا وأمر العبيد أن ينزلوهما بالحتف فأنزلا وكتفا ثم دخل على الناصر، فقال له ابن قادس: ندخل معك فقال: لا يدخل على أمير المؤمنين فاجر، ثم دخل فأغوى الناصر بهما حتى أمر بقتلهما فخرج فأمر عليهما بالرماح فقتلا في الحين. فحمد الناس عند قتلها وحقدوا على الناصر وانفسدت نيات قادة الأندلس، فخرج الوزير ابن جامع إلى قبّات الساقة، فأمر بإحضار قادة الأندلس، فأحضروا بين يديه، فقال: اعتزلوا من جيش الموحدين فلا حاجة بنا إليكم، كما قال الله تعالى: {لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم} وسينظر بعد هذه المغافلة في أمر كل فاجر.

فلما سمع الناصر بإقبال الفنش إليه وتملكه قلعة رياح التي هي أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه حتى امتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة التغير لذلك، ثم شدّ في قتال سريطة وبذل الأموال الجلييلة في حقها حتى فتحها صلحًا، وذلك في آخر ذي حجة من سنة ثمان وستمئة، فلما سمع الفنش أن الناصر قد فتح سريطة تحرك نحوه بجميع من كان معه من ملوك الروم وحشودهم، فاتصل خبر قدومه بالناصر، فقصده إلى لقائه بجيوش المسلمين والتقى الجمعان بموضع يسمى بحصن العقبان فكانت المواجهة به فضربت القبة الحمراء المعدة لقتال الأعداء على رأس ربوة، وأتى الناصر حتى نزل بها وقعد على درفته وفرسه أمامه، ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية كلهم بالسلاح والعدد، ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير أبي سعيد بن جامع، فأقبلت إليهم جيوش الروم على مصافها كأنهم الجراد المنتشر فتلقاهم المطوعة وحملوا عليهم أجمعين، وكانوا مئة وستون ألفًا فغابوا

في صفوفهم فانطبقت عليهم جيوش الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر المسلمون صبراً جميلاً فاستشهد المطوعة عن آخرهم وعساكر الموحدين والعرب وقادة الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد، فلما فرغ الروم من المطوعة حملوا على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة فلما نشب القتال بين الفريقين فرّ قادة الأندلس وحشودهم لما كانوا حقدوه في قلوبهم من قتل ابن قادمس وتهديد ابن جامع لهم وطرده إياهم، فلما رأى الموحدون والعرب وقبائل البربر أن المطوعة قد قتلوا وجيوش الأندلس قد فروا، وكثر القتال فيمن بقي وتكاثر عليهم الروم انهزموا أمامهم وكشفوا عن الناصر وركبهم الروم بالسيف حتى وصلوا إلى الدائرة التي دارت على الناصر من العبيد والحشم فوجدوها كالبنيان المرصوص فلم يستطيعوا دخولها فردوا أكفال الخيل المدرعة إلى رماح العبيد، وهي منصوبة إليهم، فدخلوا فيها، والناصر قاعد على درفته أمام أحبائه فيقول صدق الرحمن وكذب الشيطان، وهو في مكانه لا يتزحزح حتى كادت الروم أن تصل إليه، وقتل حوله من عبيد الدائرة ما يزيد على عشرة آلاف عبد فأقبل إليه أعراق على فرس أنثى فقال له: إلى متى قعودك يا أمير المؤمنين؟ قد نفذ حكم الله وتم مراده وفني المسلمون. فحينئذ قام إلى أجود سابق الخيل كان أمامه ليركب فترجل العربي عن الفرس التي كان عليها وقال له: اركب على هذه النحرة، فإنها لا ترضى بعار. فلعلّ الله عز وجل أن يسلمك عليها فإن في سلامتك للخير كله. فركبها الناصر وركب العربي جواده، وتقدم أمامه في دبابة عظيمة من العبيد دائرة بهم والروم في أعقابهم، وبقي القتل في المسلمين إلى الليل وتحكمت فيهم سيوف الروم فاستأصلوهم حتى فني جميعهم ولم ينج منهم إلا الواحد من الألف، ونادى منادي الفنش لا أسارى إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره، ولم يأسر العدو في هذه الواقعة أحداً من المسلمين، وكانت هذه الكائنة المليمة والرزية العظيمة يوم الإثنين خامس عشر من صفر، وهي سنة

تسع وستمئة، فذهبت قوة المسلمين بالأندلس من تلك الهزيمة، ولم تنصر لهم راية بها، واستطال العدو عليها، فملك معاقلها واستحوذ على أكثر بلادها حتى كاد أن يملك جميعها، لولا أن الله عز وجل تداركها بجواز أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق - رحمه الله ورضي - عنه فأحيا ديارها، وأقام منارها، وغزا بلاد الكفرة فدمرها، لما فرغ الفنش لعنه الله من وقعة العقاب سار إلى مدينة أبرة، فدخلها على المسلمين بالسيف عنوة، فلم يحيي بها كبيراً ولا صغيراً ومن بعدها لم يزل يملك الأندلس بلداً بعد بلد حتى استولى على جميع قواعدها، ولم يبق بأيدي المسلمين منها إلا القدر اليسير، ولم يوقفهم على أخذ تلك الفينة إلا حماية الله عز وجل لها على يد الدولة المرينية، خلد الله ملكها، ويقال أنه لم يبق من ملوك الروم الذين حضروا وقعة العقاب ودخل أبرة أحد إلا مات في تلك السنة بعينها، ولما وصل الناصر من هزيمة العقاب قدم إلى أشبيلية، فدخلها في العشر الأواخر من ذي حجة من العام المذكور، وكان الناصر قد أدركه الإعجاب في هذه الغزوة، وأشهد بكثرة جيوشه وجنوده وتوفر حشوده، لأنه اجتمع له في تلك الحركة من المقاتلين خيول ورجال ما لم يجتمع لملك قبله، كان في عسكره من المتطوعة مئة وستون ألفاً بين فارس وراجل، ومن الرجال المحشدة ثلاثمئة ألف رجل، ومن العبيد الذين يمشون بين يديه في الحرب ويدورون حوله ثلاثون ألف عبد، ومن الرماة والأغزاز عشرة آلاف دون المرتزقة، من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم؛ فاعتمد على كثرة جنوده وظن أن لا غالب له من الناس، فأراه الله عز وجل تلك الآية، ليعلم أن النصر من الله تعالى والقدرة والحول والقوة بيد الله سبحانه.

ولما دخل الناصر مراکش عند انصرافه من العقاب أخذ البيعة لولده السيد أبي يعقوب يوسف الملقب بالمتنصر، فبايعه كافة الموحدين، وخطب له في جميع منابرهم في العشرة الآخرة من ذي حجة من سنة تسع وستمئة، ولما تمت البيعة دخل الناصر

قصره فاحتجب فيه عن الناس وانغمس في لذاته، فأقام فيه مصطبحاً ومغتبقاً إلى شهر شعبان المكرم من سنة عشر وستمئة، فمات مسموماً بأمر وزارئه، دسوا إليه من يسمه من جواريه في كأس خمر فمات من حينه، لأنه كان قد عزم على قتلهم فعاجلوه قبل ذلك، فكانت وفاته يوم الأربعاء الحادي عشر لشعبان من عام عشرة وستمئة بقصره من قصبة مراکش، فكانت دولة أيامه خمسة آلاف يوم وأربعمئة يوم وحدًا وخمسين يومًا، يجب لها من السنين خمس عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يومًا، أولها يوم الجمعة الثاني والعشرين لربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمئة، وهو الذي بويع فيه بعد وفاة أبيه وآخرها يوم، الثلاثاء، العاشر لشعبان من سنة عشر وستمئة وهو الذي توفي فيه مسموماً في إناء من خمر.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر بالله بن الناصر بن المنصور بن يوسف بن علي

هو أمير المؤمنين يوسف بن أبي عبد الله الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف الشهيد بن عبد المؤمن بن عليّ الزناني الكوم.

أمه: فاطمة بنت السيد أبي علي بن يوسف بن عبد المؤمن.

لقبه: المنتصر بالله، كنيته أبو يعقوب.

صفته: شاب السن، حسن القد، أزهر اللون، جميل الصورة، أقنى الأنف، سبط

الشعر.

كُتبه: كتاب أبيه.

وزراؤه: أعمامه.

هم الذين كانوا يدبرون الدولة مع الأشياخ؛ لأنه كان حين بويع صغير السن كما راهق الحلم لا حُنْكة له ولا تجربة ولا معرفة بالأمر، فأقام أشياخ الموحدين دولته مع أشياخ العادة من أعمامه، فاستقرت خلافته لأجل ذلك، ولم يتنازع عليها، ولم يغزُ في أيامه، ولم يقدر عليه، وكانت أوامره لا تمتثل، وكل من ولي بلدًا عمل فيه برائه واستبد فيه بأمره، فضعفت دولة الموحدين في أيامه، واعتراها النقص، وأخذت في الأدبار، إلا أن أيامه كانت أيام هدنة ودعة وعافية، فلما كبر واشتغل بأمره ونهيه، واستبد بملكه جعل يفرق أعمامه وحواليه الذين أقاموها وأشياخ الموحدين الذين أسسوها، وقرب أناسًا، وتمسك بهم لم يكن لهم أصل فيها فبعث إلى الأندلس أبا محمد عبد الله بن المنصور وولاه بلنسية وشاطبة، وولي عمه أبا محمد عبد الله بن المنصور مرسية ودانية وأحوازها، وبعث معه الشيخ أبا زيد بن برجان، وكان من أشياخ الموحدين ودهاتهم، وبعث عمه أبا العلا الكبير إلى أفريقية لمداغة المايورقي، وأبو العلا هو الذي بنا البرجين اللذين على باب المهديّة وحصنها وهو الذي بني برج الذهب بأشبيلية أيام ولايته عليها في حياة أبيه، فأقام بأفريقية مدة ثم عزله عنها، وولي مكانه عليها الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص.

وفي سنة أربع عشرة وستمئة هزم المسلمون بقصر أبي دانس، وهي من الهزائم الكبار التي تقرب هزيمة العقاب، لأن العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره، فخرج جيش أشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الأندلس بأمر أمير المؤمنين يوسف المنتصر لإعانتته واستنقاده، فسار ونحوهم فلم تجتمع العين بالعين إلا والمسلمون قد خامر قلوبهم الرعب، وولوا الأدبار، وأخذوا في الفرار لما كان سبق لهم من الرعب في هزيمة العقاب، وكان العدو قد تكالب وقوي واستأنس فركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم، ورجع الفئش إلى قصر أبي دانس فحاصره حتى دخله بالسيف وقتل كل من به من المسلمين، وفي سنة عشرين وستمئة توفي

أمير المؤمنين يوسف بمراكش، وكانت وفاته فجأة ضربته بقرة بقرنها على قلبه فمات من حينه، فإنه كان مولعاً بالبقر والخيول، كان يؤتي بالبقر من الأندلس فينتجها في رياضه الكبير من حضرة مراكش، فخرج في عشي اليوم الذي توفي فيه لينظر إليهن، وكان قد ركب فيشاً فمشي به بين البقر، فقصدت إليه بقرة منهن كانت شرودة ضربته فمات من حينه، وذلك في عشية يوم السبت الثاني عشر لذي الحجة سنة عشرين وستمئة، وتوفي ولم يعقب إلا حملاً من جارية، ولم يخرج من حضرة مراكش طول خلافته إلى أن توفي، وكانت أوامره لا تتمثل أكثرها لضعفه وليانته وأدامته على الخلافة، وركونه إلى اللذات، وتفويضه أمور مملكته ومهمات أموره إلى السفلة، أيامه في الملك ثلاثة آلاف يوم وستمئة يوم وخمسة وعشرون يوماً يجب لها من السنين عشرة أعوام وأربعة أشهر ويومان، أولها يوم الأربعاء الحادي عشر لشعبان المكرم من سنة عشر وستمئة وهو اليوم الذي بويع فيه، وآخرها يوم السبت الثاني عشر لذي الحجة سنة عشرين وستمئة، حكاها من شاهد موته ممن أدركه من الثقات.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي محمد عبد الواحد المخلوع رحمه الله تعالى

هو أمير المؤمنين أبو محمد عبد الواحد بن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحي، بايعه أشياخ الموحدين على كره منه بقبة المنصور من قصبة مراكش، وذلك في ضحى يوم الأحد الثالث عشر من ذي حجة سنة عشرين وستمئة، وهو يومئذ في سن الشيخوخة، فكانت خلافته منسوخة، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً متورعاً، فاستقام له الأمر شهرين وخطب له في جميع طاعة الموحدين ما عدا مرسية، فإن ابن أخيه السيد أبو محمد الملقب بالعدل، كان والياً عليها، وكان وزيره بها الشيخ أبو زيد بن برجان المعروف بالأصفر، وكان أحد دهاة الموحدين

كان المنصور إذا رآه يستعيز بالله من شرّه، ويقول: ماذا يجري على يدك من الفتن يا أصفر؟ فلما وصلتته بيعة أمير المؤمنين أبي محمد عبد الواحد إلى مرسية.

قال أبو زيد بن برجان للسيد أبي محمد المنصور إياك أن تباع لعبد الواحد فإنك أحق بالخلافة وأقرب إليها منه، أنت ولد المنصور، وأخو الناصر، وعم المستنصر، ولك الحزم والعقل الراجح والكرم، وحسن السياسة وإصابة الرأي، ولو دعوت الموحدين إلى بيعتك لم يتخلف عليك اثنان، فدع التواني وبادر إلى فسخ أمره قبل التمكين، فخرج اليسد أبو محمد من فوره ذلك إلى مجلس حكمه، وبعث إلى من بمرسية وأحوازها من الموحدين والفقهاء والأشياخ يدعوهم إلى بيعته فبايعوه، ثم كتب إلى أخيه السيد أبي العلا وإلى أشبيلية يدعوهم إلى بيعته فبايعوه، وأخذ له البيئة على أهل أشبيلية ومن فيها من الموحدين، وامتنع سائر البلاد عن بيعته فلما رأى العادل أن الناس قد سبقوا إلى بيعة عبد الواحد كتب إلى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراکش يدعوهم إلى بيعته وخلع عبد الواحد ووعدهم على ذلك بالأموال الجزيلة والمنزلة الرفيعة والولايات العظيمة، فسارعوا إلى ما دعاهم إليه، فدخلوا على أمير المؤمنين عبد الواحد فهددوه وخوفوه بالقتل إلا لن يخلع نفسه ويباع للعادل فأجابهم، إلى ذلك فخرجوا عنه ووكلوا بالقصر من يخوفه، وذلك يوم السبت الحادي والعشرين من شعبان المكرم سنة إحدى وعشرين وستمئة، فلما كان في اليوم الأحد الثاني إذ دخلوا عليه القصر وأحضروا القاضي والفقهاء والأشياخ، فأشهد على نفسه بالخلع وبإيع للعادل، ثم دخلوا عليه بعد ثلاثة عشر يومًا من خلعه فخنقوه حتى مات وانتهبوا قصره وأخذوا أمواله وسبوا حريمه وهتكوا ستره، فكان أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن، ولم يكن ذلك فيمن تقدم من ملوكهم، ورجع أشياخ الموحدين كالأتراك لبني العباس، فكان فعلهم ذلك سببًا لخراب دولتهم وذهاب سلطنتهم وقتل ملوكهم وأشياخهم، وهو أول باب فتحه القوم على

أنفسهم للفتنة، وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع ليلة الأربعاء الخامس من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وعشرين وستمئة، فجميع دولته مائياً يوم واثنان وأربعون يوماً يجب لها من السنة ثمانية أشهر وخمسة أيام أولها الأحد وآخرها السبت الذي خلع فيه.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي محمد عبد الله العادل رحمه الله تعالى

هو أمير المؤمنين عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ الكومي لقبه العادل في أحكام الله تعالى.

كنيته: أبو محمد أمه أم ولد رومية من سبي شنترين.

اسمها: سر الحسن.

صفته: أبيض اللون، تام القد، نحيل الجسم، أشهل العينين أقنى الأنف خفيف العارضين حازم في أموره موثر هواه على دينه بويع له بيعة أولى بمرسية في نصف صفر من سنة إحدى وعشرين وستمئة، وخلص له الأمر واجتمع على بيعته كافة الموحدین ماعدا أهل أفريقية وخطب له بحضرة مراكش وسائر بلاد العدو والأندلس بعد خلع عمه عبد الواحد، وذلك يوم الأحد الثاني والعشرين لشعبان المكرم سنة إحدى وعشرين وستمئة، وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن السيد أبي عبد الله بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب بلنسية وشاطبة ودانية، وكذلك توقف عن بيعته عمال أفريقية الحفصيين واستبدوا لأنفسهم فلم يستقم له أمر، لأجل ذلك ولما رأى السيد أبو محمد بن السيد أبي عبد الله بن يوسف أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعته العادل، وهبط بلاده قام هو أيضاً ببيلسة ونكث بيعة العادل ودعى لنفسه، ودعاه أهل بياسة وقرطبة وجيان وقيجاطة، وحصن الثغر الأوسط وسمي الياسي،

لقيامه من بياسة، فوقعت الفتن في بني عبد المؤمن وابتدأت فيهم المحن، فبعث إليه العادل أخاه السيد أبا العلا في جيوش كثيفة، فحاصره ببياسة فلما اشتد عليه الحصار صالحه مكرًا منه، وباع العادل، فلما ارتحل عنه أبو العلا عاد إلى نكته وبعث إلى الفنش ليستنصر به على العادل على أن يطع به بياسة وقيجاطة، فكان أول من سن إعطاء البلد والحصن للروم، فبعث إليه الفنش جيشًا من عشرين ألف فارس، فلما وصله الجيش جمع خيله وحشده وخرج من قرطبة يريد أشبيلية حتى قرب منها، فخرج إليه السيد أبو العلا أخو العادل في جيش من الأجناد والحشود، فالتقى الجمعان وتقاتلا قتالًا شديدًا، هزم فيه السيد أبو العلا واحتوى البياسي والروم والذين معه على جميع ما كان في محلته من سلاح ودواب وغير ذلك.

فلما رأى العادل أن جيشه قد هزم وقتل جنوده خاف أن يتغلب عليه البياسي ويفوته مقصوده من الخلافة فجاز من الأندلس إلى العدو، فوصل مراكش واستقر في قصر الخلافة وفوض أمر الأندلس إلى أخيه أبي العلا، فأقام أبو العلا عاملاً للعادل على الأندلس إلى شهر شوال من سنة أربع وعشرين، فنكث بيعة العادل، وأقام عليه ودعا لنفسه، وتلقب بالمأمون، فبايعه أهل أشبيلية وجميع بلاد الأندلس، فلما تمت بيعته بالأندلس كتب إلى الموحدين بمراكش يعلمهم باجتماع بلاد الأندلس ومن بها من الموحدين على بيعته وخلع أخيه العادل، ويدعوهم مع ذلك إلى بيعته والدخول في طاعته، ووعدهم ومناهم فكان منهم من تردد في أمره، ثم اجتمع أمرهم على خلع العادل، فدخلوا عليه القصر وسألوه أن يخلع نفسه وامتنع فجعلوا رأسه في خصة تفور بالماء وقالوا له لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع وتبايع لأخيك المأمون، فقال: لهم اصنعوا ما بدا لكم أني لا أموت إلا أمير المؤمنين فجعلوا عمامته في عنقه، وشنقوه بها ورأسه في الحصة حتى مات، وذلك يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شوال من سنة أربع وعشرين وستمئة، وكتبوا البيعة إلى المأمون،

وبعثوا بها إليه مع البريد، ثم بدا لهم في بيعه المأمون بعد انصراف البريد بها، فنكثوا بيعته وبايعوا يحيى بن الناصر، فكانت أيامه من يوم بويع بمرسية إلى أن توفي ثلاث سنين وسبعة أشهر وتسعة أيام.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يحيى بن ناصر ومزاحمته مع عمه المأمون

هو أمير المؤمنين يحيى بن أبي عبد الله الناصر بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي.

كنيته: أبو زكرياء، وقيل: أبو سليمان.

لقبه: المعتصم بالله.

صفته: شاب السن، حسن القد، والوجه آدم اللون، خفيف العارضين أشقر الشعر.

اجتمع أشياخ الموحدين على بيعته بعد بيعتهم المأمون وقتل العادل، وسبب اجتماعهم على بيعته أنهم كتبوا إلى المأمون بالبيعة وبعثوا بها إليه، ثم ندموا وخافوا لما يعرفوه من شهامة المأمون وشدة سطوته، وكونهم قتلوا عمه عبد الواحد المخلوع ثم أخاه العادل، فخافوا أن يطلبهم بثأر من قتلوه من قرابته، فلجئوا إلى يحيى فبايعوه لصغر سنه، فإنه كان يوم بويع ابن ست عشرة سنة، فبايعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وسمئة.

فامتنع من بيعته عرب الخلط وقبائل هسكورة، وقالوا قد بايعنا المأمون فلا ننكث بيعته، فجهّز لهم يحيى جيشاً من الموحدين والأجناد، وبعثهم إلى قتالهم

فهزمهم الخلط، وهسكورة وهم في طاعة المأمون ورجع قل الموحدین منهزمين إلى مراكش بعد أن قُتل منهم خلق كثير، وتوالت في أيامه في عساكره الهزائم، ولما تمت بيعته بمراكش بعث إلى الشيخ أبي زيد بن برجان وابنه عبد الله فضرب أعناقهما وأمر بتعليق رؤوسهما على باب الكحل، وطوف بأجسادهما في المدينة، وأقام يحيى بمراكش شهرًا من ولايته فاضطربت عليه البلاد، وغلت الأسعار، وخيفت الطرق، وفشا الفساد والخراب في المغرب لكثرة الفتن، وعاد أشياخ الموحدین يبعثون في بني عبد المؤمن ويبايعون وينكثون ويخلعون ويقاتلون، فلما رأى يحيى اختلاف الموحدین عليه واضطراب أموره لديهم بسبب بيعه أكثرهم للمأمون خرج فأرًا عن حضرة مراكش إلى تينال، وذلك في شهر جمادي الآخرة من سنة ست وعشرين وستمئة، فقدم من كان بمراكش من أشياخ الموحدین واليًا عليها يضبطها للمأمون، وجددوا له البيعة وكتبوا إليه يخبرونه بفرار يحيى عنها إلى الجبل، ويرغبونه ويسألونه القدوم عليهم، فأقام يحيى بالجبل أربعة أشهر ثم بدا له فرجع إلى مراكش فدخلها وقتل عامل المأمون الذي كان بها، وخرج عنها بعد أن قام بها سبعة أيام، فنزل بجبل أيجلين منتظرًا لقدم المأمون وقاتله، ولم يزل يحيى ينازع المأمون وولده الرشيد إلى أن قتل بفج عبد الله من أحواز رباط تازا قتله عرب المعقل غدرا، وذلك يوم الإثنين الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثين وستمئة، وحمل رأسه إلى الرشيد بمراكش، فجميع دولة يحيى المعتصم ثلاثة آلاف يوم ومئة يوم وسبعة وتسعين يومًا، أولها الأربعاء الذي بويغ فيه، وآخرها الأحد لكونه قتل يوم الإثنين الثاني له، يجب لها من السنين تسعة أعوام وتسعة أيام كلها مزاحمة للمأمون وولده الرشيد.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين أبي العلا بن المنصور الموحد
هو أمير المؤمنين إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن

بن علي.

كنيته: أبو العلاء لقبه المأمون.

أمه: حرة، اسمها: صفية بنت الأمير أبي عبد الله بن مردنيش.

صفته: أبيض اللون، أكحل العينين، معتدل القد، مليح الوجه، فصيح اللسان فقيهاً حافظاً لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - ضابطاً للرواية، عارفاً بالقراءات، حسن الصوت والتلاوة، إماماً في علم اللغة والعربية والمعرفة بالأدب وأيام الناس، كاتباً بليغاً، له التوقيعات العجيبة، إماماً في الحديث لم يزل في أيام خلافته يفري كتاب الموطأ وكتاب البخاري وسنن أبي دواد عالماً، بأمور الدين والدنيا، وكان مع ذلك شهماً حازماً مهاباً شجاعاً مقداماً على عظام الأمور إلا أنه كان سفاكاً للدماء لا يتوقف فيها طرفة عين.

مولده بمالقة سنة إحدى وثمانين وخمسمئة ولي الخلافة والبلاد تضطرم ناراً قد توالى عليها الخراب والفتن والقحط والغلاء الشديد والخوف بالطرقات، وقد تكالب العدو على أكثر بلاد المسلمين بالأندلس وبنو حفص قد استبدوا في أفريقية، وبنو مرين قد دخلوا المغرب، واستحوذوا على جميع بواديه وأخرجوا عليها عمالهم وحفاظهم فلم يدر ما يتلافى من ذلك، فأنشد متمثلاً بهذا البيت:

تكاثر الطباء على خراش فلم يدر خراش ما يصيد
ببيع بيعته الأولى بأشبيلية يوم الخميس ثاني شوال من سنة أربع وعشرين
وستمئة، اجتمع عليه في هذه البيعة جميع بلاد الأندلس وسبتة وطنجة من بلاد
العدوة، فلما كمل له ذلك أرسل إلى الموحدين الذين بمراكش ودعاهم إلى بيعته
والفتك بأخيه العادل فسارعوا لأمره، وقتلوا العادل، وكتبوا إليه ببيعته، وخطبوا

له على منبر جامع المنصور، ثم بدا لهم في ذلك لأمر خافوا منها من أجله، فنكثوا بيعته وبايعوا ابن أخيه يحيى في عشي ذلك اليوم بعينه، فوصلته بيعة الموحدين وهو بأشبيلة، فأمر بها فقرئت على منابر الأندلس ثم أخذ في الحركة إلى حضرة مراکش دار ملكهم فسار حتى وصل إلى الجزيرة الخضراء يريد الجواز منها فاتصل به أن الموحدين قد نكثوا بيعته وبايعوا ابن أخيه يحيى فأطرق ملياً ثم أنشد متمثلاً لقول حسان حين قتل أمير المؤمنين عثمان:

لتسمعن وشيكا في ديارهم يا للرجال إلى ثارات عثمان
ثم بعث من حينه إلى ملك قشتيلة يستنصره على الموحدين ويسأله أن يبعث له جيشاً من الروم يجوز بهم إلى العدو لقتال يحيى ومن معه من الموحدين، فقال له ملك قشتيلة: لا أعطيك جيشاً إلا على شريطة أن تعطيني عشر حصون مما يلي بلادي اختارها لنفسى إذا من الله عليك ودخلت مدينة مراکش تبني للنصارى الذين يسيرون معك كنيسة في وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم أوقات صلواتهم، وإن أسلم أحد من الروم لا يقبل إسلامه، ويردّ إلى إخوانه، فيحكمون فيه بحكمهم، ومن تنصر من المسلمين فليس لأحد عليه من سبيل. فأسعفه في جميع ما طلب منه فبعث إليه بجيش كثيف من اثني عشر ألف فارس من النصارى برسم الخدمة معه والجواز إلى العدو؛ فهو أول من جوز الروم إلى العدو وخدمهم بها، فوصله الجيش في شهر رمضان من سنة ست وعشرين وستمئة، فجاز به إلى العدو واستخلف على الأندلس، وقد اختلفت عليه أحوالها، وبايع أكثر بلادها لابن هود القائم بشرق الأندلس، فجاز من الجزيرة إلى سبتة، وذلك في شهر ذي قعدة من سنة ست وعشرين المذكورة، فأقام في سبتة أياماً ثم خرج إلى مراکش حتى قرب منها فتلقاه يحيى بجيوش الموحدين، وذلك في وقت صلاة العصر من يوم السبت الخامس والعشرين لربيع الأول من سنة ست وعشرين وستمئة، فهزم يحيى وفرّ إلى

الجلل وقتل كثير من جيشه، ودخل المأمون مدينة مراکش، فبايعه الموحدون كافة، فصعد المنبر بجامع المنصور وخطب الناس، ولعن المهدي، وقال: أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالغوي المذموم؛ إنه لا مهدي إلا عيسى، وإننا قد نبذنا أمره النحيس، فلما أتى على آخر خطبته قال: يا معشر الموحدين لا تظنوني أي إدريس الذي تدرس دولتكم على يديه، كلا أنه سيأتي بعد إن شاء الله تعالى، ثم نزل فكتب إلى جميع بلاده بتغيير سير المهدي وما كان ابتدعه للموحدين وجرى عليه عملهم وسير ملوكهم، وأمر بإسقاط اسم المهدي من الخطبة وإزالته عن الدنانير والدراهم ودور الدراهم المركنة التي كان ضربها المهدي، وقال: كل ما فعله المهدي وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل لإبقاء البدع، ثم دخل قصره فاحتجب فيه عن الناس ثلاثة أيام، ثم خرج في اليوم الرابع، فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه، فقال لهم: يا معشر الموحدين، إنكم قد أظهرتم علينا العناد، وأكثرتم في الأرض الفساد، ونقضتم العهود، وبدلتم حربنا المجهود، وقتلتم الإخوان والأعمام، ولم تراعوا عهدًا ولا ذمامًا، ثم أخرج لهم كتب بيعتهم التي بعثوا له وبين لهم عهدهم الذي نكثوا فوقعت الحجة على جميعهم فبهتوا وسقط في أيديهم، فردّ رأسه إلى قاضي المكيدي، وكان بإزائه قد قدم معه من أشبيلية، فقال له: ما ترى أيها الفقيه في أمر هؤلاء الناكثين؟ فقال: يا أمير المؤمنين! الله تعالى يقول في كتابه المبين: {فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا}

قال: صدق الله العظيم نحن نحكم فيهم بحكم الله تعالى، فإنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، فأمر بقتل جميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فقتلوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد ولم يراع والدًا ولا ولدًا، حتى أنه أتى إليه بولد أخته وهو صبي صغير ابن ثلاث عشرة سنة وكان قد حفظ القرآن، فلما قدم ليقتل قال له:

يا أمير المؤمنين اعفُ عني لثلاث. قال: ما هنّ؟ فقال: صغر سنّي، وقرب رحمي منك، وحفظي لكتاب الله العزيز.

فنظر إلى القاضي المكيدى كالمستشير له ثم قال له: كيف رأيت قوة جأش هذا الغلام، وإقدامه على الكلام في هذا المقام؟ فقال له القاضي: يا أمير المؤمنين إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً فأمر به فقتل. ثم أمر بتعليق الرؤوس على أسوار المدينة، فعلفت بدائرها فكانت حسبتها أربعة آلاف رأس وستمئة رأس، وكان زمان الصيف فتنت منها المدينة، وتأذى الناس من روائحها، فرفع إليه ذلك، فكان من جوابه أن قال: هنا مجانين، وتلك الرؤوس لهم أحرار لا يصلح حالهم إلا بها، وأنها لعطرة عند المحبين، ومنتنة عند المبغضين، ثم أنشد ارتجالاً:

أهل الخرابة والفساد من الورى	يغرون في التشبيه للذكار
ففساده فيه الصلاح لغيره	بالقطع والتعليق بالأشجار
فتراهم ذكرى إذا ما أبصروا	فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار
وكذا القصاص حياة أرباب النهى	والعدل مألوف بكل جوار
لوعمّ حلم الله كافّة خلقه	ما كان أكثرهم من أهل النار

وقبض المأمون على قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو محمد عبد الحق فقيده ودفعه إلى هلال بن حميدان بن مقدم الخلطي فحبسه حتى اقتدى منه بست آلاف دينار، وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر، ثم خرج إلى الجبل لقتال يحيى ومن معه من الموحدين، وذلك في شهر رمضان المعظم من سنة سبع وعشرين المذكورة، فالتقى معه على بلد لكاعة، فهزم يحيى وقتل من عسكره من أهل الجبل خلق كثير سيق من رؤوسهم إلى مراكش أربعة عشر ألف رأس، وفي سنة ثمان وعشرين نفدت كتب المأمون إلى سائر بلاده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها خرجت بلاد الأندلس كلها عن ملك الموحدين، وملكها ابن هود القائم بها، وفي سنة تسع

وعشرين خرج على مأمون أخوه السيد أبو عمران بن المنصور بمدينة سبتة، وتسمى بالمؤبد، فاتصل الخبر بالمأمون، فخرج إليه فحاصره مدة، فلم يقدر منه على شيء فلما طالت غيبته اغتنم يحيى الفرصة، فنزل من الجبل ودخل مراکش وهدم كنيسة الروم التي بنيت فيها وقتل كثيرًا من اليهود، وبني فرخان وسبي أموالهم، ودخل القصر، وحمل جميع ما وجد فيها إلى الجبل، فاتصل الخبر بالمأمون، فارتحل عن سبتة مسرعًا إلى مراکش، وذلك في شهر ذي قعدة من السنة المذكورة، فلما بعد عن سبتة جاز أبو موسى إلى الأندلس، فبايع ابن هود وأعطاه سبتة، فولاه ابن هود المرية عوضًا منها، فمات بها، فوصل المأمون وهو في الطريق أن ابن هود قد ملك سبتة، فتوالت عليه الفجائع، فمرض فمات مفقوعًا بوادي العبيد، وهو قافل من حصار سبتة، وذلك يوم السبت منسلخ شهر ذي حجة عام تسعة وعشرين وستمئة، فكانت أيامه ألف يوم واحد وثمانمئة يوم وثمانية وخمسين يومًا يجب لها من السنين خمسة أعوام وثلاثة أشهر ويوم واحد أولها الخميس وآخرها السبت، وكانت أيامه كلها شقية في منازعة يحيى، افترق الموحدون فيها فرقتين، فصارت الدولة دولتين، فكان محو دولتهم وذهاب نخوتهم على يديه، لأنه وضع السيف فيهم حتى أفناهم، ولولا أن الحال في دولته تغيرت والفتن في نواحي المغرب والأندلس قد اشتعلت لكان المأمون موافقًا لوالده المنصور في الحلال متابعًا له في جميع الأعمال والأحوال.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي محمد عبد الواحد الرشيد رحمه الله

هو أمير المؤمنين أبو محمد عبد الواحد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف الشهيد بن عبد المؤمن المؤيد بن علي الكومي الموحد.

كنيته: أبو محمد لقبه الرشيد.

أمه: أم ولد رومية، اسمها: حباب كانت من دُهاة النساء وعقلائهن.

ببيع له بالخلافة بوادي العبيد ثاني يوم وفاة أبيه، وهو يوم الأحد غرة محرم من سنة ثلاثين وستمئة وسنه يوم ببيع أربع عشرة سنة، أخذ له البيعة كانون بن جرمون السفيناني وشعيب أقاريط العسكري، وفرّ قسيل قائد الروم، لأنه لما مات المأمون، كتمت حُباب موته وبعثت في هؤلاء نفر الثلاثة، لأنهم كانوا عمدة عسكر المأمون، فركب لكل واحد منهم عشرة آلاف من إخوانه، فلما وصلوا إليها أعلمتهم بموت أمير المؤمنين ورغبت منهم ولاية ولدها والقيام ببيعته، وبذلت لهم أموالاً جلييلة، وجعلت لهم مع ذلك مدينة مراكش فيئاً إذا غلبوا عليها فبايعوه، وقاموا بأمره وتولوا أخذ البيعة له على من سواهم، فبايع الناس طوعاً وكرهاً خوفاً من سيوفهم، فلما تمت بيعته توجه إلى مراكش، وحمل أباه أمامه في تابوت، وكان يحيى قد استقر بها فسمع أهل مراكش بما شرطت حباب للروم والقواد من نهب المدينة فخرجوا مع يحيى لقتال الرشيد، فالتقى الجمعان وهزم يحيى، وأتى الرشيد حتى وقف بباب المدينة، فتحصن منه أهلها وغلقوا الأبواب فأمّنهم، وبعث إلى قائد الروم وأصحابه قيمة في مراكش فقبضوه، ويقال أنه دفع لهم في ذلك خمسمئة آلاف دينار، ودخل الرشيد مراكش فلم يزل بها إلى سنة ثلاث وثلاثين، فاستدعا أشياخ الخلط فدخلوا عليه، وقتل منهم خمسة وعشرين أميراً في قصره، فقامت عليه الخلط ودخلوا مراكش فنهبوا، وفرّ الرشيد عنها بجيش الروم إلى سجلماسة، وبعث الخلط إلى يحيى فبايعوه وأدخلوه مراكش، فأقام بها إلى أن قوي الرشيد وجمع الجيوش والأموال، فخرج من سجلماسة حتى وصل مدينة فاس، فأقام بها أياماً، وفرق في فقهاءها وصلحائها مالاً ورباعاً كثيرة عن رباع مختصها، وارتحل إلى مراكش فتلّقه يحيى بجيش العرب والموحدين فهزّمه الرشيد، وقتل خلق كثير من عسكره، وفرّ يحيى قاصداً إلى رباط تازا فغدر عرب المعقل، فقتلوه غيلة قبل أن يصل إليها، وحملوا رأسه إلى الرشيد، ودخل الرشيد مراكش فأقام بها إلى أن توفي رحمه الله غريقاً في

صهريج، وذلك في يوم الخميس تاسع جمادي الآخرة سنة أربعين وستمئة فمدته ثلاثة آلاف يوم وسبعمئة يوم يجب لها من السنين عشرة أعوام وخمسة أشهر وتسعة أيام زاحمه يحى منها ستين وتسعة أشهر.

وفي رمضان المعظم من سنة خمس وثلاثين بايع أهل أشبيلية الرشيد، وفي شوال الثاني له بايعه أهل سبتة، وكان بالعدوة والأندلس في هذه المدة غلاء شديد ووباء مفرط، خرب فيها أكثر البلاد، ووصل قفيز القمح بها ثمانين دينارًا.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الحسن السعيد رحمه الله
هو أمير المؤمنين عليّ بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ الكومي الموحد.

أمه: أم ولد نوبية.

كنيته: أبو الحسن.

لقبه: السعيد، وتسمى بالمعتضد بالله.

صفته: أسمر شديد السمرة، تام القد، معتدل الجسم، سبط الشعر، مليح العينين، منقول اللحية، عالي الهمة، بطل شجاع مهاب له إقدام في الحرب ونجدة فاق بها من تقدم من آبائه.

بويع له بالخلافة ثاني يوم وفاة أخيه الرشيد بحضرة مراکش، وذلك يوم الجمعة عاشر جمادي الآخرة سنة أربعين وستمئة، وتوفي -رحمه الله- يوم الثلاثاء منسلخ شهر صفر سنة ست وأربعين وستمئة وهو محاصر ليغمراسن بن زيان العبد الوادي

بقلعة تامجزرت من أحواز تلمسان، فكانت أيام خلافته ألفي يوم وثمانية وعشرين يومًا، أولها يوم الجمعة عاشر جمادي الآخرة الذي بويع فيه وآخرها الثلاثة الذي توفي فيه، يجب لها من السنين خمسة أعوام وثمانية أشهر وواحد وعشرين يومًا وبويع السعيد بمراكش، وقد ظهر أمر بني مرين بالمغرب وملكوا جميع بواديه، فأخذ يبعث إليهم بالجيوش فيهزمونها، فلما كان في سنة ثلاث وأربعين اتصل به أن الأمير أبا يحيى بن عبد الحق قد دخل مدينة مكناسة، وأن يغمراسن بن زيان قد ملك تلمسان وأحوازاها، وأن محمد المستنصر والي أفريقية قد تسمى بأمر المؤمنين خلافاً لما كان عليه أباه واحتقاراً لدولة السعيد، فأخذ في الحركة إلى غزوهم، فخرج من حضرة مراكش في جيوش لا تحصى من الموحدين والعرب والروم، فسار حتى وصل إلى وادي بهت عرف به أمير المؤمنين أبو يحيى بن عبد الحق، فخرج له عن مكناسة وأسلمها له، وسار إلى قلعة تازا ببلاد الريف، واجتمعت إليه جميع قبائل بني مرين هنالك، ووصل أمير المؤمنين السعيد إلى مكناسة، فخرج أهلها يطلبون منه العفو، وقدموا بين أيديهم الشيخ الصالح أبا علي منصور بن حرزوز، والصبيان من المكاتب بالألواح على رؤوسهم والمصاحف بأيديهم، فعفا عنهم وارتحل إلى مدينة فاس، فنزل بظاهرها من ناحية القبلة، فأقام هنالك أيام حتى وصلته بيعة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق فسر بها وخلع على القوم الذين أتوا بها، ووصلهم بأموال جلييلة، وكتب له بجميع بلاد الريف والقلاع، ثم ارتحل عن مدينة فاس في الرابع عشر من المحرم من سنة أربعين وستمئة، وخسف بالقمر كله تلك الليلة، فأصبح السعيد في ذلك اليوم مرتحلاً، فلما ركب انكسر لواءه المنصور فتطير به ورجع ولم يرتحل، فأقام إلى السادس عشر من شهر محرم المذكور، فارتحل حتى وصل إلى تلمسان وبها يغمراسن بن زيان القائم بها، فخرج عنها يغمراسن فاراً بهاله وأولاده وأهله إلى القلعة تامجزرت، فتحصن بها وأسلم له تلمسان، فتبعه السعيد حتى نزل على القلعة

المذكورة فحاصره بها ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع ركب متستخفياً في وقت الهاجرة وخرج مع وزيره على حين غفلة من الناس لينظر إلى القلعة ومنعتها وكيف تكون المحاولة في قتالها والتمكن منها، فلما توسط من الجبل مكاناً وعراً بصر به فارس من بني عبد الوادي يعرف بيوسف الشيطان كان يحرس، فسار إليه هو ويغمراسن بن زيان ويعقوب بن جابر العبد الوادي فخرجوا عليه من مخدع من الجبل، فضربه يوسف الشيطان فقتله، وقتل يعقوب بن جابر وزيره، وفرّ الرجال الذين كانوا معه إلى المحلة فأخبروا بموته، فارتجت المحلة وأخذ أهلها في الفرار. فهبط يغمراسن في بني عبد الوادي من القلعة، فاحتوى على جميع المحلة، وأخذ ما فيها من الأموال والسلاح والكراع والعيال والطبول والبندود والأخبية والقباب، وأمر يغمراسن بالسعيد فغسل وكفن وحمل فدفن بالعباد من خارج مدينة تلمسان.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي حفص عمر المرتضى رحمه الله
هو أمير المؤمنين عمر بن السيد أبي إبراهيم إسحاق ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحد.

كنيته: أبو حفص.

لقبه: المرتضى.

أمه: حرة بنت عم أخيه.

ولي بعد وفاة السعيد باجتماع من بقي في مراکش من أشياخ الموحدين، فأخذوا له البيعة بجامع المنصور من حضرة مراکش، وذلك يوم الأربعاء غرة ربيع الأول من سنة ست وأربعين وستمئة، قاله ابن رشيق في ميزان العمل، وهذا وهم منه فإن

السعيد توفي يوم الثلاثاء منسلخ صفر، ولا يمكن أن يصل الخبر بموته من تلمسان إلى مراكش في ليلة واحدة، والصحيح أنه كان بين موت السعيد وبيعة المرتضي أياماً مهمة نحو العشرة أيام، وحينئذ عقد له البيعة بجامع المنصور، وكتب له بها في الثاني عشر من ربيع الأول المذكور، وكان المرتضي والياً للسعيد بقصبة رباط الفتح تركه هناك حين توجه إلى تلمسان فوصلته البيعة، وهو بها فقرئت على الناس فبايعه جميع من حضره من الموحدين والفقهاء والأشياخ، ثم ارتحل إلى مراكش فدخلها، وجددت منها البيعة فيها، واستقام له أمرها وملك جميع أحوازها من مدينة سلا إلى السوس، فأقام بها إلى سنة ثلاث وخمسين وستمئة، فخرج باسم غزو مدينة فاس وقاتل من بها من بني مرين في جيش عظيم من ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والأغزاز والأندلس والروم، فسار حتى نزل بجبل بني بهلول من قبلة مدينة فاس، وكان خوف بني مرين قد خامر قلوب أهل محلته، فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا يرقدون ليلاً، فانطلق فرس لبعض الأجناد فأخذ جري بين الأخبية وجد الناس في أثره ليأخذوه، فظن أهل المحلة أن بني مرين ضربوا فيها فركب الناس وماج بعضهم في بعض، وفروا منهزمين لا يلوي أحد على أحد، واتصل خبرهم بالأمير أبي يحيى فخرج من مدينة فاس فاحتوى على جميع ما في المحلة من الأموال والسلاح والأخبية، وسار المرتضي إلى مراكش مهزوماً في نفر يسير من الروم والأشياخ فأقام بها إلى أن دخلها عليه أبو دبوس، وذلك يوم السبت الثاني والعشرين لمحرم سنة خمس وستين وستمئة، فخرج فاراً بنفسه فظفر به وقتل في الثاني لصفر الثاني له حكاة جملة من الناس من الذين شهدوا ذلك، فكانت أيامه في ملكه ستة آلاف يوم وستمئة يوم وستة وتسعين يوماً، يجب لها من السنين ثمان عشرة سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوماً وكان المرتضي يدعي الزهد والتصوف والورع، وتسمى بثالث العمرين، وكان مولعاً بالسماع لا يكاد يستغنى عنه ليلاً ولا

نهارًا، وكانت أيامه أيام أمن ودعة ورخاء مفرط لم ير أهل مراکش مثلها.

الخبر عن دولة إدريس الملقب بأبي دبوس آخر ملوك بني عبد المؤمن

هو أبو العلاء إدريس بن السيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص بن أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي.

تسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالواثق بالله.

أمه: أم ولد رومية، اسمها: شمس الضحى.

صفته: أبيض اللون، أشقر أزرق، طويل القامة، طويل اللحية، بطل شجاع داهية مقدم في الأمور، دخل مدينة مراکش غدراً على عمر المرتضى ففر أمامه فملكها، وبويع له بها بجامع المنصور، بايعه كافة الموحدون والأشياخ والوزراء والقضاة والفقهاء وأشياخ العرب وأشياخ المصامدة، وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين لمحرّم سنة خمس وستين وستمئة ثاني يوم دخوله المدينة، وكان سبب تملكه مراکش أن المرتضى أراد قتله لأشياء رفعت له عنه، فأشعر أبو دبوس بذلك فخرج عن مراکش فارّاً بنفسه فوصل إلى أمير المسلمين أبي يوسف بن يعقوب بن عبد الحق مستنصراً به، فألفاه بمدينة فاس، فأقبل عليه وبالغ في إكرامه، فطلب منه الإعانة على حرب المرتضى، وضمن له أخذ مراکش، فأعطاه أمير المسلمين أبو يوسف جيشاً من ثلاثة آلاف فارس من قبائل بني مرين، وأعطاه طبولاً وبنوداً وعشرين ألف دينار برسم النفقة، وكتب له إلى عرب جشم أن يكونوا معه يداً واحدة، وشرط له أبو دبوس أن يعطيه نصف ما يغلب عليه من البلاد، فانصرف أبو دبوس بجيشه ونشر بنوده وضرب طبوله، ووصل إلى مدينة سلا فكتب منها إلى

أشياخ الموحدين والعرب والمصامدة الذين فى طاعة المرتضى يدعوهم إلى بيعته ويعدهم ويمنهم فتلقته وفود العرب والمساكرة ببعض الطريق فبايعوه وساروا معه حتى نزل بلاد هسكورة، وكتب إلى خاصته من وزراء المرتضى أن يعلموه بأخبار مراكش، فراجعته أن أسرع السير وأقبل ولا تخشع فإن الجند قد فرقناه فى أطراف البلاد، وهذا وقت انتهاء الفرصة، فقد أمكنك وقتها فأسرى أبو دبوس تلك الليلة فأصبح على مراكش فدخلها من باب الصالحة على حين غفلة من أهلها، وذلك يوم السبت وقت الضحى الثانى والعشرين المحرم عام خمسة وستين وستمئة فسار حتى وقت بباب البنود من صبتها، فغلقت الأبواب فى وجهه ووقف عليها عبيد المخزن يقاتلونه، فلما رأى المرتضى أن القصبة قد اشتركت معه خرج من القصر على باب الفاتحة فارًا بنفسه ودخل أبو دبوس القصر، فبوع فاستقام له الأمر، وسار المرتضى إلى مدينة أزمو، وكان بها صهره ابن عطوش واليًا له عليها، وكان قد أسر فأفتكه المرتضى بهال جسيم وزوجه ابنته وولاه أزمو، فلما فر عن مراكش قصد إليه ووثق به وبمناصحته فأخذه ابن عطوش وأوثقه بالحديد وكتب إلى أبي دبوس، يقول له: اعلم يا أمير المؤمنين أنى قد قبضتُ على الشقى وأوثقته بالحديد. فبعث فيه وحمل وقتل فى الطريق.

واشتغل أبو دبوس بملك مراكش وأنحائها واتصل الخبر بأمر المسلمين أبي يوسف، فكتب إليه يهنئه بالفتح، ويطلب منه أن يمكنه بما شرط له، وذلك نصف البلاد التى غلب عليها، فلما وصله الكتاب أدركه الكبر وداخله العجب وكفر ما أسداه إليه من نعمة وجحد أياديه القديمة ومننه، وقال لرسوله: قل لأبي عبد الرحمن يعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته ويقنع بما فى يده من البلاد؛ وإلا أتيت به جنود لا قبل له بها. فلما وصل الرسول إلى أمير المسلمين أبي يوسف وأبلغه مقاله ودفع إليه كتابه؛ فإذا هو يخاطبه فيه مخاطبة الخلفاء إلى عمالهم والرؤساء إلى خدامهم، فتحقق

أمير المسلمين نكثه وغدره على ما وقع عليه الاتفاق بينهما، فخرج إلى غزوة فلم يزل يشن الغارات على بلاده ويجهز الجيوش إلى سنة سبع وستين فزار أمير المسلمين بجميع جيوش مرين فالتقى معه أبو دبوس ببلاد دكالة، وكانت بينهما حروب عظيمة، فأشرع فيها القتال حتى دخله أبو دبوس بنفسه فقتل وهزم عسكره، وانتهت محلته، وأوتي برأسه إلى أمير المسلمين أبي يوسف، فأمر به وحمل إلى مدينة فاس فطيف به في أسواق المدينة ثم علق على باب المدينة.

وكان قتل أبي دبوس وانقراض دولته يوم الجمعة منسلخ شهر ذي حجة من سنة سبع وستين وست مئة، فكانت أيامه ألف يوم واثنين وأربعين يومًا يجب لها من السنين ستان وأحد عشر شهرًا وسبعة أيام، وانقضت بموته الدولة الموحدية المؤمنية والملك والبقاء لله الواحد القاهر الذي له الأمر من قبل ومن بعد لا ربّ غيره ولا معبود سواه، وهو الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وكانت جملة أيام ملكهم من يوم بويح المهدي سنة خمس عشرة وخمسة إلى أن قتل أبو دبوس في مسلخ سبع وستين وست مئة - مئة سنة واثنين وخمسين سنة، وعدد ملوكهم أربعة عشر ملكًا.

الخبر عن الأحداث التي كانت في أيامهم من أولها إلى انقضائها
أول حدث كان في سنة خمس عشرة وخمسة المذكورة قيام المهدي وبيعته وظهور الموحدين، فإنه لم يزل أمرهم يظهر من تلك السنة وسلطانهم يقوى.

وفي سنة أربع وعشرين توفي المهدي وبايع الموحدون عبد المؤمن بن علي. وفي سنة ثمان وعشرين فتح عبد المؤمن درعة وتادلا ومدينة سلا وبلاد تازا وفيها تسمى بأمير المؤمنين.

وفي سنة تسع وعشرين أمر عبد المؤمن ببناء مدينة رباط تازا فبنيت وحصن سورها.

وفي سنة سبع وثلاثين ملك الموحدون شريش، وخطب لهم بها، وفيها قام ابن زيري وابن حمدين قاضيا قرطبة على المرابطين فأخرجوهم عن قرطبة.

وفي سنة تسع وثلاثين جاز جيش الموحدين إلى الأندلس وملكوا طريف والجزيرة وهرب عنها المرابطون.

وفي سنة أربعين هدم علي بن عيسى بن ميمون اللمتوني صنم قادم، وفيها ملك الموحدون مالقة، وفيها نزل العدو المربة بثمانين جفنا فأحرق أرياضها وانصرف عنها، وفيها فتح عبد المؤمن مدينة فاس ومدينة تلمسان ووهران وأحواز ذلك كله، وفيها بايعه أهل أشبيلية وأخرجوا عنها المرابطين، وفيها أمر عبد المؤمن ببناء سور تاجرارت من تلمسان وتحصينها وبنا جامعها.

وفي سنة إحدى وأربعين فتح عبد المؤمن مدينة مراكش وأغامت وبلاد دكالة، وفيها فتح مدينة طنجة، وقتل من بها من المرابطين وانقرضت دولتهم من جميع المغرب والأندلس، وفي سنة ثلاث وأربعين فتح عبد المؤمن سجلماسة وسبتة وفيها غزا برغواطة وفي آخرها قام أهل سبتة على الموحدين وقتلوا عمالهم وحرقوهم بالنار وفيها فتح الموحدون قرطبة وقرمونة وجيان.

وفي سنة أربع وأربعين ملك الروم المهديّة من بلاد أفريقية وملكوا من بلاد الأندلس مدينة الأشبونة والمرية وطرطوشة وماردة وأبراغة وشنترين وشتتمرية ملكوا ذلك كله على يد ابن زربن لعنه الله، وفيها أعطى يحيى ابن غانية مدينة أبرة وبياسة وما والاها من الحصون إلى النصارى فيملكونها.

وفي سنة خمس وأربعين فتح الموحدون مدينة مكناسة، فدخلت عنوة بالسيف بعد حصارها سبعة أعوام، وقتل أكثر رجالها وأخذ أموالهم وسبي حريمهم، وفيها بنيت مكناسة تاجرات المدينة الآن وخربت القديمة وفيها أمر عبد المؤمن بجلب الماء من عين غبولة إلى سلا فجلب.

وفي سنة ست وأربعين فتح عبد المؤمن جبال واتشريش ومليانة والمرية وجزائر بني مزغنة وبجاية، وفي سنة سبع وأربعين فتح عبد المؤمن مدينة بونة وقسطيلة وقسطنطينة وبلاد العناب والجريد بأسره وجميع زاب أفريقية، وفيها انتزع الموحدون المرية وأبرة وبياسة من أيدي الروم وملكها المسلمون.

وفي سنة تسع وأربعين ملك الموحدون ليلة من بلاد الأندلس فتحوها عنوة وقتلوا جميع رجالها وسبوا حريمها وأموالها، وكان بها الحادث الأعظم وفي سنة خمسين وخمسمئة ملك الموحدون غرناطة ثم غررهم أهلها فقتلوه، وفي سنة ست وخمسين فتحوها ثانية بعد حصار شديد، وفي سنة ثلاث وخمسين فتح عبد المؤمن مدينة تونس وسويسة وقفصة والقيروان وأسفاقس وأطرابلس المغرب، وفتح المهديّة وانتزعها من أيدي الروم، وفي سنة ست وخمسين أمر عبد المؤمن وبناء حصن جبل الفتح فبني.

وفي سنة ثمان وخمسين توفي عبد المؤمن وولى ولده يوسف.

وفي سنة تسع وخمسين قام مزدرع ببلاد غمارة، وفي سنة ستين كانت غزوة الجلاب قتل فيها كثير من الروم.

وفي سنة أربع وستين توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو عمر عثمان بن عبد الله السلاحي الأصولي صاحب البرهانية، وأمام أهل المغرب في علوم الاعتقاد وفيها

كان السيل العظيم بأشبيلية، وفي سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف ببناء قنطرة تانسيقت فبنيت.

وفي سنة سبع وستين أمر بعقد الجسر على واد أشبيلية، فعقد على القوارب وفيها بنا قصبة أشبيلية، وبنيت الزلايق بسورهما، وفيها مات محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الأندلس وملك الموحدون بلنسية وشاطبة ودانية وجميع عمله.

وفي سنة ثمان وستين فيها زلازل عظيم هائل عمت الزلزلة أكثر بلاد الشام والموصل وبلاد الجزيرة والعراق، وأشد ما كانت بالشام وهلك فيها خلق كثير حتى خاف الناس من الإفرنج مما تهدمت ومات الناس.

وفي سنة ثمان وستين هرم أبو بدعة النصراني وقتل هو وجميع جيشه على يد الموحدين، وفي سنة تسع وستين في آخر شعبان توفي الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن جرزم بن زيان بن يوسف بن شومران بن حفص بن الحسن بن محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان رضي الله عنه فدفن بخارج باب الفتوح من أبواب مدينة فاس، وكان فقيهاً حافظاً زاهداً في الدنيا متصوفاً ذكر عنه خديمة المذكور بأبي قرن، قال: دعي لي الشيخ أبو الحسن بن حرزم بالعفو والعافية، وقال لي: رأيت ربّ العزة في النوم، فقال لي: يا عليّ سل حاجتك. فقلت: يا ربّ أسألك العفو والعافية والمعافات في الدين والدنيا والآخرة. فقال لي: قد فعلت فما أبالي بشيء يتقي، فإن ربّ العزة أمني، ولذلك دعوت لك بهذا الدعاء، ولما دخل شعبان الذي توفي فيه، قال لتلميذته: أني لا أصوم مع الناس من شهر رمضان المستقبل، وهو صحيح ليس به ألم، فلم يبق إلا ثلاثة أيام من شعبان فعجبوا من قوله، ومات في آخر يوم من شعبان قبل دخول رمضان عليه، ولما كان اليوم الذي توفي فيه تطهر وتوضأ وتطيب، وقال لخدمته: لم يبق لكم من

خدمتي إلا اليوم. ثم دخل إلى بيته فصلّى ركعتين ونام على فراشه، فلما جاء وقت صلاة الظهر أتاه خديمه يوقظه للصلاة فوجده ميتاً.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمئة توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي المعروف بالسارية، كان إذا وقف في صلاته يطيل القيام، وبذلك سمّوه بالسارية وقيل أنه من الإبدال.

وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمئة كان الطاعون الشديد بمراكش.

وفي سنة اثنتين توفي الفقيه القاضي أبو يعقوب حجاج، وفيها عتب أمير المؤمنين يوسف على أخيه الحسن وكتب إليه الحسن هذه الأبيات:

إذا نحن أذنبنا فعفوك نطلب وإن نحن فصرنا فما عنك مهرب
حنانيك قد عودتنا منك رحمة وأنت لنا في كل حالاتنا الأب
ولم تتوعد قبل حالة ذلّة ولا حذرا بما يقول المتحجب
فلما وقف على الأبيات - رضي الله عنه - وولاه قرطبة وفي شوال منها توفي قطب دهره وأعجوبة عصره، أبو يعزا يلنور بن ميمون بن عبد الله الهرميري، وقيل هو من بني صبيح من هسكورة مات وقد نيف على المئة وثلاثين سنة، أقام منها عشرين سنة سائحاً في الجبل المشرقة على تينمال ثم انحدر إلى السواحل، فأقام بها منقطعاً ثمان عشرة سنة لا يتعيّش إلا من نبات الأرض كان أسود كبد اللون طويلاً رقيقاً يلبس تليساً مطرقاً وبرنوساً مرقعاً وشاشية عرف على رأسه.

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة توفي الشيخ الفقيه العالم المشاور أبو محمد عبد الله بن المالقي شيخ طلبة الحضر في وقته، وكانت وفاته في ذي الحجة منها وشهد جنازته أمير المؤمنين يوسف.

وفي سنة ثمان وسبعين توفي الشيخ الفقيه القاضي الصالح الورع أبو موسى عيسى بن عمران قاضي الجماعة بحضرة مراکش، وولي مكانه أبو العباس بن مضي القرطبي، وكان القاضي أبو عمران أحد الأجواد من أهل السخاء والكرم، وله كتاب رائق كتبه إلى ولد له تركه بمدينة فاس صغيراً قد راهق الحلم، إلى ولدي فلان - أعزه الله وصانه - وجمله بالعلم والتقوى وزانه كتبت إليكم على اشتياق كثير، وبمشية الله تعالى تسير الأمور، وتتكاثر السرور، وإذا وجدتمكم على ما أحبه من أدوات الحفظ والأدباء والتزام آداب العقلاء جازيتكم بما يرضيكم وما يزيد على انقطاعكم، وقد اجتمعت الأئمة على أن الراحة لا تنال بالراحة، وأن العلم لا ينال براحة الجسم فأدرس تدرس، واحفظ تحفظ، وأقرأ ترتقي، ومهما ركنت إلى الدعة كنت في أهله الضعة، وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه، وما رأيتهم مجتمعين على ذمة فاجتنبه، والأدل الأقسط أن تسلك سبيل الوسط وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فأبذل والسلام، وفي هذه السنة فتح المسلمون مدينة شتيفيلة ومدينة قليج، وقتل من بها من الروم وسبى نساؤهم وأموالهم، وفيها توفي الشيخ أبو خزر يخلف بن خزر الأوربي من أهل مدينة فاس، وكان أحد الفضلاء والعلماء الحفاظ.

وفي سنة ثمانين وخمسمئة توفي أمير المؤمنين يوسف وولي ولده المنصور وفيها دخل المايورقي مدينة بجاية وذلك يوم الجمعة السادس من شعبان والناس في الصلاة، وكان أبواب المدن قبل ذلك لا تسدّ يوم الجمعة، فارتقب الناس حتى أحرموا للصلاة، فدخل عليهم المدينة وقصد الجامع الكبير فأدار به الخيل والرجال فمن بايعه خلا سبيله ومن توقف عن بيعته قُتل فأقام بها سبعة أشهر، ثم استرجعت من يده ومن ذلك اليوم أحدث الناس علق أبواب المدن يوم الجمعة في وقت الصلاة، وفي سنة أربع وتسعين وخمسمئة توفي الشيخ الصالح قطب زمانه أبو مدين

شعيب بن الحسن الأنصاري أصله من صَطْنانة من عمل أشبيلية توفي بتلمسان ودفن بجبل العباد، وكان مقامه التوكّل سمع رعاية المحاسبي عن أبي الحسن بن حرزهم، وسمع كتاب السنن لأبي عيسى الترمذي على ابن غالب وأخذ التصوف عن أبي عبد الله الدقاق وآخر ما سمع من كلامه عند الموت: «الله تعالى الحي القيوم الدائم»، وقيل توفي في سنة ستّ وسبعين، وفي سنة خمس وثمانين جلب المنصور الماء إلى مراكش، وفي سنة ستّ وثمانين دخل النصارى مدينة شلف وباجة وبائرة من بلاد غرب الأندلس.

وفي سنة سبع وثمانين فتح المسلمون قصر أبي دانس.

وفي سنة إحدى وتسعين هزم النصارى في غزوة الأراك، وقتل منهم ألف كثيرة، وفي سنة ثلاث وتسعين بني رباط الفتح وتم سوره وركبت أبوابه، وفيها بني جامع حسان ومنارة فلم يتم، وفيها بني منار جامع أشبيلية ومنار جامع الكتبيين من مراكش، وفيها تمت قصبة مراكش وجامعها بالبناء، وفيها توفي الشيخ الصالح الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدي صاحب كتاب الهداية قام نحو أربعين سنة لم تفته صلاة في جماعة، وفيها توفي الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الكريم الفندلاوي، وشهد أمير المؤمنين جنازته، وكان -رحمه الله- من أئمة المغرب في العلم مقدّمًا في فنون العلم زاهدًا في الدنيا معرضًا عنها مقبلًا على الآخرة لزم العبادة والصوم والمجاهدة حتى لم يبق منه إلا رسمه وهو القائل:

وما أبقى الهوى والشوق مني سوى نفس تردّد في خيال
خفيتُ عن المنية أن تراني وكان الروح مني في محال
وفي سنة ثمان وتسعين وخمسة توفي فيها الشيخ الفقيه الصالح الورع أمام
القرويين أبو محمد يشكر الجورائي، وذلك في ضحى يوم السبت الحادي عشر لذي

قعدة من العام المذكور، نشأ بتادلا واستوطن مدينة فاس بها توفي تفقه على أبي خزر، وسمع من أبي الربيع التلمساني، وصحب أبا الحسن بن حرزهم وأبا يعزا، وكان ورأى فاضلاً إذا دخل عليه شهر رمضان طوى فراشه وأخذ في الاجتهاد، فيقطع الليل قائماً يختم القرآن في تسليمة واحدة، وقد قيل له ذات ليلة لو أرحت نفسك قليلاً وأعطيتها حظها من النوم لكان أوفق لك. فقال: إنما اطلب راحتها، وأنشد:

لا تجعلن رمضان شهر فاكهة تُلهيك فيه من الحديث فنونه
واعلم بأنك لن تنال ثوابه حتى تكون تقومه وتصومه
وفي سنة مئة كمل سور مدينة فاس بالبناء والتجديد، وتم باب الشريعة وركب مصارعه، وفي هذه السنة قام العبيد بجبل ورغة فظفر به وقتله، وعلق رأسه على باب الشريعة من مدينة فاس، وأحرق جسده في وسط الباب، وذلك في اليوم الذي تم باب الشريعة المذكور بالبناء وركب مصراعه فسَمِّي باب الحروق.

وفي سنة إحدى وستمئة بنا يعيش عامل النصارى على بلاد الريف سور مدينة بادس وسور المرمة وسور مليلة، حياطة على ذلك من فجأة العدو.

وفي سنة اثنتين وستمئة ولي الحفصيون عمالة أفريقية.

وفي سنة أربع وستمئة جُدد سور مدينة وجدة، وفيها أمر الناصر ببناء دار الوضوء والساقية بإزاء جامع الأندلس من فاس وجلب الماء إليها من العين خارج باب الحديد، وفيها بنا الباب الكبير المدرج الذي بصحن الجامع المذكور، وأنفق في ذلك كله من بيت المال، وفيها بنا مصلى القرويين.

وفي سنة ثمان وستمئة توفي الشيخ الصالح أبو عبد الله بن جرير المعروف بابن تاخيس من أهل فاس، وكان كثير الورع وكان له خط حسن، فكان ينسخ

المصاحف بيده ويدفعه لمن يراه أهلاً بها ابتغاء الثواب لم يزل مولعاً بطلب العلم ودرسه وتحصيله إلى أن مات، وهو قائل الشعر:

أخو العلم حيّ خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماشٍ على الثرا يُظنّ من الأحياء وهو عديم
وفي سنة تسع وستمئة كانت هزيمة المسلمين بالعقاب فني فيها عساكر المغرب
والأندلس، وفي سنة عشر وستمئة قام ولد العبيد المحروق بفاس بجبل غمارة
وادعى أنه الفاطمي وتبعه خلق كثير من أهل الجبال والبوادي، فبعث إليه الناصر
جيشاً فظفر به فقتل، وفيها توفي أمير المؤمنين الناصر ووليّ ولده يوسف، وفيها أقبل
بنو مرين من قبلة زاب أفريقية فدخلوا المغرب في أمم كثيرة، وفيها كان الوباء
العظيم بالمغرب والأندلس، وفيها ملك النصارى مدينة إبرة، وفي سنة ثلاث عشرة
وستمئة هزم بنو مرين جيوش الموحيدين بفحص الزاب فدخل الموحدون مدينة
فاس عرايا قد تستروا بالمشعلة فسمي عام المشعلة.

وفي سنة أربع عشرة هزم المسلمون بقصر أبي دانس بالسيف، وقتل منهم العدو
أمّا لا تحصى.

وفي سنة خمس عشرة وستمئة دخل الفنش قصر أبي دانس بالسيف، وقتل من به
من المسلمين.

وفي سنة سبع عشرة كان الغلاء الشديد بالمغرب والقحط والجراد، وفيها بني
برج الذهب بواد أشبيلية.

وفي سنة ثمان عشرة جدد سور أشبيلية، وبني الخزام البراني، وجعل الحفير دائراً
بالخزام.

وفي سنة تسع عشرة فتح الموحدون جزيرة ميرة.

وفي سنة عشرين توفي يوسف المستنصر، وفي سنة إحدى وعشرين بويج العادل بمرسية، وفيها توفي أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع.

وفي سنة اثنتين وعشرين قام السيد أبو محمد البياسي ببياسة ودعى لنفسه، وفيها أعطى البياسي بياسة وقبجاطة للنصارى، وفيها تغلب العدو على مدينة مربونة من نظير مرسية وقتل جميع من فيها وأسر النساء والذرائع، وفيها أعطى البياسي للفنش نحو العشرين حصناً ومن البروج ما لا يوصف، وفيها ملك الفنش قرفانة ودخل طليطلة بالسيف وقتل بها خلق كثير من المسلمين.

وفي سنة اثنتين وعشرين قتل من أهل أشبيلية نحو العشرة آلاف قتلهم العدو وكانوا خرجوا لإعانة طليطلة، وفيها قتل من أهل مرسية خلق كثير، وكانوا أيضاً خرجوا لإعانة حصن دلالة فهزمهم العدو فقتلوا، وقتل في هاتين الكائنتين من أهل بلاد الموحدين وأشبيلية ومرسية ألوف لا تحصى حتى خلت المساجد والأسواق.

وفي سنة ثلاث وعشرين تغلب العدو على مدينة لوشة من بلاد غرب الأندلس، وفيها أعطى البياسي للنصارى شلبطاوة وبلامس وبذل الناصر في أخذه الأموال الجليلة حتى ملكه المسلمون، وفيها قتل البياسي بالحصن المدور وقتله ابن بيروك وحمل رأسه إلى أشبيلية، وفيها أخذ النصارى مدينة كباله، وفيها تقاتلت عرب الخلط مع الموحدين بالعدوة فهزمهم الخلط.

وفي سنة أربع وعشرين اشتد الغلاء بالمغرب فبيع قفيز القمح بخمسة عشر ديناراً، وفيها كان الجراد المنتشر بالمغرب، وفيها بايع أهل أشبيلية السيد أبا العلاء بن المنصور، وفيها ملك النصارى جزيرة ميورقة، وفيها توفي العادل وبويج يحيى بن

الناصر وبويع المأمون.

وفي سنة خمس وعشرين قام ابن هود الملقب بالمتوكل بحصن الأردونة من بلاد شرق الأندلس وبايعه أهل مرسية على الخلافة العباسية.

وفي سنة ست وعشرين وستمئة كان السيل العظيم بمدينة فاس هدم من سورها القبلي مسافتين وهدم من جامع الأندلس ثلاث بلاطات وديارًا كثيرة وفنادق من عدوة الأندلس، وفيها ملك ابن هود شطبة ودانية، وفيها ملك النصاري حصن جبل العيون من ثغر بلنسية، وفيها قتل القاضي القسطلي بمرسية قتله ابن هود، وفيها ملك ابن هود غرناطة، وقتل من بها من الموحدين، وفيها ملك ابن هود جيان، وفي ذي القعدة منها بايع أهل قرطبة لابن هود وأخرجوا منها الموحدين وقتلوهم، وفيها تسمى ابن هود بأمر المسلمين، وفيها جاز المأمون إلى العدو، وفي يوم الإثنين الثالث والعشرين لصفر الموافق الآخر يوم من دجنبر كان الحادث الأعظم على ميورقة وأعادها الله تعالى للإسلام.

وفي سنة ثمان وعشرين كانت هزيمة ماردة على المسلمين، وفيها دخل العدو ماردة بالسيف، وفي شعبان منها ملك العدو مدينة بطليوس وأحوازاها، وفي رجب منها ملك ابن هود جل الفتح والخضراء ولم يبق للموحدين بالأندلس أمر ولا نهي.

وفي سنة تسع وعشرين قام السيد أبو موسى على أخيه المأمون بسبته، وفيها قام محمد بن يوسف بن نصر الشهير بابن الأحمر ودعا الناس إلى بيعته فبايعه أهل أرجونة وتسمى بأمر المسلمين.

وفيها ملك العدو مدينة موارلة من عمل سرقسطة.

وفي سنة ثلاثين وستمئة توفي المأمون ووليّ ولده الرشيد، وفيها ملك ابن هود سبته فأقامت على ملكه ثلاثة أشهر فخلفوه وبايعوا أحمد اليناشتي وتسمى بالموقق، وفيها رجعت قرطبة وقرمونة لمحمد بن يوسف بن نصر، وفيها بويق القاضي الباجي بأشبيلية، وفيها عقد ابن هود الصلح مع العدو لاشتغاله لقتال ابن الأحمر والباجي فصالحه بألف دينار في كل يوم.

وفيها خلت بلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء، ووصل فيها قفيز القمح ثمانين دينارًا.

وفي سنة إحدى وثلاثين وقعت المقاتلة بين ابن الأحمر، وابن هود والباجي على مقربة من أشبيلية فهزمه، وفيها قتل ابن الأحمر غدراً ودخل إشبيلية، فأقام بها شهراً وأخرجه أهلها، وفي جمادى الآخرة منها ثار شعيب بن محمد بن محفوظ بلبلة وتسمى بالمعتصم، وفي شوال منها صالح ابن نصر ابن هود وبايعه على جيان وأرجونة وأحوازها وبركونة.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وستمئة نزل العدو جزيرة يابسة خمسة أشهر حتى دخلها، وفيها نازل الجنويون سبته بأجفان لا تحصي ونصبوا عليها المنجنيقات فلم يقدرُوا منها على شيء، وفي سنة ثلاث وثلاثين أفلح أهل جنوة عن مدينة سبته بعد الحصار الشديد والتضييق العظيم ونصب المجانيق الهائلة وآلات الحرب المعدة، فصالحهم أهلهم بأربعمئة ألف دينار، وفيها غدر النصارى شرقية قرطبة وذلك في ثالث شوال غشياً في غفلة السحار وسلّم الله عز وجل النساء والذراري حتى لحقوا بالمغربية، وبقي الناس معهم في قتال شديد، ولم يزل الغربية محصورة إلى أن اتخذت وملكها النصارى أجمع، وفيها انعقد الصلح بين ملك قشتالة وابن هود الأربعة أعوام بأربعمئة آلاف دينار في السنة، وفيها قتل أمير المؤمنين الرشيد أشياخ الخلط،

وفي سنة خمس وثلاثين بايع أهل أشبيلية للرشيد وبايعه أهل سبتة، وفيها اشتد الغلاء والوباء في العدو فأكَل الناس بعضهم بعضًا، وكان يدفن في الحفرة الواحدة المئة من الناس.

وفي سنة أربعين توفي الرشيد ووليّ أخوه السعيد.

وفي سنة ثلاث وأربعين ملك الأمير أبو يحيى مدينة مكناسة.

وفي سنة اثنتين وأربعين ملك النصارى مدينة بلنسية.

وفي سنة أربع وأربعين ملك النصارى مدينة جيان.

وفي سنة ستّ وأربعين توفي أبو الحسن السعيد، وفي هذه السنة ملك العدو مدينة أشبيلية، وفيها ملك الأمير أبو يحيى مدينة فاس ورباط تازا، وفي هذه السنة وقع الحريق بأسواق فاس فاحترق أسواق باب السلسلة بأسرها إلى حمام الرحبة، وفيها ولي المرتضى بمراكش.

وفي سنة ثلاث وخمسين كانت هزيمة المرتضى ببني بهلول من أحواز فاس.

وفي سنة خمس وستين قتل المرتضى بمراكش ووليّ أبو دبوس.

وفي سنة سبع وستين قتل أبو دبوس وهزم جيشه، وملك أمير المسلمين مدينة مراكش وأحوازها فدخلها يوم الأحد التاسع من محرم من سنة ثمان وستين وستمئة.

الخبر عن دولة السعيدة العبد الحقية المرينية أطالها الله
وخلد ملكها وأعلى كلمتها وأيدها وذكر نسبها الصريح
وقيامها بالحق والاعتقاد الصحيح وأخبار
ملوكهم وفتوحهم وغزواتهم وسيرهم
الجميلة وماثرهم

قال المؤلف عفا الله عنه:

أما بنو مرين فهو أعلى قبائل زناتة حسبًا، وأشرفها نسبًا، وأعزها كرمًا، وأحسنها شيمًا، وأرعها ذمامًا، وأرجحها أحلامًا، وأشدّها في الحروب بأسًا وإقدامًا وأكثرها دينًا، وأحسنها ظنًا، وأصحها يقينًا، وأوثقها عقدًا، وأوفاهها عهدًا، وأوفرها عددًا، وأطولها في الشدائد يدًا، لهم شرف اللجاء وحفظ الجوار وحماية الدمار، ووقود النار، وإكرام الضيف، والضرب بالسيف، والبعد عن الغدر، والعار والحيف والأدب والدين وإكرام العلماء وتوقير الصالحين، لم يزلوا على هذه السنن القديم والمنهاج المستقيم يعرفون به في الحادث والقديم، أبقاهم الله تعالى، متصلة أيامهم منصوره أعلامهم نافذة أحكامهم ماضية في الأعداء سيوفهم وأعلامهم بمنه وكرمه.

الخبر عن نسبهم الصريح وحسبهم العالي الصحيح

قال المؤلف عفا الله عنه:

نقلت من تقييد الفقيه أبي علي الملياني بخط يده، قال: بنو مرين فخذ من زناتة، وهم من ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يحفت بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سجيح بن واسبن بن بصليتن بن مسري بن زكرياء بن ورسيك بن زانات بن جانا بن يحيى بن تمزية بن ضريس وهو جالوت أول ملك البربر بن رجيج بن مادغيس الأبتري بن بر بن قيس بن غيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ومن زانات بن جانا تفرقت قبائل زناتة، فهم عرب صريح، والسبب في تغيير لسانهم عن اللغة العربية إلى اللغة البربرية، مما ذكره العلماء عن علماء التواريخ وأهل المعرفة بالأنساب وأيام الناس أن مضر بن نزار كان له ولدان

إلياس وغيلان أمهما الرباب بنت حيدة بن عمر بن معد بن عدنان فولد غيلان بن مضر ولدين قيس ودهمان ابني غيلان، وأما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة، وأما قيس بن غيلان فولد أربعة رجال وجارية، وهم: سعد، وعمر، وحفصة، أمهم مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار وبر، وأخته تماضر، أمهما بريغ بنت مجدل بن مجدول بن عمار بن مضر البربري المجدولي، وكانت قبائل البربر إذ ذاك يسكنون الشام ويجاورون العرب في المساكن والأسواق والمراعي ويشاركونهم في المياه والمسارح والمساعي، ويصاهر بعضهم بعضاً، وكانت البهاء بنت دهمان بن غيلان بن مضر من أجمل نساء زمانها وأكملهن طرفاً وحسناً، وكثير خطابها من كل قبيلة من العرب، فقال بنو عمها قيس - وهم: عمر، وسعد، وبر، وحفصة -: لا يتزوج بنت عمنا إلا أحدنا، ولا تخرج منا إلى غيرنا فخيروها فيمن شئت منهم فاختارت برّاً وكان أصغرهم سنّاً، وأكملهم شرفاً فتزوجته دون إخوته، فحسدوه عليها وهّموا بقتله من أجلها، وكانت أمه بريغ من دُهاة النساء فخافت على ولدها من إخوته فبعثت إلى البهاء بنت دهمان وأعلمتها بالخبر وتوطأت معها على الخروج إلى بلد إخوتها من البربر مع ولدها بر حيث تأمن عليه، ثم بعثت إلى قومها فأتوها سرّاً، فسارت معهم هي وولدها برّ والبهاء بنت دهمان فلحقوا بلاد البربر، فنزل برّ بين أخواله وأعرس بابنة عمّه، واعتزّ وامتنع ممن أراد به بالسيف، فولدت له هناك ولدين: علوان، ومادغيش ابني برّ بن قيس بن غيلان، فأما علوان فمات صغيراً ولم يعقب، وأما مادغيش بن بر فكان يلقب بالأبتر وهو أبو البتر من البربر، وإليه يرفعون أنسابهم من ولد جميع زناته، وفي ذلك يقول بعض ولد مدغيس في بر:

يا أيها السائل عن أحسابنا قيس غيلان بنو العزّ الأول
نجدها نحن برّ الندى طارد الأزمة نخار الإبل

ولبعض العرب في معناه:

ألا أيها الساعي لبرقة بيننا توقّف هداك الله سبل الأطائب
فأقسم أنا والبرابر أخوة ثنائاً وهم جدّ كريم المناسب
أبونا أبوهم قيس غيلان في الوراي لهم حرمة تشفى غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع وأخوة على رغم أعداء ليام المناقب
فمات برّ بن قيس في بلاد أخواله، فنشأ ولده مادغيس وذريته في البربر حتى
كثروا وساروا ألوفاً لا تعد ولا تحصى لسانهم بلغتهم ناطق، وحالهم يحالهم موافق
مطابق، يسكنون البراري والسباسب، ويركبون الخيل والنجائب، ناطقين بأفصح
لغاتهم، آخذين بأحسن سيرتهم ومنهاجهم، وبذلك رثت برّاً أخته تماضر بنت قيس
تبكيه وتذكر بُعده عن وطنه، وترثيه وذريته في أشعار كثيرة، منها:

لتبكي كل باكية أخاها كما أبكى على برّ بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى ودون لقائه إنضاء عنس
وهي القائلة أيضاً:

وشطت ببرّ داره عن بلادنا وطرح برّ نفسه حيث يما
وأورثت برّ لكنة أعجمية وما كان برّ بالحجاز بأعجا
وفي ذلك يقول صاحب أرجوزة نظم السلوك في أخبار من نزل المغرب عبد
العزیز الملزوزي:

فجاورت زناة البرابرا فصيّروا كلامهم كما ترى
ما بدّل الدهر سوى أقوالهم ولم يبدّل متهمى أحوالهم
بل فعلهم أربى على فعل العرب في الحال والإيثار ثم في الأدب
فانظر كلام العرب قد تبدّلا وحالهم عن حاله تحوّلا

لا يعرفون اليوم ما الكلام وما لهم نطق ولا أفهام
 وأن تمادت بهم الأحوال لم تبق في الدهر لهم أقوال
 كذلك كانت قبلهم مرين كلامهم كالدرّ إذ يبين
 فاتخذوا سواهم خليلا فبدّلوا كلامهم تبديلا

الخبر عن دخولهم المغرب وظهور ملكهم السني المعجب

لما أراد الله تعالى إظهار الدولة السعيدة المرينية المباركة العادلة الحقة، ومحو الدولة الموحدية المؤمنية لما سبق في علمه وقدره، من مبرم حكمه، كان من تقدم من الموحدين أولى حزم ورأى ودين، إلى أن كانت وقعة العقاب فأدنت دولتهم بالذهاب، فرجع الناصر منها ذا انكسار فدخل مراكش، فلم يزل أمره في إدبار إلى أن مات في سنة عشرة مفعوجاً، وولّى ولده المنتصر صبيّاً صغيراً هلوغاً لم يبلغ الحلم، ولا جرب الأمور، فاعتكف على اللهو واللعب والخمر، وسلّم الملك إلى أعمامه وقربائه، وفوّض أموره إلى وزرائه وأشياخ دولته، فتحاسدوا فيما بينهم على الرئاسة، وناقض بعضهم بعضاً تكبراً ونفاسة، وأدرك رؤساءهم الإعجاب فأضاعوا الأمور، وغلظوا الحجاب، وقطعوا الأرحام، وجاروا في الأحكام، وولّوا أمورهم سفلتهم، وتحكم عليهم أسرارهم فبدا الفساد في ملكهم، وظهر النقص في دينهم وبلادهم، وولّت أيامهم وأدبرت سعودهم، فجعل الله بأسهم بينهم، وبعث لفنائهم عصابة مرين وأيدهم عليهم، فأصبحوا ظاهرين، ومكّنهم في الأرض، وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، وكان بنو مرين أهل تصميم وصحة يقين، يسكنون القبلة من زاب أفريقية إلى سجلماسة، ينتقلون في تلك البراري والقفار، ولا يؤدّون لأمر درهم ولا ديناراً، ولا يدخلون تحت حكم سلطان، ولا يرضون بذل ولا هوان، لهم همم عالية ونفوس سامية، لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارات، جلّ أمواهم الخيل والإبل والخول، وطعامهم اللحم واللبن

والعسل، وكانت طائفة منهم يدخلون بلاد المغرب في زمان الصيف يكتالون ميرتهم ويرعون أنعامهم، فإذا توسط الخريف اجتمعوا ببلاد أجرسيف ثم يشدون رحالهم وينصرفون إلى بلادهم، كان ذلك دأبهم على مر الزمان وتعاقب الأحيان.

فلما كان في عام عشرة وستمئة أتوا على عادتهم من البرية فوجدوا المغرب قد باد أهله ورحاله وفني خيله ورجاله وأبطاله، ومات الكل بغزوة العقاب، واستولى على بلادهم الخراب، وعمرتها السباع والذئب، فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وخصبها وطيب مزارعها، وسعة مراعيها، وكثرة مياهها ومشارعها، والتفات أشجارها وغزر ثمارها، وأطراد عيونها وأنهارها، فأسرعوا إليها فليس بها من يصدكم عنها ولا ينازعكم فيها، فوصل الخبر إلى مرين فبادروا إلى المغرب منقلبين، وعلى الله عز وجل في أمورهم متوكلين، يقطعون المهامة والسباسب على ظهور الخيل والنجائب، يرمون الدنو والبلاغ حتى وصلوا إلى واد تلاغ فدخلوا المغرب من تلك الباب بالخيال والإبل والمراكب والقباب في جيوش كالسيل والليل المغمر، وأمم كالنمل أو كالجراد المنتشر، وذلك لأمر قد قدر، وليظهر ما كان في الغيب مجهولاً، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً:

قدمت مرين إلى بلاد المغرب والسعد يصحبها بنيل المطلب
في عام عشرة كان بدو دخولهم من بعد ستمئة فأحفظها وأكتب
وقال أبو فارس في رجزه:

في عام عشرة وست مئة أتوا إلى المغرب من البرية
جاءوا من الصحراء والسباسب على ظهور الخيل والنجائب
كمثل ما قد دخل المثلثون من قبل ذواهم لهم ميمون
وكانت ملوك الموحدين في تلك السنين قد تهاونوا في الأمور، واشتغلوا باللهو

والخمور، وركنوا إلى الغيد في القصور، فأدنى بهم ذلك إلى القصور:

فدخلت بنو مـرين المغرب والقدر يسوقهم لملكهم ويقرب
فانتشروا في بلاده كالجرد، وملأت عساكرهم الجنود والوهاد، فلم يزالوا
ينتقلون في بلاده ويسيرون في نجوده ووهاده، ويقطعون به مرحلة مرحلة حتى
أبادوا الجيش عام المشغلة، وهو عام ثلاثة عشر وستمئة.

قال المؤلف عفا الله عنه:

حدثني من أثق به من أهل التاريخ أنه لما دخل مـرين المغرب تفرقت قبائلها في
أنحاء، وشتوا الغارات على بلاده وأرجائه، فمن أذعن لهم بالطاعة سالموه، ومن
بدأهم بالحرب قاتلوه وقصموه، وفرّ الناس أمامهم يميناً وشمالاً، ولجئوا إلى الجبال
المنيعه لتكون لهم حصناً ومألاً، فاتصل خبرهم بـيوسف المنتصر، فأطرق في أمورهم
يفكر ويدبر، ثم دعا الوزراء وأشياخ الموحدين وشاورهم في أمر بني مـرين، فقالوا:
يا أمير المؤمنين لا تهتم بأمرهم، ولا يشتغل خاطرك بهم، فهم أضعف ناصرًا وأقل
عدداً ولكننا لا نترك لهم سداً بل سنبعث لهم جيشاً من الموحدين يبددهم في الحين،
يقتل رجالهم وينهب أموالهم ويسبي نساءهم ويشرد بهم من خلفهم ويطفئ بهم
جمرة من سواهم، فبعث إليهم بجيش من عشرين ألفاً من الموحدين، وقدم عليهم
أبا علي بن وانودين، وأمرهم باستئصال مـرين، وقال لهم اقتلوا الوالد والولد، ولا
تبقوا منهم أحداً، فارتحل الجيش عن مراكش قاصداً للحرب والتناوش، فسمعت
مـرين بإقبالهم فتأهبوا لحربهم ونزاهم، وتلاقت قبائلها، وتشاور رؤسائها وأقيالها،
فاجتمعت كلمتهم واتفق رأيهم وقولهم أن يجعلوا بقلعة تازوطة حريمهم وأموالهم،
ثم أقبلوا مستعدين لقتال جيش الموحدين، فالتقى الجمعان بمقربة من واد تكور
فكان بينهم حرب عظيمة مذكورة، منح الله تعالى فيها بني مـرين النصر على

الموحدين فهزموهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً، وفرّ من أفلت منهم خائفاً جزوعاً، واحتوت مرين على جميع ما كان في محلتهم من الأثاث والمال والعدد والخيول والبغال، فقويت مرين بذلك قوة عظيمة وشكروا الله تعالى على ما خوّلهم من نعمة الجسيمة، وهابهم جميع من بالمغرب من الناس، ودخل فلّ جيش الموحدين إلى رباط تازا ومدينة فاس حفاة عراة منهزمين بالمشعلة محتزمين، وبأوراقها مستترين، قد علاهم الغبار واعتراهم الأدبار، وبدت عليهم الذلة والصغار، دموعهم مرسلة وقلوبهم بالحزن مشعلة، فسمي العام عام المشعلة، وبه قوي أمر بني مرين، وضعف ملك الموحدين، فخلت بلادهم وقل خراجهم، وفني أشرافهم وقتل حماهم وأنصارهم، وجعل الله بأسهم بينهم، فكان أشياخهم يولون سلطاناً ثم يخلعونهم ويولون غيره، ثم يقتلونه وينهبون ذخائره، وأمواله ويقتسمون خوله وعياله، فخلعوا عبد الواحد ثم قتلوه، وبايعوا بعده العادل ثم دخلوا عليه فخنقوه، وبعثوا إلى المأمون ببيعتهم ثم نكثوا وبايعوا ابن أخيه يحيى في الحين وما تلبثوا، فضعف ملكهم بذلك ودوي، وظهر مرين واعتزّ وقوي.

الخبر عن الأمير المبارك أبي محمد عبد الحق

هو الأمير أبو محمد عبد الحق بن الأمير أبي خالد محبو أبي بكر بن حمادة بن محمد الزناني المريني ثم الحمامي أمير بن أمير إلى مرين بن ورتاجن بن مخوخ، شهد والده أبو خالد محبو ابن أبي بكر غزوة الأراك مع أمير المؤمنين المنصور متطوعاً، فعقد له في ذلك اليوم على جميع من في عسكره من زناتة، وأبلى بلاء حسناً، وتوقّ -رحمة الله عليه- في سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة ببلاده من قبلة زاب أفريقية بعد انصرافه من غزوة الأراك المذكورة من جراحات نالته من تلك الغزوة فانتقضت عليه فمات شهيداً، فأقام بأمر بني مرين بعده ولد الأمير أبو محمد عبد الحق، وكان في بني مرين

مشهورًا بالتقي والفضل والدين والصلاح والبركة واليقين، معروفًا بالورع والعفاف، موصوفًا في أحكامه بالعدل والإنصاف، يطعم الطعام ويكفل الأيتام، ويؤثر على المساكين ويحنو على المستضعفين، كانت له بركة معروفة، ودعوة مستجابة موصوفة، كانت قلنسوته وسراويله يتبرّك بهما في جميع أحياء زناته، يحملون إليه الحوامل اللواتي صعب عليهن الوضع فيهنّ الله تعالى عليهن الوضع ويسهل عليهن الولادة ببركته، وكانت بقية ماء وضوء يحملها الناس فيستشفون بها لمرضاهم، وكان - رحمه الله - على سنن أهل الفضل يسرد الصوم فلا يزال صائمًا في شدة الحر والبرد، ولا يرى مفطرًا إلا في أيام الأعياد خاصة، كثير الذكر والتسبيح والأوراد، لا يفتر عن الذكر على أي حالة كان، ولا يأكل إلا الحلال المحض من طيب كسبه من لحوم إبله وغنمه وألبانها، ومما يعاينه بيده من الصيد، فكان في قبائل مرين علمًا مشهورًا وأميرًا مطاعًا مذكورًا، يقفون عنده أمره ونهيه، ولا يصدرون في جميع أمورهم إلا عن رأيه، وكان قليل الولد فريدًا في العدد، فنام ليلة بعد أن فرغ من ورده وأكثر من ذكر الله وحمده، فرأى في منزلته منامة كانت له ولعقبه دليل الملك والإمامة، ورأى كأن قبس نار خرج من ذكره فعلا في الهواء وارتفع حتى احتوى على أقطار المغرب أجمع واستولى على جهاته الأربع، فقصّ رؤياه على بعض الصالحين، فقال: أبشر ولا تخف منها، فهي لك عزّ وتمكين، هذه رؤيا جليلة لك ولعقبك، بها شرف وفضيلة دلت على الملك والتعظيم والتأييد والتفخيم، إنك تلد أولادًا ذكورًا يكون لهم فخر مذكور وشرف مشهور، يملك المغرب منهم أربعة، تكون الأمة على آخرهم مجتمعة، فيكون لهم التقديم والرياسة، والإمارة والسياسة، يتورث الملك في بنهم وأعقابهم، وبهم يستقرّ الأمر في نصابه.

فكان الأمر كما نصّ عليه ولم يمت حتى رأى ما ذكر له قد صار إليه، فملك أمر بني مرين أجمع، وتوارث الأمر بعده بنوه الأربع، وفي شهر ذي حجة من سنة ثلاث

عشرة المذكورة زحف الأمير أبو محمد عبد الحق بجيش بني مرين إلى رباط تازا فوقف بإزاء زيتونها، فخرج لحربه عاملها في جيش كثيف من الموحدین والعرب والحشد من قبائل من تسول ومكناسة وغيرهم، فقتل العامل، وهزم جيشه، وجمع أبو يحيى الأسلاب والخيول والسلاح، وقسم ذلك كله في قبائل مرين، ولم يمسك منها شيئاً، وقال لبنیه: إياكم أن تأخذوا من هذه الغنيمة شيئاً، يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم.

وفي شهر جمادي الآخرة من سنة أربع عشرة وستمئة كانت الملاقاة بين قبائل مرين وعرب رياح ومن ظاهرهم من بني عسكر، وكانت رياح أقوى قبائل عرب المغرب، وأشجعها لكثرتها خيلاً ورجالاً وأموالاً، ولما أقبلوا لقتال مرين، وسمعت بنوا مرين بإقبالهم، اجتمعوا إلى أميرهم أبي محمد عبد الحق، فقالوا له: أنت أميرنا ورئيسنا، فما ترى في أمر هؤلاء العرب المقبلين إلينا؟ فقال لهم: يا معشر مرين أما إن كنتم في أمركم مجتمعين، وفي أحوالكم متفقين، وكنتم جميعاً في حرب عدوكم أعواناً، وفي ذات الله إخواناً، فلا أخشى أن ألاقي بكم جميع أهل المغرب، وإن اختلفت أقوالكم، وشتت أراؤكم ظفر بكم أعداؤكم، فقالوا له: إنا نجدد لك بيعة على السمع والطاعة، وعلى أن لا نختلف عليك ولا نفرّ عنك إلى أن نموت دونك، فانفض بنا إليهم على بركة الله تعالى.

فالتقى الجمعان بقرية من واد سبوا على أميال من تافرطست، فكانت بينهم حرب عظيمة، قتل فيها الأمير أبو محمد عبد الحق وولده إدريس، فغضبت مرين لقتل أميرها، وأسفت لموت رئيسها وكبيرها، وتراجعت كالأسد زهيرها وهريرها، وأقسمت بأيمانها ألا يدفن حتى تأخذوا ثأره، وتحمي ذماره، فحملوا على رياح حملة الأسد على الثعالب، وانقضوا في جيوشهم انقضاض البزات في اليعاقب، فصبروا

لقتال رياح صبرًا جميلًا، ورأوا أن لا محيد عن الموت في حربهم ولا تحويلاً، فاشتد الحرب بينهم والكفاح، وقتل منهم خلق عديد، وسار من بقي منهم مهزومًا، واحتوت مرين على جميع ما كان في حللهم من الأموال والعدد والثياب والخيل والإبل والدواب، وأقام بأمرهم بعد موت أبي محمد عبد الحق أميرهم ولده عثمان.

قال المؤلف عفا الله عنه:

أخبرني الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن الودون، وأخوه الفقيه أبو الحجاج يوسف، أنهما قدما على أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق - رحمه الله ورضي عنه - في وفد أهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء بمدينة رباط الفتح، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وستمئة للسلام عليه حين قدم من مدينة مراكش يريد الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد فجراً في مجلسه - رحمه الله - ذكر والده الأمير أبي محمد عبد الحق، فقال أمير المسلمين أبو يوسف: كان والله الأمير عبد الحق صادق اللسان، إذا قال فعل، وإذا عاهد وفا، لم يخلف قط بالله تعالى برًا ولا حثًا، ولا شرب مسكرًا، ولا ارتكب فاحشة، ببركة إزاره تضع الحوامل اللواتي صعب عليهن الوضع، وكان يسرد الصوم، ويقوم أكثر الليل، وإذا سمع بصالح أو عابد قصد لزيارته واستوهب منه الدعاء، شديد الخوف من الصالحين، متواضعًا لهم، وكان مع ذلك سماً لأعدائه قاهرًا لهم، وما وجدنا إلا ببركته وبركة من دعا له من الصالحين.

الخبر عن دولة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق

قال المؤلف عفا الله عنه:

لما فرغ بنو مرين من قتال رباح ورجعوا من أتباعهم، اجتمعوا إلى أمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق فعزّوه عن أبيه وأخيه وبايعوه عن رضاء منهم وتنويه، فأخذ في غسل أبيه ودفنه، وقلبه يتلهب بالأسى من حزنه، فلما فرغ من شأنه وقف بين قومه وإخوانه، فأمر بجمع السلب والأموال فقسمها بين قبائل مرين بالسوية والاعتدال، ثم سار إلى غزو رباح وحلف ألا يكفّ عنهم حتى يقتل منهم بأبيه مئة شيخ من أشrafهم، فقتل منهم خلقاً عديداً فلما رأت رباح ذلك أذعنوا له بالطاعة، فكفّ عنهم على مال جليل يؤدونه في كل عام، وفي هذه المدة ضعفت دولة الموحدين، وظهر فيها النقص وتبين أي تبين، وصارت ملوكهم ليس لهم حكم في البوادي، وإنما سلطانهم وأمرهم في المدائن خاصة، وكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمشاهد، ونبت أكثر الناس الطاعة وفارقوا الجماعة، وقالوا لولاتهم: لا سمع ولا طاعة، فاستوى الدني والشريف، وأكل القوي الضعيف، وكان من قدر على شيء صنعه، ومن أراد شراً ابتدعه، ليس لهم سلطان يكفّهم، ولا أمير يردّهم ويصدّهم، وكانت قبائل فازان من جناتة وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات ويغيّرون على القرى والمجاشر مع الأحيان والأوقات، فلما رأى الأمير أبو سعيد بن عبد الحق ملوك الموحدين قد ضعفت دولتهم وضيعوا حرمتهم، وأهملوا راعتهم واعتكفوا في قصورهم، واحتجبوا عن مهمات أمورهم، واشتغلوا بالخمر والغواني وتلذذوا باللهو وسماع الأغاني، ورأى أن ضلالهم قد تبين، وغزوهم على من له قوة قد تعين، وخلعهم أوجب الوجائب لعجزهم عن القيام بالحق الواجب، فجمع أشياخ مرين وندبهم إلى القيام بأمر الدين، والنظر في مصالح المسلمين، فوجدهم إلى ذلك مسرعين، فار بجيوشهم الوافرة وجنودهم المنصورة الظافرة في بلاد المغرب وقبائله وجباله وأوديته ومناهلهم، فمن سارع إلى بيعته ودخل في طاعته أمنه، ووضع عليه الخراج وتركه أمناً منيعاً، ومن خادعه

ونابذه أباده نهبًا وقتلاً وغادره سريعًا، فكان أول من بايعه من قبائل المغرب هواره وزجارة، ثم تسول ومكناسة، ثم بطوية وقشتالة، ثم سدراتة وبهلولة ومديونة. فوضع عليهم الخراج وأخرج لهم الحفاظ، وصالح أهل مدينة فاس ومكناسة ورباط تازا وقصر عبد الكريم على أموال معلومة يودونها إليه في كل سنة على أن يؤمن بلادهم، ويرفع عنهم الغارات، ويرفع عنهم أذى من كان يؤذيهم من القبائل، وفي سنة عشرين وستمئة غزا الأمير أبو سعيد بلاد فازان ومن بها من قبائل جناتة، فأثنى فيهم حتى أذعنوا له بالطاعة، وكفوا أذاهم عن الناس واستكفوا عن الفساد، وفي سنة إحدى وعشرين غزا من بفحص أزغار من القبائل والعرب، فأبادهم وأخلى البلاد منهم، وكان رحمه الله شديد الحزم ذا نجدة وشجاعة وعزم، له رأي سديد، وعضد شديد، وكرم وإيثار، وحماية الذمار، وحفظ للجار، وحياء ودين، والفصل المستبين، معظمًا للفقهاء مكرمًا للصالحاء، سلك بذلك منهاج أبيه وطريقته، ولم يزل على ذلك حتى توفى - رحمه الله - اغتاله عالج كان له ربه صغيرًا، ضربه بحربة في منحره فمات من حينه، وذلك في سنة ثمان وثلاثين وستمئة فكانت أيام إمارته على مرين وبواد المغرب، من وفاة والده وبيعة قبائل مرين إليه، ثلاث وعشرين سنة وسبعة أشهر.

الخبر عن دولة الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق رحمه الله
لما قتل الأمير عثمان بن عبد الحق اجتمعت أشياخ مرين إلى أخيه محمد فبايعوه على السمع والطاعة وأن يحاربوا من حارب، ويسالموا من سالم، فاستقام له أمرهم، وسار فيهم بسيرة أخيه، وفتح كثيرًا من جبال المغرب وبواديه، وكان - رحمه الله - شهيمًا بطلاً شجاعًا مؤيدًا منصورًا مهيبًا مطاعًا، كثير الغارات، حسن السياسة والمحاولة، لا يفتر في أيامه عن قتال، ولم يزل مرتكبًا للحرب والأهوال، عارفًا بمكايد الحرب وخدعه، فكان كما وصفه الشاعر في مدحه:

ثم ولي من بعده محمد وكان في أموره مُسدد
فكان لا يفتر عن قتال مواظبًا للحرب والنزال
كم عسر لفا وكم حشود ومن جموع جهة الجنود
وكم من جيش جاء من مراکش أفناه في الحروب والتناوش
نهاره وليله طعان لكنّه مؤيد معان

وكان الأمير أبو معرف مع ذلك مبارك الإمارات ميمون النقيبة، حسن الإدارات، ذا عقل ودهاء ورأي وصدق ووفاء، إذا صال أفنى، وإذا أعطى أغنى، وإذا رأى الفرصة انتهزها، لم يزل يحارب جيوش الموحدين فيرجعون إليه خادمين إلى أن كانت سنة اثنتين وأربعين، وقد تمكن في الملك أي تمكن، فأخبر السعيد بشدة بأسه وجلاده، وأنه قد استحوذ على أكثر بلاده، فبعث إليه بجيش كثيف من عشرين ألف فارس من قبائل الموحدين والعرب وهسكورة وقادة الروم، فسار الجيش قاصدًا إليه، فسمع الأمير أبو معرف بإقباله، فاستعد لقتاله وعوّل عليه، فالتقى الجمعان بموضع يعرف بصخرة أبي بياس من أحواز مدينة فاس، فكانت بينهم حروب عظيمة لم يسمع بمثلها من أول النهار إلى آخره، فلما كان في العشي قتل الأمير أبو معرف محمد بن عبد الحق، قتله زعيم من الروم في المعركة تحاملاً، فطمرت به الفرس فأمكنن الرومي منه الغرة، فطعنه فمات - رحمه الله - وانهزمت مرين، واتخذوا الليل جملاً، فساروا طول ليلتهم بحللتهم وعيالاتهم وأمواهم، فأصبحوا بجبل غيالة، فتمنعوا بها أياماً، وكانت هذه الواقعة وموت الأمير أبي معرف عشي يوم الخميس التاسع من جمادي الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمئة، وولي مكانه الأمير أخوه أبو يحيى بن عبد الحق رحمه الله.

الخبر عن دولة الأمير الأجل أبي يحيى بن عبد الحق

هو الأمير أبو بكر بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حماسة الزناتي المريني الحمامي.

كنيته: أبو يحيى

أمه: الحرة العبد الوادية.

صفته: أبيض اللون مشوبًا بحمرة، تام القامة، سبط الجسم، حسن الوجه، مطلق اليدين يضرب بكلتا يديه، ويرمي بحربتين في حالة واحدة، فارسًا شجاعًا بطلاً، لم يكن في زمانه مثله، ذا حزم وعزم ضرغام، كان في الحرب فريد عصره ونسيج وحده، يقيم في الجيوش مقام جنده، وكانت الأبطال تهاب مبارزته، والزعماء يخافون محاربته ومناجزته، وكان مع ذلك كريماً جواداً كالغمام، يعطي عطاء تعجز عنه الملوك العظام، وافٍ بالعهود، صادق في الأقوال والوعد، فاق ملوك الأرض بالزعامه، وفي الوفاء والصدق والكرامة، هو أول ملك من بني مرين، جند الجنود وضرب الطبول ونشر البنود، وملك الحصون والبلاد، واكتسب الطارف والتلاد، قد أعطى النصر والتمكين، فكان عنوان سعد بني مرين.

لما تمت بيعته واستقرت في الملوك طلعتة كان في أول شيء فعله أنه جمع أشياخ قبائل مرين، فقسم عليهم بلاد المغرب، فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها منزلة فيه من الأرض وما غلب عليه من البلاد طعمة لا يشركهم فيها غيرهم، وأمر كل واحد من الأشياخ أن يركب الرجال ويستكثر من الفرسان للقتال، ثم سار هو بجملته فنزل جبل زرهون بإخوانه وجملته، فكان يغادي مدينة مكناسة بالقتال ويرأوها حتى غلب عليها وملكها، وذلك في سنة ثلاث وأربعين وستمئة في أيام السعيد الموحد فتحها صلحاً على يد شيخها أبي الحسن بن أبي العافية، فاتصل

بالسعيد ملك الموحدين، تملك أبي يحيى إياها فخرج إلى قتاله من مراکش في جيوش عظيمة وجنود وافرة من الموحدين والمصامدة والعرب والروم، فسار حتى وصل إلى واد بهت فنزل عليه وأخذ في تمييز جيوشه، فخرج الأمير أبو يحيى ليلاً وحده من مكناسة متحسباً ومتجسباً يطلع على عساكر السعيد، فسار حتى وصل إلى المحلة وشاهد أحوالها وعان كثرة جيوشها وأبطالها، فعلم أنه لا طاقة له بلقائها، فتخلا له عن البلاد، وبعث إلى قبائل مرين، واجتمعت إليه من كل واد، فارتحل بهم إلى قلعة نازا وطامن بلاد الريف، وأتى السعيد حتى نزل مكناسة فتلقاه أهلها بأولادهم وعيالاتهم يطلبون عفوه فعفا عنهم وأمنهم، وارتحل عنهم إلى مدينة فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة، فخرج إليه أشياخها فسلموا عليه، فتكلم لهم خيراً، وسألوه دخول المدينة فأبأ وارتحل إلى رباط تازا فنزل بخارجها، فبعث إليه الأمير أبو يحيى ببيعته فقبلها، وكتب له بالأمان هو وجميع قبائل مرين على أن يبعث له حصة من خمسمئة فارس من أنجاد بني مرين برسم الخدمة، فقال له الأمير أبو يحيى: يا أمير المؤمنين، ارجع إلى حضرتك وقوّني بالجيش والرماة، وأنا أكفيك أمر يغمراسن، وأفتح لك تلمسان وأحوازها.

فعزم السعيد على ذلك ثم استشار وزراءه فيه، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، لا تفعل فإن الزناتي أخو الزناتي، لا يخذله ولا يسلمه، فنخاف أن يصطلحاً عليك ويجتمعاً على حربك، فكتب إليه أن يقعد بموضعه وبعث إليه بالحصّة، فبعث له خمسمئة فارس من أنجاد بني مرين، فسار السعيد إلى تلمسان فمات على تامز جردت من أحوازها وهو محاصر ليغمراسن بن زيان، فاتصل خبر موته بالأمير أبي يحيى وقدمت عليه الحصّة التي كانت توجهت مع السعيد للخدمة فأعلموه بموته، وافترق جيوشه، ونهب أمواله وعياله، فجدد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها، فأقام بها أياماً وخرج إلى رباط تازا فملكها، وفتح جميع حصون ملوية، وذلك كله في

آخر شهر صفر من سنة ست وأربعين وستمئة.

وفي آخر شهر ربيع الآخر من سنة ست وأربعين المذكورة ملك الأمير أبو يحيى مدينة فاس، دخلها صلحا عن رضا من أهلها، بعث إليه أشياخها فأتاهم فبايعوه بالرابطة التي بخارج باب الشريعة منها، وكان أول من بايعه الشيخ الفقيه الصالح أبو محمد القشتالي ثم الفقهاء والأشياخ، وأخرجوا السيد أبا العباس من القصبة بعياله وأولاده، فأمنه الأمير أبو يحيى وأعطاه خمسين فارسًا يبلغونه إلى واد أم الربيع، ودخل الأمير أبو يحيى مدينة فاس يوم الخميس قرب الزوال السادس والعشرين من ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمئة.

وذلك بعد وفاة السعيد بشهرين، فاستقامت له الأمور بالمغرب، وتمهد له الملك، وقدمت عليه الوفود للبيعة والتهنئة، وتهذنت البلاد وتأمنت الطرقات وكثرت الخيرات، وتحركت التجار، وأمر القبائل بسكنى الأرضية وعمارة القرى والمجاشر الخالية، والاستكثار من الحرث، فرخصت الأسعار وصلاح أمر الناس، وأعطى رباط تازا لأخيه يعقوب مع جميع حصون ملوية، وأقام هو بمدينة فاس سنة كاملة، والوفود تقصد إليه من كل ناحية، فلما كان من شهر ربيع الأول من سنة سبع وأربعين خرج الأمير أبو يحيى من بلاد فاس إلى معدن العوامر من فازاز، واستخلف عليها مولاه السعود بن خرباش الحشمي، فلما وغل أبو يحيى في بلاد فازاز اجتمعت نفر من أشياخ فاس إلى قاضيها أبي عبد الرحمن المغيلي وتأمروا على خلع الأمير أبي يحيى وقتل مولاه السعود الذي تركه خليفة عليهم، وأن يبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى ويضبطون بلادهم إلى أن يأتيهم عامله فيمكنوه منها، فاتفق رأيهم على ذلك، وبعثوا إلى القائد شديد الرومي فتوافقوا معه على ذلك، وكان شديد القائد قد ولاه الموحدون قيادة مدينة فاس، فكان بها في مائتين فارس من الروم إلى أن دخلها بنو

ميرين فأقروه على حاله وخدمته، وكان مائلاً بسبب ذلك إلى الموحدين فقالوا له: تقتل هذا الأسود، وتضبط بعده البلاد، ونبعث إلى المرتضى ببيعتنا فيبعث لنا من يقوم بأمرنا فتضمن لهم الرومي قتل السعود، فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء الموفى عشرين لشوال سنة سبع وأربعين وستمئة طلع الأشياخ إلى القصة يصبحون على السعود فسلموا عليه وقعدوا بين يديه فانتهرهم السعود، وغلظ عليهم في القول وتوعدهم، فردّوا عليه بسوء رد ثم نادوا بشعارهم إلى القائد الرومي، وكان وقفاً في عسكره أمام القبة فقتلوا السعود وأربعة من رجاله واحتزوا رأسه، وجعلوه على عصي وطوّفوه في أسواق المدينة وطرفها، ودخل الأشياخ القصر فأخذوا ما وجدوا به من الأموال والثياب واقتسموا ذلك، وسدوا أبواب المدينة وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى، فاتصل الخبر بأمير المؤمنين أبي يحيى فجذّ السير نحوهم، فوجد أبواب المدينة مغلقة في وجهه وأشياخها مستعدين لقتاله، فحاصروهم بها مدة تسعة أشهر فلم يقدر منها على شيء، واتصل الخبر بيغمراسن بن زيان، وخرج من تلمسان برسم رباط تازا، فترك على فاس حصّة من بني ميرين تحاصرها، ويتباكر بها بالقتال ويتراوحها، وارتحل عنها إلى لقاء يغمراسن وقاتله فالتقاء بواد أبسلي من أحواز وجدة، فكانت بينهما حرب عظيمة هرب فيها يغمراسن وترك أمواله ومحلته، فاحتوى الأمير أبو يحيى على ذلك كله، وقتل من بني بني عبد الواد في هذه الهزيمة أنجادهم ثم رجع الأمير أبو يحيى إلى فاس فوصلها في جمادي الآخرة ثم سنة ثمان وأربعين، فشدّ عليهم الحصار والقتال، فلما رأى ذلك أهلها سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلّوا في فعلهم إذ لم يأتهم ناصر من قبل الموحدين وليس لهم طاقة على بني ميرين، فبعثوا إلى الأمير أبي يحيى يطلبون منه الأمان ويسألون منه العفو والامتنان فأمنهم، على أن يعطوه ما أخذوه من المال وذلك مئة ألف دينار على الكمال، فوفقهم على ذلك وفتحوا له أبواب المدينة فدخلها في أحسن ترتيب، وأكمل زينة وذلك في

ثلاثة وعشرين من جمادي الآخرة المذكورة فأقام بها أيام إلى شهر رجب الثاني، وهم يسوقونه في المال ويلدون له في المقال فلما رأى ذلك منهم قبض على أشياخها ورؤسائها وأشرافها، فثقفهم بالحديد وطالبهم في المال والأثاث الذي انتهبوا من قصره فقال له شيخ منهم يعرف بابن الحبا: إنما فعل الذنب منا ستة، فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ ولو فعلت ما أقول لك لكان صواباً وحزماً قال: وما هو أيها الشيخ؟ قال: خرج هؤلاء الستة الذين سعوا في الفتنة وكانوا رأسها للسيف فتشعف بهم وتأخذنا نحن بغرم الأموال؟ قال: صدقت في مقالك. فقتل الأشياخ الستة، وهم القاضي أبو عبد الرحمن المغيلي وولده والمشرّف بن داش وأخوه وابن أبي طاط وولده، ونهبت ديارهم وأموالهم وأخذت أرباعهم، وكان قتلهم بخارج باب الشريعة يوم الأحد الثامن من شهر رجب المذكور عام ثمانية وأربعين وستمئة، وأخذ سائر الأشياخ بغرم المال فذلوا ولم يكن فيهم من يرفع رأساً بعدها إلى يومها هذا.

وفي سنة تسع وأربعين ملك الأمير أبو يحيى مدينة سلا وولي عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الحق.

وفي ثلاث وخمسين هزم أبو يحيى المرتضى بجمال بهلولة من أحواز فاس، واحتوى على جميع ما كان في محلته من الأموال والعدد والأخبية والقباب والخيول والإبل، وملك فيها بنوا مرين أموالاً جلية.

وفي سنة خمس وخمسين ملك الأمير أبو يحيى مدينة سجلماسة ودرعة وكانا للمرتضى فطمع فيها يغمراسن وسار نحوها في جيش كثيف من بني عبد الواد والعرب، واتصل خبر مسيره إليها بالأمير أبي يحيى وهو بمدينة فاس، فجمع عساكر مرين وجد السير إلى سجلماسة، فوجد يغمراسن قد نزل بخارجها بباب ناحسة

فكانت بينهما حرب عظيمة، فهزم فيها يغمراسن وفرّ إلى تلمسان، وأسلم له سجلماسة ودرعة فملكهما، وأقام بهما حتى أصلح أحوالهما ووليّ عليهما عامله أبا يحيى القطراني، وأوصاه بما أحب وارتحل إلى مدينة فاس، فدخلها وقد عظم ملكه وكثر جيشه وجنوده، وتأمّنت البلاد وانقمع أهل الفساد، وكثرت العمارات وفني أهل الدعرات.

وفي سنة ست وخمسين في رجب منها مرض الأمير أبو يحيى بمدينة فاس فمات بها بعد أيام حتف أنفه، ودفن بداخل باب الجزين من أبواب عدوة الأندلس بإزاء قبر الشيخ الفقيه الصالح أبي محمد القشتالي تبرّكاً به، فإنه - رحمه الله - كان أوصى بذلك في حياته، فكانت أيام ملكه من يوم بوبع بعد وفاة السعيد في أول ست وأربعين إلى أن توفي في شهر رجب سنة ست وخمسين عشر سنين كاملة وأشهر.

ولما توفي الأمير أبو يحيى قام عامله أبو يحيى القطراني بسجلماسة فدعا لنفسه وبإيعه أهلها، فأقام عليها أميراً ستين ثم قتل في سنة ثمان وخمسين، وقام بها عليّ بن عمر بدعوة المرتضى فملكها ثلاث سنين ونصف إلى أن توفي عليّ بن عمر المذكور في سنة اثنتين وستين.

فقام عليها عرب الملبات بدعوة يغمراسن بن زيان وبعثوا إليه ببيعتهم فبعث إليها عاملاً من بني عبد الواد فلم تزل بيد يغمراسن بن زيان إلى أن دخلها عليه أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق في آخر يوم من صفر سنة ثلاث وسبعين وست مئة.

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق
هو أمير المسلمين عبد الله يعقوب الأمير أبي محمد عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمّامة بن محمد الزناتي ثم المريني الحماسي.

أمه: حرة، اسمها: أم اليمان بنت عليّ البطري الزناتي، كانت أمه وهي بكر رأت في منامها كأن القمر قد خرج من قلبها حتى صعد في السماء وأشرق نوره على الأرض فقصت رؤياها على أبيها فسار إلى الشيخ الصالح أبي عثمان الوريكلي فقصّ عليه رؤيا ابنته، فقال له: إن صدقت روياء هذه الجارية، فإنها تلد ملكاً عظيماً صالحاً عادلاً يعم الناس خيره وبركته، فكان كذلك.

ولما تزوجها الأمير أبو محمد عبد الحق قال له والدها علي: بارك الله لك فيها أمّا، والله أنها لناصية مباركة، وإنك ستعرف بركتها، وستلد لك ملكاً عظيماً يكون عزّاً لك ولقومك إلى آخر الدهر.

مولده: في سنة سبع وست مئة، وقيل سنة تسع وست مئة.

كنيته: أبو يوسف.

لقبه: المنصور بالله.

صفته: أبيض اللون، تام القدّ، معتدل الجسم، حسن الوجه، واسع المنكبين، كامل اللحية معتدلاً، أشيب، كانت لحيته من بياضها قطعة ثلج، سمح الوجه، كريم اللقاء، شديد الصفح، حسن العفو، حليماً متواضعاً شفيقاً كريماً جواداً مظفراً منصور الراية، ميمون النقيبة، لم تنهزم له قطّ راية، ولم يقصد قطّ عدوّاً إلا قهره، ولا جيشاً إلا هزمه ولا بلدة إلا فتحها، صواماً قواماً دائم الذكر كثير البرّ، لا يزال ذاكرًا آناء الليل وأطراف النهار، سُجّته في يده لا يزلها في أكثر أوقاته مكرّماً للصلحاء موقّراً لهم مرفعاً للعلماء مقرباً لهم، صادرًا في أكثر أموره وأحكامه عن رأيهم، ناصرًا في مصالح المسلمين كثير التحنن والرافة على الضعفاء والمساكين، ولما وليّ واستقام له الأمر صنع المستنانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم النفقة وجميع ما

يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم في كل يوم غدوة وعشية، وأجرى على الكل الإنفاق والمرتبات من بيت المال،، وكذلك أجرى على الجذماء والعميان والفقراء مالا معلوماً يأخذونه في كل شهر من جزية اليهود - لعنهم الله - وبنا المدارس ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن وطلبة العلم، وأجرى عليهم المرتبات في كل شهر كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده الصالح.

قضاته بفاس: الفقيه أبو الحسن بن أحمد المعروف بابن عزاز، والفقيه أبو عبد الله بن عمران، والفقيه أبو جعفر المزدغي، والفقيه أبو أمية المدلائي.

وقضاته بحضرة مراكش: الفقيه القاضي العالم المشاور أبو عبد الله الشريف، والفقيه القاضي أبو فارس العمراني.

وزرائه: الشيخ الوزير أبو زكرياء يحيى بن حازم العلوي، والشيخ الوزير علي يحيى بن أبي مدين العسكري، والشيخ الوزير أبو سالم فتح الله السدراتي، حاجبه مولاه القائد عتيق.

كتابه: الفقيه أبو عبد الله الكناني، وأخوه الفقيه أبو الطيب سعد الكناني، والفقيه أبو عبد الله بن أبي مدين العثماني.

بويع له - رحمه الله - بالخلافة بعد وفاة أخيه أبي يحيى بثمانية أيام، وذلك في اليوم السابع والعشرين لرجب سنة ست وخمسين وستمئة وسنة يوم بويع ست وأربعين سنة، فاستقام له الأمر وفتح البلاد من أقصى السوس إلى وجدة، وفتح حضرة مراكش وقطع ملك الموحيدين ومحا آثارهم، وفتح مدينة سجلماسة وبلاد درعة ومدينة طنجة، وبايعه أهل سبتة على مال يؤدون له في كل سنة، وجاز إلى الأندلس

برسم الجهاد، فملك بها ما يزيد على خمسين قصرًا ما بين مدن وحصون، منها: مالة ورندة، والخضراء، وطريف، والمنكب، ومربالة، وأشبونة، وما بين ذلك من الحصون والقُرى والبروج، وخطب له على جميع منابر المغرب، وهو أول ملك حمى الإسلام من بني مرين، وشتت الصلبان وغزا بلاد الروم فدوخها وقهر ملوكها وقصورها، وأعز الله تعالى به الدين، ورفع بدولته منار المسلمين، وكانت الروم قبل ذلك قد استطالت أيديهم فملكوا أكثر بلاد الأندلس ولم تنصر للمسلمين بها راية من وقعة العقاب التي كانت في سنة تسع وستمئة إلى أن جازت للجهاد رايته المنصورة وجيوشه، وذلك في عام أربع وسبعين وستمئة، فملك العدوتين واحتوى على ملك الحضرتين، فله الغزوات المشهورة والمآثر المذكورة والسيرة المحمودة والفضائل المشهورة، والورع والدين والعدل والرفع بالمسلمين منصورًا على من ناوئه، مؤيدًا على من عاداه، لم يزل على هذه السنن القويم إلى أن أتاه اليقين.

الخبر عن سيرته الجليلة ومآثره الجميلة نذكرها مختصرة وجيزة ونقتصر منها على ما ذكر صاحب الأرجوزة

سيرة يعقوب بن عبد الحق	قد حاز فيها قضايا السبق
سيرته أن يقرأ الكتاب	ويذكر العلوم والآداب
يقوم للصلاة ثلث الليل	وماله عن ورده بميل
حتى إذا ما الصبح لاح وانصدع	قام وصلى لئلا يركع
وضج بالتسبيح والتقديس	حتى يتم الحزب في التغليس
يقرأ أولاً كتاب السير	والقصص التي بكل خير
ثم فتوح الشام باجتهاد	وبعده المعروف بالأنجاد
سؤاله تعجز عنه الطلبة	ومن لديه من أجل الكتبة
يقعد للكتب إلى وقت الضحاء	ثم يصلحها كفعل الصلحاء

في باطن من سرّه وظاهر
للرأي والتدبير والتزيين
ولا يبين قوله يحور
وبينهم يعقوب مثل البدر
وحلّ في مكانه سكيّة
قام إلى بيت النداء والفجر
يأتي لتنفيذ النهي والأمر
ولم يزل إلى صلاة العتمّة
ويترك الوزير والخديما
يدبّر الأمور والأدبارا
ينوي الجهاد باطنًا وظاهرًا
مبارك طالعه ميمون
ونشر العدل على العباد
وزالت الأهوال والفجور
وأذعنوا لنهيّه وأمره
وقمع الطغاة في البريّة
وهذه المأثر الأثيرة
بذاك نال الملك والتعظيم

ويأمر الكتاب بالأوامر
ويدخل الأشياخ من مرين
مجلس ليس فيه فجور
كأنهم مثل النجوم الزهر
قد ألبس الوقار والسكينة
حتى إذا ما حان وقت الظهر
يقي إلى وقت صلاة العصر
فينصف المظلوم ممن ظلمه
ثم يؤم فيئة الكريما
ثم ينام تارة وتارة
ما أن ينام الليل إلا ساهرا
رأيتّه يصحبها التمكنين
فأمن الغرب من الفساد
ولم يدع في الغرب من يحور
وخضعت مرين تحت قهره
ورفع الظلم من الرعيّة
فهل سمعتم مثل هذه السيرة
كذاك كان فعله قديما

ولما استقامت له الأمور وتوطأ له الملك، خرج من مدينة فاس إلى رباط تازا
يستشرف منها على أخبار يغمراسن بن زيان، فدخلها في أول يوم من شعبان من سنة
ثمان وخمسين وستمئة، فأقام بها إلى اليوم الرابع من شوال فوصله الخبر أن النصاري
دخلوا مدينة سلا غدرا ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا رجالها وسبوا نساءها
وأموالها، وتمنعوا بها، فكان دخولهم إياها ثاني يوم من شوال من سنة ثمان وخمسين

وستمئة، فخرج من فوره مسرعاً لاستنقاذه مشمراً عن ساق الجدّ في أمرها وكان خروجه إليها من رباط تازا بعد أن صلى العصر من اليوم الرابع من شوال المذكور الذي اتصل به الخبر في نحو الخمسين فارساً فأسرى ليلته تلك، ومن الغد صلى بظاهر سلا صلاة العصر، فوصلها في يوم وليلة، ونزلها على من بها من الروم، وتداركت عليها جيوش المسلمين وقبائل المتطوعين من جميع آفاق المغرب محاصراً للروم بها، وضيق عليهم فيها، ولم يرفع عنها القتال ليلاً ولا نهاراً حتى فتحها، وأخرج النصارى قهراً عنها بعد أربعة عشر يوم من دخولهم إياها، فلما خرج النصارى عنها بنا عليها السور القوي الذي يقابل الوادي؛ فإنها كانت لا سور لها من تلك الجهة، فكان دخول النصارى منه فشرع في بنائه فبناه من أول دار الصناعة إلى البحر، وكان - رحمه الله - يقف على بنائها بنفسه، ويمكن الصخر بيده ابتغاء ثواب الله تعالى وتواضعاً له وحيطة على المسلمين حتى تم الأمر بالبناء والتحصين.

وفي هذه السنة ملك أمير المسلمين بلاد تامسنا ومدينة أنفا، وفيها وصلت هدية المرتضى صاحب مراکش إلى أمير المسلمين أبي يوسف وكتابه يطلب فيه سلمه، فصالحه أمير المسلمين وجعل الحد بينه وبينه واد أم الربيع، ذل المؤلف عفا الله عنه وفي السنة التي ولي فيها أمير المسلمين أبو يوسف أنزل الله تعالى على أهل المغرب البركات، وفتح عليهم بالخيرات، فرأى الناس فيها من الدعة والخير ما لا يوصف ولا يقوم أحد بشكره، بيع الدقيق فيها بمدينة فاس وغيرها من بلاد المغرب رُبع بدرهم، والقمح ستّة دراهم للصحفة، والشعير ثلاثة دراهم، والقول وجميع القطني ما لها سوم، ولا يجد من يشتريها والعسل ثلاثة أرطال بدرهم، والزيت أربع أوقية بدرهم والزبيب درهماً ونصف للربع، والتمر ثمانية أرطال بدرهم، واللوز صاعاً بدرهم، والشابل الطري فرد بقيراط، والملح حمل بدرهم، واللحم البقرية مئة أوقية بدرهم، ولحم الضأن سبعين أوقية بدرهم، والكبش بخمسة دراهم، وذلك ببركته

ويمن خلافته وحسن سيرته ونيته.

وفي سنة تسع وخمسين فسد ما بين أمير المسلمين والمرضى صاحب مراکش فسرّح في أطراف بلاده، وفيها كانت وقعة أم الرجلين بين أمير المسلمين أبي يوسف وجيش المرضى من العرب والروم والموحدين فهزم جيش المرضى، وقتل حماهم وفرّ من بقي وتركوا موتاهم وكان المرضى قد استعد لهذه الغزوة غاية الاعتداد، وبعث فيها وجوه الموحدين وأشياخهم وسائر عرب جشم من الخلط، وسفيان والأفتح، وبني جابر وبني حسان، وقادة الروم والأندلس والأغزاز، ولم يترك بحضرته من جيشه أحداً إلا نفرا يسيرا فهزم الكل وتركوا أموالهم وأثقالهم وعددهم وسلاحهم فاحتوى أمير المسلمين على جميع ذلك كله.

وفي سنة ستين وستمئة سار أمير المسلمين أبو يوسف إلى مراکش فنزل بجبل جليز ثم زحف إليها وبرز إليها أحسن تبريز، وصفّ جيوشه ونشر ألويته وبنوده، فانحصر المرضى بها وغلق على نفسه أبوابها، وفي ذلك يقول عبد العزيز في رجزه الوجيز:

في عام ستمئة وستين صار لمراكش سلطان مـ
فوقف المنصور بجليز مـبرزاً بأحسن التبريز
وعاد فيها المرضى محصورا ذا أرز في قصره مقصورا
فدارت الأعراب بالأسوار واعتمدوا فيها الحصار
فلما خرج المرضى لحرب السيد أبي العلي إدريس المكني بأبي دبوس، كانت
بينهما حرب عظيمة قتل الأمير عبد الله بن أمير المسلمين أبي يوسف، فارتحل عن
مراكش بسبب قتل ولده، فدخل مدينة فاس في آخر شهر رجب من سنة إحدى
وستين وستمئة.

وفي سنة إحدى وستين المذكورة طلع النجم أبو الذوائب، وكان ظهوره ليلة الثلاثاء الثاني عشر لشعبان من السنة المذكورة، وبقي يطلع كل ليلة في وقت السحور نحو من شهرين، وفي هذه السنة جاز الفارس الأنجد عامر بن إدريس في جمع من بني مرين والمطوعة يزيدون على ثلاثة آلاف فارس برسم الجهاد، فعقد لهم أمير المسلمين أبو يوسف رايته المنصورة، وعطاهم العدة والخيل وودعهم ودعا لهم، وهو أول جيش من بني مرين جاز إلى الأندلس.

وفي سنة اثنتين وستين توفي أبو العلا إدريس بن أبي قريش عامل أمير المسلمين على بلاد المغرب.

وفي سنة ثلاث وستين بعث الفقيه العزفي صاحب سبته أجفانه إلى هدم سور أصلا وقصبتها فهدمت، لأنه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويتمنع بها وفيها سار أمير المسلمين إلى مراکش برسم رعي زرعها فوصل إلى أحوازها وبايعه جملة من العرب الذين في أنحائها وانصرف إلى مدينة فاس بعد انصراف أمير المسلمين من مراکش واستقراره بفاس وشي للمرتضى بقائد جيوشه السيد أبي دبوس، وقيل له أنه يكتب بني مرين، فأراد القبض عليه ففر منه، ولحق بأمير المسلمين أبي يوسف بحضرته بفاس فأكرمه، وأقبل عليه غاية الإقبال، وقال له: ما الذي أتاك يا إدريس؟ قال: فررت من القتل، وقصدت حماك لتنصرتني وتعينني على عدوي وتعطيني عسكرياً من بني مرين وبنوداً وطبولاً ومالاً أنفقه على ذلك، وأنا أضمن لك أخذ مراکش؛ فإذا أخذتها يكون نصفاً لك ونصفاً لي فأسعفه أمير المسلمين بمطلبه وعاهده على ذلك وتوثق منه بالإيمان المغلطة والعهود المذكورة، فأعطاه جيشاً من خمسة آلاف من قبائل زناتة وأعطاه طبولاً وبنوداً وخيلاً وسلاحاً ومالاً برسم النفقة في طريقه، وكتب له إلى قبائل العرب وقبائل هسكورة أن يكونوا

له عونًا وودّعه وانصرف فارتحل أبو دبوس حتى وصل بلاد هسكورة فنزل بها وكتب إلى مراکش من خاصته فخبّرهم بقدمه، وسألهم عن حال البلد والمملكة، فكتبوا إليه أن أقدم فإن الناس في غفلة والجيوش مفترقة في أطراف البلاد، وليس تجد وقت انتهاز فرصة مثل هذا، فأسرع أبو دبوس نحوها وجدّ السير بجيوشه حتى دخلها، وكان دخوله إياها من باب الصالحة في وقت الضحى والناس في غفلة، فتملك حضرة مراکش واستقر بقصرها وفر عنها المرتضى فقتل بخارجها، وذلك في شهر محرم من سنة وستين وستمئة، فبعث إليه أمير المسلمين أبو يوسف للعهد الذي كان بينهما، فقال للرسول: ما بيني وبينه عهد إلا السيف، وقال له: قل له يبعث بيعته وأقره على ما بيده من البلاد وإلا غزوته بجنود لا قبل له بها، فوصل الرسول إلى أمير المسلمين فبلغه الجواب وأعلمه بنكته وميله عن الصواب، فخرج أمير المسلمين أبو يوسف إلى غزوة من حضرة فاس فصار حتى نزل بظاهر مراکش فحصرها وهتك أحوازها ورعا زرعها، فلما رأى أبو دبوس ما ناله من شدة القتال والحصار ورعي الزروع ونسف الآثار وشدة المجاعة في بلاده وغلاء الأسعار، كتب إلى يغمراسن بن زيان يستنصره ويرغب منه أن يكونا على أمير المسلمين أبي يوسف يدًا واحدة، فتعاهدا على ذلك واتفقا عليه، فشنّ يغمراسن الغارات في أطراف بلاد أمير المسلمين أبي يوسف فاتصل به الخبر وهو محاصر لمراكش، فأقلع عنها وقصد إلى تلمسان لحرب يغمراسن بن زيان، ورأى أن تقديمه وغزوه من الصواب إذ هو فارس من زناتة البطل المحارب فصار حتى وصل إلى مدينة فاس فأقام بها أيامًا حتى استراح الناس، ثم خرج إلى تلمسان، وذلك في الخامس عشر من شهر محرم سنة ست وستين وستمئة، في احتفال عظيم وزى عجيب بالعيال والقباب والجيوش الوافرة والأموال والركاب، فسمع يغمراسن بإقباله فخرج من تلمسان إلى لقائه وقتاله فالتقى الجمعان بواد تلاغ فالتقت الأبطال بالأبطال واختلطت الأمثال

بالأمثال وتمازجت الركاب بالركاب واصطففت من الجانبين العيال والقباب وزحف الجيش إلى الجيش، فكانت بينهم حرب عظيمة وهزاهز جسيمة لم ير مثلاً، فما ترى إلا الخيول ترمح وأهلها إلى اللقاء تطمح، فدام القتال بينهما من وقت الضحى إلى الظهر، وصبرت قبائل مرين لقتال عدوها صبر الكرام الغر، ومنحهم الله تعالى النصر على أعدائهم، فتمكنوا من رقابهم، فهزمت بنو عبد الوادي وأذاقوهم مرين الكرام الحما في ذلك الوادي وفرّ يغمراسن مهزوماً على وجهه، وقتل قرّة عينه عمر أكبر ولده، وولي عهده وسار أمير المسلمين يعقوب في أعقابهم ورماحه تشرع فيهم، وسيوفه تعمل في رقابهم، فدخل يغمراسن تلمسان خاسراً فقيداً مهزوماً وحيداً، وانتهت مرين جميع محلته وأمواله ومضاربه وعياله، فكانت غزوة تلاغ المذكورة يوم الإثنين الثاني عشر لجمادي الآخرة من سنة ست وستين وستمئة، ورجع أمير المسلمين من هذه الغزوة مظفراً منصوراً مؤيداً مسروراً ذا حنق على أبي دبوس، فأقام بمدينة فاس إلى ظهور هلال شعبان من السنة المذكورة، فخرج إلى مراکش لغزو أبي دبوس الناكث لعهوده فلم يزل يوالي السير والسعد يقدمه واليسير حتى وصل إلى واد أم الربيع فنزل هنالك، وبث جنوده في بلاد أبي دبوس يأكلون زروعها وينسفون ربوعها، فأقام هنالك إلى أن دخلت سنة سبع وستين، وفي غرة المحرم منها ارتحل من واد أم الربيع إلى ناحية تدلا، فغزا بها عرب الخلط فأكلهم وسبى حريمهم وأموالهم ورجع من تدلا فنزل بواد العبيد، فأقام هنالك أياماً ثم غزا بلاد صنهاجة وسبأها، وأقبل يدور في أحواز مراکش إلى آخر شهر ذي القعدة من سنة سبع وستين وستمئة، فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة فساروا إلى أبي دبوس، وقالوا له: كم تقعد عن حرب بني مرين وتجنبن عن لقاءهم؟ أما ترى بلادنا قد خربت وأموالنا قد نهبت وحريمنا قد سبيت؟ فأخرج لجهادهم عسى أن يكون السبب لبعادهم، فإنهم في شردمة قليلة وعصابة يسيرة وأكثرهم قد بقى برباط تازا يجرسون

ذلك الثغر خوفًا عليه من بني عبد الواد، فاغتر أبو دبوس بقولهم وسارع إلى نصرهم فخرج في جيش عظيم وجنود وافرة من الموحيدين والعرب والروم وقبائل المصامدة، فلما سمع أمير المسلمين أبو يوسف بخروجه كرّ راجعًا نحو المغرب حيلة منه أن يبعده عن حضرته فسمع أبو دبوس برجوعه، فظن رجوعه إنما هو خوف منه فجذّ في أتباعه فكان أمير المسلمين أبو يوسف إذا ارتحل عن موضع أقبل أبو دبوس فنزله قام يزل لأثره يقفو حتى أتى بجيشه واد غفرا، فكرّ أمير المسلمين راجعًا في وجهه عازمًا على قتاله وحربه، فالتقى الجمعان، وأقبلت بنو مرين أمثال العقبان، والتحم القتال واشتد النزال، وأظهرت مرين صبرها في قتال أعدائها، فرأى أبو دبوس ما لا طاقة له به، فأراد الفرار لكي ينجوا إلى حضرة مراکش فيعتصم فيها بالأسوار، فأدركته الضوامر السوابق، وأقبلت أبطال مرين نحوه تسابق، فحالوا بينه وبين أهله، وسارعوا إلى طعنه وقتله، فقتل بالرماح في وسط المعترك وسقط تحت جواده صريعًا مترك، واحتزّ قاتله رأسه في الحين، وأتى به إلى أمير المسلمين، فوضعه بين يديه، وحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم خر لله ساجدًا ثم رفع رأسه شاكرًا وحامدًا، ثم أمر بالرأس فحمل إلى مدينة فاس ليعتبر برايته الناس واحتوى أمير المسلمين أبو يوسف على جميع محلته، وذلك يوم الأحد الثاني لمحرّم مفتتح سنة ثمان وستين وستمئة، وارتحل أمير المسلمين إلى حضرة مراکش فدخلها يوم الأحد التاسع لمحرّم المذكور، فاستقر بحضرة مراکش وتم له ملك المغرب وتهدنت البلاد وصلاح أمر العباد، وتأمّنت الطرقات وكثرت الخيرات، وأذعن الناس إلى الطاعة ودخلوا في الجماعة، فلا نائر ولا قاطع ولا مفسد ولا عابث ولا ملحد، ولما دخل حضرة مراکش وأمن أهلها وقبائلها وأحسن إليهم وأفاض العدل فيهم وبعث ولده الأمير أبا مالك عبد الواحد إلى بلاد السوس وتلك الأقطار لغزو من بها من المنافقين والأشرار، ففتح تلك البلاد وأتته قبائلها طائعة مذعنة من الأغزاز فلما فتح بلاد

السوس بأجمعها واستقام له أمرها رجع إلى حضرة مراکش، فسّر والده بقدمه وأقام أمير المسلمين أبو يوسف بحضرة مراکش يسدد أحوالها في أمورها ومصالحها إلى شهر رمضان من سنة تسع وستين وستمئة، فخرج في أول يوم من رمضان المذكور إلى غزو العرب ببلاد درعة، فإنهم كانوا قد ثاروا بها وملكوا حصونها وقلاعها وأبادوا بالنهب والقتل أهلها وأموالها، فوصلهم في النصف من شهر رمضان المذكور فقتل منهم خلقاً كثيراً وسبأ أموالهم ونساءهم وفتح جميع بلاد درعة، وملك حصونه بعد أن كان العرب تمنعوا بمعقل منها فحاصروهم فيها أياماً فزلوا بأمان ولده الأمير أبي مالك فعفا عنهم وأمضى أمان ولده إليهم، ولم يبق ببلاد درعة من أهل النفاق والفساد أحد، ثم ارتحل إلى مراکش، فدخلها في نصف شوال من السنة المذكورة، فأقام بها بقية شهر شوال وخرج منها إلى مدينة رباط الفتح من أرض سلا، فدخلها في آخر ذي قعدة من سنة تسع وستين وستمئة، فعيد بها عيد النحر، وأخذ البيعة لولده أبي مالك في ذلك اليوم على بني مرين، وكان الأمير أبو مالك على غاية الفضل والكرم والشجاعة والحزم ومكارم الأخلاق، وكان عال المهمة محبّ في الأدب، مقرب لأهله يجالس العلماء والأدباء والشعراء ويتخذهم بطانة، وقد اختصر جماعة من الفقهاء لمجالسته ومنادمته منها الفقيه القاضي أبو الحجاج بن حكم، والفقيه القاضي الكاتب البارع أبو الحسن المغيلي، والفقيه الأديب القدوة أبو الحكم مالك بن مرخل والفقيه الكاتب أبو عمران التميمي والفقيه الأديب أبو فارس عبد العزيز الشاعر المزروزي، وكان الأمير أبو مالك - رحمه الله - يحبّ الشعر ويرويه وتأخذ نفسه بنظم الشعر وربما نظم منه البيتين والثلاثة ومن شعره يفتخر رحمه الله.

وجمعت بين ثيارة ونموك
كي ما تغيّره العدا بسلوك

فرقت في الميدان كلّ مالك
وجعلت للإسلام حداً مالكا

ولما أخذ أمير المسلمين البيعة لولده أبي مالك برباط الفتح، وذلك يوم عيد النحر من سنة تسع وستين المذكورة، عز ذلك على جماعة من بني عبد الحق وساروا من ليلتهم تلك إلى جبل أبركوا فنافقوا به، وهم: محمد بن إدريس بن عبد الحق، وموسى بن رحو بن عبد الحق، وجميع أولاد سوط النساء فخرج أمير المسلمين في إثرهم وقدم بين يديه ولده الأمير أبا يعقوب في خمسة آلاف فارس فنزل عليهم، وحاصره بالجل المذكور، ثم لحقه أخوه الأمير أبو مالك في اليوم الثاني من نزوله بخمسة آلاف فارس أخرى، فشرعوا في قتالهم ثم لحق أمير المسلمين بجميع عساكر مرين، فنزل عليهم في اليوم الثالث فحاصره به يومين فأذعنوا للطاعة وطلبوا الأمان فأمّنهم وعفا عنهم على أن يرتحلوا إلى تلمسان، فساروا إليها ثم جازوا منها إلى الأندلس، وفي سنة تسع وستين المذكورة توفي يعقوب بن جابر العبد الوادي أمير سجلماسة ليغمراسن خرج له خراج في مذاكرة فمات منه، وخرج أبو يوسف إلى غزو تلمسان وقتال يغمراسن بن زيان، فبعث ولده الأمير أبا مالك إلى أرض مراکش يحشد منها من قبائل العرب والمصامدة ويلحقه بالجميع فخرج من مدينة فاس في غرة صفر من السنة المذكورة في جميع جيوشه من بني مرين - أنجدهم الله تعالى - فسار حتى نزل واد ملوية، فأقام عليه أيامًا حتى ورد عليه الأمير أبو مالك في جيش عظيم من قبائل عرب جشم والأندلس والأغراز والروم في احتفال واستعداد؛ فأقام بعد وصول ولده إليه ثلاثة أيام حتى ميز بجيوشه وارتحل إلى تلمسان، فلما كان بتافنا وافاه بها رسول ابن الأحمر يسأله أن ينصر الدين ويغيث بالأندلس المسلمين، ويخبره أن الفنش - لعنه الله - قد ضيق ببلاده، فخرج أمير المسلمين أبو يوسف - رحمه الله - إلى خبابة السافة وجمع أشياخ بني مرين وأشياخ العرب وأخبرهم بما فيه المسلمون بالأندلس واستشارهم في ذلك فأشاروا عليه بصلح يغمراسن وتهدين البلاد، والجواز إلى الجهاد، فبعث الأشياخ من كل قبيلة من زنانة والعرب إلى

يغمراسن يطلبونه في الصلح، وقال لهم: إن الصلح خير كله، فإن جنح إليه وأنا بـ
فحسن، وإن أبا إلا القتال فأسرعوا إليّ بالرجوع فسارت الأشياخ ليغمراسن فرغبوه
في الصلح ولا طفوه في تلك بالقول الجميل، فقال لهم: لا صلح بيني وبينه، أبعد قتل
ولدي عمر أصالحه؟ والله لا كان ذلك أبداً، ولا أترك قتاله حتى آخذ منه بثأري
وأذيق بلاده التبار، فوصله الرسول بذلك فأسرع أمير المسلمين نحوه المسير ودعا
الله تعالى في النصر واليسير وخرج يغمراسن للقاءه في قوة واستعداد وجيوش ما لها
حصر كأنها الجراد المنتشر فالتقى الجمعان بواد أيسلي بمقربة وجدة، فالتحم الحرب
بينهما واضطربت واشتعلت نار الوغا والتهبت وشمרת عن ساقها وتنمرت فجعل
أمير المسلمين ولده أبا مالك على الميمنة، وولده أبا يعقوب على الميسرة، فقدم أبا
يعقوب بالميسرة للقتال وتبعه أبو مالك بالميمنة للطعن والنزال، وأتى والدهم أمير
المسلمين على أثرهم في القلب والساقة، والتحمت الحرب، وكثرت الأهوال، فهزم
يغمراسن وقتل ولده فارس وفرّ هو مع بعض ولده وخرج من تحت ذبابة السيوف،
وقُتل من بني عبد الوادي وبني راشد خلق كثير، وقتل جميع من كان بمحلته من
الروم، ولولا ما حال الظلام بين الفريقين لم يبق من بني عبد الوادي باقية وفرّ
يغمراسن عن محلته وهو مهزوم فأضرم فيها النيران، وفرّ حتى دخل تلمسان، فكان
كما قال الله تعالى في كتابه المبين: {يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين} وانتهبت
النار محلته وأمواله وأثقاله وعياله، وارتحل أمير المسلمين أبو يوسف من الغد في أثره
حتى وصل إلى وجده فوقف عليها حتى هدمت وعفا أثرها وجعل عاليها سافلها
وتركها قاعاً صفصفا وارتحل عنها، وكانت هذه الهزيمة في النصف من رجب من
سنة سبعين وستمئة، وفي ذلك يقول بعض الكتاب الملتزمين لخدمة ذلك الباب:

إذا الخيلُ جالتُ في الحروب حسبتهم قضاء من الرحمن ما منه عاصمُ
فذاك على اليمنى يُيِّد حماها وذلك على اليسرى فأين المقاومُ

ووالدهم في حاجم الحرب بينهم ييد حماة الجيش والسقر قائم
فويحك يا يغمور هل لك زاجر أيقظان حين أنت أم أنت دائم
أفي كل عام تترك ابنك للفني وتسبى لك الغيد الحسان الكرائم
ولما هدم أمير المسلمين وجدة ولم يبق لها أثرًا أو غل في بلاد يغمراسن فخر بها
وسبى أموالها حتى وصل إلى تلمسان فنزلها وأدار المحلات بأسوارها، وشدد في
الحصار عليها، وشرع في قتالها، ووصل إليه هو وعليها الأمير أبو زيان محمد بن عبد
القوي النجيني في جيش كثيف واحتفال عظيم الطبول والبندود، فركب أمير
المسلمين إلى لقائه في جيوشه وأبطاله، فتلقيه في أحسن زي وأكمل احتفال واشتد
الحصار على يغمراسن وعظم القتال، وضيق قبائل تجين بمدينة تلمسان لأخذ
ثأرهم من يغمراسن بن زيان فقطعوا الثمار والجنات وخربوا الرباع، وأفسدوا
الزرع، وحرقوا القرى والضياع، حتى لم يدعوا بتلك النواحي قوت يوم حاشا
السدره والدوم، فلما انتسفت بلاده وقتلت أجناده، أمر أبا زيان بن عبد القوي
بالرجوع إلى بلاده وأعطاه ألفا ناقة من مال بني عبد الوادي ومئة فرس من مراكبهم
وخلعا وسيوفا ودرقا ومضارب، وقعد أمير المسلمين بظاهر تلمسان حتى تعرف أنه
وصل إلى وانشر بس خوفاً عليه من يغمراسن أن يتبعه فلما علم أمير المسلمين أنه قد
وصل إلى بلاده بجميع ما أعطاه من النعم أفلح عن تلمسان، وكرّ راجعاً إلى المغرب
مظفراً منصوراً فوصل رباط بازا في أول يوم من ذي الحجة من سنة سبعين
المذكورة، فعبد بها عبد النحر، وارتحل إلى مدينة فاس فدخلها غرة المحرم من سنة
إحدى وسبعين وستمئة فأقام بها إلى اليوم الحادي عشر من شهر صفر فتوفي ولده أبو
مالك عبد الواحد، فأسف لفقده، ثم تلقى بالرضا أمر ربه وصبر الصبر الجميل،
وارتحل إلى مراكش فدخلها في أول يوم من ربيع الثاني من السنة المذكورة، فأقام بها
وأصلح أحوالها وهدن بلادها وأحوازها، وخرج منها إلى طنجة فوصلها في أول يوم
من ذي حجة من سنة إحدى وسبعين وستمئة، فنزل عليها وحاصرها، وشرع في

قتالها، فأقام يقاتلها غدوًا ورواحًا ومساءً وصباحًا مدة من ثلاثة أشهر، وكانت طنجة منذ قتل بها ابن الأمير وأولاد أبي يحيى ملكها الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبته، فضبطها وقام بأمرها مع أشياخها، فلما طال مقام أمير المسلمين عليها أراد الرحيل عنها، فبينما هو في اليوم الذي عزم على الرحيل في غده واقف أمامها والناس يقتتلون بين يديه، وقد قارب العشي إذا جماعة من رماتها قد قاموا في برج من أبراجها، وكان معهم شيخ من أشياخ الرماة وقوادها يعرف بابن اللجي فأشار إلى المحلة ورفع راية بيضاء شعارًا فبادر إليه المقاتلون من المحلة فملكوهم البرج، فأقاموا به يحاربون أهل البلد طول ليلتهم فلما كان عند الصباح تكاثرت عليهم الرجال والرماة واشتد الكفاح فانهزم أهل البلد، وأخلوا الأسوار، وركنوا إلى الفرا، فدخلت المدينة عنوة على أهلها، فعفى أمير المسلمين عنهم، ونادى مناديه بالأمان ولم يمت بها إلا نفر يسير ممن رفع يديه وأشهر سلاحه حين الدخلة، وكان فتح طنجة ودخول أمير المسلمين فيها عنوة في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وستمئة.

ولما فرغ أمير المسلمين من فتح طنجة بعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى سبته فحاصر بها العزفي أيامًا فبايعه وصالحه على مال يؤديه له في كل سنة، فقبل ذلك منه وارتحل عنه، وفي شهر رجب من سنة اثنتين وسبعين المذكورة خرج أمير المسلمين أبو يوسف لغزو مدينة سجلماسة وكانت بيد يغمراسن وعرب المنبات وكان يغمراسن يبعث إليها في كل سنة ولدًا من أولاده ليضبطها وجباية خراجها من المنبات الذين قاموا بأمرها، فسار أمير المسلمين أبو يوسف إليها في جيوش بني مرين وقبائل العرب، فحاصرها وشرع في قتالها وضيّق عليها وبالع في حربها، ونصب عليها المجانيق والرعدات، وضاق أهلها من شدة الحصار والقتال، فكانوا يصعدون على الأسوار فيسبون ويلعنون بالقبيح فهتك المجانيق من سورها برجا

ومسافة، فانهدم البرج والمسافة، فدخلت من هنالك عنوة بالسيف على عاملها عبد الملك ابن حنينة العبد الوادي فقتل هو ومن كان معه من بني عبد الوادي وعرب المنبات، وكان فتحها يوم الجمعة ثالث ربيع الأول من سنة ثلاث وسبعين وستمئة، وقيل كان فتحها آخر يوم صفر من السنة المذكورة، فأمن أمير المسلمين أهلها وعفى عنهم وأصلح أحوالهم، وأقام بها أيامًا حتى تهدنت أحوازها وأوديتها وتأمنت سبلها، وارتحل عنها وترك بها عامله، ولما رجع أمير المسلمين من فتح سجلماسة سمت به همته العالية إلى الجهاد، إذ لم يبق له منازع في البلاد، فورد عليه في أثناء ذلك كتاب ابن الأحمر يستنصره ويسأله إعانة الأندلس ويخبره بما فيه المسلمون بها من القتل والأسر وكثرة الغارات مع الأحيان والساعات فوجده عازما على الجهاد، حريصًا على الجواز، فتابعته عليه رسل ابن الأحمر يقول له: يا أمير المسلمين إنك ملك الزمان والمنظر إليه في هذا اليوم، قد وجب عليك نصر المسلمين وإعانة المستضعفين، فإن لم تنصر الإسلام فمن ناصره؟

وكان الشيخ أبو عبد الله بن الأحمر قد أوصى ولده عند وفاته أن يستدعى أمير المسلمين للجهاد ويعطيه ما يريده من البلاد فلبى أمير المسلمين دعوته، وبادر إلى إجابته ونصرته، وخرج من مدينة فاس برسم الجهاد

الخبر عن جواز أمير المسلمين أبي يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد وهي أول غزواته إلى بلاد الشرك

قال المؤلف عفا الله عنه:

لما تأثرت الرسل وتتابعت الكتب على أمير المسلمين من ابن الأحمر يستدعيه للجواز ويستنصر به، خرج من مدينة فاس في أول يوم من شوال من سنة ثلاث

وسبعين وستمئة حتى وصل إلى طنجة، فبعث إلى الفقيه أبي القاسم العزفي، وأمره بتعمير الأساطيل لجهاد المشركين وإصلاح الأجفان وإعدادها، لجواز المجاهدين، وأمره بالتعاون على البر والتقوى وعقد لولده الأمير أبي زيان على جيش من خمسة آلاف فارس من أنجاد بني مرين وفرسان العرب، ودفع له رايته المنصورة وأوصاه بتقوى الله في السر والعلانية، ودعا له وانصرف إلى قصر المجاز، فوجد الفقيه أبا القاسم العزفي قد جهّز له عشرين جفناً، وأعدّها هنالك لجواز المجاهدين، فركب الأمير أبو زيان البحر في جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل بطريق من بلاد الأندلس، وذلك في السادس عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وستمئة، فأقام بطريق ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيول من هول البحر، فخرج إلى البحيرة فغنمها وبعث بالغنم إلى الجزيرة، ووالى السير في بلاد العدو يقتل ويسبي ويخرب القرى والحصون، ويحرق الزرع ويقطع الثمار وينسف الآثار، حتى وصل إلى شريش ولم يقدر أحد من الروم أن يخرج إليه، ثم قفل إلى الجزيرة بالغنائم والسبي والعلوج في القطاير، ففرح به أهل الأندلس إذ كانت بلادهم لم تنصر بها للمسلمين راية من غزوة العقاب التي هزم بها النصارى الموحدين في سنة تسع وستمئة إلى هذه الغاية، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب الروم فكانوا لا يستطيعون قتالهم ولا يبرزون إليهم ولا يوافقونهم، فملك الروم بلادها وحصونها وقواعدها إلى أن جازت راية المنصور أمير المسلمين أبي يوسف، فأعزّ الله تعالى بها الإسلام، ونصر بها أهل الإيمان، وأذلّ بجوازها عباد الأوثان، ولما انصرف الأمير أبو زيان براية والده المنصورة إلى الأندلس بعث أمير المسلمين حفيده الأمير تاشفين بن عبد الواحد إلى يغمراسن بن زيان يطلبه في الصلح والاجتماع على كلمة الإسلام لكي يجوز إلى الجهاد من الروعة من البلاد، فتم الصلح بينهما بفضل الله تعالى والمراد، واجتمعت قمة أهل الإسلام وألف الله تعالى بين قلوبهم، فوصل الأمير تاشفين من تلمسان،

وقد تم صلحه مع يغمراسن فسّر بذلك أمير المسلمين سرورًا عظيمًا وتصدق بهال جليل شكرًا لله تعالى، ثم كتب إلى أشياخ مرين وقبائل العرب والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل العرب يستنفرهم إلى الجهاد، فخرجت الكتب إلى القبائل والبلاد، وارتحل أمير المسلمين إلى قصر الجواز، فأخذ في تجهيز الجيوش والخيال والسلاح والعدد، وتمييزهم إلى الأندلس وتجويز المجاهدين، فكان -رحمه الله- يجوز في كل يوم قبيلة من بني مرين وطائفة من المجاهدين، فكان الناس يجوزون أفواجًا وقبيلًا قبيلًا وأفردوا أجفانًا لجواز المطوعين، لا يجوز فيها غيرهم، فلما تكامل الناس بالجواز، واستقروا بسواحل الأندلس، وانتشرت محلات المسلمين من طريق إلى الجزيرة جاز أمير المسلمين وآخرهم على حين غفلة من الناس، فنزل بساحل طريق وكان جوازه -رحمه الله- في صحوه يوم الخميس الحادي والعشرين لصفر من سنة أربع وسبعين وستمئة فصلّى الظهر بطريق وانصرف إلى الجزيرة الخضراء من حينه فوجد بها الأمير ابن الأحمر وابن أشقيلولة سلطاني الأندلس بعسكرهما وحشدهما ينتظرانه بها، فلما التقى بهما وسلما عليه فكان بين ابن الأحمر وابن أشقيلولة منافسة وشحنا فأزالها وأصلح بينهما، واجتمعت الكلمة، وتألّفت القلوب بحول الله تعالى وتفاوضوا فيما يصلح المسلمين، وكيف يكون العمل في جهاد المشركين/ ثم ودعه ابن الأحمر وابن أشقيلولة وانصرفا إلى بلادهما، فسار ابن الأحمر إلى غرناطة وابن أشقيلولة إلى مالقة وارتحل أمير المسلمين أبو يوسف بجميع جيوش المجاهدين قصدًا إلى غزو الكافرين، لم يقعد ولم يلبث ولم يبال من قعد ولا من تخلف، ولم تستطع جفونه منامًا ولم يلتذ شربًا ولا طعامًا حتى وصل إلى الواد الكبير مخافة أن يشعر الروم بقدومه وينذرهم به نذير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب على مقدمته وقدمه بين يديه في جيش من خمسة آلاف فارس، وأعطاه طبولًا وبنودًا فانتشرت الجيوش في أرض الواد الكبير كأنها السيل المرير أو الجراد المنتشر

الكثير لا يمرون بشجرة إلا قطعوها ولا قرية إلا خربوها ولا مال إلا غنموه ولا بزرع إلا أحرقوه، فغنموا ما بتلك الناحية من الأموال وقتلوا من وجدوه بها من الرجال وسبوا الذرية والعيال وسار حتى بلغ حصن المدور من أحواز قرطبة يقتل ويسبي ويحرق الزرع ويخرب القرى والرباع حتى هتك جميع أحواز قرطبة وأبدة وبياسة ونواحيها، وقتل بها من الروم ألوفاً لا تحصى وسبوا من نسائهم وذرائعهم كذلك، ودخل حصن بلية بالسيف، وغنم المسلمون جميع ما كان بها من الأموال، وامتلات أيدي بني مرين بالغنائم، فأمر أمير المسلمين بجمع الغنائم، فخرج البقر والغنم والخيول والدواب والعلوج والروميات والذراري والثياب والعدد، فتألف منها ما ملأ السهل والوعر، ولا يحويه عدد ولا حصر، ثم أمر بها فقدمت بين يديه، وأفسد بالحرق والقطع والتخريب جميع ما مَرَّ عليه، وأضرَم النيران في تلك الجهات حتى صارت البلاد كالشفق، واجتمع السبي على شثيل وفاضت الغنائم هنالك فيض النيل، ثم ارتحل أمير المسلمين والغنائم تساق أمامه والروم في الأصفاد مقرنين حتى قربوا من مدينة أشجة، فأتى بها النذير إلى أمير المسلمين فأخبره أن جميع النصرانية قد تألفت على كبيرهم وزعيمهم دون نوتة، وأنه قد خرج في طلبه في جنود عظيمة وحشود كثيرة جسيمة، وهو لاحق بك في يومك هذا مستعداً إلى قتالك، ورد الغنائم من يدك واستنقادها منك.

الخبر عن غزو أمير المسلمين أبي يوسف دون نوتة زعيم النصرانية

لما وصل أمير المسلمين إلى أشجة برز عليها بجيوشه المنصورة وبها أفاء الله تعالى عليه من الغنائم، فوافاه النذير بإقبال دون نونه إليه بجيوش الروم فدعا بأشياخ بني مرين ليشاورهم كيف العمل في لقاء الكافرين إذ نظر الناس إلى طالع خيل الروم مقبلة نحوهم ألوفاً ألوفاً والرجال أمامهم صفوفاً صفوفاً، وزعيم الروم دون نوتة في وسط الجيوش كأن الفنش -لعنه الله- قد قدمه على جيوشهم وحروبهم،

وفوض له في جميع بلادهم وأمورهم، وكان النصارى قد سعدوا به لأنه لم ينهزم قط، وكان وبالاً على بلاد الإسلام شديد الوطأة عليها، قد أباد أكثرها، لا يفتر عنها بالغارات على مر الليالي والأيام، فأقبل اللعين إلى حرب أمير المسلمين تحت ظلال البنود والأبواق تخفق على رأسه في جيش كأنه الليل الداجي أو موج البحر إذا هاج، والخيول والرجال تأتي على أثره زمراً زمراً وأفواجاً بعد أفواج، قد أعدوا للحرب أوزارها وزعموا أنهم حماها وأنصارها ودروعهم وخيولهم بالزرد النضيد، ومصفحات الحديد، فلما عاين ذلك أمير المسلمين من أمرهم، وشاهد عزمهم في إقبالهم أمر بالغنائم فقدمت بين يديه، وبعث معها ألف فارس من أنجاد بني مرين، وتأخر وهو بجميع جيش المجاهدين للقاء أعداء الله الكافرين، ثم نزل عن جواده فأسبغ وضوءه وصلى ركعتين، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه، وكان في آخر دعائه ما دعا به النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر للصحابه: اللهم انصر هذه العصابة وسلمها وأعنها على جهاد عدوك وعزرها وأيدها، فقبل الله تعالى دعاءه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فركب على جواده وعباً جيوشه واستعد لجهاده وجلاده، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على مقدمته، ثم قدم على أشياخ بني مرين وأمراء العرب ورؤساء القبائل، فقال: يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين، إن هذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، ألا إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت أترابها، فجدوا في طلبها؛ فإن الله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فشمروا عن ساعد الجد معاصر المسلمين في جهاد المشركين، فمن مات منكم مات شهيداً ومن عاش عاش غانماً مأجوراً حميداً فاصبروا وصابروا واربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فلما سمع الناس من مقالته تاقت أنفسهم إلى الشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والقلوب لها وجيب وانصداع، قد طابت نفوسهم على الموت وباعوها من ربهم بالجنة قبل الفوت،

وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقولون: عباد الله إياكم والتقصير.

فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيوش الروم، فالتقى الجمعان، والتحم القتال، واشتد النزال، فلا ترى إلا السمر تهوى في الروم كأنها الشهب الثواقب، وتفعل في أعداء الله تعالى فعل العذاب الواصب، والسيوف بالدماء ترعف، ورؤوس الكفرة عن أجسادهم تقطع وتقطف، ودارت بهم أبطال مرين كأسد العرين، فيحكمون فيهم السيوف ويذيقونهم مرارة الحتوف، قد صبروا صبر الكرام في حرب سفلة الليام، فنصر الله تعالى جنده وأظهر أوليائه وأيد حزبه، وقُتِلَ زعيم الكفرة دون نونة وهزمت عساكره وقتلت جموعه، ولم يكن إلا كلمح البصر حتى لم يُبق السيوف منهم مخبر الخبر، ولم تبق الرماح منهم باقية ولم تبق الدروع عنهم واقية، وأمر أمير المسلمين بقطع رؤوس الروم الذين قتلوا في المعركة وإحصاءها، فقطعت وأحصيت فكانت ثمانية عشر ألف فارس ونيقًا، وطلعت كأنها الجبل، وصعد المؤذنون عليها فأذنوا للصلاة، فصلّى المسلمون صلاة الظهر والعصر في وسط المعركة بين القتلى مختضبين في دمائهم، فلما فرغ أمير المسلمين من صلاة العصر افتقد جيوشه ونظر من استشهد في تلك الغزاة من المسلمين ممن سبقت له من الله الحسنى وختم له بالشهادة، فوجد تسعة نفر من بني مرين، وخمسة عشر من العرب والأندلس، وثمانية من المتطوعين، فواراهم التراب، ثم حمد الله تعالى وشكره وأطال الثناء عليه كما أمره وكانت هذه الغزوة الكريمة، والمنفعة الجسيمة التي أعز الله تعالى بها الإسلام وأذل بها عبادة الأصنام في الخامس عشر من شهر ربيع الأول المبارك شهر مولد سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - من سنة أربع وسبعين وستمئة، وكتب أمير المسلمين بالفتح في جميع بلاد المسلمين بالأندلس والعدوة، فقرئت كتبُه على المنابر، وعملت المفرحات في سائر بلاد المغرب والأندلس، وأخرج الناس الصدقات وأعتقوا الرقاب شكرًا لله تعالى، ووصل أمير المسلمين إلى الخضراء بالغنائم والأسرى

والسبي، فدخلها في الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة في احتفال عظيم وزى عجيب، وعيال الروم وزعمائهم يقادون بين يديه في القطائن والحبال مصفدين في السلاسل والأغلال، وبعث أمير المسلمين برأس دون نونة إلى ابن الأحمر ليرى فعل الله تعالى بأعدائه ونصره لأولائه، فأخذ ابن الأحمر الرأس فجعله في المسك والكافور، وبعث به إلى الفنش يستخدمه بذلك، ويتحجب به إليه، وأقام أمير المسلمين بالخضراء لقسمة ما أفاء الله عليهم من الغنائم، فأخرج منه الخمس لبيت المال، وقسم الباقي في المجاهدين، وكان عدد البقر في هذه الغنيمة مئة ألف رأس وأربعة عشر ألف رأس، وأما الغنم فعجز عنها الحصر لكثرتها فتباع الشاة في الجزيرة بدرهم، وكان عدد الأسارى من الرجال والنساء والذرية سبعة آلاف وثمانمئة وثلاثين نفساً وعدد الخيل والبغال والحمير أربعة عشر ألف رأس وستمئة ألف رأس، وأما الدرع والسيوف والعدة ما له عدد لكثرتها، فامتألت أيدي المسلمين، وصلحت أحوالهم، وأعطى أمير المسلمين حظه للقوي والضعيف والمملوك والشریف، وأقام أمير المسلمين بالخضراء بقية شهر ربيع الأول وشهر ربيع الثاني، فلما كان في أول يوم من جمادي الأولى خرج من الخضراء غازياً إلى أشبيلية، ولما وصل أمير المسلمين إلى الخضراء كتب إليه الرئيس أبو محمد ابن أشقيلولة كتاباً يهنئه فيه بالفتح والنصر والدعاء له وفي آخر هذه القصيدة:

هبت بنصركم الرياح الأربع	وجرت بسعدكم النجوم الطلع
وأنت لعونكم الملائك سبّاقاً	حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقناً	أن الأمور إلى مرادك ترجع
لم لا وأنت بذلت في مرضاته	نفساً تفديها الخلائق أجمع
وأيت تنصر دينه متوكلاً	بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
وكتائب منصورة يحدوها	أمراً إذا أمضىته لا يرجع

من كل من تقوى الله سلاحه
 لا يسلمون إلى النوائب جاره
 لله جيشك والصوارم تنتضي
 فلقد كسوت للدين عزًا شائخًا
 إن الذي سماك خير خليفة
 هيهات سر الله أودعه فيكم
 أن قيل من خير الخلائق كلها
 فلا أنتم ذخر الخلافة والذي
 جدر ملاءة عزه موصولة
 وأسلم أمير المسلمين لأمة
 وهاك من يحمي بسيفك دينه
 عليك ياسني الملوك تحية
 ما أن له إلا التوكل مفرع
 يومًا إذا أضحى الجوار يضيع
 فتح يمد بمثلته ويشفع
 ولست أنت منه مالا يخلع
 جعل الخلافة فيكم لا تنزع
 والله يعطي من يشاء ويمنع
 فإليك يا يعقوب تومئ الأصبع
 وجه الزمان بوقتها يتطلع
 فعساه بحسدها السماء الأربع
 أنت الملاذ لها وأنت المقنع
 وكفاك من يخشى وما يتوقع
 يفنى الزمان وعرفها يتطوع

الخبر عن غزوة أمير المسلمين أبي يوسف رحمه الله الثانية في جوازه إلى الأندلس

قال المؤلف عفا الله عنه:

خرج أمير المسلمين أبو يوسف إلى غزوته الثانية من الخضراء أول يوم من
 جمادي الأولى من سنة أربع وسبعين وستمئة، فقصده إلى أشبيلية فسار بجيوش
 المسلمين حتى نزل عليها بموضع يعرف بالماء المفروش، فشن الغارات على
 أحوازها، وجالت جيوشه في أقطارها، وغنموا ما كان في أنحائها، وركب في اليوم
 الثاني حتى قرب على بابها، وبرز عليها تحفق طوله وتشرق رايته، وركب الروم
 الأسوار واعتمدوا على الحصار، ولم يكن في ملوكهم من يقدم عليه، ولم يستطع
 زعيم منهم أن يخرج إليه، فلما غنمها وهتك أحوازها وأحرق قراها وخرب
 حصونها، ارتحل عنها إلى شريش، ففعل بها كفعله بأشبيلية، وأقام عليها ثلاثة أيام

وارتحل إلى الجزيرة الخضراء، فدخلها في اليوم السابع والعشرين لجمادي الأولى المذكورة، فقسم ما جاء به من الغنائم والسبي، فبيعت الرومية في هذه الغزوة بمئقال ونصف لكثرتهم، ودخل فصل الشتاء فبقي أمير المسلمين زمان الشتاء كله ساكنًا بمحلته على واد النساء بقرب الجزيرة، واحترم الروم الحراثة تلك السنة، فغلت الأسعار بهم وضعفت بلادهم، وقنط بنوا مرين من المقام بالأندلس تشوقًا إلى أولادهم وديارهم، فلما علم أمير المسلمين ذلك منهم جاز إلى العدة بقصر المجاز، وذلك في آخر يوم من رجب من سنة أربع وسبعين، فكانت مدة إقامته بالأندلس ستة أشهر، وسار إلى مدينة فاس فدخلها في النصف من شعبان، وعند وصوله إلى مدينة فاس نافق عليه طلحة بن علي البطوي أحد أخواله، وتمنّع بجبل أزروا من بلاد فازان، فسارع أمير المسلمين إليه ونزل بعساكره عليه، فأناب إلى الطاعة ونزل إليه فأمنه وعفا عنه، وذلك في نصف شهر رمضان المعظم من سنة أربع وسبعين المذكورة، وفي الثاني من شهر شوال من هذه السنة قتل اليهود بفاس، قامت عليهم العامة فقتل منهم أربعة عشر يهوديًا، ولولا ما ركب أمير المسلمين فكفّ العامة عنهم، ونادى مناديه لا يتعرض لهم أحد لم تبق منهم بقية، وفي الثالث من شوال المذكور أمر أمير المسلمين أبو يوسف ببناء البلد الجديدة، فأُسست على واد فاس، وشرع في بنائها وحفر أساسها في ذلك اليوم، وركب أمير المسلمين فوقف عليها حتى حدّت وأُسست، وأخذ لها الطالع الفقيه العادل أبو الحسن بن القطان، والفقيه أبو عبد الله بن الحباك، وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت ميمون مبارك، ومن بركتها وسعادة طالعها أنها لا يموت بها خليفة ولم يخرج قط منها لواء إلا نصر ولا جيش إلا ظفر، وفي شوال المذكور أمر أمير المسلمين ببناء قصبة مكناسة وجامعها، وفي شهر محرم من سنة خمس وسبعين خرج أمير المسلمين أبو يوسف من مدينة فاس إلى مراکش، فوصلها في نصف شهر، فأقام بها إلى أوائل شهر ربيع الأول المبارك من

السنة المذكورة، وخرج إلى بلاد السوس ثم رجع إلى مراكش، فأقام بها أيامًا، وخرج منها إلى رباط الفتح فدخله في أول يوم من شعبان، فأقام به، وكتب كتابًا إلى الأشياخ والقبائل من بني مرين والعرب وسائر قبائل المغرب يستنفرهم للجهاد، وتثاقلوا عليه فلم يزل يحرضهم وهم يلوذون بالأعداء ويتثاقلون، إلى أن دخلت سنة خمس وسبعين، فلما رأى تثاقل الناس عن الجهاد وتثبطهم عن الجواز، جدّ بنفسه وخاصته، فخرج من رباط الفتح في أول يوم من محرم من سنة ست وسبعين وستمئة، فسار حتى وصل قصر المجاز، فجاز منه إلى طريف، وذلك في الخامس والعشرين من محرم المذكور.

الخبر عن جواز أمير المسلمين أبي يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد وهو الجواز الثاني

قال المؤلف عفا الله عنه:

لما رأى أمير المسلمين أبو يوسف تثاقل الناس عن الجهاد خفّ إليه بخاصته، ونهض إلى الجواز وسار نحوه بعزيمته، فخرج من رباط الفتح في أول يوم محرم مفتتح عام ستة سبعين، فوصل إلى قصر المجاز، وقد تلاحق به الناس حين رأوا عزمه وعلموا جده، فتداركت في آخره قبائل بني مرين والعرب والمطوعة، وقبائل المغرب من المصامدة وصنهاجة وأوربا وغمارة ومكناسة وغيرهم، فأخذ في تجويز الجيوش حتى فرغ منها، ثم جاز هو في إثرهم، فنزلوا بساحل طريف، وذلك في اليوم الثامن والعشرين من محرم المذكور، ثم ارتحل عنها إلى الجزيرة، فأقام بها ثلاثة أيام، وخرج إلى رندة، فوصلها ونزل بخارجها، وأتاه هنالك بنو أشقيلولة، وهم: الرئيس أبو إسحاق صاحب وادي أش، والرئيس أبو محمد صاحب مالقة، فسلموا عليه، وساروا معه وتحت لوائه إلى غزو أشبيلية، فارتحل عن رندة في أول يوم من ربيع الأول المبارك من سنة ست وسبعين، فوصل أشبيلية فنزل قريبًا منها، وكان بها

الفنش ملك النصرانية، فلما سمع بنزول أمير المسلمين إليه لم يمكنه إلا الخروج إليه، فخرج بجيوشه وجنوده، ووقف حول المدينة بعساكره وحشوده، واصطفت عساكر الروم على ضفة الواد الكبير في استعداد عظيم وعدد كثير جسيم، وكلهم في الدروع السابغة والبياضات اللامعة، والسيوف البواتر، والجواشن والحراب والمغافر، شعاعها يذهب بالأبصار، ويدهش الأذهان والأفكار، فزحف إليه أمير المسلمين بجيوش المجاهدين وأبطال بني مرين، وذلك يوم مولد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فلما تقارب الجمعان والتقى العيان بالعيان، نزل أمير المسلمين فصلّي ركعتين على عادته، ودعا الله تعالى بنصره ومعاونته، ثم قال: يا معشر مرين جاهدوا في الله حقّ جهاده وأشكروه إذ جعلكم مسلمين، فوالله لا يبصر حرّ النار من جاهد أعداء الله الكافرين، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحق وهو قائله: ((لا يجتمع في النار كافرٌ وقاتلٌ))، فطوبى لمن يكثر السواد ولم يباشر طعناً ولا جلاداً، أما والله إن أجر الجهاد لكبير، وخطره عند الله تعالى لعظيم، ومن مات فيه فهو حي يرزق وهذه مرتبة عالية لا تلحق، فلما سمع المسلمون منه الموعظة وعانيت أبطال مرين جيوش الكفرة عاد الجبان منهم قسورة، والضعيف كمعمر وعنتره، فدفعت عليهم كتائب المسلمين يقدمها النصر والسعد والتمكين، وتقدم الأمير أبو يعقوب برايته السعيدة في ألف فارس من أنجاد بني مرين أمام أبيه أمير المسلمين، فاقتحم جيوش الروم، فارتفعت الغبرات وضجّ المسلمون بالتكبير والشهادات، فكان بينهما قتال عظيم وموفق كريم، ثم أقبل أمير المسلمين على أثر ولده بساقاته وجيوشه وطبوله وبنوده، فلما سمع الروم هدير طبوله وعانوا إشراق رايته المنصورة وبنوده - ولّوا منهزمين، ونكصوا على أعقابهم مدبرين، كأنهم حمر مستنفرة فرّت ذاهلة، أمام قسورة، فألجأهم بنو مرين إلى الواد، وحكموا فيهم السيوف والصفاد، فكل من تاه منهم في البرية قتل في التيه، ومن اقتحم الواد غرق فيه، ومن بقي في

المعترك مشمرًا للقتال قتل أو أسر، فمات منهم في الواد ألوف كثيرة، واقتحم المسلمون الماء يعومون في إثرهم فيقتلونهم في لجة الغزيرة حتى صار الواد من دمائهم أحمر، وطلعت جيفهم على وجه الماء، وكان منظرهم عبدة للورى، ومزقت جيوشهم تمزيقًا وفرقت كتائبهم تفريقًا، وجالت جيوش المسلمين في تلك النواحي تقتل وتأسر وتحرق، وتخرب إلى الليل، وبات أمير المسلمين تلك الليلة راكبًا على جواده واقفًا على باب أشيلية، والطبول تضرب والنيران تضرم، حتى عاد الليل كالنهار، والروم يضربون قرونها ويحترسون بالأسوار، فلما ولي الليل بظلمته، وأشرق الصبح بغرته على أمير المسلمين، صلى صلاة الوسطى مغسلًا، وارتحل إلى جبل الشرف، فلم يزل في أنحائه راحلاً ومعرجاً، وتفرق المجاهدون فيه يقتلون ويأسرون ويضرمون النار ويخربون، ودخل أمير المسلمين حصن نينالة وحصن حليانة وحصن القلعة بالسيف، وقتل جميع رجاله، وسبى كافة نسائهم وأولادهم، وغنمت أموالهم وخربت حصونهم، وحرقت ديارهم ومّرّ التحريق والتخريب على أكثر قرى الشرف وحصونه، ورجع أمير المسلمين بالغنائم والسبي إلى الخضراء، فدخلها في الثامن والعشرين لربيع الأول المبارك من سنة ست وسبعين وستمئة فأقام بالجزيرة حتى اقتسم الغنائم على المجاهدين، واستراح الناس، ثم خرج غازيًا إلى شريش.

في أول جمادي الأولى من هذه السنة توفى الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة بهالقة عند انصرافه من هذه الغزوة.

الخبر عن غزوة أمير المسلمين الرابعة

لما رجع أمير المسلمين أبو يوسف من غزوة أشيلية وجبال الشرف أقام بالجزيرة حتى قسم الغنائم واستراح الناس، ثم خرج غازيًا إلى شريش، وذلك في الخامس عشر من شهر ربيع الآخر من سنة ست وسبعين وستمئة، عازمًا على

هلاكها واستئصالها، فسار حتى نزل عليها فحاصرها، وشد في قتالها وشرع في قطع الزيتون والعنب والشجر، وحرق الزرع وفسادها، وهدم القرى والبروج وتخريبها، وكان أمير المسلمين - رحمه الله - يقطع الثمار ويحرق الزرع بيده، فأبصره الناس، فجدّوا في فعله، وكان فعله ذلك للرشاد وأفضل الجهاد، حتى صارت تلك البلاد خاوية على عروشها، وقتل من وجد بها من فرسان الروم وجيوشها، وبلغ بالروم من النكاية إلى غاية النهاية، فلما دوّخ تلك البلاد وهتكها، بعث لولده الأمير الأسعد أبي يعقوب في سرية من ثلاثة آلاف فارس إلى غزو حصون الواد الكبير، فسار إليها فغنم حصن روضة وشلوكة وغليانة والقناطير، وسار مع الواد يفسد ويخرب ويقتل ويأسر، حتى وصل إلى أشبيلية فغنمها، ودوّخ أحوازها، ورجع بالغنائم والسبي إلى والده، فوجده ينتظره بقرية شريش، ففرح بقدمه، وارتحل إلى الجزيرة يقسم بها المغنم على بني مرين وقبائل المجاهدين، ثم جمع أشياخ القبائل من بني مرين والعرب والأغزاز والأندلس، فندبها إلى الجهاد، وقال: يا معشر المجاهدين، إن أشبيلية وشريش وأحوازها قد ضعفا وبادا، وإن قرطبة وأعمالها بلاد خصيبة عامرة، وعليها اعتماد الروم وتكلاهم، ومنها قوتهم ومعاشهم، فإن غزوناها وأفسدنا زروعها وقطعناها ثمارها فنت الروم جوعاً وضعفت جميع بلاد النصرانية، وقد عزمْتُ على غزوها فما ترون في ذلك؟ فقالوا: يا أمير المسلمين وفقك الله فيما رأيته وأعانك وأثابك على ما نويت، نحن نتبعك في رأيك سامعين لأمرك ونهيك، لو خُصّت بنا البحر لخضناه، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لقتلناه، فشكرهم ودعا لهم، وفرق فيهم الخلع والأموال، وأحسن إليهم، وزادهم وكتب إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة يخبره أنه يريد غزو قرطبة ويدعوه في المسير معه إليه، ويقول له: إن خرجت معي إليها فتكون لك مهابة في قلوب الروم ما عشت وأجرًا عظيمًا عند الله تعالى.

الخبر عن غزوة أمير المسلمين أبو يوسف إلى غزو قرطبة من الجزيرة الخضراء في وهي غزوة قرطبة

قال المؤلف عفا الله:

عنه خرج أمير المسلمين أبو يوسف إلى غزو قرطبة من الجزيرة الخضراء في
جيوشه المؤيدة وكتابه المنصورة المظفرة، وذلك في أول يوم من جمادي الآخرة من
سنة ست وسبعين وستمئة، وخرج أيضًا الأمير ابن الأحمر بجنوده من غرناطة،
فالتقى الجمعان بجنان الورد من بلاد شدوتة، فأقبل عليه أمير المسلمين وفرح به،
وجمع الله تعالى كلمة الإسلام، وألف بين قلوب أهله، فطابت نفوس المسلمين على
القتال، وقويت نياتهم، فاستعدوا للجهاد فنزلوا على حصن بني بشير، والفتح
والنصر إليهم يشير، فدخلوه في حينه عنوة بالسيف، وقتل جميع رجاله وسبي
نساءهم وأولادهم، وغنمت أموالهم، وهدمت الحصن حتى لا يبقى لها أثر، وأطلق
أمير المسلمين الغارات في كل ناحية من بلاد الكفرة وكل من وإلى من المسلمين
مكانًا دمره، وغنموا من تلك الجهات من البقر والغنم والمعز والخيل والبغال
والحمير والزيت والسمن والقمح والشعير ما لا يوصف، فكثرت الخيرات في محلة
المسلمين، وامتلات أيديهم بالغنائم، ثم ارتحلوا إلى قرطبة فبرز أمير المسلمين عليها
بالساقات والجيوش، وضربت عليها الطبول، وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير،
فتحصن الروم بالأسوار والرماة، وسار أمير المسلمين تحت ظلال بنوده وقدم بين
يديه أبطاله وجنوده، حتى وقف على بابها ثم دار بأسوارها، ينظر كيف الحيلة في
قتالها، ووقف ابن الأحمر بعسكر الأندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفًا لما
يحدث من قبل الروم، فتفرقت عساكر بني مرين والعرب في أحواز قرطبة وحصونها
وقراها ومدنها، فيقتلون ويأسرون ويفسدون ويخربون، ودخلوا حصن الزهراء
بالسيف، فأقام أمير المسلمين على قرطبة ثلاثة أيام حتى هتكها وخرب قراها
وأحرق زروعها ودوّخ أرضها، وارتحل عنها إلى بركونة، فدخل أرياضها بالسيف

وخرقها وقطع ثارها، وارتحل إلى أرجونة، ففعل بها كفعله في بركونة، وبعث الجيوش إلى مدينة جيان، وبث السرايا في كل جهة، فانتشرت في تلك البلدان، فلما رأى الفنش ما نال بلاده من الفساد والدمار، وما حل برعيته من القتل والأسر والتبار، جنح إلى الصلح ورغب فيه، وبعث الأقسمة والرهبان إلى أمير المسلمين يسأله ويعفيه، فوصلوا إلى بابه يرغبون في السلم صاغرين، ويضرعون إليه داخلين، فقال لهم: أنا ضيف لا أصالحكم إلا إن صالحكم ابن الأحمر، فساروا إلى ابن الأحمر، وقالوا له: إن أمير المسلمين قد رد الأمر إليك، وقد أتيناك لتصلحنا صلحاً مديداً يدوم على توال الأعصار، ويبقى ما تعاقب الليل والنهار، وأقسموا له بصلبانهم أن لم يرضه الفنش خلعه من سلطانهم، لأنه لم ينصر الصليبان، ولا حمي الثغور، ولا ضبط البلدان، وقد ترك رعيته نهباً للعدوان، وتمادت بهم الأحوال لم يبق منهم أحد، فأتى ابن الأحمر إلى أمير المسلمين فبين له الأمور، وأخبره أن الأندلس لا تسكن إلا بالصلح على قديم الدهور، وقد سمى الله تعالى الصلح خيراً، فانعقد الصلح بين ابن الأحمر والرهبان، وقال لهم تصلون إلينا في إثرنا إلى حضرة أمير المسلمين فيكون بها تمام الصلح والإشهاد به علينا وعليكم إن شاء الله تعالى، فارتحل أمير المسلمين من أرجونة قاصداً إلى الجزيرة، وأخذ على طريق غرناطة، فأعطى المغانم كلها لابن الأحمر إحساناً إليه، وفضلاً منه وإيثاراً عليه، وقال لا يكون حظ بني مرين من هذه الغزوات إلا الأجر والثواب، فسار ابن الأحمر بالغنائم إلى غرناطة، وسار أمير المسلمين إلى مالقة حتى دخل الجزيرة، وذلك في العشر الأول من شهر رجب من سنة ست وسبعين وستمئة، فنزل بمحلته خارجها، وعند وصوله إليها مرض وبقي مريضاً سبعين يوماً، وذلك عشرين يوماً من رجب وشعبان بأسره، وعشرين يوماً من رمضان حتى تحدث الناس بموته في بلاد العدو، فبعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى العدو يهدن الناس ويسكن روعاتهم، فلما وجد أمير المسلمين الراحة من مرضه

أته إرسال الروم مع الرهبان والأقسة في تمام الصلح فصالحهم، وذلك في آخر شهر رمضان من السنة المذكورة، وفي شهر رمضان من السنة المذكورة بعث الرئيس ابن أشقيلولة إلى أمير المسلمين يرغب منه أن يأخذ منه مالقة، وقال له: إني قد عجزت عن ضبطها؛ فإن لم تصل إليها وتقبضها من يدي أعطيتها للروم ولا يملكها أبداً ابن الأحمر، وكان ابن الأحمر قد أعطى عليها للفنش من البلاد والحصون عدداً كثيراً، وكذلك أعطى عليها ابن أشقيلولة، فبعث إليها أمير المسلمين ولده الأمير أبا زيان فقبضها منه، ودخل في قبضتها، وذلك في العشر الآخر من شهر رمضان المذكور فأقام أمير المسلمين بعده بالجزيرة حتى انقضى شهر رمضان وعيد عيد الفطر بها، ثم خرج إلى مالقة في ثلاث من شوال فدخل في اليوم السادس منه، فتلقيه أهلها ببرز عظيم، وفرحوا به وتهنئوا روعاتهم، وتأمنت بلادهم، فأقام بقية شوال وشهر ذي القعدة وثمانية عشر يوماً من شهر ذي الحجة، وارتحل إلى الجزيرة برسم الجواز إلى العدو بعد أن رتب فيها ألف فارس من بني مرين والعرب، وسكن في قصبتها عمر بن عليّ، وقدمه عليها وعلى جيشها، وجاز إلى العدو، وذلك في العشر الأوائل من المحرم سنة سبع وسبعين وستمئة، فوصل مدينة فاس، فأقام بها أياماً ثم خرج إلى مدينة مراكش، ولما تحقق الفنش لعنه الله جواز أمير المسلمين إلى العدو واستقراره بحضرة مراكش نقض صلحه، ورفض الأيمان، ونكث العهود، ونسي الإحسان، وهذه صفة المشركين الذين وصفهم الله تعالى في كتابه المبين، فقال -وقوله الحق-: {ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون}.

فبعث اللعين الأفروطة يحاصر الجزيرة، وقطع المجاز، فلما رأى ذلك عمر بن عليّ قائد أمير المسلمين على مالقة غدر وقام بها، وراسله ابن الأحمر في شأنها، فباعها منه بخمسين ألف دينار وحصن سلوبانية، وذلك في نصف رمضان من سنة سبع وسبعين وستمئة، وأتى ابن الأحمر بجيوشه حتى دخل مالقة وملكها، وحمل عمر بن

عليّ جميع ما كان أمير المسلمين تركه بها من العدد والمال برسم المرتبات والإنفاق على أجفان والغزاة، واتصل بأمير المسلمين غدر ابن عليّ وبيعه مالقة لابن الأحمر، فبلغ منه كل مبلغ وخرج من فوره عن مراكش قاصداً إلى الأندلس، وذلك في ثلاث شوال من سنة سبع وسبعين وستمئة، فوصل قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه الأمطار والرياح والسيول، لم تزل الأنواء مصطجة لا يقلع المطر ليلاً ولا نهاراً، فلم يستطع الرحيل لأجل ذلك، ووردت عليه الأخبار وهو بهذه المنزلة أن النصراري - دمرهم الله - قد نزلوا الجزيرة براً وبحراً، المحلات في البر والأجفان في البحر، وكان نزول الأفروطة عليها في نصف ربيع الأول من سنة سبع وسبعين وستمئة.

فنزها الفنش بعساكره في البرّ في سادس شوال من السنة بعينها، فأمر أمير المسلمين بالرحيل إلى طنجة لينظر في الجواز إلى الأندلس واستنقاذ الجزيرة، فبينما الناس يرتحلون إذا تواترت الأخبار في المحلة أن أمير عرب سفيان مسعود بن كانون قد نافق ببلاد نفيس من أحواز مراكش وتبعه جميع عرب سفيان، فأسرع أمير المسلمين بالرجوع إلى مراكش، فلما وصلها فرّ مسعود بن كانون أمامه إلى جبل السكسيوة وتمنّع منه هنالك، وترك جميع أمواله وأمتعته فأخذها أمير المسلمين ففرقها في بني مرين، ونزل عليه فحاصره بجبل السكسيوة وأقام عليه وأقسم أن لا يرتحل عنه حتى ينزل على حكمه أو يموت دون ذلك، وكان نفاق مسعود بن كانون المذكور يوم الأحد الخامس من ذي القعدة من سنة سبع وسبعين وستمئة، فأقام محاصراً له، وبعث ولده الأمير أبا زيان إلى بلاد السوس فدخلها وهدنها وقمع ثوارها، وجبا خراجها، ورجع إلى والده فوصله في آخر يوم من ذي الحجة من السنة المذكورة، ولما طال مقام أمير المسلمين على حصار الثائر مسعود بن كانون تواترت عليه الأخبار بما هي عليه الجزيرة الخضراء من شدة الحصار، وتوقع القتل والأسر

بالليل والنهار، وكان جملة من نزلها في البر الفنش -لعنه الله- في ثلاثين ألف فارس من الروم وثلاثمئة ألف راجل، فشدّ عليها الحصار ودارت محلاتهم بالأسوار وأحدقوا بها كالسوار بالمعصم، ونصبوا عليها المجانيق والرعادات، وضيقوا عليها ضيقاً عظيماً حتى لا يدخلها أحد ولا يخرج منها وكان أهلها لا يسمعون خبراً إلا ما يأتيهم به الحمام من جبل الفتح يحمل إليهم الكتاب ويرد عليهم الجواب، وفني أكثر أهلها بالأسر والجوع والقتل، وسهر الليل في الأسوار والحراسة والقتال بالليل والنهار، حتى أشرف من بقي بها على هلاك وقطعوا إياهم من الحياة، فجمعوا صبيانهم وطووهم خوفاً عليهم من التحويل، واتقاء أن تدخل عليهم المدينة فيدعونهم الروم إلى تبديل، فلما سمع أمير المسلمين ما آل إليه أمر الجزيرة، وقد سبق يمينه أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى يظفر به أو ينزل إليه على حكمه دعي بولده الأمير الأجلّ أبي يعقوب، وأمره أن يسير إلى طنجة يرسم النظر في استنقاد الجزيرة عمارة الأجفان لجهاد الأفروطة المحاصرة لها، فخرج الأمير أبو يعقوب من حضرة مراکش قاصداً إلى طنجة، وذلك في شهر محرم من سنة ثمان وسبعين وستمئة، فوصل طنجة في غرة صفر ثاني المحرم المذكور، فأمر بعمارة الأجفان بمدينة سبتة وطنجة وبادس ومدينة سلا، وفرق الأموال والعدد على الغزاة والمجاهدين، وكان من أهل سبتة من هذه العمارة وغزو هذه الأفروطة جهد عظيم، فإن الفقيه أبا حاتم العزفي -رحمه الله- لما وصله كتاب الأمير أبي يعقوب يأمره بالعمارة، جمع أشياء سبتة وقوادها ورؤساءها وغزاتها، فندبهم للجهاد وحضهم على نصره أهل الجزيرة واستنقازها مما هي فيها من الهلاك والجلاد، فبادر جميع من فيها وسارعوا خفياً وثقلاً إلى ركوب الأجفان، فعمر أهل سبتة خمسة وأربعين جفناً ما بين كبار وصغار، وركب فيها تطوعاً يرسم الجهاد جميع من بسبتة من الفقهاء والصلحاء والطلبة والتجار والسوقة ومن لا معرفة له بالحرب، كل قد باع نفسه من الله تعالى، ولم يبق

بسببة إلا النساء والزمن والشيوخ الذين لا قوة لهم والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، وعمر ابن الأحمر في المنكب والمرية ومالقة اثني عشر جفناً وعمر الأمير أبو يعقوب بطنجة وسلا وبادس وأنفا خمسة عشر جفناً فنص في الجميع اثنان وسبعون قطعة واجتمعت أجفان المسلمين كلها بسببة، ثم انقلعوا منها إلى طنجة ليراهم الأمير أبو يعقوب فوصلوها في أحسن زي وأكمل استعداد، فركب فيها هنالك جماعة من أنجاد بني مرين ممن رغب في الجهاد، وعقد لهم الأمير أبو يعقوب رايته السعيدة المنصورة وقال: سيروا على بركة الله تعالى ويمنه. فارتفعت أصوات المجاهدين بالشهادة، وضج الناس بالدعاء لهم والابتهاال إلى الله تعالى في نصرهم وتأيدهم على عدوهم، فأقلعوا من طنجة ثامن ربيع الأول المبارك من سنة ثمان وسبعين وستمئة، والناس ييكون ويتضرعون، فأقام أهل سبتة وطنجة وقصر المجاز أربعة أيام بليالها لم ينم منهم أحد ولا غلق فيها باب، ومن كان بقي منهم من الأشياخ والصبيان ركبوا الأسوار وأقبلوا على الدعاء والتضرع لهم بالليل والنهار، فانتشرت قلوب المسلمين في البحر وقدموا المناطح، وصار الموج لهم كالأباطح، وسكنت بيمن الله تعالى الرياح، ليطيب لهم الحرب والكفاح، وإذا سكنت البحار الزواجر تعطلت عن جريها القراقر، فقصدت أجفان المسلمين جبل الفتح، فباتوا به تلك الليلة مرابطين، وباتوا المجاهدون بأجفانهم ما بين تال لكتاب الله تعالى وذاكر وداع ومتجهدين، فلما انفجر الصبح من يوم الأربعاء العشر من ربيع الأول المذكور صلوا صلاة الصبح لأول وقتها، فقام فيهم بعض الفقهاء الصلحاء خطيباً، وذكرهم بما أعد الله تعالى للمجاهدين من الأجر العظيم والثواب الجسيم حتى ذرفت عيونهم وطابت قلوبهم، وقويت نفوسهم، وخلصت نياتهم، واشتاقوا إلى الشهادة، وتوادعوا وعانق بعضهم بعضاً، وتعافوا فيها بينهم، ثم أقلعوا قاصدين نحو أجفان المشركين، فلما أبصر الروم جموع المسلمين قاصدة نحوهم وقد سدت المسالك، قاصدة للحرب

والمهالك، قذف الله تعالى الرعب في قلوبهم، والتحم بعضهم ببعض ليكون أمنع لهم في حروبهم، وصعد قائدهم الأكبر ظهر قرقورة ليرى أجفان المسلمين، فعد منها ألفاً وظن أن الباقي أكثر، وعدّها قواد الروم فأجمعوا على أنها ألف ونيف، ليس فيها عندهم خلاف ولا ريب، وسقط في أيديهم، وكثرها الله تعالى في أعينهم، وأيقنوا بالهلاك والدمار، وعزموا على الهروب والفرار، وأقبلت أجفان المسلمين -أنجدهم الله تعالى- فاصطفت أمامهم مثل السور، متوكلين على الله في جميع الأمور، وكلهم قد وطن نفسه على الموت، وباعها من الله تعالى بالجنة قبل الفوت، فبرز إليهم الملتد قائد الأفروطة في قرقورة قد أعدها، وبرز معه جماعة من قواد الروم وغزاتها، في قطاع معدة وقواكير هائلة، وكلهم قد لبسوا الحديد، وأظهروا العدة والعديد، وأكبر جفون المسلمين وهو الغراب ترتفع عليه القرقورة ارتفاع الجبل الشاهق، وإذا نشرت شراعها صيرته لها أرضاً، وجرت عليه جرى الجواد السابق، فالتحم الحرب بين الفريقين وتشهد المسلمون وقالوا: لا أثر بعد عين. وأقبلت سهام المسلمين عليهم صائبة كأنها القطر الواكف، أو الريح العاصف، تنفذ التراس والدروع، وتفرق الكتائب والجموع، ونصر الله تعالى عباده المؤمنين فخرجوا بثلاث قطع من أجفان الكفار، وكثر فيما بقي من الأجفان القتل والجراح، وتولى عليهم رشق السهام وطعن الرماح، فلما رأى الكفرة ما نالهم من البوار، نحو العقار، وولوا الأدبار، وأخذوا في الفرار، وقالوا: هذه سفرة دائرة، وكرة خاسرة. فترامى المسلمون معهم في الأجفان فقتلوا منهم عدداً لا يحصى، وترامى أكثرهم في البحر يعمون كالضفادع ويتساقطون فيه تساقط الفراش، فقتلهم المسلمون بالرماح الذوابل والسيوف القواطع، حتى لم يبق منهم باقية، وأضحت أجفانهم منهم خاوية خالية، فملكها المسلمون واحتوا على ما فيها من العدد والأزواد، وفرج المجاهدون واستبشروا المسلمون الذين بداخل الخضراء بفساد الأفروطة وهلاكها وقتل حمايتها وأخذها،

وأيقنوا بالحياة بعد ما أشرفوا على الوفاة، وأتاهم من الله تعالى الأمان بعد الذكر، واليسر بعد العسر والنصر بعد الصبر، والرخاء بعد الشدة، والسراء بعد الضر، والضياء بعد الظلام، والصحو بعد الغمام، ودخلت أجفان المسلمين الجزيرة على من بها من الروم عنوة بالسيف، وقتلوا جميع من وجدوه بها، وأسر قائدهم الملتد وجماعة من قواد الروم، منهم ولد أخت الفنش وكبير بيوته، واحتوى المسلمون على جميع ما كان بالجزيرة وفي الأجفان من العدد والسلاح والأسلاب والذخائر التي جاء بها التجار من الحلي والثياب والجواهر والعدد، واحتملوا من ذلك ما لا يصفه لسان ولا يحويه عدد، ولما رأى أهل المحلة التي في البر محاصرين للخضراء ما أصاب أهل البحر من الأسر والقتل والفساد، خافوا من فجأة جواز الأمير أبي يعقوب إليهم إذ كان مقيماً بساحل طنجة مستنفرًا للجهاد، فأخذوا في الرحيل والفرار، وخلعوا جميع ما كان معهم من الأثقال والأزواد في تلك الدار، فخرج الناس من الخضراء رجالاً ونساء، فانتشروا في مضاربهم وجالوا في منازلهم يقتلون ويغنمون، فوجدوا بها من الأسلاب والأموال والفواكه والآدام والشعير والدقيق ما لا يحصى كثرت فانتهبوا ذلك كله، وأدخلوه المدينة، فبيع الدقيق القرطبي بالجزيرة ربعاً بدرهم بعد أن كان في غدوته معدوماً بالكلية لا يوجد غالباً ولا رخيصة، ومن فضل الله تعالى وسيدته لأوليائه في هذه الغزوة أن أجفان المسلمين كانت نيفاً وسبعين جفناً وأفروطة الرومي زادت على أربع مئة قطعة فغلبتها، وسار البشير إلى الأمير أبي يعقوب فأعلمه بما سناه الله تعالى لعباده المسلمين من الفتح الجليل والصنع الجميل، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وكتب في الحين إلى والده بالفتح، وكانت هذه المنة العظيمة الجسيمة في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول المبارك يوم مولد سيدنا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - من سنة ثمان وسبعين وستمئة، فورد كتاب الفتح على أمير المسلمين وهو محاصر لمسعود بن كانون بجبل سكسيوة فخر الله تعالى ساجداً، ولم

يزل له شاكراً وحامداً، ثم أمر بإخراج الصدقات وتسريح المسجونين والمفرحات، وضرب الطبول في جميع بلاده، وكان -رحمه الله- من حين اتصل به حصار الخضراء لم يلتذ بمنام، ولم يستطب طعاماً، ولم يقرب امرأة، ولا غير زياً، ولم يطب له عيش إلى أن وصله خبر الفتح وفساد الأفروطة وفرار المحلة وإقلاعها عن الجزيرة، وجاز الأمير أبو يعقوب بأثر هذا الفتح إلى الخضراء، وذلك في غرة ربيع الآخر فخافت الروم في جميع الأقطار، وعملوا على الحصار في جميع الأمصار، فهاله عن غزو بلادهم منافسة مع ابن الأحمر في أخذه مالقة، فصالح الأمير أبو يعقوب الفنش على أن ينزل معه غرناطة وجاز إلى العدو وجوز معه زعماء الروم وسار بهم إلى أبيه ليتم لهم الصلح بين يديه، وظن أن فعله ذلك مما يرضي أباه، فلما سمع أمير المسلمين بذلك غضب له ولم يرضه، وسار إلى بلاد السوس وأقسم ألا يرى أحداً من الزعماء الذين أتى بهم ولده إلا أن يراهم في بلادهم، فانصرف الزعماء خائبين، ورجع أمير المسلمين من بلاد السوس فدخل حضرة مراکش، وأقام بها أياماً، وخرج إلى مدينة فاس فوصلها واستقر بحضرته من المدينة البيضاء منها، وأنفذ الكتاب إلى قبائل بني مرين والعرب يستنفرهم للجهاد، ثم خرج من حضرة المدينة البيضاء قاصداً إلى الأندلس برسم إصلاح أحوالها وتسكين فتنها وجهاد غزوها، وذلك في غرة رجب من سنة ثمان وسبعين المذكورة، فوصل طنجة في نصف رجب المذكور، فنزل بقصبتها واستشرق على أحوالها منها، فوجدها قد أضربت ناراً، وعظم النفاق في جميع أقطارها بين المسلمين والروم، واغتتم العدو فرصته فيها لغيبة أمير المسلمين عنها وتغيره عن ابن الأحمر بسبب مالقة، فبعث رسله إلى ابن الأحمر ليرد عليه مالقة ويصالحه، فامتنع ابن الأحمر من الصلح وأغلظ له في القول، وكان ابن الأحمر قد صالح يغمراسن بن زيان وبعث إليه أموالاً جلييلة وهدية عظيمة على أن يشغل عنه أمير المسلمين، ويثقل عليه الحرب في حين ويشن الغارات على بلاده حتى يمنعه من

الجواز إلى الأندلس، فأخبر أمير المسلمين بخبرهما فبعث رسله إلى يغمراسن يسأله عن الذي بلغه ويطلب منه تجديد الصلح، فقال للرسول: لا صلح بين وبينه أبداً، وليس له عندي ما عشتُ إلا الحرب، وكل ما وصله عن صلحي مع ابن الأحمر فهو حق، فقل له يتأهب للقائي ويستعد لقتالي ونزالي، فأبلغه الرسول المقالة فاسترجع أمير المسلمين، فقال: اللهم انصرني عليهم يا خير الناصرين، ثم خرج من طنجة راجعاً إلى مدينة فاس فدخلها في آخر شوال من سنة ثمان وسبعين وستمئة، فكانت مدة إقامته بطنجة ثلاثة أشهر وسبعة أيام، فأقام بمدينة فاس وبعث رسوله ثانية إلى يغمراسن ليقيم عليه الحجة ويبين له المحجة، ويقول له: يا يغمور إلى متى هذا الضلال والغرور، أما أن تشرح الصدور وتنقضي هذه الشرور، أما علمت أن السن قد انتهى وذهب الشباب وجاوزت معترك المنايا فهلم إلى الصلح الذي جعله الله تعالى خيراً للعباد، وأسلك منهاج التقوى والرشاد، وبادر إلى التعاون على البرِّ والتقوى والجهاد، وأعمل على الجهاد والرباط، وكن بغزو الروم ذا اغتباط:

حتى متى لا تزدر حتى متى لا بد من كأس الحمام للفتى
فإن أبيت السير للجهاد وحدت عن مناهج الرشاد
فأتركن الناس إلى جهادهم مزمنين في حمى بلادهم
وأهد ولا تنهض إلى تجين فإنهم في العهد مع مرين
فوصلته الرسل وأبلغوه الرسالة وأدوا إليه الموعظة والمقالة فلما سمع ذكر تجين
في أثناء اللفظ أقام منزعجاً، وقعد وكاد يتميز من الغيظ، وقال: والله لا كففت عن
تجين ولو رأيت الفنش في سجين، فليصنع ما بدا له وليتأهب للحرب فهو أولى به،
فلما قطع المنصور من صلحه الإياس خرج إلى قتاله من حضرة فاس، وذلك في شهر
ذي الحجة سنة تسع وسبعين وستمئة، فسار حتى وصل فج عبد الله، فاجتمع
هنالك بولده الأمير أبي يعقوب، ثم ارتحل إلى رباط تازا، فأقام به أياماً، ثم خرج

فنزل وادي ملوية، وليس في جيشه خمسمئة فارس، فأقام عليه أيامًا، فتلاحقت به الجيوش والأبطال، وتوافت عليه قبائل مرين الإقبال، وقدمت عليه العساكر كالسيول حتى ملأت محله الربا والسهول، فارتحل حتى نزل تأمت فتوفى هنالك ولده إبراهيم، ثم سار حتى نزل وادي تافتت، وأما يغمراسن فنزل أمامه بالمال والأعيال والنفير والقطمير، وقدمت معه قبائل الأعراب بالشاة والبعر، فمنع أمير المسلمين الناس من القتال، فاشتاق بنو مرين للحرب والنزال، فخرجت جماعة منهم متصيدين، وعلى محلة يغمراسن متشوفين، فإذا بهم لذة الصيدان، وصلوا إلى أطراف محلة يغمراسن، فخرجت إليهم بنو عبد الوادي وبادرت إليهم الأعراب كالجراد فكسروهم حتى وصلوا ضمير الوادي، فلما رأى أمير المسلمين بني عبد الوادي في إثر خيله، وكان كلما سلم من صلاة الظهر ركب جواده وركبت جيوش مرين والعرب وسائر الأجناد، وأقبلوا نحوهم كالأسد، ومرت الخيل على قسمين نصف قصد محلة يغمراسن، ونصف سار إلى محلة العرب الذين أقبلوا معه، وتأخر أمير المسلمين هو ولده الأمير أبو يعقوب في نحو ألفي فارس من أنجاد بني مرين، فالتحم القتال وحى الوطيس، واشتدت الحرب بين الفريقين، وصرخ إبليس، ولم يزل القتال يشتد بينهم إلى صلاة العصر، فأقبل الأمير أبو يعقوب في نحو من ألف فارس من بني مرين وأقبل ولده الأمير أبو يعقوب كذلك في ناحية أخرى، وكل واحد منهما بطبولة وبنوده فأحدقوا بهم من كل جانب، وأحاطوا بهم كالعذاب الواصب، وأسبلوا فيهم القني والقواضب، فرأى يغمراسن ما لا يقدر عليه فولى هاربًا مهزومًا، وخلف القباب والأموال والمضارب والعيال، وفر في البيداء كعوائده، ولم يفكر في أمواله ولا في نواهده، فقتلت جنوده وحكمت بنوده، ودخل إلى حضرته ونحسه باد على غرته، وانتهب الناس جميع محله، ولم يزل الناس طول ليلتهم إلى الصباح يتتهبون سائر البلاد والنواحي، وباتت طبول أمير المسلمين في

محلته تضرب في الخيام طول ليلته، وأخذ أموال العرب بأسرها، وامتلات أيدي مريين من شاتها وبعيرها ووصل أبو زيان بن عبد القوي إلى أمير المسلمين أبي يوسف وبايعه، وأقام معه في بلاد يغمراسن هو وقييلته من بني تحين يدمرون ويفسدون ويخربون، فلما استأصل جميع بلاده، وأكل زروعها ونهبها، وحرب ربوعها، أمر بني تحين بالرجوع إلى بلادهم وأعطاهم أموالاً جلييلة في حباثهم، وأقام هو على تلمسان حتى وصلت تحين بلادهم، ثم ارتحل راجعاً إلى المغرب فوصل مدينة فاس، فدخلها في شهر رمضان من سنة ثمانين وستمئة، فأقام بها إلى آخر شوال وارتحل إلى مدينة مراكش في أول شهر ذي القعدة من سنة ثمانين المذكورة، فدخلها في غرة محرم من سنة إحدى وثمانين وستمئة، فبني بها بامراًة مسعود بن كانون، وبعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى بلاد السوس، وأقام هو بمراكش فوصله بها رسول الفنش وكتبه يدعوه فيها إلى نصرته، ويقول له: أيها الملك المنصور، إن النصراري نقضوا عهدي وثاروا عليّ مع ولدي، وقالوا: شيخ كبير قد ذهب رأيه وفني عقله، فأعني عليهم ويكون سيري معك إليهم، واغتنم المنصور هذا الحال وجعل جوابه إليه الارتحال، فارتحل عن مراكش في ربيع الأول، فلم يدخل بلداً ولا تلبث ولا أمهل حتى وصل إلى قصر المجاز منه إلى الخضراء، وذلك في ربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين وستمئة، فوجد النصراري في نهاية الضعف وغاية الشتات، فأتته حصص بلاد الأندلس فسلموا عليه، فارتحل ونزل بصخرة عباد، فأتاه الفنش بها خاضعاً ذليلاً، فأكرمه أمير المسلمين وعظم فكره وشكى إليه بقلّة ذات يده، وقال له: مالي غياث سواك ولا نصري إلا إليك، ولم يبق لي إلا التاج، وأنا في هذه الحركة محتاج، وهو تاج أبي وأجدادي فحذه رهناً في المال، وأعطني ما أنفقته في الحال، فأعطاه أمير المسلمين مئة ألف دينار، وسار معه يغزوا في بلاد الروم حتى وصلوا إلى قرطبة، فنزل عليها وقتلها أيّاماً وولد الفنش محصوراً بها، وبعث سراياه إلى جيان، فأفسد زروعها ثم

ارتحل، أمير المسلمين إلى أحواز طليطلة يقتل ويسبي ويغنم الغنائم ويخرب القرى والحصون، حتى وصل إلى مجريط من أحواز طليطلة وقد امتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، فرجع لأجل ذلك إلى الجزيرة، فكانت غزوة عظيمة لم يكن مثلها في سالف الدهر، فدخل الجزيرة في شعبان من السنة المذكورة وهي الغزوة السادسة، فأقام بالجزيرة إلى آخر ذي حجة من العام المذكور، وخرج في أول محرم من سنة اثنتين وثمانين وستمئة، فنزل مالقة، وفتح بأحوازها حصوناً كثيرة منها حصن قرطمة وذكوان وسهيل، وفي هذه السنة اصطاح ولد الفنش مع ابن الأحمر لأجل صلح والده مع أمير المسلمين أبي يوسف رحمه الله، فاشتعلت الأندلس ناراً، ووصل ذلك مالقة، وضاعت الدنيا على ابن الأحمر، فبعث رسله إلى الأمير أبي يعقوب ببلاد العدو ويسأله الجواز ليصلح هذه الخطوب، فجاز الأمير أبو يعقوب إلى الأندلس في شهر صفر من سنة اثنتين وثمانين وستمئة، بعد أن دام النفاق بينهما مدة، فأصلح الله تعالى على يديه بين المسلمين ورفع ببركته علم الدين، واجتمعت كلمة الإسلام، ورجع الغزو لعبدة الأصنام، وبث أمير المسلمين سراياه في بلاد الكفرة فغنموا وسبوا ثم خرج من الخضراء غازياً إلى قرطبة وهي غزوة البرة.

الخبر عن خروج أمير المسلمين إلى غزوة البرة

خرج إليها من الجزيرة في أول يوم من ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين وستمئة، فسار حتى وصل قرطبة فغزا بلادها وغنم حصونها وخرب معمرها، وارتحل نحو البرة وترك محلته على بيلسة بالمغانم والأثقال، وترك منها خمسة آلاف فارس من الحماة الأبطال، وكان في ذلك رياسة وسياسة، فإنها دارت بها بلدانهم، فجد أمير المسلمين السير إلى البرة فسار يومين بأرض خالية حتى وصل إلى المعمور، فأغارت الخيل حتى وصلوا إلى أحواز طليطلة، ولم يبق بين أمير المسلمين وبينها غير

مرحلة واحدة، وما صده عن غزوها إلا كثرة ما بأيدي المسلمين من الأموال والسبي والقتل، وقتل فى هذه الغزوة من الروم ألوفا لا تحصى، ورجع أمير المسلمين على طريق أخرى يحرق ويخرب ويسبي ويقتل حتى وصل إلى مدينة أبره، فقاتلها ساعة من النهار فرماه علق بسهام من سورها أصاب الفرس الذي كان عليه، وسلم الله تعالى أمير المسلمين منه، فارتحل عنها إلى محلته التي تركها على بياسة، فأقام بها ثلاثة أيام حتى استراح الناس، وارتحل عنها بعد ما دمرها، فسار إلى الجزيرة وقدم بين يديه من السبي والأموال والكراع ما يعجز عنه الوصف، فدخلها فى شهر رجب من سنة اثنين وثمانين وستمئة، فقسم بها الغنائم بين المسلمين، وجاز إلى العدو فى أول يوم من شعبان، فأقام بطنجة ثلاثة أيام وارتحل إلى مدينة فاس، فدخلها فى العشر الآخر من شعبان المذكور فصام بها رمضان وعيد بها عيد الفطر، وارتحل إلى مراکش، فوصل رباط الفتح فأقام بها شهرين ثم ارتحل إلى حضرة مراکش فدخلها فى المحرم من سنة ثلاث وثمانين وستمئة، وبعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى بلاد السوس برسم غزو العرب ومن بها من القبائل الخارجة، ففرت العرب أمامه إلى الصحراء، فتبعهم حتى بلغ الساقية الحمراء، ومات أكثر العرب الفارين جوعاً ومرضى أمير المسلمين أبو يوسف بمراكش حتى أشرف على الموت، وكتب إلى الأمير أبي يعقوب أن يسرع بالوصول قبل أن يعاجله الموت، فارتحل نحو مراکش، فلما وصل إلى والده فرح به وسر الناس بقدمه، ووجد أمير المسلمين الراحة، واستقل من مرضه وعاد إلى صحته، وارتحل عن مراکش برسم بلاد الأندلس عازماً على الجهاد، وذلك فى آخر جمادى الآخرة من سنة ثلاث وثمانين وستمئة. فدخل رباط الفتح فى نصف شعبان من السنة المذكورة، فصام بها شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، ووفد عليه برباط الفتح أشياخ بلاد المغرب وفقهاؤها برسم السلام عليه والتهنئة بصحته، وكان فى ذلك العام قحط شديد حتى إلى آخر رمضان المعظم

يوم موت الحرة المذكورة وفي آخر شوال من هذه السنة، فارتحل أمير المسلمين من رباط الفتح إلى قصر المجاز فكتب إلى قبائل المغرب يستنفرهم للجهاد، ثم شرع في تجويز الجيوش إلى الأندلس بقية سنة وثلاث وثمانين المذكورة، فلما كان في أول يوم من صفر من سنة أربع وثمانين وستمئة، وقد تكامل الناس بالجواز جاز إلى الأندلس فنزل بطريق ثم سار منها إلى الخضراء.

الخبر عن جواز أمير المسلمين أبي يوسف إلى الأندلس وهو الجواز الرابع

قال المؤلف عفا الله عنه:

جاز أمير المسلمين أبو يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد وهو الجواز الرابع، وذلك يوم الخميس الخامس من صفر من سنة أربع وثمانين وستمئة، فنزل بجزيرة طريف، ثم سار منها إلى الخضراء، فقام بها أيامًا ثم خرج منها غازيًا إلى بلاد الروم، فسار حتى وصل إلى وادي لك، فوجد الزرع في إقبالها والخيرات في تناهيها، فبث الغارات في بلاد الروم ثم ارتحل، فنزل مدينة شريش ينتقل إلى غيرها من بلاد الروم حتى يأتي على آخر بلاد الروم التي يوالي المسلمون، وينزل على كل قاعدة من قواعدهم يحصرها حتى يقضي الله تعالى في ذلك بما يشاء، فكانت هذه نيته وكان نزوله مدينة شريش في اليوم الموفى عشرين من صفر من سنة أربع وثمانين وستمئة، فكان من يوم نزوله إياها إذا صلى الصبح ركب وركب جميع المجاهدين، فوقف على باب مدينة شريش ثم تفرق الجيوش في أحوازها لإفساد الزروع وقطع الثمار وتخريب القرى، فلا يزال - رحمه الله - واقفًا من أول النهار إلى صلاة العصر، فإذا صلى العصر رجع إلى بيته ورجع المسلمون إلى محالهم، فكان لا يفتر عن تحريض المسلمين ولا عن الوقوف عليهم، وسبب مداومته على هذا الحال أنه علم أن

النصارى دمرهم الله قد تفرغت مخازنهم من الزرع، وأن الغلا قد عمّ بلادهم والجوع قد استولى على سائر أقطارها فخاف أن يتمكنوا من هذه الطائفة فيتزودون بها، ويكون لهم فيها بلغة عيش فداوم على إفساد الزروع، لأجل ذلك ودأب على قطع المرافق عنهم بالكلية، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر صفر المذكور، وصل إلى محلة من كان بقي على بحير وأقطارها من بني مرين والعرب بعد ما أفسدت طول إقامتها، هنالك جميع ما كان على بحير من الزروع وجنات وكرمات وأشجار ومروا على مدينة ابن السليم فأفسدوا زروعها، وقتلوا منهم وأسروا، وفي هذه الأيام وصل من كان من فرسان المسلمين بطريف ووصلت الرجال التي كانت مرتبة في حصون الأندلس بعددهم وأسلحتهم، فاجتمعت الجيوش المنصورة، وفي يوم الأربعاء الخامس والعشرين من صفر المذكور بعث أمير المسلمين عياد العاصمي إلى حصن سالوكة، فأغار عليها وقتل هنالك جملة من الروم، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من الشهر المذكور ركب أمير المسلمين في جميع المسلمين فوقف على مدينة شريش وبعث الخيل والبغال إلى حصاد الزرع ونقله إلى المحلة، ولم تبق بالمحلة دابة إلا جاءت موقورة بالقمح والشعير فترغدت المحلة منه، وبعث أمير المسلمين وزيريه الشيخين أبا عبد الله محمد بن عطوان وأبا عبد الله محمد بن عمران برسم التطلع على حصن القناطر وحصن روضة فركبا وسارا إليها في نحو الخمسين فارسًا فداروا بأسوارها من كل جهة فعاینوا من ضعف من بها من النصارى فأسرّت نفوسهم ثم رجعوا، فأخبروا بذلك أمير المسلمين، وفي يوم الجمعة السابع والعشرين منه قعد أمير المسلمين في محلته، ولم يركب وكان قعوده ذلك حيلة على النصارى حتى اطمأنوا وعلموا أنه لا يركب إليهم في ذلك اليوم، فخرجوا بقرهم وغنمهم يرعونها حول المدينة فكمن لهم الأمير أبو علي منصور بن عبد الواحد في الزيتون في نحو ثلاثمئة فارس من المسلمين مفترقة، فأغاروا عليهم

فقتلوا الرجال وغنموا الأموال، ومع إقامة أمير المسلمين في ذلك اليوم بالمحلة لم يقعد المجاهدون على الغارات، وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر المذكور ركب أمير المسلمين وركب معه سائر المجاهدين، فسار حتى وقف على مدينة شريش فقاتلها ساعة ثم انصرف عنها، وأمر الناس بقطع العناب والكرامات فُقطع منها شيء كثير، ورجع في عشي النهار إلى محلتهن وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من الشهر المذكور، عقد أمير المسلمين لحفيده الأمير أبي علي منصور بن عبد الواحد راية على ألف فارس وبعثه إلى أشبيلية، وركب هو على عادته إلى شريش فوقف عليها، وأمر الناس أيضًا بفساد الزرع وقطع الكرامات والزيتون، وسار أبو علي منصور بألف فارس من بني مرين وعرب المعاصم والخلط والأفنج والأغزاز غدوة الأحد المذكور إلى نصف النهار، فنزل على جبل أجرين فصلى هنالك العصر فركب وركب الناس فساروا حتى غربت لهم الشمس على القنطرة من تحت الأقواس، فنزل هنالك حتى أكلت الدواب يسيرًا من علفها وأسرى بالخیل حتى أصبح بين جبل الرحمة وبين أشبيلية، وكمن هنالك حتى ارتفعت الشمس، فاستدعى الأمير أبو علي منصور رؤوس الجيش من المسلمين وأخذ معهم في المشاورة فيمن يغير على أشبيلية ومن يبقى معه، فاتفق رأيهم على أن يغير خمسمئة فارس منهم، وتبقى خمسمئة مع الأمير أبي علي، فأغارت الخمسمئة فارس على أشبيلية، والأمير أبو علي يمشي في أثرهم على مهل والنصارى يقتلون عن يمين الجيش ويساره ويوسرون، وتسبى حريمهم وتخرب ديارهم، وأغارت طائفة من المسلمين من بني سوجم وبني نجوم وبعض برغواطة فصادفوا جمعًا وافرًا من النصارى فقاتلوهم قتالًا شديدًا حتى منحهم الله تعالى أكتافهم فقتلوهم وأسروا منهم جملة، واجتمع سائر جيش الأمير أبي علي منصور، فقال للشيخ: أبي الحسن علي بن يوسف بن يرجاتن، فقال له: على أي طريق يكون رجوعنا فقال له أبو الحسن الرأي المبارك إن شاء الله تعالى في أخذ

الطريق الذي بين قرمونة والقلعة، فأمر الأمير أبو علي بالغنائم فجمعت فجعلها في يد أمين، وقدمها بين يديه وانصرف إلى قرمونة، فاشتد الحر على المسلمين والعطش فبعث الأمير أبو علي الفارس أبا سمير، وأمره أن يتقدم ويتطلع على أخبار قرمونة فمر أبو سمير مغيرًا فلقي جمعًا من المسلمين ممن خرج إلى الإغارة في أول النهار، وهم قد جدوا السير مستحفرين ومستوفرين، فقال لهم: أبو سمير ما بالكم؟ قالوا: أجرينا قرمونة فخرجت علينا عنها الخيل والرجال، وهاهم في أثرنا خلف هذه الربوة، فوقف أبو سمير هنالك مع المسلمين حتى وصل أبو علي بالجيش والغنائم، فأعلموه بذلك فقصده نحو النصارى ففروا أمامهم فأدركهم قريبًا من الباب فقتل منهم جماعة وتحصن الباقون بالمدينة، ثم أمر بحرق الزرع بقرمونة وقطع ثمارها، فقام كذلك إلى العصر، فارتحل ولحق بغنيمة مع غروب الشمس فبات بها بوادي لك ورحل منه إلى الأقواس، فأفسد ما هنالك من الزروع، وقام إلى أن صلى العصر، فارتحل بغنائه إلى وادي الملاحه ثم ارتحل، منها إلى المحلة فوصله غدوة النهار سالمًا غانمًا، وفي يوم الإثنين الموفى ثلاثين من صفر المذكور ركب أمير المسلمين، وأمر سائر المجاهدين بقطع الكرامات والزيتون وإحراق الزرع، فأفسد المسلمون من ذلك شيئًا كثيرًا، وقام -رحمه الله- يحرص المسلمين على تدمير أموال النصارى إلى أن صلى العصر، وكان يومًا شديد الحر، فأمر -رحمه الله- سعيد بن يخلف وجماعة من الأعرابيين بإحضار زقاق الماء العذب، فيقفون بأدوات الماء خلف المجاهدين يناولون من شاء أن يشرب منهم، فلم يزالوا على ذلك مدة الحصر، وفي يوم الثلاثاء من غرة شهر ربيع الأول المبارك من السنة المذكورة ركب أمير المسلمين ونادى مناديه في الناس بالخروج إلى فساد الزرع وقطع الشجر فلم يرجع أيضًا إلى بيته حتى صلى العصر وفي هذا اليوم أمر -رحمه الله- عرب العاصم أن يطوفوا على أبواب شريش يرسم أخذ من فرّ وسبوا منه ستة علوج، وأربع روميات، ومئة رأس من

البقر، وقسيًا وسلاحًا كثيرًا، فأتوا بها إلى المحلة، فصرف عليهم خمسة من ذلك كما فعل بأهل سبتة، وانصرف الأمير أبو معرف في جيشه الذي عقد له عليه وركب معه أمير المسلمين مشيعًا له حتى وادعه ودعا له وأوصاه بتقوى الله في السر والعلانية والصبر والثبات، ثم انصرف عنه وجد الأمير أبو معرف السير يومه ذلك حتى وصل جبل أبريز، فقام به حتى صلى العصر وركب وجد السير إلى المغرب، فعلف الخيل بوادي لكّ، ثم أسرى طول الليل حتى أصبح على حصن عين الصخرة، فكمن هنالك إلى العصر، فركب وسار بجيشه إلى وقت المغرب، فنزل وعلف الخيل ثم أسرى فأصبح وقد قارب القلعة، فجمع الأمير أبو معرف أشياخ المجاهدين فشاورهم فيمن يغير من المسلمين ومن يبقى معه، فاختر للإغارة خمسمئة فارس فأطلقت أعتتها نحو أشيلية ونشر الأمير أبو معرف بنوده وقدم العلام المنصور أمامه، وسار رويدًا في أثر المغيرين، وكان النصارى قد خرجوا من أشيلية خيلًا ورجلًا في عدد كثير لقتال المغيرين، فلما عاينوا العلام المنصور والجيش على أثره بادروا إلى المدينة فدخلوها وغلقوا الأبواب وتمنعوا بالأسوار والسهم، فوقف الأمير أبو معرف قريبًا من حيث لا تلحقه السهم، وأمر المجاهدين بالغارات في أنحائها وتحريق زروعها وتخريب قراها وقطع أشجارها، ولم يزل واقفًا أمام بابها إلى الليل حتى اجتمع إليه جميع المسلمين الذين خرجوا للغارة والطبول تضرب على رأسه ترهيبًا للعدو، فغنم المسلمون غنيمة عظيمة، وقتل من النصارى ما يزيد على ثلاثة آلاف رجل، وذلك يوم مولد نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان جملة ما غنموا فيها من الروميات والأولاد ثلاثمئة وثمانين نفسًا، ومن الرمك والبغال والحمير ألفا رأس وخمسة وستين رأسًا، ومن البقر والغنم شيئًا كثيرًا، ولم يسر فيها رجل إلا قتل ورجع إلى المحلة بغنائمه سالمًا.

وفي يوم الثلاثاء الخامس عشر من ربيع الأول المذكور بعث أمير المسلمين

حفيده الأمير أبا عليّ عمر بن عبد الواحد في جملة من المجاهدين، وبعث معه مئة من رماة أهل سبتة وألف رجل من المطوعة والمصامدة، وبعث معهم بالبغال تحمل جواليق السهام والمساحي والفؤوس، إلى برج كان بينه وبين المحلة نحو الثمانية أميال كانوا يقطعون الطريق على من خرج من المحلة منفردًا أو في قلة، وسار المسلمون إلى البرج فشرعوا في قتاله وأظهر من فيه من النصارى من الصبر على الحرب ما لا يوصف، ورتبوا الرجال والرماة في أعلاه وفي أسفله، فنزل الأمير أبو عليّ من فرسه وأخذ درفته بيده وزحف إلى البرج على قدميه، وتولى القتال بنفسه ونزلت معه فرسان العرب، ففعلوا كفعله وتبعهم رماة سبتة ورجال المصامدة، فدخلوا عليهم البرج عنوة بالسيف فقتلوا فيه ثمانين عرجًا وأسروا ما بقي من الرجال والنساء والمسبلات، وأخذوا ما فيه من السلاح والأمتعة والآدام والدقيق شيئًا كثيرًا، فوصلوا إلى المحلة في يومهم بعد أن هدموا البرج ونسفوا أثره، وفي يوم الثلاثاء المذكور ركب أمير المسلمين في سائر جيوش المجاهدين، فوقف على شريش وقاتلها قتالًا شديدًا، وخرج لقتاله في ذلك اليوم جميع من كان بها من الخيل والرجال والرماة، فتقدمت الأغزاز ورماة المسلمين إلى جهادهم فرشقوهم بالنبال، ثم رجعت عليهم خيل بني مرين والعرب فهزم النصارى وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا بباب المدينة، وفي يوم الخميس السابع عشر منه ركب أمير المسلمين وسائر المجاهدين، فسار إلى برج كان بينه وبين المحلة نحو اثني عشر ميلًا يعرف بمنتقوط، كان فيه من زعماء النصارى وأشrafهم خلق كثير، فتشمر المسلمون لحربه وتحصّن الكفرة بالبرج، واستعدوا للقتال، وقاتلوه المسلمون قتالًا شديدًا، وأحدت بهم رماة المسلمين، فقتلوا منهم نحو الستين رجلًا وانضم الرجال إلى البرج فدخلوا عليهم في أسفله وملوه حطبًا وأضرموه فيه النيران وخرجوا عنه، فبقيت النار تعمل في البرج بقية يومهم ذلك والليل كله ويوم الجمعة إلى نصف النهار، فلما رأى

النصارى ما لا طاقة لهم به من النار والسهم استسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر، وأسر فيه مئة وتسعون علجاً وأربع وسبعون امرأة، وغنم المسلمون جميع أموالهم ودوابهم وأسلحتهم، وهدم البرج، وقطع ما حوله من الأشجار، ورجع أمير المسلمين إلى المحلة، وفي يوم السبت التاسع عشر منه وصل إلى المحلة عبد الرزاق البطوي فأخبر أمير المسلمين بقدوم ولده الأمير يعقوب من بلاد العدو، وأنه تركه بمحلته على مدينة ابن السليم، وأنه وصل بجيش عظيم من المسلمين، فقبض بهم الفضاء، وضيق بهم الأرض، وأنه قاتل أهل مدينة ابن السليم قتالاً شديداً فقتل منهم خلقاً كثيراً ففرح المسلمون بقدومهم، وخرج إلى لقائه الشيخ أبو الحسن علي بن زجdan في جماعة من بني عسكر.

الخبر عن قدوم الأمير أبي يعقوب من العدو برسم الجهاد
لما خرج الأمير أبو يعقوب من بلاد العدو إلى الأندلس في جيوش وافرة من المجاهدين والمطوعة سار حتى قرب من محلة والده أمير المسلمين، وبعث إلى والده يخبره بقدومه، فركب أمير المسلمين إلى لقائه، وركب معه جميع من في محلته من المسلمين وأنصاف كل واحد من بني مرين، والعرب والأغزاز إلى قبائلهم، ولزموا رايتهم، واحتفل الناس للبروز، وبرزت كل قبيلة بما عندها من العدد، وتقدمت الرجال والرماة أمام الخيل، وميزت قبائل المطوعة من المصامدة في ذلك اليوم في ثلاث عشر ألف رجل، وميزت قبائل المغرب من أوربة وغمارة وصنهاجة ومكناسة وسدارتة ولمطة وبني وارتين وبني بازغة وغيرهم في ثمانية آلاف رجل، وأقبلت الجيوش والقبائل كل قبيلة منها منحازة عن الأخرى، ولما قرب الأمير أبو يعقوب من والده أمير المسلمين ترجل أمير المسلمين عن فرسه، فوقف بإزائه تواضعاً منه لله تعالى وترجل الأمير أبو يعقوب فمشي على قدميه أداءً لحق والده وتواضعاً وأدباً،

فلما وصل إليه قبل يديه وسلّم عليه، ثم ركب أمير المسلمين وأمر ولده الأمير أبا يعقوب بالركوب، وأقبل الناس يسلمون بعضهم على بعض ويشكرون فعلهما، واجتمعت الجيوش، وضربت الطبول حتى ارتجت الأرض، وساروا إلى المحلة، فنزل أمير المسلمين في خباء الساقية، ونزل معه ولده أبو يعقوب وأشياخ بني مرين والعرب وأوتي بالطعام فأكل الناس وانصرف الأمير أبو يعقوب إلى محلته وانصرف معه الرماة الذين توجه معهم من ملاقة وكانوا مائتي رام.

وفي يوم الإثنين الحادي والعشرين لربيع المذكور ركب أمير المسلمين في جميع جيوشه وقدم بين يديه الرجال والرماة، فسار إلى حصن القناطير فقاتله المسلمون حتى دخلوا ربضه بالسيف وأضرمو فيه النيران، وقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية، وغنموا جميع ما وجدوا به من البقر والغنم والدواب.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه ارتحل أمير المسلمين بجميع محله فبدل المنزل، فإنه تعذر لطول إقامة الناس به، فعبر وادي لك ونزل الناس في وسط الكرمات والجنات بقرب من شريش، وقاتلوا في ذلك اليوم من وقت الضحى إلى صلاة الظهر، وفي يوم الخميس الرابع والعشرين منه ركب أمير المسلمين في جميع المجاهدين إلى شريش يقاتلها أيضًا من طلوع الشمس إلى صلاة الظهر وانصرف إلى بيته، وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين منه، عقد أمير المسلمين لولده الأمير أبي يعقوب على جيش من خمسة آلاف فارس، وأمره أن يتوجه بهم إلى غزو أشبيلية ويجوز الوادي الكبير فيغنم ما في عدوته من البلاد، فخرج بعد الصلاة الظهر من يومه ذلك وتبعه أمير المسلمين إلى طرف المحلة، وأوصاه بتقوى الله تعالى، ودعا له وودعه ورجع عنه، فوقف على باب شريش فقاتلها إلى العصر، ثم دار بأسوارها ورجع إلى المحلة، وفي يوم السبت التالي له أمر أمير المسلمين ولده الأمير أبا معرف

أن يركب في جيش المجاهدين فيقاتل شريش ويلازمها بالحرب في كل يوم، فسار إليها وقاتلها النهار كله إلى الليل، ولم يزل الأمير أبو معرف يتردد بجيوش المسلمين إلى شريش في كل يوم فيقاتلها من أول النهار إلى الليل، فكان يقتل كل يوم منها خلقًا كثيرًا ويسبي النساء والأولاد، وسبب لزومه لقاتلها والوقوف عليها ليمنعهم عن الخروج إلى مرافقهم، وليأمن المسلمون الذين انتشروا في الأرض لحصاد الزرع ودرسه، فكان الناس في هذه الأيام كلها يخرجون من لنحلة بالدواب فيحصدون الزرع ويدرسونه ويحملونه إلى المحلة، ويكثر الخيرات فيها، وتوفرت الأرزاق، فكاد القمح والشعير والفواكه والأدام لا يباع بها ولا يشتري، والمجاهدون برغد من العيش فسارت المحلة بمنزلة قواعد المدن اجتمع فيها سائر أصناف الصناعات والتجار، فأخبر من تفقد أسواقها من أهل البحث أنه رأى فيها أصناف الصناعات قد تلبس بصناعاته وتحرف بحرفته ما عدا الحياكة خاصة، وأما سوق الغزل والكتانين، فقد كن بها وأخذ سوق محلة السهل والوعر إذا غاب رفيقك به فلا تكاد أن تلقاه إلا بعد اليومين والثلاثة لكثرة الخلق، ولما خرج الأمير أبو يعقوب من المحلة إلى غزو أشبيلية في خمسة آلاف من أهل الديوان وألفي فارس من المطوعة، وثلاثة عشر ألف رجل من المصامدة وسائر قبائل المغرب، وألفي رام من رماة بلاد المغرب، وحمل معه البغال والأخبية والجمال عليها السلاح والأزواد فعل من لا يعبأ بالروم ولا يلتفت إليهم، ولا لكثرتهم ولا يهوله ما عزم عليه من الدخول في أقطارهم والتوغل في بلادهم، فرحل بجيوشه المظفرة المنصورة حتى نزل جبل إبريز فعلف به، ثم سار إلى الأقواس فارتفعت هنالك أصوات المسلمين بذكر الله سبحانه والتكبير والتهليل حتى ارتجت الأرض من أصواتهم، فسار بالمجاهدين تلك الليلة وهم على حال ذكرهم حتى أصبح لهم على عين الصخرة، فصلى الناس فيها صلاة الصبح وأقاموا بها إلى العصر، ثم ارتحل وسار بالناس حتى أظلم عليهم الليل بوادي

لك، فصادف المسلمون هنالك الطرق الواعرة والشوك والأماكن والحجارة، فجّد الأمير أبو يعقوب السير فى تلك الأوعار، والناس خلفه يتقاطعون، فانقطعت عنه أكثر الجيوش وتفرقوا فى ظلام الليل لا يدري أحد أين سار صاحبه، فتفقد الأمير أبو يعقوب المسلمين فعلم أنه تقدمهم بمسافة طويلة، فوقف وأمر الخيل بالرجوع إلى من تأخر من المجاهدين وأمر بضرب النقرة ليسمعهم من ضلّ عن الطريق فيقصد نحوها ويهتدي إليها، فضربت النقرة فسمعها المجاهدون فانتابوا نحوها من كل ناحية، والأمير أبو يعقوب واقف فى موضعه لا يزال منه حتى اجتمع إليه من تأخر من المسلمين، فسار بالجميع حتى أصبح فصلى الصبح قريباً من الوادي الكبير، وسار بالمسلمين يسيراً حتى طلعت الشمس، فنزل عن فرسه وتدرع وتأهب للقاء العدو، وتأهب الناس وجددوا نياتهم للجهاد وضجوا بالدعاء إلى الله تعالى، فركب الأمير أبو يعقوب ومن معه من المجاهدين فعبر الوادي وأمر الناس بالإغارة والانتشار فى بلاد المشركين، فأغارت كل فرقة من المسلمين إلى ناحية، فخرج بنو عسكر وعرب الخلط إلى ناحية، فلم يكن إلا ساعة وإذا هم قدموا على الأمير أبي يعقوب بغنائم لا تحصى من البقر والغنم والدواب والعلوج والنساء، وأغارت عرب سفيان على حصن من حصون الروم فدخلوه عليهم بالسيف وأضرّموا النيران فى أبوابه فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية، وغنموا الأموال، وقدموا بغنيمتهم إلى الأمير أبي يعقوب، وانتشرت طوائف المجاهدين فى تلك البلاد يقتلون الروم ويأسرون ويفسدون ويحرفون ويقدمن بالغنائم على الأمير أبي يعقوب وهو - رحمه الله - يمشى فى أثر المغيرين على مهلة فى جماعة من وجوه بني مرين وأشياخ الأغزاز، وخرج شيخ الأغزاز حصداً فى مئة فارس إلى قلعة الوادي، فأغار عليها وقتلها فقتل على بابها ما يزيد على سبعين علجاً، وأسر كذلك وشرع المسلمون فى حرق الزرع وإفساد المرافق إلى العصر، فرجع الناس وقدموا بالغنائم من كل جهة، وشرع الناس

في ذبح الغنم، فذبح منها نحو العشرة آلاف رأس، ثم أمر الأمير أبو يعقوب بإحصاء الغنائم وجمعها، فأحصى عددها في زمام وجعلت في أيدي الأمناء، وبات المجاهدون هنالك في غبطة وسرور، وأمر الأمير أبو يعقوب ثلاثمئة فارس من المجاهدين يحرسون المسلمين تلك الليلة، فباتوا طول ليلتهم يطوفون بعساكر المسلمين حتى أصبح، فصلى الأمير أبو يعقوب صلاة الصبح وأمر بضرب الطبول، فضرب وركب الناس واجتمعوا فدخل بهم قرى الغابة وقرى الشرف، فأقبل المسلمون عليها بالحرق والنهب والتخريب والفساد وتحريق الزروع وقطع الثمار وهدم الدور وقتل من بها من الروم الوفاء كثيرة، وأسر من النساء والرجال والأولاد كذلك، فأقام بالغابة والشرف يومين حتى لم يترك بها للنصارى ما يتقوتون به، فارتحل راجعاً حتى وصل الوادي الكبير فجازه وجوز المغانم بين يديه، فدخل هناك حصناً بالسيف، وقتل جميع من كان به من الروم، وغنمت أموالهم، فبات المجاهدون تلك الليلة فلما أصبح ارتحل الأمير أبو يعقوب وسار بالغنائم على مهل، وبات بها قريباً من قرمونة، ثم ارتحل من الغد فسار طول يومهم حتى نزل بالأقواس وجبل أجريز، فأقام هنالك إلى الثلث الأخير من الليل، فارتحل وأسرى بقية ليلته، فأصبح قريباً من المحلة، فاتصل الخبر بأمير المسلمين، فركب في جيوشه إلى لقائه فالتقى الجمعان في جرفي شريش، وذلك يوم الأحد الخامس من ربيع الآخر، وقدم بالغنائم ملأت الأرض طولاً وعرضاً، فجازت جيوش المجاهدين بغنائمهم، والرجال في الأغلال، والنساء مقرنين في الحبال، وبرزوا بها عليها نكاية لمن بها من الروم وإرهاباً لهم، ووقف أمير المسلمين على باب المدينة بجيوشه الوافرة ورايته المنصورة والغنائم تسير أمامه، فضربت الطبول وضج الناس بالتكبير فكان يوماً عظيماً ابتهجت به نفوس المجاهدين، وفي يوم الإثنين السادس من ربيع الثاني وصل الأمير أبو زيان من طريف في جيش عظيم من المسلمين فيه الرماة والمتطوعة وخمسمئة فارس من عرب

بني جابر، فبرز بجميع من قدم معه على شريش، وقاتلها ذلك اليوم قتالاً شديداً، وفي يوم الثلاثاء التالي له عقد أمير المسلمين لولده الأمير أبي زيان على ألف فارس من المجاهدين، وأمره بالإغارة على إقليم الوادي الكبير، فخرج الأمير أبو زيان من خبابة الساقة بغلام أبيه ومعه ألف فارس منهم ثلاثمئة فارس من عرب بني جابر عليهم يوسف بن قيطون، وسبعمئة فارس من قبائل بني مرين، فسار النهار كله إلى الليل فبات قريبا من الأقواس، ثم ارتحل وقدام بين يديه خمسين فارساً، وأمرها بالغارات على قرمونة فأغاروا عليها وقتلوا فيها جملة من الروم، وسبوا النساء والأموال، فخرجت عليهم الخيل من قرمونة وتوالت عليهم الرجال فلم يزالوا يقتلونهم حتى ألحق بهم الأمير أبو زيان فهزم الروم وقتل منهم خلقاً كثيراً ثم سار إلى برج كان هنالك فيه جمع كثير من الروم بنسائهم وأموالهم فقاتلهم فيه ساعة من النهار، فترجّلت جماعة من عرب بني جابر فأخذوا درقهم في أيديهم واقتحموا السهام حتى دخلوا البرج عنوة بالسيف فقتلوا رجاله وسبوا نساءه وغنموا أمواله، ثم شرع الأمير أبو زيان في تحريق الزروع وقطع الثمار وتخريب القرى، وسار ما بين قرمونة وأشبيلية يخرب القرى ويقطع الثمار ويسبى ويقتل حتى سار إلى برج في قبلة أشبيلية، فقاتلوه المسلمون وأوقدوا حوله النيران حتى دخلوه بالسيف، ثم اختار الأمير أبو زيان من جيشه خمسمئة فارس، فأغار بها على أشبيلية، فسبى من خارجها مئة وخمسين امرأة وأربعمئة عالج، وقتلوا في فدان واحد ما يزيد على خمسمئة نصراني وجدوهم يحصدون زرع الفنش فلم يبقوا منهم أحداً، وغنموا من الخيل والبغال والبقر والغنم ما لا يوصف، ثم جمعوا الغنيمة وقدامها الأمير أبو زيان أمامه، وسار في أثر محلته فوصلها في وقت المغرب، فبات بها وارتحل من الغد إلى محلة أبيه، وفي يوم الإثنين الثالث عشر من ربيع الثاني المذكور ركب الأمير أبو يعقوب في ثلاثة آلاف من المجاهدين وثلاثة آلاف من الرجال والرماة إلى جزيرة كبوتر التي بإزاء

نهر البرة بعد أن بعث إليها الفطائع في البحر بغزة المسلمين، فوصلوا إليها، وأتت الخيل فاقتحمت الوادي فدخلوا الجزيرة وقتلوا جميع من وجد فيها من الرعاة والناس، وغنموا ما فيه من الأموال والخيل والبقر والغنم وسبوا النساء والذرية، وأبلى في هذه الغزوة حصراً رئيس الغزاة وابن عمه بلاءً حسناً.

وفي يوم الخميس السادس عشر من الشهر المذكور توجهت قطائع المسلمين من جزيرة كبوتر إلى الجزيرة الخضراء لتأتي منها بالمجانيق والسهام وآلات الحرب لينصب ذلك كله على شربش، وفي يوم الجمعة أغارت عرب سفيان على بعض الحصون فغنموا منه ثلاثمئة رأس من البقر وأربعة آلاف من الغنم وثلاثين رومية وستة عشر علفاً، وقتلوا منهم عدداً وقدموا إلى المحلة بالغنائم، وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين منه بعث أمير المسلمين حصة من ثلاثمئة فارس، فأغارت على قرمونة وأحوازها فسببت مالا كثيراً من الدواب والبقر والغنم والنساء والذرية وقدمت بها إلى المحلة، وفي يوم الخميس الموفى ثلاثين من ربيع الآخر المذكور أغار عياد بن أبي عياد العاصمي في جماعة من إخوانه على حصن من حصون الوادي فدخل ربضه بالسيف وحرقه، وقتل فيه نيفاً على ثلاثمئة رجل، وسبى منه ست وسبعين امرأة وعشرين علفاً، فقدم بهم إلى المحلة، وفي يوم الجمعة غرة جمادي الأولى منه خرج النصارى من شريش برسم الارتفاق والاحتطاب، فحال عرب سفيان بينهم وبين المدينة، فقتلوا منهم نيفاً وخمسين علفاً، وفي يوم السبت الثاني منه عقد أمير المسلمين للحاج أبي الزبير طلحة بن علي على مائتي فارس، وأمره أن ينصرف بهم إلى أشبيلية ليجرها ويطلع على أخبار شانجة ملك النصارى، فإن أخبره قد انقطعت عنه، فبعث هذه الحصة لتغير وتطلع على أحوال البلاد وتستمتع الأخبار، وبعث معه الجواسيس من الأندلس واليهود، وفي يوم الإثنين الرابع منه ركب أمير المسلمين في جميع جيوش المجاهدين خيلاً ورجالاً إلى حصن شلوقة

فقاتله حتى دخله بالسيف وأحرق أرياضه ودياره، وقتل الرجال وسبى النساء وغنم الأموال ولم يبق هذا اليوم بالمحلة أحد من المجاهدين إلا عرب سفيان، فإنهم أقاموا يحرسون المحلة، وفي يوم الخميس السابع من جمادى المذكور كمن عياد العاصمي مع جيش من إخوانه في حفير شريش، ثم سار في أربعة نفر منهم ويده راية حمراء حتى وصل إلى باب المدينة وترك باقي إخوانه في الكمين، فأبصره الروم فأخرجوا إليه من شريش خيلاً ورجالاً شعلة واحدة وطمعوا في أخذه، ف جذبهم حتى جاز بهم الحفير فخرج عليهم الكمين فقطعوههم عن البلد فقتلوا منهم ثلاثة وسبعين علجاً، وكان عياد -رحمه الله- من أشد المسلمين نكاية في الروم لا يغفل عن الإغارة على بلادهم ليلاً ولا نهاراً، ولم يترك الجهاد ساعة واحدة من يوم نزول المسلمين على شريش إلى يوم رحلهم عنها، ولم يزل أمير المسلمين أبو يوسف -رحمه الله- من يوم ارتحاله عن طريف ونزوله عين الشمس، وذلك يوم السبت السابع من شهر صفر من سنة أربع وثمانين وستمئة، وبطول إقامته على حصار شريش إلى أن ارتحل عنها في الثامن والعشرين لجمادى الأولى من السنة المذكورة في كل يوم يشنّ على بلاد العدو الغارات شرقاً وغرباً ويبث فيها السرايا، فتكثر في أنحائها قتلاً ونهباً ويعقد الرايات لبنيه وحفدته ويبعثهم في الجيوش العظيمة إلى الغزوات، فكان -رحمه الله- أيام حصاره لشريش المذكورة إذا صلى الصبح دعا بأحد بنيه أو حفدته أو أحد أشياخ بني مرين، فيعقد له راية ويبعثه في مائتي فارس سرية ويأمره بالتوجه والإغارة على الناحية التي يريد غزوها من بلاد العدو حتى انتسفت جميع ما قرب منه منها وما بعد عنه، وكان على مسافة الأيام الكثيرة قليلة وأشيبيلة وقرمونة وأشجة وجيان وجبل الشرف وغيرهما، فلما أفنى تلك البلاد ودمرها وأكل زروعها وغنم أموالها وقطع ثمارها ولم يبق للنصارى شيئاً يرتفقون به، وأقبل فصل الشتاء وقل العلف في المحلة وغلت أسعارها ارتحل عنها إلى بلاده، فاتصل به -وهو في

الطريف - أن النصارى - دمرهم الله - قد عمروا أفروطة فينزلوها الرقاق ويقطعون المجاز، فأسرع السير إلى طريف فنزل بها، وأمر بعمارة الأجفان فعمرت في الحين بسبته وطنجة ورباط الفتح وبلاد الريف وبالجزيرة وطريف والمنكب، فاجتمع منها ستة وثلاثين جفنًا غزوانية معدة في الرماة والغزاة والعدد الكاملة، فلما علمت أفروطة الروم بعمارة أجفان المسلمين وقدموها إلى حربها وتحققت وفودها عليها وقصدها، نشرت شروعهها وفرت أمامها خوفًا أن تلقاها فتفتننا حماها، فأقبلت أساطيل المسلمين المظفرة حتى وافت حضرة أمير المسلمين بالجزيرة فبرزوا أمامه بالمرسى وهو جالس بمشور قصره من البلد الجديدة، فلعبوا أمامه في بحرهم وتناطحوا قدامه كفعلهم في حربهم، فأمر - رحمه الله - بكافتهم بالإحسان وصرهم إلى وقت الحاجة إليهم فيأمرهم بالإتيان، فلما رأى شنجة ملك النصارى أن بلاده خربت وحماه قتلت وأموال رعيته نهبت وغنمت، ونساءهم سبيت، وأفروطة التي كان بعثها لقطع الجواز فرّت وهزمت، جنح إلى السلم والطاعة وأخذ في التذمم والضراعة.

الخبر عن وصول الرهبان والأقسسة من الروم إلى حضرة أمير المسلمين يرغبون في الصلح

قال المؤلف عفا الله عنه:

لما ارتحل أمير المسلمين عن شريش ورجع إلى بلاده لأجل زمان الشتاء الذي أقبل خرج شنجة ملك النصارى من أشيلية إلى شريش فرأى من أثار عبث المجاهدين في بلاده وفعل المسلمين بالتخريب والتحريق والقتل والسبي والتمزيق في نجوده ووهاده، ما أشعل النار بفؤاده، وأبدل نومه بسهاد؛ فبعث ثقتة الرندياس في جماعة من الأقسسة والرهبان والزعماء المحرمين إلى حضرة أمير المسلمين، فأقبلوا

إليها صاغيرين داخلين متذللين صارعين، فى السلم راغبين، فلم يسمع منهم أمير المسلمين قولاً ولا رد عليهم صرفاً ولا عدلاً فرجعوا إلى مرسلمهم خائبين، فأعادهم ثانية، وقال: ارجعوا إليه فعساه أن يلين، فأتوه الثانية، فقالوا له: أيها الملك المنصور جئتك بقلوب منكسرة وأفئدة منقطعة منحصرة نرتجي عفوك ونطلب سلمك وصلحك، والصلح خير، فلا تخيب قصدنا ولا ترد وسيلتنا. فقال لهم: لا أصالح سلطانكم إلا على شروط اشترطها عليه، أبعث رسول لديه، فإن قبلها سالمته، وإن حاد عنها نابذته، ثم دعا بالشيوخ أبي محمد عبد الحق الترحمان، وقال له: تسير إلى هذا اللعين وتقول له يقول لك أمير المسلمين لا أسالمك ولا أترك حريك وغزو بلادك إلا على شروط، منها: أن لا تتعرض بعد هذا لبلد من بلاد المسلمين ولا لجفن من أجفانهم، ولا تتوصل لهم بأذية لا فى بر ولا فى بحر، كان ذلك من طاعتي أو من غيرها، وأنت تكون لى بمنزلك الخديم فيما آمرك به وأنهاك عنه، وأن يكون المسلمون يسىرون فى بلادك فى تجارتهم وطلب معاشهم بالليل والنهار لا يتعرضهم بشر ولا يلزمهم درهم ولا دينار، وأن لا تدخل بين سلاطين المسلمين بلفظة واحدة، ولا تقعد مع أحد منهم بحربة، فسار إليه أبو محمد عبد الحق ليلغى الرسالة ويشترط عليه ما ذكره أمير المسلمين من المقالة فوصله وهو بحضرته من أشبيلية - أعادها الله للإسلام - فسلم عليه وأبلغه رسالة أمير المسلمين فاحتملها وأعلمه بالشروط التى اشترطها عليه فالتزمها، فقال له أبو محمد عبد الحق عند ذلك: يا سلطان، أما الشروط فقد قبلتها فاسمع منى مقالة أقولها. قال: تكلم بما شئت. قال: يا سلطان قد صح عند الملتين وثبت فى قلوب الفريقين أن أمير المسلمين أبا يوسف -أيده الله- صاحب دين وأمانة وعهد ووفاء فى الميثاق إذا عهد وفاء، وإذا قدر عفا، وأنت لا تعلم لك مذهب، فإنك فعلت مع والدك ما فعلت، وخرجت عليه ظلمًا ونكثت، فسار الناس ينقضون عنك لقلة استئمانهم لك. فقال له شانجة: لو علمت

أن الملك أبا يوسف يرضى أن أكون من جملة خدامه لبادرتُ. فقال له أبو محمد عبد الحق: أما والله إن خدمت مولانا أمير المسلمين، وظهر له منك النصح في الخدمة لتجدنه كما تريد. فقال شانجة: فما الذي أصنع أولاً بما يرضيه؟ قال: أول أمر تصنعه ألا تدخل نفسك في أمور المسلمين بكلمة واحدة وتترك التجريب بينهم ولا تتعرض لبلادهم، وأن كان بينك وبين ابن الأحمر كلام أو ربط فاتركه، وأخرج من أموره بالكلية، واصرف إرساله إليه بهذا يرضى عنك أمير المسلمين ويصالحك ويؤمن ببلادك، وكان ابن الأحمر قد بعث رسله إليه يعقدون معه الصلح على بلادهم وتكون يدهم واحدة على حرب أمير المسلمين، وكانت عند شانجة أجفان مجهزة معدة للسفر بالوادي، فلما فرغ عبد الحق من كلامه، قال له شانجة: إذا كان غداً تسمع ما أقول، وترى ما أفعل. فلما كان من الغد ركب شانجة إلى شاطئ الوادي، فوقف عليه وأقبلت رسل ابن الأحمر فقعدوا بين يديه، فلما استقر عليهم المجلس بعث إلى عبد الحق رسول أمير المسلمين فأقبل إليه وأقعده إلى جنبه وأخذ معه في الحديث إلى أن ظهرت الأجفان وهي مقلعة، فقال له رسل ابن الأحمر: ما هذه الأجفان المقلعة أيها الملك؟ فقال لهم شانجة: هذه الأجفان أعدناها برسم خدمة أمير المسلمين أبي يوسف، وتصرف في حوائجه وقضاء أغراضه حيث كانت.

فلما سمعوا ذلك منه سقط في أيديهم ونظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا له: ونحن أيضاً بماذا ننصرف عنك أيها الملك؟ فقال لهم: أما ما جئتم إليه من عقد الصلح مع ابن الأحمر فلا أعرف له وجهها وكيف أصلحه؟ أو على أي شيء أعاهده أهو كفؤ لي أو قريني حتى أعقد معه الصلح؟ وما جرت عادة الرجل إلا بخدمتي ويقبل يد أبي ويدي ويد الصغير منّا والكبير، وهذا الملك أمير المسلمين أبو يوسف هو ملك المسلمين في العدوتين، وصاحب حضرة مراکش وفاس ومملكة المسلمين بالمغرب فيهما، وقد قهر جميع الملوك بصدق نيته وسعده، وغلبهم بقوة عزمه وكثرة جنوده،

وأفنى ملوك بني عبد المؤمن وسلب ملكهم وقطع دولتهم، وليس في الأرض ملك أخشاه سواه، وقد علمتم أنه قهرني وقهر أبي قبلي واستولى على بلادنا وقتل رجالنا وأبطالنا وسبى حريمنا وغنم أموالنا، وليس لنا طاقة لقتاله ولا قدرة بحربه ونزاله، ومع هذا كله فقد كاتبه جميع ملوك النصرانية يرغبون في مسالته ومهادنته، فكيف أترك صلح أمير المسلمين وأتكلم مع من هو دونه في القدرة والقوم والحزم؟ فأبلغوا ابن الأحمر كلامي وقولوا له: لا كلام بيني وبينك أبداً؛ فإني رأيت ذلك مصلحة لي ولبلادي ولرعيتي، واعلموا أنني لا أقدر على مدافعة أمير المسلمين عن نفسي، فكيف أدفعه عن غيري؟ والمال الذي أخذت منكم هو مصروف عنكم رغماً عن أنفي بسيف أمير المسلمين أبي يوسف.

فانصرفت رسل ابن الأحمر وقد يؤسوا من نصرة الفتنس إياهم، فقال له أبو محمد عبد الحق: هذه رسل ابن الأحمر قد انصرفت وأنا بماذا أنصرف إلى مولانا أمير المسلمين؟ فقال له شانجة: أنا أحد خدمته، ممثّل لأمره ونهيه، مبادر إلى ما يرضيه. فقال عبد الحق: يرضيه أن تصل إليه فتجتمع به. قال شانجة: نعم، وكرامة. فلما عزم شانجة على الخروج ليجتمع بأمر المسلمين اجتمعت عليه النصارى وغلقت عليه أبواب أشبيلية دونه ومنعوه من السير والخروج، وقالوا: إنا نخاف عليك من ملك المسلمين. فقال لهم: آليت على نفسي أن أصله وأخذ معه مشافهة فيما يقع الصلح بيني وبينه عليه، فدعوه يصنع ما يشاء ويفعل ما أراد. فلما رأوا عزمه خلوا سبيله فسار حتى بعد عن أشبيلية بمرحلة، فأدركه الخوف ودخله الجزع، وقال لأبي محمد عبد الحق الترجمان: ما أظن أصحابي في منعهم إياي إلا على بصيرة، ولكنني أريد أن تعاهدني وتحلف لي أنني آمن منه ولا أرى منه إلا ما يسرني، فحلف له عبد الحق على ذلك في تهليل كان عنده، فاطمأن قلبه في الظاهر ثم سار حتى وصل شريش، فازداد جزعاً وقال لعبد الحق: إني لا أقدم على أمير المسلمين أبي يوسف حتى اجتمع بولي

عهده أبي يعقوب فيؤمّني ويسكن خاطري فأتقدم معه إلى والده في ذمته وأمانه وأسير معه، فلما سمع ذلك عبد الحق ساء ظنه وخاف أن يدبرها مكيدة على المسلمين، فقال له: نعم يصل إليك، ولكنه ملك كبير وسلطان عظيم إذا وصل إليك بجيشه وأنت في بلد من بلادك تطلب أن يشفع لك عند أبيه وجب عليك أن تخرج عن تلك البلد فإن المملكة تقضي ذلك، فلا يمكنك إلا الخروج له عن شريش إذا دخل فيها، فإن لم تفعل كنت مقصرًا في حقه وخافضًا من قدره، فدبر بماذا أتاك فيه وأما وصوله إليك فإننا الكفيل به، فلما سمع شانجة هذه المقالة التي قصد بها أبو محمد عبد الحق تعطيل مرامهم من دخول الأمير أبي يعقوب في شريش استنكف عن مقالته الأولى ورجع عنها، وقال: وأنا أيضًا أخرج إلى لقائه فألقاه خارج المدينة، فسار أبو محمد عبد الحق إلى الأمير أبي يعقوب فعرفه بخبر شانجة واستجارته به وميله إلى جانبه، وأعلمه برضاه بعهده، وأنه راغب أن يكون في ذمته حتى يصل معه إلى أمير المسلمين، فأجابه الأمير أبو يعقوب إلى ذلك وأسعفه به، فسار مع أبي محمد عبد الحق إلى لقاء شانجة في جيش عظيم من أنجاد بني مرين وشجعانها وأهل البأس والفتك منها، فتلقاه شانجة على مسيرة أميال من شريش فسلم عليه وأظهر له السرور والفرح والبشاشة كثيرًا وأخرج له الضيافة لجميع المحلة، فأمر الأمير أبو يعقوب - رحمه الله - بالنزول بخارج البلد، فضربت قبابه ومضاربه، ونزل فيها ونزل شانجة، فدخل معه في خبائه، فقال له: اعلم أيها الأمير الأسعد والسلطان المبارك الأصعد، أني أردت أن أكون دخيلك وفي وفاء ذمتك، ومتفياً بظل حرمتك حتى اجتمع مع أمير المسلمين والدك، فأعطاه الأمير أبو يعقوب أمانه والتزم له ما يرضيه من والده، وتكفل له بجميع قضاء أغراضه وشؤونه عنده، فقال له شانجة: الآن طابت نفسي ورجعت إلى حسبي، فلما كان في عشي النهار وركب الأمير أبو يعقوب إلى خارج محلته، فوقف بها وخرج جميع من بشر يش ينظرون إليه، فركبت أبطال بني

ميرين تلعب بين يديه وركب شانجة ووقف بإزائه، وبنو ميرين في لعبها، وقال شانجة: وأنا أيضا ألعب سرورًا بما منّ الله عز وجل به عليّ من إقبالكم إليّ وإسعافكم لي بالصلح والمهادنة، فإني أولى الناس بالسرور، ثم أخذ الترس والرمح بيده فلعب بهما مع زعمائه بين يدي الأمير أبي يعقوب حتى غربت الشمس، فلما كان من الغد ارتحل الأمير أبو يعقوب وشانجة إلى لقاء أمير المسلمين فاجتمع له بحصن الصخرة على مقربة من وادي لكّ، واستعد أمير المسلمين -رحمه الله- إلى لقائه في ذلك اليوم، وأمر -رحمه الله- جميع جيوشه وجنوده بلباس البيض والعدد الكاملة، فايضت الأرض من بياض المسلمين، وأقبل شانجة في عقدة من المشركين مسودة، فكان ذلك عبرة للمعتبرين، فسلم على أمير المسلمين وقعد بين يديه تأدبًا منه، ثم قال: يا أمير المسلمين، إن الله عز وجل أسعدني بلقائك وشرفني في هذا اليوم برويتك، وأني لأرجو أن أنال طرفًا مما أعطيت من السعادة حتى أقهر به ملوك النصرانية، ولا تظن أني جئتكم رضى مني وطوعًا من نفسي، بل والله ما قدمت لحضرتك إلا رغبة على أنفي، فإنك نسفت بلادنا وسييت حريمنا وأولادنا، وقتلت حماتنا، ولا طاقة لنا بحربك ولا مقدرة على معاندتك، فكل ما تأمرني به امتثلته، وكلما شرطته عليّ ألزمته وأحمله، ويدك الباسطة على جميع بلادنا ورعيتي تحكم في الكلية بما شئت. ثم قدم له هدايا نفيسة وتحفًا عظيمة وكذلك لولده الأمير أبي يعقوب استجلابًا لمرضاتهما، فكافأه أمير المسلمين عنها بأضعافها ليخرج عن أياديها وتم الصلح بينهما، وذلك يوم الأحد الموفى عشرين لشعبان من سنة أربع وثمانين وستمئة.

ولما صرفه إلى بلده أمره -رحمه الله تعالى- أن يبعث إليه بما يجده في بلاده بأيدي النصارى واليهود من كتب المسلمين ومصاحفهم، فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملًا فيها جملة من الكتاب العزيز وتفسيره كابن عطية والثعالبي، ومنها كتب الحديث

وشرحاتها كالتهديب والاستذكار، وكتب الفروع وكتب الأصول واللغة والعربية والأدب وغيرها، فأمر - رحمه الله - بها فحملت إلى مدينة فاس فحبسها على طلبة العلم بالمدرسة التي بناها - نفعنا الله تعالى بقصده - وبعد انصراف شانجة إلى بلاده رجع أمير المسلمين إلى الجزيرة فدخلها في السابع والعشرين من شعبان المذكور، فوجد القصر الذي بناه بالمدينة الجديدة والمشور والجامع قد تم ذلك معه وفرغ منه، فنزل بالقصر المذكور، وقام به شهر رمضان، وصلى الجمعة بجامعها المكرم، وصلى بمشورها صلاة الأشفاع، ولم يتخلف عنه ليلة واحدة، فكان لا يزال قائماً من أول الصلاة إلى آخرها مواظباً على ذلك حتى انقضاء شهر رمضان المعظم، وقد قضى حقه صياماً وقياماً، وكان الفقهاء يبيتون عنده في كل ليلة منه فيذاكرهم في فنون العلم، فإذا كان ثلث الليل الأخير قام إلى ورده ومناجاة ربه يسأله خلاص نفسه - رحمه الله - حتى انصرف شهر رمضان، فلما كان يوم عيد الفطر انصرف من المصلى إلى قصره وقعد بالمشور المبارك ودخل عليه أشياخ بني مرين والعرب، فقعدوا بين يديه يأكلون الطعام، فلما فرغوا من أكلهم رفع إليه الفقيه الأديب البارع أبو فارس عبد العزيز المكشبي الدار الملزوزي النجار قصيدة ذكر فيها غزوات أمير المسلمين في تلك السنة وغزوات بنيه وحفدته وامتدح قبائل بني مرين ورتبهم على منازلهم، وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وأمر الدين، وذكر قبائل العرب على اختلافها وبناء البلد الجديدة التي على الجزيرة والدار وحلول أمير المسلمين بها، وصلاته بجامعها، وذكر منبرها الشريف والهيئة بعيد الفطر والشكر له على قيامه بأمر الدين واهتباله بأهل العلم، فأنشدها بين يديه بمجلسه ذلك قارئه الفقيه أبو زيد الفاسي الدار المعروف بالقرايلي، وأمير المسلمين يصغى إلى إنشادها وجميع أشياخ بني مرين والعرب يستمعونها حتى أتى على آخرها فقبل يديه الكريمتين، فأمر للقارئ بمائتي دينار، وأمر للناظم بألف دينار، وخلعت له ثياب ومركوب والقصيدة هذه:

بحمد الله افتتح الخطاب
 لعل الله يبلغني أمالي
 ويرشدني إلى نقل صحيح
 هو الملك الذي خلق البرايا
 الله واحد حي مريد
 يرى أثر النملة حين تمشي
 ويسمعها إذا دببت عليه
 تقدر عن صفات الخلق طرا
 يحيط بعلم ما تحوى عليه
 يقيم في الأراضى السبع علوا
 ولم لا وهو أنشانا امتنانا
 وأنشأ في السماء لنا بروجاً
 وأجرى الشمس ثم البدر فيها
 لتسقي بلدة ميتا بغيث
 وأجرى في بسطتها عيوناً
 وأرسل في الورى منهم رسولا
 محمد النبي المجتبى من
 فقد أسرى به مولاه ليلاً
 دنا من حضرة العلي تدلى
 عليه صلاة رب العرش تترأ
 وما سحت بقاء المزن سحب
 هو المبعوث بشرنا بيشرى
 وحرصنا على قتل الأعادي
 ونبذل في جهاد الكفر نفساً

وأبدأ في النظام والكتابا
 ويفتح بالسرور علي بابا
 ويرزقني من القول الصوابا
 وصورهم وقد كانوا ترابا
 عليم قادر بالجود حابا
 وتقطع في الدجا الصم الصلابا
 وجنح الليل قد أمسى غرابا
 وأن يعزي له الوصف اكتسابا
 طباق السبع أن دعي استجابا
 يحيط بعد حصدها حسابا
 وأوعدنا على الحسن المتابا
 وألبسنا بزيتتها ثيابا
 وسخر بالرياح لنا السحابا
 همول بالحياة هممل وصابا
 مدفقة وأودية عذابا
 شفيها مصطفى يتلو الكتابا
 سلاله هاشم فالأصل طابا
 وجبريل له أخذ الركابا
 وحاز القرب منه فكان قابا
 مدا الأيام تورثنا الثوابا
 فحل الزهر بالزهر الهضابا
 من المولى وأنذرنا العقابا
 تضيق بهم تلالاً أو شعابا
 ومالا قد جمعناه اكتسابا

وثانيه أبو حفص أجابا
 أبو حسن طعانا أو ضرابا
 على الإسلام صوتًا واحتجابا
 وعلى ابن عوف هم الشهابا
 زبير طلحة كرموا صحابا
 على أن لا يضام ولا يصابا
 لـدين الله بعدًا واقترابا
 وسلوا في أعدائهم الذبابا
 بنور من قبورهم الرحابا
 خفانور الهدى منهم وغابا
 ومسحوقًا ومتهنًا مصابا
 فيا للدين يغترب اغترابا
 بهذا الأرض يحتسب احتسابا
 ليعقوب بن عبد الحق بابا
 به انسلبت عن الكفر أسلابا
 أرانا في العدا العجب العجبا
 ونية صادق من أنابا
 لمولاة دعاء استجابا
 له الحسنى وجنبه الصعابا
 يقود إلى العدا الخيل العربا
 به الأملاك ترتب ارتبابا
 تزيد به منالًا واعتجابا
 نجوم السعد لا تخشى اضطرابا
 ولي العهد من بالفضل حسابا

فصدقه أبو بكر عتيق
 وثالثهم أبو عمرو ووفى
 هم الخلفاء أربعة تواصوا
 وباقي العشرة المرضى عنهم سما
 سعيد وابن جراح وسعد
 هم قد بايعوا المختار طوعًا
 وأن تفنى نفوسهم احتماء
 وهم قد جاهدوا في الله حقا
 عليهم رحمة الرحمان تملأ
 فقد بانوا وبان من اقتفاهم
 وعاد الدين بعدهم حقيرا
 وصار بغربنا الأقصى غريبًا
 ولم نعلم جهادا للأعدا
 إلى أن فتح الرحمان فيه
 لمولانا أمير العدل ملك
 ولم نر قبله في العصر ملكا
 فهناه إلا له السعد فيه
 دعى لله دعوة مطمئن
 فلبى الله دعوته وسنا
 فجاز البحر مجتهدًا مرارًا
 فالبس ملكهم ذلاً وصارت
 أبعد جواز أرض البرت فخر
 هو القطب الذي دارت عليه
 بنوه نجومه والبدر فيهم

لدفَع الخطب أن أرسى ونابا
وصير طعم عيش مستطابا
وأحفاد العلا اعتصبوا
كما جعلوا الجهاد لهم نصابا
أذكر كل شخص ما أصابا
كما احتربوا لدينهم احترابا
أدوّنه وأودعه الكتابا
يراه الراكب زادا واحتقابا
وعز سواهم أضحى سرا با
نظاما لا أخاف به اضطرابا
يصير بهن طعم الشراك صابا
يردّ عليّ بالصدق الجوابا
يقول إذا أصبت لقد أصابا
عزائم به بنطحته الركابا
لخامس شهره اقتصد القرابا
كسا الشم المعازل والهضابا
هنالك قبة تنسى القبابا
لها اختاروا من الخبر الثيابا
قد انتخبت بسببة انتخابا
بطلعته زهاء واعتجابا
سنا الفلك المحيط بنا انتسابا
من أركش ثم رام به اجتلابا
فأنسفه احتراقا وانتهابا
ووافته محلّته أيا بابا

أبو يعقوب مولانا المرجى
هو الملك الذي أعطى وأقنى
وأبناء الإمارة ترجيهم
أوفى حقّهم فردّا ففرد
وأذكر غزو هذا العام حتى
وانشر من فخار مرين فردا
وأروي مدحهم في الدهر شعرا
ليبقى ذكرهم في الأرض يُتلى
فعزّهم مكيّن في المعالي
سأودع غزوهم في الروم نصا
وأذكر من وقائعهم أمورا
فهل من سامع خبر ليب
فيصغي سمعه نحوي امتنا
وذلك أن مولانا أناخت
فجاز البحر في سفر خميسا
وحلّ طريفا المولى بجمع
وفي غد يومه ضربت عليه
زهت حسنا وجملها سناها
ولم ير مثلها في الحسن لكن
فحلّ بها كأنّ الشمس لاحت
فيالك قبة يحكى سناها
وخلف عامر أواني قريبا
ورام نكاية الأعداء فيه
ومنه أتى شريشا في جموع

فأوسعت الزروع بها احتصادا
 ودانوا من شلوقة كل ربع
 مدينتها وقلعتها بحير
 وجهز للعدا منصور جيشا
 على اشيلية أجرا خيولا
 سبى منها وغدر ألف عالج
 وأبو مظفر وأبو علي
 وجهز جيشه عمرو ووافي
 ولم يترك بها أحدا سوى من
 أتى بغنائم ملأت عيدا
 وجيش أبى معرف المعلى
 لمولد سيد الثقلين تشهد
 أتى بغنمة فيها سبايا
 وفي ذلك اليوم سار أبو علي
 وغزوة مسقرطليس لا تخفى
 ولا أنسى البروز على شريش
 فذلك اليوم أعظم يوم حرب
 ويوم وصول مولانا المرجى
 هناك بروز أهل الدين ردت
 ولا أنسى القناطر حين دارت
 وأهل شريش لما أن تراءى
 هنالك خصص المولى بجيش
 بأربعة من الآلاف خيلا
 وأجرى الخيل من كل النواحي

وأوسعت الغروس بها احتطابا
 وروضة من قناطرها عذابا
 أشاعوا في نواحيها الخرابا
 ليترك دارهم قفرا يبابا
 فأوسع من ساحتها انتهابا
 تطارد عنهم الطير الذيابا
 أخوه أتى وقد حمدوا الإيابا
 إلى قرمونة يحكي العقابا
 بها ينكب في الأرض انكبابا
 بسيط الأرض بل غطت شعابا
 على اشيلية خط القبابا
 له فيما سباه وما أصابا
 وأوصل من مراكبهم لبابا
 إلى برج فصيره خرابا
 فضائلها لقد حسنت مآبا
 فأهل البرج قد ذاقوا العذابا
 رأيناه إذا ذكروا الخرابا
 أبي يعقوب أشرف واستطابا
 محاسنه على الدهر الشبابا
 بها الإسلام توسعها انتهابا
 ولي العهد قد فرقوا ارتعابا
 أبا يعقوب مولانا وحابا
 مسومة مظفرة عرابا
 على اشيلية شرفا وغابا

فلم يترك بتلك الأرض خلفاً
فتلك غنيمة ما أن سمعنا
وبعد أتى أبوزيان وافي
بهذا اليوم جهزه بألف
وجاء بزرعها وانحداد عنها
وقتل أهلها وسبى وولا
ومولانا أبو يعقوب وافي
إلى كتور أعمل جدّ عزم
أحاط بربعها برّاً وبحراً
وخلف أرضها غبرا وأضحت
ولما دوّخ المولى النصارى
ولم يترك بأرضهم طعاماً
وأعوزه بها علف وطالت
وقد ظهرت لأسطول الأعادي
يوم إلى الجزيرة رام منها
إلى أشبيلية ليبيد منها
وينزلها يقيم بها شتاء
فلما حلّ ربيع طريف والى
فيأمر أن تجهز للأعادي
فجهّزها ووافقت باحتفال
هنالك شانجة وافي شريشا
فوجه منه إرسال النصارى
يطالبه بعقد الصلح يعطى
ولم يقبل لهم قولاً وأبت

إلا أسرى أو سبأ أو سلابا
بهذا العام أكثرها انجلابا
شريشاً بالبروز قد استرابا
إلى قرمونة راي صوابا
إلى أشبيلية ولها استتابا
حميداً في سرور من استتابا
شلوفة ثم حرّقها خراباً
لو أن الهند سيّل به الذابا
فدمرها وصيرها بيابا
حمامة حسن معناه غرابا
وألبسهم من الذلّ الثيابا
ولا عيشاً هنئاً مستتابا
بها حركاته قصد الإيابا
علامات زيدهم ارتيابا
يجدد غزوة تدبى الثوابا
طغاة طال ما بعدوا الصلابا
يهدمها ويبقيها خرابا
إلى أجفانه العزّ الكتابا
أساطيله فأسرعت الجوابا
وبأس منه رأس الكفر شابا
بليل ثم عاين ما أرابا
إلى المولى ليسعفه الطلابا
له ما ذا أراد وما استجابا
له الإرسال حائرة خيابا

ولم يرددهم المولى سوى من
 فقرب جيشه المنصور بحرًا
 فلما بارز الأسطول فرّت
 وما الموت على معتذريها
 فأتى إلى الجزيرة في سرور
 فوافته بها الأرسال تبغي
 فأسعفهم به والله يجري
 ويجعل فيه للإسلام طرًا
 وذلك من أمور قد حكاها
 فبادر شانجة في الصلح حتى
 وجاء بفيله الأعلى وأعطى
 فكان هناك بينهما أمور
 وأسرع شانجة للعقد حرصا
 فتمّ الصلح بينهما العذر
 فهذه جملة والشرح عندي
 هنيئا مريّن لقد علوتم
 وفاخرتم بمولانا البرايا
 أبعد الفنش وابن الفنش يبغي
 فحزب مريّن حزب الله يحمي
 إذا سلّوا السيوف ترى الأعادي
 هم أشفار بين الملوك تروى
 وهم مثل الأنامل حين مدت
 أنظّم فيهم مدحين ففيهم
 فمن أولاد عبد الحق أبدًا

حديث البحر لا يربوا ارتيابا
 إلى أفروطة الكفر انسيا
 جيوش الكفر في البحر انسرا
 ولو سئلت لما ردّت جوابا
 يحدد غزوة تبدي العجايا
 بعطفته من الصلح اقترابا
 على آرائه الحسن الصوابا
 مصالحها الذي تدني الطلابا
 لنا المولى وأحصاها حسابا
 تقرب من مدينة اقترابا
 هاديّات لمولانا رغبابا
 ينسي السرور بها الخطابا
 وأظهر فيه لمولى ارتعابا
 مبين واضح والسرّ غابا
 سأودعه بإيضاح كتابا
 بني الأملاك بأسا وانتجابا
 فأعطوكم قيادًا وانقلابا
 رضاكم لا يخاف به العيابا
 حما الإسلام لا يخشى عقابا
 وقد حلّ الردا مدّت رقابا
 عن الملك القتّام أو الترابا
 يدًا لأمر الذي تعطى الرغابا
 أناس طال ما ضمّنوا القبابا
 بمدح عرفه يحكى الرضابا

هم الأمراء إن ذكرت علاهم
ومنهى تجتلى شمس المعالى
وهم أساد حرب من يوازي
وهم للجود بحرفيه تلفى
فما قدرة من كرم ففهم
وفخر بني حمامة ليس يخفى
سموا قدرا وعز بهم هماهم
فأنهم القرابة حين يعزى
وعثرته السراة بنو على
هم الفضلاء والشرفاء حقًا
وهم أخوال مولانا المرجى
وسادة عسكر قوم أحاطوا
شجاعتهم وجودهم استفاضوا
بنو ونجاسن افتخروا افتخارا
إذا لبسوا الحديد ترى أسودًا
ونجدةً تربعين قد استقرت
فمنهم ابتدى بنى وراغ
بنو سوجم أراهم نعم قوم
وسائر تربعين إذا تداعوا
بنو يابان أن ذكروا تجدهم
سيوفهم تقد الهام طولا
وبأس بنى تنالفت استمرت
إذا حضروا الحروب ترا عداهم
بنو وطاس فازوا بالمعالى

ترى الأقمار تنتسب انتسابا
لدار الملك تحتطّ النقابا
مقامهم إذا ما الخطب نابا
نفيس الدرّ أو تجدد السحابا
انسخ تسمع لدى بهم جوابا
كنور الشمس ترتقب ارتقابا
فجارهم عزيز لن يصابا
لمولانا لقد عزوا جنابا
لأنهم أبو ذمّا وعابا
فاسأل تجدد العلا والانتسابا
أبي يعقوب فخرًا لن بعابا
بأوصاف العلى وسمو طلابا
بحور قد تدفعت العبابا
بعلم قائم السيف الضرابا
تميد الأرض إن كانوا غضابا
فزادوا فى علوهم انتصابا
وبأسهم إذا سمو الضرابا
إذا حضروا الوغا التهابا
لحرب فرّت الروم ارتبابا
أسودًا تورث الأعداء ارتيابا
وماء سحابهم يهمى انسكابا
مريرته فبلغنا الطلابا
بغاة الطير أبصرت العقابا
فلم يخشوا لمجدهم انتكابا

فخارهم عداتهم اعتجبا
 ورام بهم حلول الضيم خابا
 بعزّتهم وبأسهم الرقابا
 شجاعتهم إذا البطل استرابا
 على نصح لمولانا فجابا
 من الرهط الذي نال اقترابا
 اعتزّ بهم لدى المولى جنابا
 مكين لم يرام ولم يصابا
 ويحرس من ذوي العلى احتسابا
 لعزّكم فالأزمكم منابا
 كذاك مرين أن رفعوا انتسابا
 فما حدثم عن الفخر اجتتابا
 من الأعلام في العرب انتصابا
 من المولى به ملأ القبابا
 سراة العز يولون الرعابا
 لها حسن تجلى أن يعابا
 هلال بدرهم يجلوا سحابا
 بأرض الروم تغمدهم الرقابا
 بإخوته لمولانا النصابا
 بما فعلوا الذي كتب الكتابا
 تصيرها أعداهم قرابا
 الخطب حاج وحرب أرابا
 بهم ومهلهل أحصى الذبابا
 كسوا من صدق نصحهم ثيابا

بنو وارتاجن اعزوا بما هي
 بنو الخير أناس من تسامى
 بنو وارتين ارتفعوا وتعالوا
 وسائرهم متى ذكروا توالى
 بنو فودود والحشم استمروا
 فقربهم وسيرهم لديه
 وأذكر خدمة العرب التي قد
 فحازوا عنده أعلى مكان
 إذا نصح الخديم نيل مناه
 فأنتم أيها العرب انتصرتم
 أليس لحمير لكم انتسابا
 وأنتم أخوة نسبًا وصهرًا
 وجدّ جميعكم سنا وقيس
 ولم لا والرضى عنكم توالى
 فسفيان سموا قدرًا ففيهم
 لهم أيام صدق ليس تخفى
 بنو جرمون أنجمهم وفيهم
 وسيف العاصم اشتهرت وسارت
 سما عيادهم قدرًا ووافى
 لقد نصحوا ويشهد في علاهم
 وللخلط السيوف مجوهرات
 هبيرة من كنجدهم افتخار
 مقدّمهم تقدّم في المعالي
 جماعة جابر قوم كرام

على الأعداء تنسحب انسحابا
 فعزوا جانباً وهموا جانباً
 بكم ساقاتكم تدني اقتراباً
 كؤوس ردا سقوا منها شرباً
 فخار يورث الشرك ارتياباً
 لكم في سبقكم من حل زاباً
 ونيتة التي تدني الطلاباً
 تساعد وقصد الشرك خاباً
 لبلدته الجزيرة حين أباً
 على ما أودع الله الكتاباً
 مكان الصخرة انتصب انتصاباً
 بها وجدت مصورة عجاباً
 من المبين أربعة حساباً
 فأحيها وقد كانت خراباً
 وأنشأ في جوانبها القباباً
 مؤسسة بها يولي الرغاباً
 تقابل من جبال الفتح باباً
 تحلى من حلى البحر الجباباً
 إذا ما انسب في الرمل الجباباً
 قريباً تورث الشرك انتياباً
 سنا أنواره يحكى الشهاباً
 أمامكم فيختطب اختطاباً
 يزيذك السعادة والثواباً
 بشائر والفتوحات العجباباً

فجروا منه يوم الحرب ذيبلاً
 بيوسف بن قيطون تساموا
 وقل للأتيج دانت علاها
 سيوفكم تدير على الأعداء
 فلا بن العجاج المرضي على
 لئن أخذتكم في النظم يشهد
 فهذا سعد مولانا المرجي
 فقد حل الجزيرة والأمانى
 أقام بها وألقى الرحل منها
 كان القرية المشهور منها
 وقد ذكروا الجدار بها وفيها
 فصدق قولهم عنها فلوس
 لها ألف من الأعوام زادت
 وقد دثرت رسوم الربع منها
 وجددها وشاد السور منها
 بطالع سعدة في خير دار
 قواعدها على السعد استقرت
 ومشورها البهيح يروق حسناً
 تقلده كمثلى سيف يحكى
 تطالع نجوم السعد منها
 ومسجدها المبارك قد تلالاً
 ومنبرها الرفيع يقوم فيه
 ويدعو الله مبتهلاً عساه
 ويجعل من تادى الخير فيها

العزفي وشيّد قبابا
 محبّ للوفاء قد استتابا
 فهاهم قد كسوا منها ثيابا
 لدين الله نصحا واحتسابا
 لمادحكم ببيعته المتابا
 جلا يحدوا بها الحادي الركابا
 وتبقى فيكم مدحتي كتابا
 سعودكم الذي ترى الإيابا
 تنال بكم أمانيهما الرغابا
 بتاريخ السعود لك الحسابا
 به الشر كالفطر انتسابا
 تبلغنا الأمانى والطلابا
 وصنت ذويه راغبًا الثوابا
 وبرًا واعتلاء واقترابا
 به للخلد تنقلب انقلابا
 وجمع عداك انتكب انتكابا
 مقامك كعرف المسك طابا

بنا الدار السعيدة للأمانى
 بعزيمة مخلص برصفي
 أناس دأبهم نشر المعالي
 فهم خدموا لمولانا موفى
 مرين لقد مدحتكم فوفوا
 وقد ورخت دولتكم وصارت
 وكلّ منظم شعرا سيفني
 أمير المسلمين بقية تعلو
 وأبقاكم إله العرش عزّا
 فهذا العام عام الفتح نبدا
 وهذا العيد عيد الفطر وافت
 فعمرك إلا له سنين عدا
 فأنك قد رفعت العلم قدرا
 وبالصلحاء قد زدت اعتناء
 وزدتهم احتفالا وارتقاء
 فدام سعود ملكك في ازدياد
 سلام الله متصلاً يوافي
 قال المؤلف عفا الله عنه:

وفي العاشر من شهر رمضان المعظم من سنة أربع وثمانين وستمئة، بعث أمير المسلمين ولده الأمير أبا زيان في جيش كثيف ليقف على الحد بين بلاده وبين بلاد ابن الأحمر، وأمره ألا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثنا، ولا يواصل لها باذابة ولا بمضرة، فانصرف إلى حصن دكوان بالمغرب من مائة فسكن لخارجه.

وفي شهر رمضان المذكور توفي الوزير المرحوم أبو علي يحيى بن أبي مديد العسكري بالجزيرة الخضراء.

وفي آخر شهر شوال من السنة المذكورة أمر أمير المسلمين عياد بن أبي عياد العاصمي أن يرتحل بجميع إخوانه إلى إسطنبول فيسكن هنالك، فارتحل إليها فزها في غرة ذي قعدة من السنة المذكورة.

وفي يوم الإثنين السادس عشر لذي قعدة المذكورة جاز الأمير المسلمين أبو يعقوب من الخضراء إلى العدو يتفقد أحوالها في غراب القائد المجاهد أبي عبد الله محمد بن القائد أبي القاسم الرجرجي - رحمه الله - فنزل بقصر المجاز.

وفي هذه السنة بنيت زاوية قرطاسة على قبر الأمير المرحوم أبي محمد عبد الحق، وتصدق عليها أمير المسلمين بمحرث أربعين زوجاً.

وفي آخر شهر ذي قعدة ابتداء أمير المسلمين مرضه الذي توفي منه، فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي - رحمه الله - بقصر من بلدته الجديدة من جزيرة الأندلس، وذلك في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين لمحرّم من سنة خمس وثمانين وستمئة فحمل - رحمه الله - إلى رباط الفتح من بلاد العدو، ودفن بمسجد شالة منها فكانت أيامه في الخلافة تسعاً وعشرين سنة، وذلك من حين بويع له بحضرة مدينة فاس بعد وفاة أخيه أبي يحيى ومن حين ملك حضرة مراکش، وقطع ملك بني عبد المؤمن، فخلص له أمر المغرب سبع عشرة سنة وعشرين يوماً، فإننا لله وإنا إليه راجعون؛ فلقد انصدع بموته الإسلام ورزي بوفاته جميع الأنام، تلقاه الله عز وجل بالروح والريحان والمغفرة والرضوان، جبر الله صدع الإسلام فيه وأبقى خلافته وبركته مؤيدة في حفدته وبنيه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

**الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي يعقوب بن أمير المسلمين
أبي يوسف بن عبد الحق عفا الله عنهم**
هو عبد الله يوسف أمير المسلمين بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق.

كنيته: أبو يعقوب.

لقبه: الناصر لدين الله. أمه: حرة علوية تسمى أم العز بنت محمد بن حازم العلوي، مولده في شهر ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين وستمئة.

بويع له بالخلافة في الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس يوم وفاة أبيه، وكان غائباً ببلاد العدو، فأخذ له البيعة الوزراء والأشياخ وبعثوا إليه، فاتصل إليه الخبر وهو ببعض أحواز مدينة فاس فجدّ السير إلى طنجة، فوجد الأسطول هنالك ينتظره فجاز البحر إلى الجزيرة، وبها جميع قبائل مرين وقبائل العرب فجددت له البيعة بها واجتمع على بيعته كافة قبائل مرين وقبائل العرب وجميع من بالعدوة والأندلس من المسلمين، وذلك في غرة صفر من سنة خمس وثمانين وستمئة وسنه يوم بويع خمس وأربعين سنة وثمانين أشهر، ولما تم له الأمر واستقامت له الخلافة فرق الأموال على جميع قبائل مرين والعرب والأندلس والأغزاز وسائر الأجناد وأحسن إلى الفقهاء والصلحاء، وأخرج الصدقات إلى الضعفاء وسرح المسجونين في جميع بلاده وتصدق بترك الفطرة على الناس، وقال: من وجب عليه أداؤها يتصدق بها لنفسه؛ حيث شاء ورفع النزاع عن ديار الرعية وكف أيدي الظلمة، والعمل على الناس وأزال المكوس وأمر بهدم المروس وقمع البغاة وأباد الطغاة، وأمن الطرقات وأزال أكثر الرتب والقبيلات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها في البلاد الخالية والمفاظات المخيفة، فخضعت مرين تحت قهره وأصلح أمر الناس في أيامه.

صفته: أبيض اللون، حسن القدّ، مليح الوجه أفنى الأنف، هيبا لا يكاد أحد يبتديه بالكلام من مهابته ذا أذعة وسياسة؛ فإذا عزم بطش وإذا أخذ أفنى يستبد برأيه دون وزرائه قاهرًا في سلطانه، وإذا أعطى أعنى، وإذا مال أفنى شفيقًا بالضعفاء، متفقّد لأحوال رعيته وبلاده، غليظ الحجاب، لا يكاد يوصل إليه إلا بعد الحين، حاجبه عتيق مولاه ثم عنبر مولاه.

وزراؤه: أبو عليّ عمر بن السعود الحبشي، وأبو سالم إبراهيم بن عمران الفودودي، وتوزّر له في آخر عمره يخلف بن عمران الفودودي، كتابه: الفقيه أبو زيد الخزان، والفقيه أبو عبد الله العمراني، ثم الفقيه الأجلّ المرحوم أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، وهو القائم بأمر المملكة كلها، وعلى يده تتصرف أحوالها، ومن كتّابه: الفقيه الكاتب البارع أبو عبد الله المغيلي، كان يتولّى العرض والإنشاء، ويده العلامة إلى أن مات رحمه الله فولّى العلامة بعده الفقيه الأجلّ أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، ومن كتّابه: الفقيه الأجلّ أوحّد عصره ونخبة دهره أبو عليّ ابن رشيق كان يتولّى التنفيذ.

قضاته بحضرة فاس: الفقيه الصالح المبارك أبو عمر بن النقال، ثم الفقيه الخطيب أبو عبد الله بن أبي الصبر أيوب، ثم الفقيه أبو غالب المغيلي.

وقضاته بحضرة مراکش: الفقيه أبو فارس العمراني، والفقيه أبو عبد الله السقطي، ثم الفقيه أبو عبد الله بن عبد الملك قاضيه بحضرة تلمسان الجديدة، والفقيه الأجلّ المحدث المشاور أبو الحسن عليّ بن أبي بكر المليلي.

شعراؤه: الفقيه البارع أبو الخدم مالك بن مرحل، والفقيه الأديب أبو فارس المكناسي، والفقيه أبو العباس القشتالي، والفقيه أبو العباس الحيشي هؤلاء الشعراء

الذين هم كانوا ملتزمين لخدمة بابه الكريم تجرى عليهم المرتين والإحسان.

أطبائه: الوزير الطبيب أبو عبد الله بن الغليظ الأشيلي، والوزير أبو محمد بن عمار المكناسي.

قال المؤلف عفا الله عنه:

لما تمت البيعة لأmir المسلمين أبي يعقوب خرج من الجزيرة الخضراء إلى مريالة، فنزل بظاهرها وبعث رسوله إلى ابن الأحمر ليجتمع به، فبادر إليه في احتفال عظيم وعسكر جسيم، فاجتمع له هنالك فعزاه عن أبيه الأمير ابن الأحمر فهتأه بالخلافة، فصالحه أمير المسلمين أبو يعقوب وصرف عليه جميع ما كان بيده، فما كان له من بلاد الأندلس ولم يحبس منها حاشا الجزيرة، ورندة، وطريف، ووادي ياش، وأحوازهم، وكان اجتماعه به وصلحه إياه في العشر الأول من شهر ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وستمئة، ورجع إلى الجزيرة فأقام بها بقية ربيع الأول المذكور.

وفي يوم الأحد الثاني من شهر ربيع الآخر منها قدم عليه إرسال الفنش، فجدد معه الصلح على ما كان عقده مع والده - رحمه الله - فلما فرغ من إصلاح بلاد الأندلس وهدنها وسكن دهمائها عاد بأخيه الأمير أبي عطية بن أمير المسلمين أبي يوسف، فعقد له على ما بيده من بلاد الأندلس وأوصاه بتقوى الله تعالى وضبط ثغوره والحزم في جميع أموره، ثم دعا بالشيخ المجاهد المرحوم أبي الحسن علي بن يوسف بن برجائن فعقد له على أعنة خيل الأندلس وجندها، وقلده أمر حربها وغزوها، وترك معه ثلاثة آلاف فارس من بني مرين والعرب، وجاز إلى العدو يوم الإثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة، فنزل بقصر المجاز، ثم سار إلى مدينة فاس فدخلها في الثاني عشر من جمادي الأولى من العام المذكور، فلما استقر بحضرة

فاس الجديدة خرج عليه ابن عمّه محمد بن إدريس بن عبد الحق في جماعة من بنيه بجبال ورغة من أحواز فاس، فسار إليهم الأمير أبو معرف محمد بن أمير المسلمين أبي يوسف فتابعهم في خلافهم وأنضوا إلى جملتهم، فلم يزل أمير المسلمين يبعث إليهم بالجيوش ويدبر عليهم السياسة حتى نزل عليه أخوه فأمنه وأتاب إلى طاعته، وفرّ محمد بن إدريس وبنوه إلى تلمسان، فقبض عليهم في الطريق فقيدوا بالحديد، وأتى بهم إلى رباط تازا، فبعث أمير المسلمين أخاه الأمير أبا زيان لقتلهم فقتلوا بخارج باب الشريعة منها، وذلك في شهر رجب من سنة خمس وثمانين وستمئة.

وفي هذه السنة خرج عليه عمر بن عثمان بن يوسف العسكري بقلعة فندلاوة من جبال بني بازغة، فأمر أمير المسلمين أبو يعقوب قبائل بني عسكر ومن بتلك الجهات من قبائل البربر من سدراتة وبني وارتين وبني يازغة وبني سيتان وغيرهم بحصاره وقتاله، فحاصروه مدة شهر ثم خرج أمير المسلمين إليه بنفسه، فسار حتى وصل إلى قرية سدورة من بلاد بني وارتين وقدم بين يديه الرماة والمجانيق وإله الحرب، فعلم عمر بن عثمان بقدومه فرأى أنه لا طاقة له بالحصار ولا مقدرة له بمدافعة أمير المسلمين، فبعث إليه الصلحاء يأخذون له الأمان منه فأمنه ونزل إليه فبايعه وصرفه إلى تلمسان بجميع أهله وماله.

وفي شهر رمضان من سنة خمس وثمانين ارتحل أمير المسلمين أبو يعقوب من مدينة فاس إلى حضرة مراکش، فدخلها في شوال من السنة المذكورة، فأقام بها إلى يوم الخميس الثالث عشر من ذي قعدة من العام المذكور، فهرب الحاج طلحة بن عليّ البطوي إلى بلاد السوس، فأقام بها ودعى لنفسه، فاتصل خبره بأمر المسلمين، فدعى بابن أخيه الأمير أبي عليّ منصور بن الأمير أبي محمد عبد الواحد، فعقد له على بلاد السوس وأمدّه بالأموال والجيوش، وأمره بقتال طلحة بن عليّ الخارج بها، ومن

وافقه ببلاد السوس من قبائل بني حسان، فسار الأمير أبو علي منصور في جيوش عظيمة إلى بلاد السوس، فغزا بها عرب بني حسان، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وذلك في شهر ذي الحجة من العام المذكور، ثم سار إلى قتال طلحة وحصاره.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمئة وفي يوم الإثنين الثالث عشر من جمادي الآخرة قتل طلحة بن عليّ الثائر ببلاد السوس في المعترك وقطع رأسه، فبعث به الأمير أبو عليّ منصور إلى عمّه أمير المسلمين أبي يعقوب، فأمر -رحمه الله- أن يطوف به في جميع بلاده ويعلق على باب رباط تازا، فلم يزل عليها طول أيام خلافته معلقًا في شبكة من نحاس، وفي شهر رمضان منها خرج أمير المسلمين أبو يعقوب لغزو العرب ببلاد قبلة درعة الذين كانوا يقطعون على طريق سجلماسة، فخرج إليهم من حضرة مراکش في اثني عشر ألف فارس من بني مرين، فجدد السير على جبل هسكورة حتى خرج إلى بلاد درعة، ثم سار حتى أدركهم في القبلة مما يلي الصحراء، فصباحهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا وسبى أموالهم وأمر بقطع رؤوسهم وحملها إلى مراکش وفاس وسجلماسة وتعليقها في الأسوار، ثم رجع إلى مراکش فدخلها في آخر شوال من سنة ست المذكورة، فأقام بها بقية عامه وعيّد بها عيد الأضحى.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمئة في نصف ربيع الآخر منها خرج أمير المسلمين أبو يعقوب -رحمه الله- من حضرة مراکش إلى حضرة فاس، وفيها وافته إرسال ابن الأحمر مع ابنة الأمير موسى ابن رخوا فاعترس بها بحضرة مراکش، وفيها أعطى أمير المسلمين لابن الأحمر مدينة وادي ياش وحصن رانجة وحصن بياتة وحصن الدير والأنتير وغون وغورب، وذلك في شهر صفر من سنة سبع وثمانين وستمئة.

وفي نصف ربيع الآخر منها تحرك أمير المسلمين من مراكش إلى فاس كما قدمنا، فأقام بها وخرج عليه ولده الأمير أبو عامر فسار إلى حضرة مراكش، وذلك يوم السبت الرابع والعشرين من شوال فثار بها مع واليها محمد بن عطو البربري الجناني، وكان دخوله مراكش وقيامه بها في أول يوم من ذي القعدة من سنة سبع وثمانين وستمئة، فأنتهى الخبر إلى أمير المسلمين أبي يعقوب، فبادر إلى مراكش فوصلها ونزل بظاهرها فخرج ولده الأمير أبو عامر إلى حربه، فرجع مهزومًا، ودخل مراكش وغلقها في وجه أبيه، فأقام بقصرها إلى الليل فقتل مشرفها ابن أبي البركات وحمل ما كان في بيت مالها وخرج منها نصف الليل فارًّا إلى بلاد القبلة، وأسلم البلد فدخلها أمير المسلمين من الغد وهو اليوم التاسع من ذي الحجة من السنة المذكورة فعفى عن أهلها وسار الأمير أبو عامر مع ابن عطو على بلاد القبلة، فأقام بها مدة من ستة أشهر ثم سار إلى تلمسان، فوصلها في الثاني عشر من رجب من سنة ثمان وثمانين وستمئة.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين فيها رجع الأمير أبو عامر إلى والده أمير المسلمين فعفا عنه، وفيها كتب أمير المسلمين إلى عثمان بن يغمراسن أمير تلمسان أن يسلم إليه عامله ابن عطو الذي لجأ إليه، فامتنع عثمان بن يغمراسن من ذلك فقال: والله لا أسلمه أبدًا، ولا أبيع حرمتي وأترك من استاجرني حتى أموت، فليصنع ما بدا له. وأغلظ للرسول في القول وتكلم له القبيح فثقفه بالحديد، فأنف لذلك أمير المسلمين أبو يعقوب وعمل على غزوة فساد إليه.

وفي سنة تسع وثمانين في السابع والعشرين من ربيع الآخر منها خرج أمير المسلمين أبو يعقوب من حضرة فاس إلى غزو تلمسان ومن بها من بني عبد الوادي، وهي أول غزواته إليها، فسار نحوها وبقي يرتحل في أحوازها يأكل زروعها ويسبي

أموالها ويخرب قراها، فلم يخرج إليه أميرها، فلما رأى عجزه عن ملاقاته قصد إلى حصاره فنزل عليه في أول يوم من رمضان من سنة تسع وثمانين وستمئة فحاصره وضيق عليه بالقتال، ونصب عليه المجانيق، وأقام عليه ستة عشر يومًا وارتحل عنه راجعًا إلى المغرب، فدخل رباط تازا في ثالث ذي القعدة من العام المذكور.

ثم دخلت سنة تسعين وستمئة فيها انفسد الصلح بين أمير المسلمين والفرنش شانجة، فكتب أمير المسلمين إلى قائده وهو الشيخ أبو الحسن عليّ بن يوسف بن يرجاتن بأمره أن ينزل مدينة شريش ويشن الغارات على بلاد النصاري شرقًا وغربًا، فسار أبو الحسن بن يرجاتن بمن معه من المجاهدين حتى نزل مدينة شريش، وذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين المذكورة، وشرع في قتالها وشن الغارات على أحوازها.

وفي شهر ربيع الآخر المذكور خرج أمير المسلمين أبو يعقوب من حضرة فاس إلى قصر المجاز برسم الجواز إلى الأندلس والجهاد، وكتب إلى قبائل المغرب يستنفرهم إلى الغزو، فوصل إلى قصر المجاز في جمادي الأولى من السنة المذكورة فشرع في تجويز المجاهدين من بني مرين والعرب فسمع الفرنش -لعنه الله- بقدمه فأراد قطع المجاز عليه فعمر الأجفان فبعثهم إلى الزقاق فنزلوا به، فنشط أمير المسلمين عن الجواز بقصر المجاز، وأمر بتعمير الأجفان يقابل بها أجفان الروم.

وفي شعبان من هذه السنة انفسدت قطائع المسلمين في الزقاق، فقتل قوادها وقطع غزاتها، فأقام أمير المسلمين بقصر المجاز حتى عمر الأجفان واستعد للجواز فجاز ونزل بطريف، وذلك في العشر الآخر من شهر رمضان من سنة تسعين وستمئة.

ثم خرج إلى غزو بلاد الروم فنزل على حصن بجر، فأقام محاصرًا له مدة من ثلاثة أشهر وجيوشه تخرج في كل يوم من المحلة، فتغير على شريش وأحوازا وحصن الوادي حتى هتك جميع تلك البلاد ودخل فصل الشتاء، فأقلع عنه ورجع إلى الجزيرة، فجاز منها إلى العدو في أول شهر محرم من سنة إحدى وتسعين وستمئة وقد انفسد ما بينه وبين ابن الأحمر، وفي سنة إحدى وتسعين اصطلاح ابن الأحمر مع الفنش وتراضى معه أن ينزل طريف حتى يملكها، ليقطع جواز أمير المسلمين أبي يعقوب إلى الأندلس، وشرط له أن ينفق عليه وعلى محلته بطول إقامته عليها فنزلها الفنش في أول يوم من جمادي الآخرة من سنة إحدى وتسعين وستمئة، فأقام الفنش يقاتلها برًا وبحرًا ليلاً ونهارًا، ونصب عليها المجانيق والرعدات، وابن الأحمر يبعث إليه بالميرة والعدد والسهام، وكل ما يحتاج إليه حتى ملكها صلحًا من أهلها فدخلها في آخر يوم من شوال من سنة إحدى وتسعين وستمئة، وكان قد اتفق مع ابن الأحمر إذا أخذها أن يسلمها إليه، فلما ملكها تمسك بها فأعطاه ابن الأحمر بسببها حصن شكيش وطبيرة ونقله وأبلش وقشتلة والمساجين، وهب ذلك كله في حق طريف، ولم يقص منها شيئًا، وذلك في سنة إحدى وتسعين المذكورة.

وفي شهر شعبان منها أقبل عمر بن يحيى الوزير الوطاسي إلى حصن تازوطا من قلاع الريف، فدخلها ليلاً غدرًا من أهله، وكان بها الأمير أبو علي منصور بن عبد الواحد فخرج منصور منها فارًا بنفسه في جوف الليل، فلحق برباط تازا وأخذت أمواله وقتلت رجاله، وملكها عمر بن يحيى الوزير بجميع ما كان بها من المال والسلاح والأمتعة وأعشار الروم التي كانت مخزنة بها، كما قال المتنبي - رحمه الله -:

تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سليب
فاتصل الخبر بأمير المسلمين أبي يعقوب، فبعث إليها من حينه وزيره أبا علي بن

السعود فسار في جيش عظيم حتى نزل عليها فحاصرها هو والأمير أبو علي منصور، فأقام أبو علي منصور أيامًا ثم مرض ومات غمًا - رحمه الله - ودفن بجامع تازا.

وفي شهر شوال من سنة إحدى وتسعين خرج أمير المسلمين أبو يعقوب من فاس إلى حصار تازوطا ومعه عامر بن يحيى بن الوزير أخو عمر الثائر بها، فضمن له إخراج أخيه عمر عنها واستأذنه في الدخول إليه، فأذن له فدخل الحصن وتكلم مع أخيه فيها أحب فأخذ عمر كل ما كان فيها من الأموال والمتاع، فخرج به ليلاً على حين غفلة من الناس وتوجه به إلى تلمسان، وأسلم الحصن لأخيه، فبلغ عامر أن أمير المسلمين أبا يعقوب عزم على قتله بآب ابن أخيه منصور لإفلاته أخيه عمر الجاني عليه، فتمسك بالحصن وامتنع من الهبوط، فأقام بها إلى أن قدم الرئيس أبو سعيد فخرج ابن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة بهدية من الأندلس إلى أمير المسلمين أبي يعقوب راغبًا في الصلح مع ابن الأحمر، فنزل بأجفانه في مرسى عساسة، فبعث إليه عامر بن يحيى بن الوزير وسأله أن يشفع له عند أمير المسلمين أبي يعقوب، فشفع له فأظهر له أمير المسلمين الإسعاف بذلك، فلم يطمئن عامر بنفسه وبعث بعض خدامه إلى المرسى نهارًا فطلع أكثرهم في أجفان الرئيس أبي سعيد ليرحلوا فيها إلى الأندلس، وبقي عامر إلى جوف الليل، فخرج من القلعة كأنه يريد التوجه إلى المرسى ففر إلى تلمسان فخرج الخيل في أثره، فركض الفرس فنجا وقبض على ولده بالخيول فقتل بفاس وصلب، وأهبط رجاله من أجفان الرئيس أبي سعيد فضربت أعناقهم، وظفر بمن كان في الحصن من القلعيين وغيرهم فقتلوا عن آخرهم، وحمل نسائهم وأولادهم إلى رباط تازا فثقفوا بها.

وفي هذه السنة قدم على أمير المسلمين وهو بتازوطا رومي جنوى بهدية جلييلة فيها شجرة موهة بالذهب عليها طيور تصوت بحركات هندسية مثل التي صنعت

للمتوكل العباسي، وفي هذه السنة رفع عن أولاد الأمير أبي يحيى بن عبد الحق الغدر ففروا إلى تلمسان، وأقاموا بها إلى أن أرسل إليهم أمير المسلمين بالرجوع، فأقبلوا إلى مدينة فاس، فسمع بذلك الأمير أبو عامر وهو ببلاد الريف فجعل العيون عليهم، فأتاه الجاسوس فأخبره بقدمهم، فخرج إلى الفتك بهم فوافاهم بصبره من بلاد ملوية فقتلهم ورجع إلى البراءة وهو يرى أنه قد وافق رأي أبيه وغرضه في قتلهم، فاتصل الخبر بأمير المسلمين أبي يعقوب فأظهر البراءة من فعل ولده أبي عامر وأبعده وأقصاه، فلم يزل طريداً في بلاد الريف وبلاد غمارة إلى أن مات ببلد بني سعيد من جبال غمارة وحمل إلى مدينة فاس فدفن بها بالزاوية التي بداخل باب الفتوح، وذلك في شهر ذي الحجة عام ثمانية وتسعين وستمئة، وخلف ثلاثة من الولد: عامر، وسليمان، ودواد. كفلهم جدّهم أمير المسلمين أبو يعقوب إلى أن مات فولّي عامر الخلافة بعد جدّه ثم وليّ سليمان بعد وفاة أخيه عامر، وسيأتي ذكر أيامهما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي شهر ذي القعدة من سنة إحدى وتسعين المذكورة أعطى ابن الأحمر حصن الأبط إلى الفنش شانجة وفيها أمر أمير المسلمين أبو يعقوب بعمل المولود وتعظيمه والاحتفال له في جميع بلاده، وذلك في شهر ربيع الأول المبارك من السنة المذكورة، ونفذ الأمر به عنه - رحمه الله - وهو بصبره من بلاد الريف في آخر شهر صفر من السنة المذكورة، فوصل برسم إقامة بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر، ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين فيها وفد على أمير المسلمين رسل ولد الرنك ملك برتقال ورسل ملك بيوتة، ورسل صاحب تلمسان، ورسل ملك تونس، وذلك في جمادي الأولى من سنة اثنتين وتسعين وستمئة، وفيها فتح حصن تازوطا، وذلك يوم الجمعة الحادي عشر من جمادي الآخرة من السنة المذكورة.

وانصرف إرسال ابن الأحمر الرئيس، وهم: أبو سعيد، وأبو سلطان الداني، من حضرة أمير المسلمين أبي يعقوب بفاس إلى الأندلس في العشر الأوسط من رجب عام اثنين وتسعين، وخرج الأمير أبو عامر إلى قصر المجاز برسم النظر في أمر الأندلس يوم الإثنين الرابع والعشرين من رجب من السنة المذكورة.

وجاز السلطان أبو عبد الله بن الأحمر برسم لقاء أمير المسلمين أبي يعقوب والاعتذار إليه بما فعل في أمر طريف، ويرغب منه نصرة بلاد الأندلس، فخرج بساحل بليونش من حوز مدينة سبتة، ثم ارتحل إلى طنجة، وقدم بين يديه هدية عظيمة منها المصحف العزيز الذي كانت ملوك بني أمية يتوارثونه بقصر قرطبة، يقال أنه بخط أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكان وصوله إلى طنجة في يوم السبت الثاني والعشرين لذي القعدة من سنة اثنين وتسعين وستمئة، فتلقاه بها الأمير أبو عبد الرحمن يعقوب وأبوه عامر، وخرج أمير المسلمين برسم لقائه من مدينة فاس وذلك بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة المذكور، وخرج معه جميع بني، فتوفي ولده الأمير أبو محمد عبد المؤمن في طريقه ذلك ببلد أرجار، وذلك يوم الأحد الموفى ثلاثين من ذي القعدة، وحمل إلى مدينة فاس ودفن بالصحن الذي بقبلة الجامع بالمدينة الجديدة، وسار أمير المسلمين أبو يعقوب إلى طنجة، فاجتمع بها مع ابن الأحمر فأراه من القبول، فوقف ما أمله وبالع في برّه وإكرامه وأسعفه بجميع مطالبه، ولم يعد شيئاً مما سلف منه، وبذل له هدية عظيمة أضعاف ما قدم به، وانصرف ابن الأحمر إلى الأندلس، وذلك يوم السبت الموافق عشرين لذي حجة من عام اثنين وتسعين وستمئة، وفي هذه السنة بذل أمير المسلمين أبو يعقوب إلى ابن الأحمر الجزيرة ورندة وما والاهما من الحصون، مثل: حصن بامنة، وأبدونة، ورنيش، والصخيرات، ويمغ، والغار، ونشيط، وتردلة، ومتعور، وأطيط، وحصن المداو، وأدياروا، والشطيل، والطشاش، وابن الدليل،

والشطبونة، ومجلوش، وشمينة، والنجور، وتنبول، ونجارش.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين، فيها جاز جيش أمير المسلمين أبي يعقوب مع وزيره أبي عليّ عمر بن السعود إلى الأندلس لحصار مدينة طريف، فنزل عليها وحاصرها مدة، وفيها كانت المجاعة الشديدة بالمغرب والوباء العظيم، فكان الموتى يحملون أربعة وثلاثة واثنين على مغسل، وبلغ القمح فيها عشرة دراهم للمد والدقيق ستة أواق بدرهم.

وفيهما أمر أمير المسلمين أبو يعقوب بتبديل الصيعان، وجمعها على مد النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك على يد الفقيه أبي فارس الملزوزي المكناسي، ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمئة، فيها صلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الأسعار في جميع الأمصار، فبيع القمح عشرين درهماً للصفحة والشعري ثلاثة دراهم، ثم دخلت سنة خمس وتسعين فيها خرج أمير المسلمين أبو يعقوب لغزو بلاد تلمسان، فوصل إلى حصن تاويريرت وكان نصفه لعثمان بن يغمارسن ونصفه لأمر المسلمين، لأنه كان الحدّ بين بلادهما فردّ عنه عمال عثمان بن يغمارسن المذكور، ثم أخذ في بناء الحصن، فابتدأ في بناء سورة في أول يوم من شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمئة، ففرغ من تشييده وبنائه، وركب أبوابه مصفحة بالحديد، وذلك يوم الخامس من شهر رمضان المعظم المذكور، فكان - رحمه الله - يصلي الصبح ثم يقف على بنائه بنفسه ثم رجع إلى رباط تازا، فعيد عيد الفطر على وادي ملوية بعد أن سكن حصن تاويريرت المذكور بقبائل بني عسكر، وقدم عليهم أخاه الأمير أبا يحيى بن أمير المسلمين أبا يوسف - رحمه الله -

وفي سنة ست وتسعين وستمئة، غزا أمير المسلمين أبو يعقوب بلاد تلمسان خزن إليها من حضرة فاس، فسار حتى نزل مدينة ندرومة، فحاصرها وشد في قتالها

أيامًا ثم ارتحل عنها، فنزل على وجدة، وأمر ببناؤها، وبنيت وحصنت أسوارها، وبنى بها قصبة ودارًا وحمامًا ومسجدًا، ونقل إليها قبيلة بني عسكر مع أخيه الأمير أبي يحيى، وأمره بالغارات على مدينة تلمسان وأحوازها مع الساعات والأحيان، ورجع إلى مدينة فاس.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين، فيها غزا أمير المسلمين أبو يعقوب أيضًا مدينة تلمسان، فنزل عليها وحاصرها، وفيها نكب أمير المسلمين جماعة من خدامه أبو فارس عبد العزيز الشاعر، وأبو عبد الله الكناني، والفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر، وفيها قتل أشياخ مراكش عبد الكريم بن عيسى وعليّ بن محمد الهنتاتي، قتلهم ولده الأمير عليّ المعروف بابن زريجة بكتاب لبس به عليه كاتب أبيه أبو العباس الملياني، وفيها مات الأمير أبو زيان.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمئة فيها نزل أمير المسلمين أبو يعقوب مدينة تلمسان النزول الآخر الذي لم يقلع منها إلا ميتًا رحمه الله.

الخبر عن حصار تلمسان

قال المؤلف عفا الله عنه:

كان أصل حصار تلمسان وفناء بني عبد الوادي أن ابن عطو لما فعل ما فعل وفرّ إلى عثمان بن يغمراسن ملكها، فكتب إليه أمير المسلمين أبو يعقوب أن يسلمه إليه، فامتنع من ذلك، فغزاه بسببه، ولم تزل العداوة تتركب بينهما إلى أن غزاه ثانية في شهر رجب من سنة سبع وتسعين، فوصل إلى تلمسان، فخرج إليه عثمان ملكها فقتله بخارجها، فانهزم عثمان المذكور ودخل المدينة وسد أبوابها، واعتمد فيها على

الحصار فحاصره بها أيامًا ثم ألقع عنها، ورجع إلى مدينة فاس وترك أخاه الأمير أبا يحيى مع قبيلة بني عسكر بمدينة وجدة، وأمره بحرب تلمسان وأحوازها وندرومة، وما والاها فكان لا يرفع عنها يدًا بالغارات فضاق أهل ندرومة لذلك ذرعًا، فأقبل أشياخها إلى الأمير أبي يحيى فباعوه وطلبوا منه الأمان فأمنهم، ومكنوه من البلاد فقبضها، وبعث بالفتح والأشياخ إلى أخيه أمير المسلمين أبي يعقوب، وذلك يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر رجب سنة ثمان وتسعين وسبعمئة، وسأله التوجه إلى بلادهم ليريحهم من عدوهم، فارتحل من فوره إلى مدينة تلمسان فنزلها في شهر شعبان من السنة المذكورة، وكان نزوله عليها في يوم الثلاثاء وقت السحر ثاني يوم من شعبان المذكور، وملك ندرومة وهنين ووهران وتونة ومزگران ومستغانم وتنس وشلشل، وبرشك، والبطحا، ومازونة، وانشريس، ومليانة، والقصبة، والمرية، وتفراجيت، وجميع بلاد بني عبد الوادي وبلاد مغراوة وبايعه صاحب الجزائر، ووفدت عليه رُسل أمير تونس بالهدايا، وخدمه أهل بجاية وقسطينة، وهو مع ذلك محاصر لمدينة تلمسان قد أحدت بها محلته وجيوشه، وقد ترتب قواده لقتالها، فكانوا يخرجون إليها في كل يوم نوبًا إلى أن دخل فصل الشتاء، فابتدأ أمير المسلمين ببناء قصره فبناه في موضع نزوله؛ حيث ضرب قبابه ثم بنى جامعًا كبيرًا وأقام فيه الخطبة بإزاء قصره، وأمر الناس بالبناء فانتشر البنيان بالمحلة يمينًا وشمالًا، فأدار سورًا على قصره وعلى الجامع الذي بإزائه.

وفي سنة اثنتين وسبعمئة أمر أمير المسلمين أبو يعقوب ببناء السور العظيم على تلمسان الجديدة، فابتدأ ببنائه في الخامس من شوال من سنة اثنتين وسبعمئة عثمان بن يغمراسن في الحصار، فولّى بعده ولده محمد المكني بأبي زيان، فضبط بلده وأقام بأمرها.

وفي سنة إحدى وسبعمئة توفي ملك الأندلس أبو عبد الله بن الأحمر، وولي بعده ولده محمد المخلوع، فكتب بالبيعة إلى أمير المسلمين أبي يعقوب، وبعث إليه هدية عظيمة، وتوفي الأمير أبو عبد الرحمن بتلمسان الجديدة، فحمل إلى رباط تازا فدفن بصحن جامعها، ووفد على أمير المسلمين أبي عبد الله وهو محاصر لمدينة تلمسان وفد أهل الحجاز ورسل الملك الناصر صاحب مصر والشام هدية عظيمة، ووفد عليه رسل ملك أفريقية بهدايا جلييلة، وبنى تلمسان الجديدة ومدنها، وبنى بها الحمامات العظيمة والفنادق والمارستان وجامعاً كبيراً للخطبة أقامه على الصهريرج الكبير، وبنى به مناراً عظيماً، وجعل على رأسه تفافيحاً من الذهب بسبعمئة دينار ذهباً.

وأمر صلحاء المغرب بالمشي إلى الحجاز، وبعث معهم مصحفًا مكللاً بالجوهر والياقوت أهداه إلى الكعبة، وبعث أموالاً كثيرة برسم التفريق على أهل مكة والمدينة، وبعث إلى الملك الناصر بأربعمئة جواد من عتاق الخيل بجهازاتها برسم الجهاد، وأضعف أهل تلمسان حتى أشرفوا على الهلاك.

وغدر أهل الأندلس بأهل سبتة في السابع والعشرين من شهر شوال من سنة خمس وسبعمئة، وكان قد فسد حال أهلها عند أمير المسلمين أبي يعقوب، وقطع عنهم جميع المرافق وغدر بها الرئيس أبو سعيد، فدخلها وملكها وثقف بها بني العزفي، وحملهم إلى الأندلس، واحتوى على جميع أموالها، فاتصل خبرها بأمير المسلمين أبي يعقوب أن الرئيس أبا سعيد قد تملكها بدعوة المخلوع، فعظم عليه الأمر، فبعث ولده الأمير أبا سالم إبراهيم في جيش عظيم إلى حصارها وحشد إليها جميع قبائل الريف وقبائل بلاد تازا، فلم يغن بها شيئاً وأقلع عنها مهزوماً فهاجره لذلك أمير المسلمين، فبقي مهملاً، وقتل أمير المسلمين أبو يعقوب غيلة بقصره من

حضرة تلمسان الجديدة في يوم الأربعاء السابع لذي قعدة من ستة ست وسبعمة جاءه في بطنه وهو نائم خصي من فتياه اسمه: «لا سعادة» كان لأبي علي الملياني فتوفي من تلك الضربة قريباً من عصر ذلك اليوم، فحمل إلى رباط شالة من ربط الفتح ودفن بها، والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي ثابت عامر بن الأمير عبد الله أمير المسلمين أبي يعقوب رحمه الله ورضي عنه
هو أمير المسلمين عامر ابن الأمير عبد الله بن أمير المسلمين أبي يعقوب بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق.

كنيته: أبو ثابت.

أمه: حرة، اسمها: بزوا بنت عثمان بن محمد بن عبد الحق.

مولده: غرة رجب من سنة ثلاث وثمانين وستمة، أيامه بويع بعد وفاة جدّه بحضرة تلمسان الجديدة باجتماع من الناس واتفاق من أشياخ مرين وأشياخ العرب على بيعته، وذلك في صبيحة يوم الخميس الثامن من ذي القعدة عام سنة وسبعمة ثاني يوم وفاة جدّه وتوفي - رحمه الله - بقصبة طنجة في يوم الأحد الثامن من شهر صفر من سنة ثمان وسبعمة، فأيامه سنة واحدة وثلاثة أشهر ويوم واحد، وسنه يوم توفي أربع وعشرين سنة وأشهر.

وزراءه: إبراهيم بن عبد الجليل الدنجاسني، وإبراهيم بن عيسى اليرباني.

كاتبه الضابط لأمره والقائم بأمر ملكه الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي مدين.

حاجبه فرج مولاه، ثم عبد الله الزرهوني.

قاضيه الفقيه أبو غالب المغيلي.

لما وليّ رحمه الله وتمت بيعته جمع أشياخ مربين والعرب ورؤساء الناس، فاستشارهم في أمر تلمسان هل يقيم على حصارها أو يرتحل عنها إلى المغرب، فكلهم أشاروا عليه بالرحيل والانصراف، وقالوا له: أدرك بلاد المغرب وأسكنها؛ فإن عثمان بن أبي عليّ بسبته، وقد سمع بموت جدك وخرج إلى نحو فاس قاصداً وقد دخل قصر كنامة ومدينة أصيلا، وأن الناس قد قنطوا في هذه البلاد ولهم بها عن عيالاتهم وأولادهم أربع عشرة سنة، فسير إلى بلادك حتى تؤمنها وتسكنها، وبعد ذلك تنظر فيما تريد إن شاء الله تعالى، فلما رأى اجتماع الناس على الرحيل بعث إلى أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن فصالحه، وصرف عليه جميع البلاد التي كان أخذها جدّه لهم حاشا تلمسان الجديدة التي اختطها أمير المسلمين أبو يعقوب في أيام الحصار، فإنه اشترط عليه أن لا يدخلها وأن يبقّيها على حالها، وأن يتعاهد مساجدها وقصورها بالإصلاح وما تحتاج إليه، ومن أراد الإقامة من أهل المغرب بها فما لأحد عليه من سبيل، فاشترط له ذلك كله، وبعث إلى جيوش جدّه وجنوده ورماته وحصصه التي كانت متفرقة في بلاد المشرق، فأتوه وأسلموا البلاد إلى أهلها، وكتب الأوامر إلى قواعد المغرب يخبرهم بوفاة جدّه وبيعته، وقدم إلى مدينة فاس ابن عمّه الأمير أبا عليّ الحسن بن الأمير عامر بن عبد الله بن أمير المسلمين أبي يوسف رحمه الله في جيش عظيم، وأمر بضبطها وتسريح سجونها وردّ مظالمها وتفريق الأموال على الخاصة والعامة ففعل ذلك، وقتل عمّ أبيه الأمير أبا يحيى ثم قتل عمّه الأمير أبا سالم بن أمير المسلمين أبي يعقوب - رحمه الله - وارتحل إلى المغرب عن مدينة تلمسان في أمم لا تحصى، وذلك في غرة ذي حجة من سنة ستّ وسبعمئة فعيد عيد الأضحى بالطريق بين مدينة وجدة ومدينة تلمسان، ثم ارتحل إلى مدينة فاس، فدخلها في المحرم من سنة سبع وسبعمئة، فأقام بها إلى السابع من رجب فاتصل به

أن يوسف بن محمد بن أبي عياد قائدده على مدينة مراکش قد خرج عليه بها ودعا لنفسه، وقتل عاملها الحاج المسعود فخرج إلى حربه، وقدم له بين يديه أبا الحجاج يوسف بن عيسى الحشمي، ويعقوب بن أزناج في جيش من خمسة آلاف فارس، فالتقوا به بعدوة أم الربيع، فهزموه فرجع إلى مراکش مهزومًا، فقتل جمعًا من الروم بها وسبى ديارهم وخرج منها إلى أغمات، فلم يستقر بها، ففر إلى جبال هسكورة، فنزل على خلوف بن هنو من أشياخ الهساكر دخليًا عليه، فغدر به وثقفه بالحديد، ودخل أمير المسلمين أبو نبت حضرة مراکش في غرة شعبان من سنة سبع وسبعمئة، فسبق إليه يوسف بن محمد بن أبي عياد يرفل في القيود فقتله بالسوط ثم قطع رأسه وبعث به إلى مدينة فاس فطوف به فيها، وقتل ممن كان معه من ووزرائه على فعله نيفًا على ستمئة رجل، وأجمع عليهم من باب الرب من أبواب مراکش إلى برج دار الحرة عزونة، وقتل في أغمات كذلك، ثم خرج في الخامس عشر من شعبان المذكور إلى بلاد تامزورت برسم قتل السكسيوي وقبائل ركنة، فوصل تامزورت فنزل بها فبعث إليه السكسيوي بالبيعة والهدية والضيافة، وبعث قائدده يعقوب بن أزنج في جيش من ثلاثمئة فارس إلى بلاد حاحة برسم غزو قبائل ركنة، ففروا بين يديه حتى دخل بلاد القبلة فكرّ راجعًا إلى تامزورت، فوجد أمير المسلمين عامر ينتظره بها فأعلمه بهدنة البلاد وسكونها، فارتحل أمير المسلمين إلى مراکش، وذلك يوم السبت مهلّ شهر رمضان المعظم من سنة سبع وسبع مئة، فدخل مراکش وأقام بها إلى الخامس عشر من رمضان المعظم المذكور، فخرج إلى ربط الفتح فأخذ على بلاد صنهاجة وجاز وادي أم الربيع من مجاز كتامة في القوارب لكبره، ثم ارتحل إلى بلاد تامسنا، فتلقت بها وفود العرب من الخلط والعاصم وبني جابر وغيرهم من عرب حشم برسم السلام عليه والوداع له، فلم يأذن لأحد منهم في الانصراف، فسار حتى نزل بظاهر مدينة أنفا ثم دعا بأشياخ العرب فثقف منهم ستين شيخًا بسجن أنفا،

وضرب أعناق عشرين رجلاً من أشrafهم الذين كانوا يقطعون الطريق في تلك الجهات وصلبهم على أسوار أنفا، وارتحل إلى رباط الفتح فدخله في اليوم السابع والعشرين من رمضان المعظم فعيد هنالك عيد الفطر، وقتل به ثلاثين رجلاً من أشرار العرب وفتاكهم فصلبهم على أسوار العدوتين، وارتحل برسم غزو عرب رياح الذين هم بأبي الطويل والجزائر وفحص أزغار، وذلك في الخامس عشر من شهر شوال من سنة سبعمئة، فغزاهم وقتل منهم خلفاً كثيراً وسبى ذراريهم وأموالهم وارتحل إلى مدينة فاس فدخلها في نصف من ذي القعدة من العام المذكور، فأقام بها حتى عيّد عيد الأضحى وخرج برسم حصار سبتة، وذلك في الرابع عشر من ذي الحجة فسار حتى وصل قصر عبد الكريم، فأقام عليه ثلاثة أيام حتى استوفت عليه قبائل مرين وعرب البلاد، وارتحل إلى قلعة علودان فدخلها بالسيف، ودخل بلد الدمنة فقتل الرجال وسبى النساء والذرية والأموال، وسبب فعله ذلك بهم أنهم كانوا قد بايعوا عثمان بن أبي العلا ودلوه على الطريق وجوزوه على بلادهم وبالغوا في تضييفه وإكرامه ودخلوا معه قصر عبد الكريم وبلاد أصيلا ونهبوا كثيراً من أموالها.

ولما فرغ من أهل جبل علودان ارتحل فدخل طنجة في أول محرم عام ثمان وسبعمئة، ثم أخذ في بعث الجيوش إلى أحواز سبتة وشرع في بناء تطاوين، وبعث الفقيه أبا يحيى بن أبي الصبر رسولا إلى ابن الأحمر يطلب منه أن يتخلا له عن سبتة، وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر ما يأتي به رسوله فعاجله الموت، فتوفي بها في يوم الأحد الثامن من شهر صفر من سنة ثمان وسبعمئة، وحمل إلى شالة من رباط الفتح فدفن بها مع سلفه - رحمهم الله ورضي عنهم - فوّلّى بعده أخوه سليمان بن الأمير عبد الله.

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي الربيع سليمان بن الأمير عبد الله بن أمير المسلمين أبي يعقوب

هو سليمان أمير المسلمين بن الأمير عبد الله بن أمير المسلمين أبي يعقوب بن
أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق.

كنيته: أبو ربيع.

أمه: أم ولد مولدة من تاليد العرب، اسمها: زيانة.

كاتبه: كاتب أخيه الفقيه أبو محمد بن أبي مدين، وهو المدبر لدولته إلى أن قتله
فاستكتب مكانه أخاه الحاج الفقيه أبا عبد الله بن أبي مدين.

وزراؤه: إبراهيم بن عيسى اليرتاسني، وعبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي، بويع
له بقصبة طنجة بإدارة كتاب أخيه ووزرائه، وذلك يوم الإثنين التاسع من شهر صفر
سنة ثمان وسبعمئة وستة، وعمره يوم بويع تسع عشرة سنة وأربعة أشهر، فثقف عمه
على المعروف بابن رزيجة؛ فإنه كان قد دعا لنفسه وبايعه كثير من الناس فقبض عليه
وثقفه، وبعث إلى من بمحلة تطاوين التي كانوا بها فأقبلوا إليه ففرق الأموال في
قبائل بني مرين والعرب والأندلس والأغزاز والروم وارتحل إلى مدينة فاس، فخرج
ابن أبي العلا من سبتة في جمع عظيم من رجاله وبنيه وإخوانه ليضرب على محلته ليلاً،
فاختبر بذلك أمير المسلمين سليمان، فارتحل تلك الليلة في نصف الليل، فالتقى به
وهو راحل فكانت بينهما حرب عظيمة فرّ فيها ابن أبي العلا وأسر ولده وجماعة من
عسكره وقتل آخرون، وسار أمير المسلمين أبو الربيع إلى مدينة فاس فدخلها في يوم
الحادي عشر من ربيع الأول من سنة ثمان وسبعمئة؛ فأقام بها مولد النبي - صلى الله
عليه وسلم - وفرق الأموال وتهندت له البلاد واستقامت له الأحوال وخدمته
الملوك، وجدد الصلح مع صاحب تلمسان، وفي آخر يوم من شهر ذي قعدة قتل

أمير المسلمين أبو الربيع.

كاتبه: القائم بأمره الفقيه أبا محمد عبد الله بن أبي مدين، فكانت أيام كتابته له وقيامه بأمره تسعة أشهر واحد وعشرين يومًا، وفي غرة ذي الحجة من سنة ثمان وسبعمئة، بعث أمير المسلمين قائده تاشفين بن يعقوب الوطاسي إلى حصار سبتة، فسار إليها في جيش عظيم من بني مرين، ففتحها عنوة بأمر أشياخها وموافقة عمتها، فإنهم كرهوا إمارة الأندلس عليهم، وكان فتحها يوم الإثنين العاشر من شهر صفر من سنة تسع وسبعمئة، وكتب تاشفين بالفتح إلى أمير المسلمين أبي الربيع سليمان، وبعث إليه بأشياخها، وقبض على قائدها المتولي بحربها الشيخ أبي علي عمر بن رحوا بن عبد الحق.

وفي شهر جمادي الأولى في أول يوم منه عزل أمير المسلمين سليمان قاضيه أبا غالب المغيلي عن قضاء مدينة فاس، وقدم على قضائها الفقيه المشاور أبا الحسن عليّ المعروف بالصغير، وفي شهر جمادي المذكور صالح أمير المسلمين أبو الربيع ابن الأحمر علي أن يعطيه الجزيرة ورندة وأحوازها.

وطلب منه العروسة أخت ابن الأحمر، فأنعم له بذلك كله، وبعث له الأموال والخليل برسم الجهاد مع ثقته عثمان بن عيسى اليرباني.

ثم دخلت سنة عشر وسبعمئة، وفي جمادي الأولى منها هرب وزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي وقائد الروم غنصالو إلى رباط تازا، وكانوا قد اتفقوا مع جماعة من بني مرين على خلع سليمان أمير المسلمين، وتولية عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق، ولما استقروا برباط تازا بعثوا إلى عبد الحق، فأتاهم فبايعوه، وتسمى بأمير المسلمين، وأخذ في جمع الجيوش، وكتب إلى خاصته من بني مرين والعرب

والأشياخ يدعوهم إلى بيعته، فاتصل الخبر بأمير المسلمين، فخرج نحوه إلى رباط تازا، وقدم بين يديه يوسف بن عيسى الحشمي وعمر بن موسى الفودودي في جيش كثيف من بني مرين، وسار هو في أثرهم فلما اتصل خبر قدومه بعبد الحق القائم، وبرحوا بن يعقوب علموا أن ما لهم بحربه طاقة، وكانوا يظنون أنه لا يخرج إليهم ففروا ليلاً عن رباط تازا، وساروا إلى تلمسان ثم جازوا منها إلى الأندلس، فدخل أمير المسلمين رباط تازا، فقتل به ناساً ممن كان بايع عبد الحق، وتابعه على أمره وأقام بها فاعتراه المرض، ونفذ الأجل وتوفي بها ليلة الأربعاء بين العشاءين منسلخ جمادي الآخرة من سنة عشر وسبعمئة، ودفن ليلته تلك بصحن جامعها.

فكانت أيامه سنتين وخمسة أشهر، وكانت كلها غالية لم يزل الزرع بها والسعر مرتفعاً إلا أنها كانت معمشة وغليت في أيامه الأملاك، فبيعت الدار في أيامه بألف دينار ذهباً واتخذ الناس في أيامه الدواب والكساء والحلي، وأوثقوا في البنيان بالزلج والرخام والنقوش وغير ذلك.

قال المؤلف عفا الله عنه:

بل كان هروب الوزير رحوا بن يعقوب وغيره من حضرة فاس في يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة عشر وسبعمئة والباقي هو الله لا غيره.

**الخبر عن دولة ملك الزمان وسراج الأوان الإمام السعيد والخليفة
الرشيد أمير المسلمين أبي سعيد**

هو الخليفة في وقتنا هذا وهي سنة ست وعشرين وسبعمئة، أطل الله أيامه وخلد ملكه ونصر أعلامه وأمضى في الأعداء سيوفه وأقلامه

وهو عبد الله عثمان أمير المسلمين بن أمير المسلمين المنصور بالله القائم بالحق
أبي يعقوب بن عبد الحق.

كنيته: أبو سعيد.

لقبه: السعيد بفضل الله.

أمه: حرة، اسمها: عائشة بنت أمير عرب الخلط أبي عطية مهلهل بن يحيى
الخلطي.

مولده يوم الجمعة التاسع والعشرين لجمادي الآخرة من سنة خمس وسبعين
وستمئة.

صفته: أبيض اللون، أزهر معتدل القد، مليح الوجه، جميع الصورة حسن
القبول وطيء الأكتاف متواضعا في ذات الله تعالى، شديداً في حدود الله شقيقاً رفيقاً
جواداً كريماً متوقفاً في سفك الدماء ذا إناءة وحلم ودهاء وسياسة وعقل، وهو أحد
السوابق من الملوك.

وزراءه: في أول دولته أبو الحجاج يوسف بن عيسى الحشمي، وأبو عليّ عمر بن
موسى بن عمران الفودودي، ثم توفياً فاستوزر بعدهما أبا عبد الله محمد بن أبي بكر
بن عليّ، وأبا سالم إبراهيم بن عيسى اليرناقي.

كتابه: الحاج الفقيه أبو عبد الله بن أبي مدين، وأبو المكارم منديل الكناني.

ثم توفياً فكتب له بعدهما الفقيه الأجل الكاتب الأبرع الأقتل أبو محمد عبد
المهيمن بن الفقيه المعالم الأوحده المجتهد المشاور القاضي الأعدل أبو عبد الله محمد

الحضرمي، والفقيه الكاتب أبو محمد صالح بن حجاج، والفقيه الكاتب أبو العباس بن الفراق.

قضاته: الفقيه القاضي أبو عمران الزرهوني ثم الفقيه الأجل العالم الأوحـد المشاور المجتهد قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن الشيخ، والفقيه العالم المحدث المجتهد الصالح الورع المبارك قاضي الجماعة أبو الحسن بن أبي بكر المليلي.

أطبأؤه: أبو عبد الله بن الغليط الإشبيلي، ثم ولده الوزير أبو الحسن الوزير أبو محمد غالب الشقوري.

ببيع له بالخلافة ليلة الأربعاء منسلخ جمادي الآخرة من سنة عشرة وسبع مئة بقصبة رباط تازا، بايعه الوزراء والكتّاب والأشياخ والخاصة، وكتب الأوامر في تلك الليلة وصرف بها البريد للبلاد يخبر بوفاة سليمان وبيعته، وبعث ولده الأمير الأجل المبارك الأسعد الأكمل أبا الحسن عليّ إلى مدينة فاس، فوصلها في وقت العصر من يوم الأربعاء غرة شهر رجب من سنة عشر وسبعمئة، فدخل المدينة الجديدة دار ملكهم وقرار سلطانهم فملكها وضبط أمورها وحوز القصر وبيوت الأموال والخزائن والسلاح وأمر بضرب الطبول والمفرحات، ولما أصبح أمير المسلمين أبو سعيد بيوم الأربعاء غرة رجب المذكور ركب من قصر رباط تازا إلى خارج المدينة في زي عجيب واحتفال عظيم فجددت له البيعة هنالك فبايعه جميع قبائل مرين وكافة العرب والأندلس والأغزاز والقادة والروم، ثم بايعه الفقهاء والقضاة والصلحاء وأشياخ المدينة ببيعة عامة من جميع الناس رضاءً من قلوبهم وطيباً من نفوسهم واختياراً له على من سواه، وذلك لما جمع الله عز وجل فيه من خلال السنية والأخلاق السرة الرضية والشيم المحمودة والمآثر الجميلة المشهودة والحزم والدين والشفقة على سائر المسلمين والفضائل الوافية والسياسة الشافية التي

لا تصلح الخلافة إلا بها، فكان كما قيل:

أتته الخلافة منقادة إليه تجري أذيالها
 فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
 ولورامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
 ولما تمت له البيعة واستقام له الأمر فرق الأموال على قبائل بني مرين والعرب
 والأجناد ووصل الفقهاء والصلحاء وأحسن إلى الخاصة والعامة، وجلس ناظرًا في
 أمر بلاده ورعيته، وباشرها بنفسه فرفع المظالم عن الناس وحطّ المغارم، وسرّح أهل
 السجون إلا أهل الفساد في الأرض وأصحاب الدماء ومن حبس في حق شرعي،
 وأمر بتفريق الصدقات في الضعفاء وأهل التستر من البيئات، ورفع عن أهل مدينة
 فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة، فأصلح حال الناس في
 أيامه وكثرت الخيرات بأيديهم، فالأيام بدولته مشرفة، والخيرات بها متتابعة متسعة
 والرعية بحمد الله تعالى بها في جناب رطب ومشرب عذب وظل ظليل وحرز كفيل
 وخير كامل وصلاح شامل، فلياليهم مشرفة بواسم وأيامهم أعيد ومواسم، وذلك
 بيمين خلافة أمير المسلمين وبركة إمامته إلى أخذ الحق فيها أمامه ومملك يده زمامه
 وأجرى عليه في القوى والضعيف أعماله وأحكامه، ورفع لدعوة المظلوم حجابها،
 وفتح على الضعفاء بالخير بابها ووطأ للرعية بالحلم أكنافه وأفاض عليهم عدله وأبدل
 أنصافه أطال الله عمره وخلد ملكه، وفي العشر الآخر من شهر رجب خرج أمير
 المسلمين أبو سعيد من رباط تازا إلى مدينة فاس فدخلها، وقدمت عليه وفود البلاد
 بها وفقهاؤها وقضاؤها وأشياخها للسلام والتهنئة بالخلافة، فأقام بمدينة فاس وعيد
 بها عيد الفطر.

وفي شهر ذي القعدة خرج أمير المسلمين أبو سعيد من مدينة فاس إلى رباط
 الفتح برسم التفقد لأموار رعيته والنظر في أحوال بلاد الأندلس، وأنشأ الأجفان

لغزو العدو، فوصلها في آخر ذي القعدة فعيّد فيها عيد الأضحى وأصلح أحوالها، وأمر بإنشاء الأجفان في بحرهما ورجع إلى مدينة فاس، وفي سنة إحدى عشرة وثلثمائة أمير المسلمين أبو سعيد أخاه الأمير أبا البقاء يعيش الجزيرة ورندة وأحوازها من بلاد الأندلس، وأمر بإنشاء الأجفان بدار صناعة مدينة سلا برسم غزو الروم، وكان بهذه السنة قحط، واستسقى الناس له فخرج أمير المسلمين أبو سعيد إلى إقامة السنة للاستسقاء فمشى على قدميه حتى وصل المصلّى والفقهاء والصلحاء والقراء بين يديه بالذكر كلّ ذلك تضرّعاً لله تعالى وتواضعاً لجلاله وإقامة لسنة نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - وقدم بين يدي نجواه بالصدقات، وفرق الأموال لذوي الحاجات، وكان خروجه للاستسقام المذكور في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان المكرم من سنة إحدى عشرة وسبعمائة، ثم سار في يوم السبت السابع والعشرين من شعبان المذكور في جميع جيوشه حتى وصل إلى جبل الكندرتين لزيارة قبر الرجل الصالح أبي يعقوب الأشقر نفعا الله به فدعا الله تعالى هنالك فقبل الله تعالى دعوته ورحمه ورحم بلاده وأغاث عباده، ولم يرجع من هنالك إلا بالمطر العام لجميع البلاد، ولم يزل أمير المسلمين أبو سعيد أطل الله أيامه من أول خلافته إلى الآن يعود المرضى ويشهد جناز الصلحاء ويعطي الشرفاء والفقهاء والصلحاء في كل سنة الأموال والخلع والزرع وجميع ما يحتاجون إليه.

وفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة خرج على أمير المسلمين أبي سعيد عدي بن هنوا العسكري ببلاد هسكورة، فخرج إليه أمير المسلمين حتى نزل على قلعته فأمكنه الله تعالى منه، فدخلت بلاده ونهبت أمواله وثقف بالحديد وقدمه بين يديه موثقاً مغلولاً إلى مدينة فاس فثقفه بها.

وفي سنة أربع عشرة وسبعمائة في شهر ذي الحجة منها عقد أمير المسلمين أبو

سعيد لولده الأمير الأجلّ أبي عليّ عمر على بلاد القبلة ومدينة سجلماسة وبلاد درعة وما وإلى ذلك إلى الصحراء، وفوّض له الأمر في خراجها وجميع أمورها، وفي هذه السنة وليّ أمير المسلمين أبو سعيد القائد يحيى بن الفقيه أبي طالب العزفي مدينة سبتة، وفوّض له في جميع أمورها وعقد له على أسطولها.

وفي سنة خمس عشرة وسبعمئة أمر أمير المسلمين أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من مدينة الجزيرة ثم بعد ذلك دار الستارة بالمدينة المذكورة، وفيها سار أمير المسلمين إلى حضرة مراکش، فأقام بها مدة حتى أصلح أحوالها وعاد إلى مدينة فاس.

وفي سنة ستّ عشرة وسبعمئة نزل القائد يحيى جبل الفتح وحاصرها أيامًا حتى دخل رباطهن، وفيها أفسد يحيى المذكور أجفان الروم بحر الزقاف وقت قائدها جرناق وكان أذية على المسلمين فروّح الله منه الناس.

وفي شوال من هذه السنة ثار يحيى العزفي بسبتة، وتمنع عن الوصول إلى حضرة أمير المسلمين أبي سعيد، فبعث إليه أمير المسلمين وزيره أبا سالم إبراهيم بن عيسى اليرناني فسار إليه في جيش عظيم فنزل عليه وحاصره مدة.

وفي سنة تسع عشرة وسبعمئة خرج أمير المسلمين أبو سعيد من مدينة طنجة يرسم النظر في أمر سبتة وبلاد الأندلس، وفيها أمر ببناء الجيوب برأس قبور الأغزاز فبنيت، وأقام أمير المسلمين بمدينة طنجة أيامًا ثم رجع إلى فاس.

وفي شعبان من سنة عشرين وسبعمئة خرج أمير المسلمين أبو سعيد إلى مراکش، فأقام بها مدة حتى سكن أحوالها وتفقد أمور رعيّتها وضبط ثغورها واستخلف عليها جندون بن عثمان ورجع إلى مدينة فاس، ودخلها في آخر سنة عشرين وسبعمئة.

وفي سنة إحدى وعشرين تحرّك أمير المسلمين أبو سعيد إلى رباط تازا، فأقام بها مدة من ثلاثة أشهر وأمر ببناء حصن تاوريت وسكّنه بالرجال والرماة والخيّل، وفي هذه السنة أمر ببناء سور مدينة أجرسيف، وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمئة في ربيع الآخر منها خرج أمير المسلمين إلى مراكش فوصلها وأقام بها مدة حتى سكن أحوالها وضبط أمورها ورجع إلى مدينة فاس.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة كان القحط الشديد بالمغرب فاستسقى الناس، وخرج أيضًا أمير المسلمين أبو سعيد إلى إقامة سنة الاستسقاء، وقدم بين يديه الصدقات.

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمئة وصدرًا من خمس وعشرين كانت المجاعة بالمغرب وارتفع السعر في جميع البلاد وغلت الأسعار في الأمصار فوصلت صفحة القمح تسعين دينارًا ومد القمح خمسة عشر درهمًا والدقيق أربع أواق بدرهم، واللحم خمس أواق بدرهم، والزيت أوقيتان بدرهم، والعسل كذلك، والسمن أوقية ونصف بدرهم، وعدمت الخضره بأسرها دام ذلك من أول سنة أربع وعشرين إلى شهر جمادى الأولى من سنة خمس وعشرين، فأغاث الله عز وجل بلاده ورحم عبده وصنع أمير المسلمين في هذه الشدة والمجاعة مع رعيته ما لا يقدر أحد أن يصفه فتح إهراء الزرع وأخرجه للبيع، أربعة دراهم للمد، والناس يبيعونه ستة عشر درهمًا، وأمر بالصدقات فلم يزل يفرقها بطول أيام الشدة يمر بها الثقات على حرائر المدينة يعطونها لأهل التستر والبيئات وذوي الفاقة والحاجة، كل على قدر حاله وضعفه، وكانوا يأخذونها من دينار ذهبًا إلى ربع دينار، ولم يزل من يوم ولايته إلى الآن يأمر بالجبات والأكسية في زمان الشتاء والقر للضعفاء والمساكين وأمر بمن مات من الغرباء أن مجهز ويكفن في الثياب الجديدة، ويقام بحق دفنهم أحسن قيام،

نفعه الله تعالى بفعله، وأبقى على المسلمين أيامه بمنّه وفضله.

الخبر عن الأحداث التي كانت بالمغرب من سنة ست وخمسين وستمئة إلى ما ذكرنا منه

فيها بويع أمير المسلمين أبو يوسف رحمه الله بمدينة فاس، وفي سنة ثمان وخمسين وستمئة غدر النصارى مدينة سلا، فدخلوها بالسيف، وكان بها الحادث العظيم، وذلك ثاني يوم من شوال.

وفي سنة تسع وخمسين كانت وقعة أم الرجلين بين أمير المسلمين أبي يوسف رحمه الله وجيش المرتضى.

وفي سنة ستين نزل أمير المسلمين أبو يوسف مدينة مراکش، وحاصر بها المرتضى.

وفي سنة إحدى وستين توفي الأمير عبد الله بن أمير المسلمين أبي يوسف على مدينة مراکش، وفيها كان ظهور النجم أبي الذوائب وذلك يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة، وبقي يطلع كل ليلة في وقت السحر نحو من شهرين.

وفي هذه السنة جاز المجاهدون من بني مرين إلى الأندلس برسم الجهاد تطوعاً، وكان رئيسهم عامر بن إدريس والحاج التاهرتي.

وفي سنة ثلاث وستين هدم الفقيه العزفي سور مدينة أصيلا وقصبتها.

وفي سنة أربع وستين قدم أبو دبوس على أمير المسلمين أبي يوسف بحضرة مدينة فاس مستنصراً به.

وفي سنة ست وستين سرق بيت المال من قصبة مدينة فاس، سرق منها اثني عشر ألفا دينار وثلاثة قلادة.

وفي سنة سبع وستين توفي الشيخ الصالح أبو مروان الوجانسي بمدينة سبتة. وفيها غزا أمير المسلمين المستنصر عرب رياح فقتلهم وغنم أموالهم وسبي أبناءهم ورجع إلى تونس، وفيها وصلت هدية المنصور ملك أفريقية إلى أمير المسلمين أبي يوسف - رحمه الله - مع أبي زكرياء بن صالح.

وفي سنة ثمان وستين في شهر محرم منها دخل الروم مدينة العرايش، وتشمس من مراسي العدو وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأموالها وأضرموها فيها نارًا وارتحلوا عنها في أجفانهم، وفيها قتل طلحة بن عليّ يعقوب بن عبد الله وفي يوم عيد الأضحى منها ولد الأمير مسعود بن أمير المسلمين أبي يعقوب وتوفي بطنجة.

وفي سنة ست وستين كانت غزوة أمير المسلمين أبي يوسف ليغمراسن بن زيان بوادي تلغ.

وفي سنة ثمان وستين أعطى عمر بن منديل المغراوي ليغمراسن بن زيان مدينة مليانة فملكها، وفي يوم الأربعاء بعد صلاة العصر ليلة الخميس الخامس والعشرين لذي الحجة من سنة ثمان وستين وستمئة نزل ملك الأفرنش الرومي مدينة تونس في مراكب لا تحصي، فنزلوا في البرّ وملكوا حصن القلعة وهم في أمم لا يعلم لهم عدد، ومقعدهم في البحر متصل، فكانت خيل الروم أربعين ألف فارس ورماتها مئة ألف رام ورجالها مئة ألف ألف راجل، وفي الخامس والعشرين من ربيع الآخر من سنة تسع وستين توفي ملك الأفرنش للمحاصر لتونس فأقلعوا عنها لسبب وفاته، وفي غرة المحرم من سنة ثمان وستين ملك أمير المسلمين أبو يوسف حضرة مراكش

فدخلها.

وفى سنة تسع وستين غزا أمير المسلمين أبو يوسف عرب درعة، وفيها نافق محمد بن إدريس وموسى بن رحو بجبل أمركو من أحواز فاس، فحاصروهم ثلاثة أيام وأذعنوا للطاعة فعفى عنهم.

وفى سنة سبعين فى رجب منها غزا أمير المسلمين أبو يوسف بلاد يغمراسن بن زيان فهزمه بوادي أيسلي وفرّ إلى تلمسان مهزومًا فحاصره بها مدة.

وفى سنة ثلاث وسبعين فتح أمير المسلمين أبو يوسف مدينة سجلماسة.

وفى سنة اثنتين وسبعين فتح مدينة طنجة وفيها نزل سبتة، وفى سنة أربع وسبعين فى ثالث شوال منها أسست المدينة الجديدة على وادي فاس، وفى ثاني شوال قتل اليهود لعنهم الله بمدينة فاس، وفيها جاز أمير المسلمين الجواز الأول إلى الأندلس برسم الجهاد، وفيها ملك من بلاد الأندلس الجزيرة وطريق ورندة، وفيها كانت غزوة دون نونة، وفيها بنيت قصبة مكناسة.

وفى سنة خمس وسبعين أمر أمير المسلمين أبو يوسف ببناء البلد الجديدة على الجزيرة الخضراء.

وفى سنة ست وسبعين جاز أمير المسلمين أبو يوسف الجواز الثانى، وفيها توفى الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة بمالقة.

وفى سنة سبع وسبعين من ربيع الأول منها نزلت أفروطة الروم على الجزيرة الخضراء، وفيها وصلت هدية يحيى الرانق ملك أفريقية، وفى شعبان منها غدر عمر بن عليّ عامل أمير المسلمين أبي يوسف على مالقة وباعها لابن الأحمر، وفى شوال

منها نافق مسعود بن كانون السفيناني، وفيها بني الجامع بالمدينة الجديدة من فاس.

وفي سنة ثمان وسبعين أفسد المسلمون الأفروطة المحاصرة للجزيرة.

وفي سنة إحدى وثمانين جاز أمير المسلمين أبو يوسف الجواز الثالث فسار حتى جاز البرة وغزا طليطلة.

وفي سنة ثمانين قبلها غزا أمير المسلمين أبو يوسف يغمراسن بن زيان فهزمه بالملعب من أحواز تلمسان.

وفي سنة تسع وسبعين توفي زيان بن عبد القوي الجيني، وفيها كان الجراد ببلاد المغرب وأكل جميع زروعها فلم يترك منها مخضراً، وفيها علق الثريا بالجامع الجديد من فاس ووزنها سبع قناطير وخمسة عشر رطلاً وعدد كيسانها مائتا كاس وسبعة وثمانون كاساً، وفيها نزل الرئيس أبو الحسن بن أشقيلولة والفتش مدينة غرناطة.

وفي سنة ثمانين توفي عبد الواحد السكيسوي الثائر بأحواز مراکش، وفيها توفي مسعود بن كانون العزفي.

وفي سنة إحدى وثمانين توفي الزنداجي بسبته، وفيها جاز أمير المسلمين أبو يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد واجتمع مع الفتش على صخرة عباد وأعطاه تاجه رهناً في مئة ألف دينار، وفيها هرب الملتد الرومي من قصبة فاس، وفيها دخل ابن أبي عمارة مدينة تونس، وفيها توفي يغمراسن بن زيان، وفي سنة اثنتين وثمانين في شهر المحرم منها مات الفتش الأحول أخزاه الله.

وفيها تولى تاشفين بن عبد الواحد الأمير ببلاد الأندلس.

وفى سنة ثلاث وثمانين وصل ماء غبولة إلى قصبة رباط الفتح، وفيها مات ابن أبي عمارة بتونس فتوَّى أبو حفص، وفى السادس من شهر رمضان منها توفت الحرة أم العزّ بنت محمد بن حازم برباط الفتح فدفنت بشالة.

وفى محرم من سنة خمس وثمانين توفَّى أمير المسلمين أبو يوسف -رحمه الله- وفيها عملت الناعورة الكبرى بوادي فاس.

وفى سنة سبع وثمانين وستمئة فتح الملك المنصور صاحب الديار المصرية مدينة طرابلس الشام.

وفى سنة تسع وثمانين غزا أمير المسلمين أبو يعقوب مدينة تلمسان وحاصرها، وفيها توفَّى الشيخ الصالح أبو يعقوب الأشقر بالكندريين ببلاد بني بهلول، وفى سنة تسعين نزل الفنش طريقاً فحاصرها حتى ملكها، وفيها فتح الملك الأشرف مدينة عكة، وفيها أمر أمير المسلمين أبو يعقوب بعمل المولد وتعظيمه فى جميع بلاده.

وفى سنة اثنتين وتسعين فتح حصن تزوطا.

وفى سنة ثلاث وتسعين فرغ من بناء جامع تازا وعملت الثرية بجامعها وزنتها اثنان وثلاثون قنطاراً من النحاس، وعدد كيساتها خمسمئة كأس وأربعة عشر كأساً وأنفق فى بناء الجامع وعمل الثرية من المال ثمانية آلاف دينار ذهباً.

وفى سنة سبع وتسعين نزل أمير المسلمين أبو يعقوب مدينة تلمسان فحاصرها أياماً ورجع إلى حضرة فاس.

وفى سنة اثنتين وسبعمئة مات ابن الأحمر ملك الأندلس، وفى سنة ست وسبعمئة توفَّى أمير المسلمين أبو يعقوب رحمه الله.

وفي سنة ثمان وسبعمئة توفى أمير المسلمين أبو ثابت بقصبة طنجة.

وفي سنة عشر منسلخ جمادي الآخرة منها توفى أمير المسلمين أبو الربيع وفيها بويح أبو سعيد عثمان أمير المسلمين، وفي سنة عشرين وسبعمئة أمر أمير المسلمين أبو سعيد أيده الله ببناء المدرسة بحضرة فاس الجديدة فبنيت أتنقن بناء، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس عليها الرباع والمشاجر كل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ورجاء مغفرته، وفي سنة إحدى وعشرين وسبعمئة أمر الأمير الأجلّ الموفق الصالح أبو الحسن عليّ بن أمير المسلمين أبي سعيد بن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق - رضي الله عنهم - ببناء المدرسة غربي جامع الأندلس من مدينة فاس، فبنيت على أتم بناء وأحسنه وأتقنه، وبني حولها سقاية ودار وفندق لسكنى طلبة العلم، وجلب الماء إلى ذلك كله من عين بخارج باب الحديد من أبواب مدينة فاس، وأنفق في ذلك أموالاً جلية تزيد على مئة ألف دينار، ورتب فيها الفقهاء للتدريس، وأسكنها بطلبة العلم وقراءة القرآن، وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة، وحبس عليهم رباعاً كثيرة نفعه الله تعالى بقصده.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة في شهر المحرم منها جرت العين الموالية للمشرق من عيون صنهاجة بدم عبيط من نصف وقت العصر إلى ثلث الليل وعادت إلى حالها، وفي شهر مهل شعبان منها أمر أمير المسلمين أبو سعيد أيده الله بنصره ببناء المدرسة العظيمة بإزاء جامع القرويين شرّفه الله بذكره، فبنيت على يد الشيخ المبارك أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، ووقف أمير المسلمين على تأسيسها ومعه الفقهاء والصلحاء حتى أسست وشرع في بنائها - نفعه الله بذلك وأجزل ثوابه عليه - فجاءت آية من الدهر لم يبين مثلها ملك قط قبله وأجرى بها ماء

العين الغزير، ورتب الفقهاء لدراسة العلم وأسكنها للطلبة، وقدم فيها إمامًا ومؤذنًا وخدمة يقومون بأمرها، وأجرى على الكل المرتبات، واشترى الأملاك، ووقف لها احتسابًا لله تعالى ورجاء ثوابه، فأسأل الله تعالى أن يجازيه بأحسن ما عمل في جنات الخلد مع الحور الحسان، وأن تعطينا بركة جميع ما كتبنا هاهنا من العلماء والصالحين والأشياخ وأهل الفضل والإحسان في المال والذرية وفي الدين والدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين.

**كُمل كتاب الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب
وتاريخ مدينة فاس بحمد الله وحسن عونه**